محمد إبراهيم مصطفى
«أبو إسلام»

التيسير ما أزلي

في تفسير القرطبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

obeikandi.com

اسم الكتاب: التيسير مأربي
في تفسير القرطبي
اسم المؤلف: محمد إبراهيم مصطفى
(أبو إسلام)
الطبعة: الأولى. ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -
عابدين - القاهرة
٢٩٦ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١٣٢٠٠
الترقيم الدولي: I.S.B.N.
977-17-7173-6

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر). غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أى جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأى وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أي نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر أو من المؤلف.

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher or from the author.

تطلب جميع المؤلفات من مكتبة وهبة
أو من المؤلف مدينة الشيخ زايد - الحى الأول - المجاورة
الثانية ٧١ شارع ٢٧ شقة ٤ أمام سنتر اللؤلؤة.
تليفون ٣٨٥٢١٠١٦ - موبايل ٠١٠/١٤٦٧٠٣٩

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

الأزهر
مجمع البحوث الاسلامية
الادارة العامة
للبحوث والتأليف والترجمة

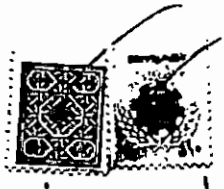

السيد / محمد إبراهيم مصطفى (أبو إسلام)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ وبعد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : التيسير مأزي ج تفسير القرطبي .... تأليف : حسيار تم ...... ٢٨١ صفحة

نفيد بأن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعه على نفقتكم الخاصة .

مع التأكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة .

والله الموفق ،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

مدير عام
ادارة البحوث والتأليف والترجمة

تحريرا في / / ١٤ هـ
الموافق / / ١٩ م

محمود شبه

يعتمد
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية
إبراهيم عطا الفيومي

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التيسير

الحمدُ للهِ حمدًا يرضاه ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ ، الذي فضّله على سائرِ خلقِه واصطفاه ، سيدِنا محمدٍ صلى اللهُ وسلم عليه وعلى آلِه وصحبِه ومن والاه .

أما بعد ، فإنني أحمدُ اللهَ تعالى وأشكرُه أنْ ألهمَني للقيام بهذا العملِ الصالحِ ، وأعانني ووفقني ، فإليه سبحانه يرجعُ الفضلُ كلُه ، فلولا عونُه وتوفيقُه لما استطعتُ القيامَ بهذا العمل ، ولا حققتُ ذلك الأملَ ، الذي كان يراودُني ، ويلحُ على خاطري وأذني . وإنّ ما دفعني إلى هذا العملِ أمران ، أنْ ينالَني من الله تعالى الرحمةُ والرضوانُ ، وأنْ يكونَ فيه نفعٌ وهدايةٌ لبني الإنسان .

فقد هالَني ما أصبحَ الناسُ فيه من النسيانِ ، وضعفِ الإيمانِ ، وصراعِهم على كلِّ ما هو زائلٌ وفانٍ ، وبُعدُهم عن تَدَبُّرِ القرآنِ ، فالإيقاعُ السريعُ للعصرِ الذي نعيشُه ، قد أخذَ الناسَ في سباقٍ محمومٍ ، وأصبحَ عاملُ الوقتِ حاسمًا في كلِّ الأمورِ ، ولم يَعُدْ لدى الكثيرين من الوقتِ أو الصبرِ ما يعينُهم على قراءةِ المجلداتِ الضخمةِ والعديدةِ التي تتناولُ تفسيرَ القرآنِ الكريمِ ، وقد ساهمَتْ الوسائلُ الحديثةُ للتكنولوجيا وأعمالُ الكمبيوترِ في تضييقِ الوقتِ ، مع أنّ الإنسانَ المؤمنَ لو استعمل عقلَه وإيمانَه لوجدَ في هذه الوسائلِ الحديثةِ ما يساعدُه على استيعابِ المطلوبِ من تَدَبُّرِ آياتِ اللهِ وأحاديثِ الرسولِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فما أكثرَ برامجِ الكمبيوترِ التي تزخرُ بمختلفِ التفاسيرِ ومصادرِ الأحاديثِ النبويةِ الشريفةِ ، ولكنّ إنسانَ هذا العصرِ

يريد أنْ يحصلَ على كلِّ شيءٍ مُرَكّزًا وفي أبسطِ الصّورِ ، وفي أقلِ وقتٍ ممكنٍ ، ولما وجدتُ أنّ معظمَ التفاسيرِ عبارةٌ عن مجلداتٍ ضخمةٍ لا تشجّعُ إنسانَ هذا العصرِ على قراءتِها ، ولما رأيتُ أيضًا رغبةً دفينةً في صدورِ الكثيرين من الناسِ للعودةِ إلى اللهِ واللجوءِ إليه هربًا من بحارِ الَحيْرةِ والقلقِ الذي يسيطرُ على عقولِهم ، وحاجتَهم الشديدةَ إلى الراحةِ والطمأنينة ، أحسستُ أنّ ضالتَهم المنشودةَ لنْ يجدوها إلاّ في كتابِ اللهِ الذي قال فيه تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء:٨٢)

ولهذا رأيتُ أنْ أقومَ بعملٍ أرجو أنْ يقرّبَني إلى اللهِ تعالى أولاً ، بما أقضيه من أوقاتٍ في ذكرِ اللهِ في هذا العملِ الجليلِ ، وأنْ أساعدَ في تيسيرِ وتسهيلِ الأمرِ على الحائرين والراغبين في العودةِ إلى ربِهم ، وذلك بأنْ أقومَ بعمليةِ تلخيصٍ كبيرٍ لتفسيرِ القرآنِ الكريمِ ، حتى يسهلَ البحثُ فيه ، وتَدبُّرُ معانيه ، والاستفادةُ مما فيه ، في زمنٍ أصبحتْ المادةُ فيه هي عصبُ الحياة . وأعتقد أنّ الناسَ في هذا العصرِ في أشدِّ الحاجةِ إلى معرفةِ الله ، سواءً كانوا مؤمنين أو غيرَ مؤمنين ، حتى علماء الطبيعةِ الذين كانوا ينسبون كلَّ شيءٍ للطبيعةِ ، أصبح الكثيرون منهم يراجعون أنفسَهم ، حتى لو لم يفصحوا عن ذلك صراحةً ، وقد أدرك معظمُهم أنه لابدَّ من وجودِ قوّةٍ عظيمةٍ لها سيطرةٌ على مكوّناتِ هذا الكونِ ، وهم حائرون في ماهيّةِ هذه القوّةِ القادرةِ على إدارةِ هذا الكونِ ، وليس أدلَّ على ذلك الإدراكِ من كلمةِ عالمٍ مثل "إينشتين " الذي قال : " إني أدينُ بأعمقِ الإجلالِ والتعظيمِ لهذه القدرةِ العجيبةِ التي تُفصحُ عن نفسِها في كلِّ جُزَيْءٍ من جُزَيْئَاتِ الكونِ " . وقال العالمُ " الفريد كاستلر" الحائزُ على جائزةِ نوبل لأبحاثه في تفاعلِ الضوءِ والمادّة ، ومؤلفُ كتاب "هذه المادّةُ العجيبةُ " ، سُئِلَ عن أبحاثه في المادّة فقال : " كلما ازدادَ تعمّقُنا في دراسةِ تركيبِ المادّة تضاءلَ اقتناعُنا بأننا عرفناها ، فإنّ جزءًا منها يظلُ وسوف يظلُ إلى الأبدِ بعيدًا عن تعليلِنا ، لأنه مَخْفيٌّ عنا ، مَخْفِيٌّ بمن ؟ مَخْفِيٌّ بالمبدأِ الأوحدِ ،

بالنظامِ الكونيِّ ، اللهِ ربّما . وهكذا حيرةُ العلماءِ اليومَ ! كلما توغّلوا في العلمِ اقتربوا من الدّينِ ومن الخشوعِ للهِ حتى وإنْ كانوا لا يشعرون . وكما يُقالُ : إنّ القليلَ من العلمِ قد يُورِّثُ الإلحادَ ، والكثيرَ منه يؤدّي إلى الإيمانِ ، ويبدو أنّ الكثيرين من العلماءِ اليومَ يَرَوْنَ ما رَأى " إينشتين " و" كاستلر " ويتواضعون بمقدارِ ما زادَ من علمِهم ، ويؤمنون بما قال تعالى :﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٨٥). وما وصلَ إليه العلماءُ في القرنِ العشرين يُنبئُ بأنّ القرنَ الحاديَ والعشرين سيصلُ فيه مستوى العلمِ الحديثِ إلى درجةٍ من النفوذِ والكشفِ عن أسرارِ الكونِ تجعلُ علماءَه أقربَ الناسِ إلى بابِ اللهِ والدّينِ . وقد كان رأيُ المؤرِّخِ المعروفِ " أرنولد توينبي" أنّ القرنَ الحاديَ والعشرين سوف يكونُ قرنَ الدّينِ ، ولكن ليس الدّينَ الفارغَ المتهوّسَ القائمَ على الجهلِ والدّجلِ والسفسطةِ ، بل الدّينَ المتعمِّقَ المبنيَّ على العلمِ والعقلِ ، ذلك العقلُ الذي هو أعجبُ ما خلقَ اللهُ من مخلوقاتٍ ، والذي قال ربُّ العزّةِ فيه : (ما خلقتُ خلْقًا أعجبَ منك) «الترمذي» ، ولقد كرّم اللهُ تعالى العلمَ بتكريمِ العلماءِ في قولِه تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾ (فاطر:٢٨) . وقد يعتقدُ بعضُ المفسّرين من المتبحّرين في علومِ الدّينِ أنّ المقصودَ بالعلماءِ هنا هم علماءُ الدّينِ ، ولكن ما وردَ في القرآنِ من الإشاراتِ العديدةِ إلى ضرورةِ التأمّلِ في الكونِ وفي خَلْقِ السمواتِ والأرضِ ، وما فيها من مخلوقاتِ اللهِ ، يدلُّ على أنّ العلماءَ المتخصصين في هذه البحوثِ العلميةِ هم ممن تشملُهم أيضًا الآيةُ الكريمةُ . وقد كرّر " إينشتين " قولَه "إنّ الطبيعةَ لا تلعبُ بالنّردِ"، يقصدُ أنّ كلَّ شيءٍ فيها وراءَه تدبيرٌ مُحْكَمٌ . أما الكلامُ عن علماءِ الدّينِ أو عن الواصلين بالنورِ الإلهيِّ فلم تكنْ هنا بالطبعِ حاجةٌ إليه . فهم مؤمنون بطبعِهم لأنّ مجالَهم هو الإيمانُ بالقلبِ والوجدانِ وهو مما لا يحتاجُ إلى دليلٍ .

ولا أستطيعُ أنْ أدّعيَ الفضلَ لنفسي في إخراجِ هذا العملِ ، إذ الفضلُ للهِ تعالى أولاً ثم لأبي عبدِ اللهِ محمدِ بنِ أحمد الأنصاريِّ القرطبيِّ ، صاحبِ تفسيرِ القُرْطُبيِّ ،

الجامعِ لأحكامِ القرآنِ ، الذي أعدّه في عددٍ من المجلداتِ .. ثـم للكاتبِ الراحـلِ " توفيق الحكيم " الذي وفقه اللهُ تعالى في محاولةِ التلخيصِ في الكتابِ الذي أخرجه وسَمَّاه (مختارُ تفسيرِ القرطبيِّ) وقسّمَهُ إلى أبوابٍ تتناولُ قضايا التوحيدِ والعقائدِ والعباداتِ ، في حوالي تسعمائةِ صفحةٍ .. ورأيتُ أنّ هذا العددَ من الصفحاتِ قد يثقُلُ على القرّاءِ بسببِ ما ذكرتُه آنفاً من متغيراتِ العصرِ وسرعةِ إيقاعه ، وضيقِ الوقتِ ، وأردتُ أنْ أخلّصَ التلخيصَ الذي توصلَ إليه الأستاذُ توفيق الحكيم ، إلى أكبرِ قدرٍ ممكنٍ بحيث يسهلُ على القارئِ تناولُه واستيعابُه ، ورأيتُ أنّ هناك الكثيرَ مما لا يهتمُ الكثيرون به أثناءَ قراءتهم للتفاسيرِ،كالإطنابِ في التفسيراتِ اللغويةِ والنحويةِ ، والاستشهادِ بالأبياتِ الشعريةِ ، وتكرارِ العباراتِ والفقراتِ في شرحِ الآياتِ ، والإسهابِ في ذكرِ أسماءِ الرواةِ ومصادرِ الإسنادِ ، مما لا يهمُّ قرّاءَ هذا العصرِ ، إلاّ بينَ المتخصّصين .. وأنا لا أنكرُ أهميةَ اللغةِ والإعرابِ ، ومصادرِ الإسنادِ ، ولكني رأيتُ أنّ المهتمين بهذه الأمورِ أمامَهم المجلداتُ وكثيرٌ من التفاسيرِ ، إنْ أرادوا أنْ يتعمقوا وفي المعلوماتِ أنْ يدققوا ، أما من تضيقُ بهـم الأوقـاتُ ، ولا يُطيقون طولَ القراءاتِ ، فهم يريدون فهمَ القضايا الكبيرةِ ، في عباراتٍ يسيرةٍ.. ولهذا عكفتُ بعونِ اللهِ تعالى على (مختارِ تفسيرِ القرطبيِّ) ورحتُ أستبعدُ الكثيـرَ مما فيه من قضايا اللغةِ والإعرابِ ، وأقلّلُ من الإسـهابِ والإطـنابِ ، وأحْـذفُ ما يمكنُ حَذْفُه من الأبياتِ الشعريةِ ، والأنسابِ الشخصيةِ ، و "بعضِ" الأسانيدِ المرويّةِ ، وأغيّرُ بقدرِ الإمكانِ من تنافرِ الألفاظِ والصعبِ من المفرداتِ ، ومع ذلك فقد حرصتُ على تشكيلِ آخرِ الكلماتِ لإظهارِ موقعِها من الإعرابِ لإرضاءِ من يُرضيه ذلك ، كما حرصتُ على تشكيلِ بعضِ الكلماتِ بكلِّ حروفِها كي لا يختلطَ الأمرُ على قرّائِها في فهمِ المرادِ بها . وقد وجدتُ في بعضِ الموضوعاتِ أنّها تحتاجُ إلى مزيدٍ من الشّرحِ والإيضاحِ مما اضطرّني إلى الاستعانةِ بالتفسيرِ المفَصّلِ للقرطبيِّ لإعطاءِ الموضوعاتِ ما تحتاجُهُ من التفصيلِ المناسبِ مع مراعاةِ التلخيصِ والتيسيرِ،

كما وجدتُ أنّ بعضَ الموضوعاتِ قد تكرّرَ فيها شرْحُ بعضِ القضايا التي ذُكِرَتْ في موضوعاتٍ سابقةٍ ، فرأيتُ ألاّ أعيدَ تكرارَها ، وقد يُلاحظُ القرّاءُ ذلك في بعضِ الأبوابِ الأخيرةِ ، ولهذا فإني ألتمسُ المعذرةَ فيما اختصرتُهُ من تفصيلاتٍ .كما وجدتُ بعضَ الكلماتِ الصَّعبةِ دونَ بيانٍ لمعناها فاستعنتُ بالقاموسِ العربيِّ ، لتوضيحِ معانيها بقدرِ الإمكانِ ، وللتيسيرِ على القرّاءِ أيضًا ، وضّحْتُ معنى الكلمةِ الصعبةِ بجوارِها مباشرةً ، وكذلك بيّنتُ رقمَ كلِّ آيةٍ واسمَ السّورةِ بجانبِ الآيةِ ، حتى لا يتشتتَ ذهنُ القارئِ بالبحثِ عن معاني الكلماتِ في أسفلِ الصفحاتِ . ولمساعدةِ القرَّاءِ في التمييزِ بين الآيةِ القرآنيةِ والأحاديثِ النبويةِ وضعتُ كُلَّ آيةٍ بين هذين القوسين ﴿..﴾ ، ووضعتُ الحديثَ الشَّريفَ بين هذين القوسين (..) ، كما حرصتُ على أنْ تكونَ كتابةُ الآياتِ الكريمةِ والأحاديثِ الشريفةِ بالبُنْطِ الكبـيرِ ، تمييزًا لَها عن بقيّةِ الكلامِ . ورأيتُ أنْ أستعينَ على إنجازِ هذا العملِ بالكتابةِ بنفسي على جهازِ الكمبيوترِ ، حتى لا أتعرّضَ لمضايقاتِ الأخطاءِ المطبعيةِ ، واللغويةِ والمراجعاتِ في مختلفِ الطبعاتِ ، وقد استغرقَ هذا العملُ شهورًا طويلةً ، وجهودًا جهيدةً ، ولكنه أتاحَ لِيَ أسعدَ الفرصِ لأكونَ في معيَّةِ اللهِ ، أسبحُ في ظلِّها في ذكرِ اللهِ ، وما أعظمَها من سعادةٍ أحسُّها ، ولا أستطيعُ بدقةٍ وصفَها أو شرحَها ..

وقد نصحني أحدُ أصحابِ الفضيلةِ بالإدارةِ العامةِ للبحوثِ بالأزهرِ الشريفِ بضرورةِ ذِكْرِ مصادرِ تخريجِ جميعِ الأحاديثِ الشريفةِ ، ولما رجعتُ إلى " مختارِ التفسيرِ" الذي كتبه الأستاذُ توفيقُ الحكيمُ ، والذي لخـّصتُه بدوري ، وجدتُ أنَّ معظمَ الأحاديثِ الشريفةِ قد ذُكِرَتْ دون ذِكْرِ مصادرِ التخريجِ ، مما اضطرّني إلى الرجوعِ إلى مصادرِ الأحاديثِ التسعةِ ، حيث قرأتُ ما يزيدُ على أربعةِ آلافِ حديثٍ ، مما ساعدني على ذِكْرِ مصادرِ الأحاديثِ في هذا " التيسيرِ " . ولقد كانتْ عمليةُ البحثِ عن مصادرِ تخريجِ الأحاديثِ عبارةً عن رحلةٍ روحيةٍ ، في معيّةِ اللهِ تعالى ورسولِهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم ، ما أجملَها من رحلةٍ تمنّيتُ ألاّ تنتهيَ !

وإنْ لم أكنْ من المتخصصين في علومِ الدينِ ، إلاّ أني أرجو أنْ أكونَ من عبادِ اللهِ المهديين ، الذين يفتحُ اللهُ للإيمانِ قلوبَهم ، ويشرحُ بالمعرفةِ صدورَهم ، ويزيدُ بالتقوى علومَهم ، وسبحان الذي قال : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة:٢٨٢)

كما أني أرجو بهذا الكتابِ أنْ أنالَ صلاةَ الملائكةِ عليَّ ، كما قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (مَنْ صلَّى عليَّ في كتابٍ لم تَزَلِ الملائكةُ يُصَلُّون عليه مادام اسمي في ذلك الكتابِ) "البخارى".

وأرجو ألاّ يُؤاخذَني القرَّاءُ إذا ما وجدوا في هذا العملِ قصورًا أو سَهْوًا ، فقد اجتهدتُ بقدرِ توفيقِ اللهِ تعالى لي، وصدقَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إذ يقولُ: (إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان)"ابن ماجه" ، ويقولُ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٨٥) وسبحانَ من له الكمالُ كلُّه والعلمُ كلُّه والأمرُ كلُّه .

وإني لأرجو أنْ يكونَ هذا العملُ ضمنَ ما ذكَرَه الحبيبُ المصطفى صلى اللهُ عليه وسلم عن العلمِ الذي يُنْتَفَعُ به .. وأسألُه تعالى أنْ يجعلَ هذا العملَ بعيدًا عن الرِّياءِ ، أو طلَبًا للثناءِ ، وأنْ يكونَ خالصًا لوجهِ اللهِ تعالى ، وابتغاءَ مرضاتِه ، فلستُ في حاجةٍ إلى ثناءِ العبادِ ، بل حاجتي هي إرضاءُ خالقِ العبادِ .

وقد اجتهدتُ ألاّ يكونَ الهدفُ الربحَ الماديَّ ، ولكن كان هدفي الأجرَ الإلهيَّ ، وأنْ يكونَ جَهدي ضمنَ الصدقاتِ الجاريةِ ، وأنْ ينفعَني اللهُ به يومَ الحسابِ ، حيث لا تنفعُ الأحسابُ ولا الأنسابُ ، وحيث نرجو عفوَ اللهِ الكريمِ ، يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلاّ من أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ . وصلى اللهُ على سيدِنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه والتابعين ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين .

الفقيرُ إلى الله

محمد إبراهيم مصطفى

(أبو إسلام)

(١) كيفيةُ التلاوةِ لكتابِ اللهِ تعالى :

روى البُخَارِيُّ عن قتادةَ قال : سألتُ أنسًا عن قراءةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال : كان يَمُدُّ مَدًّا [إذا] قرأ بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ، يمدُّ بسمِ اللهِ ويمدُّ بالرحمنِ ويمدُّ بالرحيمِ . وروى الترمذيُّ عن أمِّ سلمةَ قالتْ :كان يُقَطِّعُ قراءتَه ، يقولُ : " الحمدُ للهِ ربِ العالمين " ثم يقفُ " الرحمنِ الرحيمِ " ثم يقفُ ، وكان يقرؤُها " مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ " . ورُوِيَ عنه صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : (أحسنُ الناسِ صَوْتًا مَنْ إذا قرأ رأيتَه - بمعنى عَلِمتَهُ - يخشى اللهَ تعالى) . ورُوِيَ عن زيادٍ النُّمَيْرِيِّ أنه جاء مع القرّاءِ إلى أنسِ بنِ مالكٍ فقيل له : اقرأ . فرفع صوتَه وطَرَّب ، فكشف أنسٌ وجهَه وقال : يا هذا ، ما هكذا كانوا يفعلون ! وعن قيسِ بنِ عُبَادٍ أنه قال : كان أصحابُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يكرهون رفعَ الصَّوْتِ عند الذِّكْرِ . وعن سعيدِ بنِ المُسَيَّبِ أنه سمع عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ يؤمُّ الناسَ فطرّبَ في قراءتِه ، فأرسل إليه يقولُ : أصلحَك اللهُ ! إنَّ الأئمةَ لا تقرأُ هكذا . فترك عمرُ التطريبَ . وسُئِلَ مالكٌ عن النَّبْرِ - رَفْعُ الصَّوْتِ - في قراءةِ القرآنِ فأنكَر ذلك وكَرَّهَهُ كراهةً شديدةً ، وأنكَر رفعَ الصّوتِ به . وسُئِلَ ابنُ القاسمِ عن الألحانِ في الصلاةِ فقال : لا يُعجبُني ، وقال : إنما هو غناءٌ يتغنون به ليأخذوا عليه الدراهمَ . وأجازتْ طائفةٌ رفعَ الصوتِ بالقرآنِ والتطريبَ به ، لأنه إذا حُسِّنَ الصّوتُ به كان أوقعَ في النفوسِ وأسمعَ في القلوبِ ، واحتجّوا بقولِه عليه السلامُ (زَيِّنُوا القرآنَ بأصواتِكم) وبقولِه عليه السلامُ (ليس منّا من لم يتغنَّ بالقرآنِ) "ابو داود" وبقولِ أبي موسى للنبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم : لو أعلمُ أنك تستمعُ لقراءتي لحَبّرتُه لك تحبيرًا ، وبما رواه عبدُ اللهِ بنُ مُغَفَّلٍ قال : قرأ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عامَ الفتحِ في مسيرٍ له سورةَ الفتحِ على راحلته فرجَّع في قراءتِه . وأمّا ما احتجّوا به من الحديثِ الأولِ فليس على ظاهره ، وإنما هو من بابِ المقلوبِ ، أي زَيِّنُوا أصواتَكم بالقرآنِ . قال الخطّابيُّ ورواه البراءُ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم

قال : (زَيِّنُوا القرآنَ بأصواتكم) أي الْهَجُوا بقراءته واشغلوا به أصواتَكم واتّخذوه شعارًا وزينةً . وعن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ : (زَيِّنُوا أصواتَكم بالقرآن) . ومعاذَ اللهِ أنْ يُتَأَوَّلَ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أنْ يقولَ : إنّ القرآنَ يُزَيَّنُ بالأصواتِ أو بغيرِها ، فمَنْ تأوّلَ ذلك فقد واقعَ أمرًا عظيمًا أنْ يُخْوِجَ القرآنَ إلى من يُزيِّنُه ، وهو النورُ والضّياءُ لمن أُلْبِسَ بَهجتَه واستنار بضيائه . ورَوَى مُطَرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ عن أبيه قال : رأيتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يُصلّي ولصدرِه أزيزٌ " صوت الرّعد وغَلَيَان القِدْر "كأزيزِ المِرْجَلِ " من البكاءِ . وفي هذا الخبرِ بيانٌ واضحٌ على أنّ المرادَ بالحديث التّحزُّنُ ، وعضَّدُوا هذا أيضًا بما رواه الأئمّةُ عن عبدِ اللهِ قال : قال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم (اقرأْ عليَّ) فقرأتُ عليه سورةَ النساءِ حتى إذا بلغتُ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء:٤١) فنظرتُ إليه فإذا عيناه تدمعان . وليس في هذا دليلٌ على القراءةِ بالألحانِ والترجيعِ فيها .

(٢) قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ :

(إنّ هذا القرآنَ أُنْزِلَ على سبعةِ أحْرُف فاقرءوا ما تَيَسَّرَ منه)

عن أُبَيّ بنِ كعبٍ : أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم كان عند أضاةِ بني غفارٍ"غدير صغير" " فأتاه جبريلُ عليه السلامُ ، فقال : إنّ اللهَ يأمرُك أنْ تقرأَ أُمّتُك القرآنَ على حرْفٍ ، فقال : (أسألُ اللهَ معافاتَه ومغفرتَه وإنّ أمّتي لا تُطيقُ ذلك) . ثم أتاه الثانيةَ فقال : إنّ اللهَ يأمرُك أنْ تقرأَ أُمّتُك القرآنَ على حرفين . فقال : (أسألُ اللهَ معافاتَه ومغفرتَه وإنّ أمّتي لا تُطيقُ ذلك) . ثم جاءه الثالثةَ فقال : إنّ اللهَ يأمرُك أنْ تقرأَ أُمّتُك القرآنَ على ثلاثةِ أحرفٍ ، فقال : (أسألُ اللهَ معافاتَه

ومغفرتَه وإنّ أُمّتي لا تُطيقُ ذلك) ثم جاءه الرابعةَ فقال : إنّ اللهَ يأمرُك أنْ تقرأَ أُمّتُك القرآنَ على سبعةِ أحرفٍ فأيُّما حرفٍ قرءوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذيُّ عنه قال : لَقِيَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم جبريلَ فقال : (يا جبريلُ إني بُعثْتُ إلى أُمّةٍ أُمّيةٍ منهم العجوزُ والشيخُ الكبيرُ والغلامُ والجاريةُ والرجلُ الذي لا يقرأُ كتابًا قـطُّ فقال لي يا محمدُ إنّ القرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرفٍ) . وقد اختلف العلماءُ في المرادِ بالأحرفِ السبعةِ على عدّةِ أقوالٍ ، منها وهو الذي عليه أكثرُ أهلِ العلمِ كسفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ وعبدِ اللهِ بنِ وهبٍ والطبريُّ والطحاويُّ وغيرِهم : أنّ المرادَ سبعةُ أوجهٍ من المعاني المتقاربةِ بألفاظٍ مختلفةٍ ، نحو أَقْبِلْ وتعالَ وهلُمّ . قال الطحاويُّ : وأبْيَنُ ما ذُكِرَ في ذلك حديثُ أبي بكرةٍ قال : جاء جبريلُ إلى النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم فقال اقرأ على حرفٍ ، فقال ميكائيلُ : استزِدْهُ ، فقال : اقرأ على حرفين ، فقال ميكائيلُ : استزِدْه ، حتى بلغ إلى سبعةِ أحرفٍ ، فقال : اقرأ فكُلٌّ شافٍ كافٍ إلاّ أنْ تُخلَطَ آيةُ رحمةٍ بآيةِ عذابٍ ، أو آيةُ عذابٍ بآيةِ رحمةٍ . وقال الزهريُّ : إنما هذه الأحرفُ في الأمرِ الواحدِ ليس يختلفُ في حلالٍ ولا حرامٍ . وقال الطحاويُّ : إنما كانتْ السعةُ للناس في الحروفِ لعجزِهم عن أخذِ القرآنِ على غيرِ لغاتِهم ، لأنّهم كانوا أُمّيين لا يكتبُ إلاّ القليلُ منهم ، فلما كان يشقُّ على كلِّ ذي لغةٍ أنْ يتحوّلَ إلى غيرِها من اللغاتِ ، ولو أراد ذلك لم يتهيّأْ له إلاّ بمشقةٍ عظيمةٍ ، فوُسِّعَ لهم في اختلافِ الألفاظِ إذا كان المعنى متّفقًا فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتبُ ، وعادتْ لغاتُهم إلى لسانِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقدروا بذلك على تحفّظِ ألفاظِه ، فلم يَسَعْهم حينئذٍ أنْ يقرءوا بخلافِها . قال ابنُ عبدِ البرِّ : فبَانَ بهذا أنّ تلك السبعةَ الأحرفَ إنما كانَ في وقتٍ خاصٍ لضرورةٍ دعَتْ إلى ذلك ، ثم ارتفعَتْ تلك الضرورةُ فارتفع حكمُ هذه السبعةِ الأحرفِ ، وعاد ما يُقرأُ به القرآنُ على حرفٍ واحدٍ .

(٣) جَــمعُ القــرْآنِ :

كان القرآنُ في زمنِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم متفرّقًا في صدورِ الرجالِ ، وقد كتب الناسُ في صُحُفٍ وفي جَرِيدٍ وفي لِخَافٍ " حجارةٌ بيضٌ رقاقٌ " وظُرَرٍ " حجَرٌ له حرفٌ كحرفِ السكّينِ " وفي خزَفٍ وغيرِ ذلك . فلما استحرّ " اشتد وكثر " القَتْلُ بالقرّاءِ يومَ اليمامةِ في زمنِ الصدّيقِ رضي اللهُ عنه ، وقُتِلَ منهم فيما قيل سبعُمائة ، أشار عمرُ بنُ الخطابِ على أبي بكرٍ الصدّيقِ رضي اللهُ عنهما بجمعِ القرآنِ مخافةَ أنْ يموتَ أشياخُ القراءةِ ، كأُبَيٍّ وابنِ مسعودٍ وزَيْدٍ ، فندبا زيدَ بنَ ثابتٍ إلى ذلك ، فجمعه غيرَ مرتَّبِ السُّورِ بعد تعبٍ شديد ، فكانتْ الصحفُ التي جمعها عند أبي بكرٍ حتى توفّاه اللهُ ثم عند عمرَ حتى توفّاه اللهُ ثم عند حفصةَ بنتِ عمرَ وقيل إنّ حُذَيْفَةَ رضي اللهُ عنه عندما دخل المدينةَ ، دخل على عثمانَ بنِ عفّانٍ رضي اللهُ عنه قبل أنْ يدخلَ بيتَه ، فقال : أَدْرِكْ هذه الأُمّةَ قبل أنْ تَهلكَ ! قال : في ماذا ؟ قال : في كتابِ اللهِ ، إني حضرتُ غزوةَ " أرمينيّةَ " ، وجمعتُ ناسًا من العراقِ والشامِ والحجازِ ووجدتُ أنّ الناس اختلفوا في القراءاتِ بسببِ تفرّقِ الصحابةِ في البلدانِ ، واشتدّ الأمرُ في ذلك ، فأشفقتُ مما رأيتُ ، وقال : إني أخشى عليهم أنْ يختلفوا في كتابِهم كما اختلف اليهودُ والنصارى . فأرسلَ عثمانُ إلى حفصةَ : أنْ أرسلي إلينا بالصُحُفِ ننسخُها في المصاحفِ ثم نردُّها إليك ، فأرسلَتْ إليه فأمر زيدَ بنَ ثابتٍ وعبدَ اللهِ بنَ الزبيرِ وسعيدَ بنَ العاصي وعبدَ الرحمنِ بنَ الحارثِ فنسخوها في المصاحفِ ، وردّ عثمانُ الصحفَ إلى حفصةَ ، وأمر بما سوى ذلك من القرآنِ في كلِّ صحيفةٍ أو مصحفٍ أنْ يُحْرَقَ ، وكان هذا من عثمانَ بعد أنْ جمع المهاجرين والأنصارَ وجِلّةَ أهلِ الإسلامِ وشاورهم في الأمرِ فاتفقوا على جمعه وقال عليٌّ ابــنُ أبي طالبٍ كرّم اللهُ وجهَه : يامعشرَ الناسِ ، اتّقوا اللهَ وإيّاكم والغُلُوَّ في عثمانَ . وقولِكم : حرّاقُ المصاحفِ ، فواللهِ ما حرقها إلاّ عن ملإٍ منّا أصحــابَ محمــد صلى اللهُ عليه وسلم وقال : لو كنتُ الواليَ وقتَ عثمانَ لفعلتُ في المصاحف مثل

الذي فعل عثمانُ . قال أبو الحسنِ بنُ بطّالٍ : وفي أمرِ عثمانَ بتحريقِ المصاحفِ حين جمعَ القرآنَ جوازُ تحريقِ الكتبِ التي فيها أسماءُ اللهِ تعالى ، وأنّ ذلك إكرامٌ لها وصيانةٌ عن الوطءِ بالأقدامِ ، وطرحِها في ضياعٍ من الأرضِ . وعن أنسِ بنِ مالكٍ قال : جَمَعَ القرآنَ على عهدِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أربعةٌ كلُّهم من الأنصارِ : أُبَيُّ بنُ كعبٍ ، ومعاذُ بنُ جبلٍ ، وزيدُ بنُ ثابتٍ ، وأبو زيدٍ .

(٤) ترتيبُ سورِ القرآنِ وآياته وشكلُه ونَقْطُه وتحزيبُه وتعشيرُه وعددُ حروفِه وأجزائه وكلماته وآيه :

يُحتمَلُ أنْ يكونَ ترتيبُ السورِ على ما هي عليه اليومَ في المصحفِ كان على وجهِ الاجتهادِ من الصحابةِ . وذكر ذلك مكيٌّ رحمه اللهُ في تفسيرِ سورةِ "براءة " وذكر أنّ ترتيبَ الآياتِ في السّورِ ووضعَ البسملةِ في الأوائلِ هو من النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، ولما لم يأمرْ بذلك في أولِ سورةِ " براءة " تُرِكَتْ بلا بسملةٍ ، وهذا أصحُّ ما قيل في ذلك . وذكر أبو بكرٍ الأنباريُّ في كتابِ الرّدِّ أنّ اللهَ تعالى أنزل القرآنَ جملةً إلى سماءِ الدنيا ، ثم فُرِّقَ على النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم في عشرين سنةً ، وكانتْ السّورةُ تنزلُ في أمرٍ يحدثُ ، والآيةُ جوابًا لمستخبرٍ يسألُ ، ويوقِفُ جبريلُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم على موضعِ السّورةِ والآيةِ ، فاتّساقُ السّورِ كاتّساقِ الآياتِ والحروفِ ، فكلُّه عن محمدٍ خاتمِ النبيين عليه السلامُ ، عن ربِّ العالمين ، وكان عليه الصلاةُ والسلامُ يأمرُهم بأنْ يضعوا السورةَ موضعَ كذا وكذا من القرآنِ ، وكان جبريلُ عليه السلامُ يقفُ على مكانِ الآياتِ . وعن عائشةَ رضي اللهُ عنها قالتْ للذي سألها : لا يضرُّك أيّةُ قرأتَ قبلُ ، وقد كان النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يقرأُ في الصلاةِ السّورةَ في ركعةٍ ، ثم يقرأُ في ركعةٍ أخرى بغيرِ السّورةِ التي تليها . وقد قيل إنّ علّةَ تقديمِ المدنيِّ على المكّيِّ هو أنّ اللهَ تعالى خاطب

العربَ بلغتِها ، وما تعرفُ من أفانين خطابها ومحاورتها . فلما كان فنٌّ من كلامهم مبنيًا على تقديمِ المؤخّرِ وتأخيرِ المقدّمِ ، خوطبوا بهذا المعنى في كتاب الله الذي لو فقدوه من القرآنِ لقالوا : ما بالَه عَرِيَ من هذا البابِ الموجودِ في كلامنا المستحْلَى من نظامنا ؟!

وأما شكلُ المصحفِ ونَقْطُه فرُوِيَ أنّ عبدَ الله بنَ مروانَ أمر به وعمله ، فتجرّد لذلك الحجاجُ بواسطٍ وجدّ فيه وزاد تحزيبَه ، وأمَرَ وهو والي العراقِ الحسنَ ويحيى ابنَ يعمرٍ بذلك ، وألّف إثرَ ذلك بواسطٍ كتابًا في القراءاتِ جمع فيه ما رُوِيَ من اختلافِ الناسِ فيما وافق الخطَّ ، ومشى الناسُ على ذلك زمانًا طويلاً ، إلى أنْ ألّفَ ابنُ مجاهدٍ كتابَه في القراءاتِ . وقيل إنّ أوّلَ من نَقّط المصحفَ هو أبو الأسود الدؤليّ ، كما قيل إنّ ابنَ سيرين كان له مصحفٌ نقّطَه له يحيى بنُ يعمرٍ .

وأما وضعُ الأعشارِ فقال ابنُ عطية : مرّ بي في بعض التواريخِ أنّ المأمونَ العباسيَّ أمر بذلك ، قادهم إلى عمله الاجتهادُ .

وأما عددُ حروفه وأجزائه فرَوَى سلامٌ أبو محمدٍ الحمانيّ أنّ الحجاجَ بنَ يوسفَ جمع القرّاءَ والحفّاظَ والكُتّابَ ، فقال : أخبروني عن القرآنِ كلّه كم من حرفٍ هو . قال : وكنتُ فيهم ، فحسبنا فأجمعنا على أنّ القرآنَ ثلاثُمائة ألفِ حرفٍ وأربعون ألفَ حرفٍ وسبعُمائةِ حرفٍ وأربعون حرفًا وقال : فأخبروني إلى أيِّ حرفٍ ينتهي نصفُ القرآنِ ، فإذا هو في الكهفِ ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ في الفاءِ . قال : فأخبروني بأثلاثه ، فإذا الثلثُ الأوّلُ رأسُ مائةٍ من براءة ، والثلثُ الثاني رأسُ مائةٍ و إحدى ومائةٍ من طسم الشعراءِ ، والثلثُ الثالثُ ما بقيَ من القرآنِ .قال : فأخبروني بأسباعه على الحروفِ ، فإذا أوّلُ سُبْعٍ في النساءِ ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ ﴾ في الدّالِ ، والسُّبعُ الثاني في الأعرافِ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ ﴾ في التاءِ ، والسُّبْعُ الثالثُ في الرّعدِ ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ ﴾ في الألفِ من آخرِ أكلها ، والسُّبعُ

الرابعُ في الحجِّ ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ في الألف ، والسُّبعُ الخامسُ في الأحزاب ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ في الهاء ، والسُّبعُ السادسُ في الفتحِ ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ في الواوِ ، والسُّبعُ السابعُ ما بَقِيَ من القرآنِ.

وأما عددُ آيِ القرآنِ فهو في قولِ إسماعيلَ بنِ جعفرٍ ستةُ آلافِ آيةٍ ومائتا آيةٍ وأربعُ عشرةَ آيةً . وقال الفضلُ : عددُ آيِ القرآنِ في قولِ المكّيين ، ستةُ آلافِ آيةٍ ومائتا آيةٍ وتسعُ عشرةَ آيةً . وقال محمدٌ بنُ عيسى : في قولِ الكوفيين ستةُ آلافِ آيةٍ ومائتا آيةٍ وثلاثون وستُ آياتٍ . قال محمدٌ : وجميعُ عددِ آيِ القرآنِ في عددِ البصريين ستةُ آلافٍ ومائتان وأربعُ آياتٍ ، وهو العددُ الذي مضى عليه سلفُهم حتى الآنَ . وأما كلماتُه فقال الفضلُ بنُ شاذانَ : جميعُ كلماتِ القرآنِ – في قولِ عطاءِ ابنِ يسارٍ – سبعةٌ وسبعون ألفًا وأربعُمائةٍ وتسعٌ وثلاثون كلمةً ، وحروفُه ثلاثُمائةِ ألفٍ وثلاثةٌ وعشرون ألفًا وخمسةُ عشرَ حرفًا . وقال عبدُ اللهِ بنُ كثيرٍ عن مجاهدٍ : هذا ما أحصينا من القرآنِ ، وهو ثلاثُمائةِ ألفٍ وثلاثةٌ وعشرون ألفًا وخمسةُ عشرَ حرفًا .

(٥) معنى السّورةِ والآيةِ والكلمةِ والحرفِ :

معنى السّورةِ في كلامِ العربِ الإبانةُ لها من سورةٍ أخرى وانفصالُها عنها ، وقيل سُمِّيَتْ بذلك لشرفِها وارتفاعِها كما يُقالُ لما ارتفع من الأرضِ سورٌ . وأما الآيةُ فهي العلامةُ ، بمعنى علامةِ لانقطاعِ الكلامِ الذي قبلَها من الذي بعدَه وانفصالِه . وقيل سُمِّيَتْ آيةً لأنّها عجبٌ يعجزُ البشرُ عن التكلّمِ بمثلِها .

وأما الكلمةُ فهي الصورةُ القائمةُ بجميعِ ما يختلطُ بها من الشبهاتِ أي الحروفِ ، وأطولُ الكلمِ في كتابِ اللهِ ما بلغ عشرةَ أحرفٍ ، نحوَ قولِه تعالى : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ (النور:٥٥) و ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ (هود:٢٨) وشبهِهما ، فأما

قولُه : ﴿ فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ (الحجر:٢٢) فهو عشرةُ أحرفٍ في الرسمِ وأحدَ عشرَ في اللفظِ . وأقصرُهنّ ما كان على حرفين نحو ما ، ولا ولك وله وما أشبه ذلك ، ومن حروفِ المعاني ما هو على كلمةٍ واحدةٍ مثل همزةِ الاستفهامِ وواوِ العطفِ ، إلاّ أنه لا يُنطَقُ به مفردًا . وقد تكونُ الكلمةُ وحدَها آيةً تامّةً نحوَ قولِه تعالى : ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ (الفجر:١) و ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ (الضحى:١) و ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴾ (العصر:١) وكذلك ﴿ الٓمٓ ﴾ (البقرة:١) و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ (الأعراف:١) و ﴿ طه ﴾ (طه:١) و ﴿ يسٓ ﴾ (يس:١) و﴿ حمٓ ﴾ (غافر:١) وذلك في فواتحِ السُّوَرِ، فأما في حشوِهنّ فلا . وقال أبو عمرٍو الدّانيّ : ولا أعلمُ كلمةً هي وحدَها آيةٌ إلاّ قولَه في الرحمنِ ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ (الرحمن:٦٤) لا غيرَ .

وأما الحرفُ فهو الشُّبهةُ القائمةُ وحدَها من الكلمةِ ، وقد يُسَمَّى الحرفُ كلمةً والكلمةُ حرفًا . قال أبو عمرو الدّاني : فإنْ قيل فكيف يُسَمَّى ما جاء من حروفِ الهجاءِ في الفواتحِ على حرفٍ واحدٍ نحو (ص) و (ق) و (ن) حرفًا أو كلمةً . قلتُ : كلمةً لا حرفًا ، وذلك من جهةِ أنّ الحرفَ لا يُسْكَتُ عليه ، ولا ينفردُ وحدَه في الصورةِ ، ولا ينفصلُ مما يختلطُ به ، وهذه الحروفُ مسكوتٌ عليها منفردةً منفصلةً كانفرادِ الكلمِ وانفصالِها ، فلذلك سُمِّيَتْ كلماتٍ لا حروفًا .

(٦) هل ورد في القرآنِ كلماتٌ خارجةٌ عن لغةِ العربِ أو لا ؟ :

لا خلافَ بين الأئمّةِ أنه ليس في القرآنِ كلامٌ مركّبٌ على أساليبِ غيرِ العربِ ، وأنّ فيه أسماءً أعلامًا لمن لسانُه غيرُ لسانِ العربِ ، كإسرائيلَ وجبريلَ وعمرانَ ونوحٍ ولوطٍ . وذهب القاضي أبو بكرٍ الطيبُ والطبريُّ وغيرُهما إلى أنّ القرآنَ عربيٌّ صريحٌ وما وُجِدَ فيه من الألفاظِ التي تُنْسَبُ إلى سائرِ اللغاتِ إنما اتُّفِقَ فيها أنْ تواردتْ اللغاتُ عليها فتكلّمتْ بِها العربُ والفُرْسُ والحبشةُ وغيرُهم ، وذهب

بعضُهم إلى وجودِها فيه وأنّ تلك الألفاظ لقلّتها لا تُخرجُ القرآن عن كونه عربيًا مبينًا ، ولا رسولَ اللهِ عن كونِه متكلّمًا بلسانِ قومِه . وقد كان للعربِ العاربةِ التي نزلَ القرآنُ بلسانِها بعضُ مخالطةٍ لسائرِ الألسنةِ بتجارات، وبرحلتيْ قريشٍ وبالسفر، فعَلِقَتْ العربُ بِهذا كلّه ألفاظًا أعجميّةً غيّرتْ بعضَها بالنّقصِ من حروفِها ، وجرتْ إلى تخفيفِ ثقلِ العُجْمَةِ ، حتى جرَتْ مجرى العربيِّ الصحيحِ ووقع بِها البيانُ ، وعلى هذا الحدِّ نزل بِها القرآنُ .

(٧) إعجازُ القرآنِ ، وشرطُ المعجزةِ وحقيقتُها :

المعجزةُ واحدةٌ ، معجزاتُ الأنبياءِ الدّالةُ على صدقِهم صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم ، وسُمِّيَتْ معجزةً لأنّ البَشرَ يعجزون عن الإتيانِ بمثلِها ، وشرائطُها خمسةٌ ، فإنْ اختلّ شرطٌ منها لا تكونُ معجزةً .فالشرطُ الأوّلُ : أنْ تكونَ مما لا يقدرُ عليها إلاّ اللهُ سبحانه وتعالى،كفلْقِ البحرِ، وانشقاقِ القمرِ، وما شاكلَها مما لا يقدرُ عليها البَشَرُ. والشرطُ الثاني : هو أنْ تخرِقَ العادةَ ، والذي يستشهدُ به الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ له وجهٌ يدلّ على صدقِه ، وذلك أنْ يقولَ : الدليلُ على صدقي أنْ يخرِقَ اللهُ العادةَ من أجلِ دعواي، فيقلبُ العصا ثعبانًا، ويشقُّ الحجرَ ويُخرِجُ من وسطِه ناقةً ، أو ينبعُ الماءُ من بينِ أصابعِه كما ينبعُه من العينِ ، أو ما سوى ذلك من الآياتِ الخارقةِ للعاداتِ ، التي ينفردُ بِها جبّارُ الأرضِ والسمواتِ . والشرطُ الثالثُ : هو أنْ يستشهدَ بِها مدّعي الرسالةِ على اللهِ عزّ وجلّ ، فيقولَ : آيتي أنْ يقلبَ اللهُ سبحانه وتعالى هذا الماءَ زيتًا أو يُحرِّكَ الأرضَ عند قوْلي لها: تزلزلي ، فإذا فعل اللهُ سبحانه وتعالى ذلك حصل المُتَحَدَّى به . والشرطُ الرابعُ : هو أنْ تقعَ على وَفْقِ دعوى المتحدِّي بِها المستشهدِ بكونِها معجزةً له ، وإنما وجب اشتراطُ هذا الشرطِ لأنه لو قال المدّعي للرسالةِ : آيةُ نبوّتِي ودليلُ حُجّتِي أنْ تنطقَ يدي أو هذه الدّابةُ ،

فنطقتْ يدُه أو الدّابةُ بأنْ قالتْ: كَذَبَ وهو ليس نبيًّا ، فإنّ هذا الكلامَ الذي خلقه اللهُ دالٌّ على كَذِب ذلك المدّعي للرسالة ، لأنّ ما فعله اللهُ لم يقعْ على وَفْقِ دعواه . وكذلك ما يُرْوَى أنّ مُسَيْلِمَةَ الكذّابَ لعنه اللهُ تَفَلَ في بئرٍ ليكثرَ ماؤُها فغارتْ البئرُ وذهب ما كان فيها من الماءِ ، فما فعل اللهُ تعالى من هذا ، كان من الآياتِ المكذّبة لمنْ ظهرتْ على يديه ، لأنها وقعتْ على خلافِ ما أراده المتنبئُ الكذّابُ . والشرطُ الخامسُ : ألاّ يأتيَ أحدٌ بمثلِ ما أتى به المتحدّي على وجهِ المعارضة ، فإنْ تمّ الأمرُ المتحدَّى به المستشهَدُ به على النبوّةِ على هذا الشرطِ مع الشروطِ المتقدّمة ، فهي معجزةٌ دالّةٌ على نبوّةِ من ظهرتْ على يده ، فإنْ أقام اللهُ تعالى من يُعارضُه حتى يأتيَ بمثلِ ما أتى به ، ويعملَ مثلَ ما عمل بطل كونُه نبيًّا ، وخرج عن كونه مُعْجِزًا ، ولم يدلّ على صدقه ، ولهذا قال المولى عزّ وجلّ : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴾ (الطور:٣٤) وقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ (هود:١٣). كأنه يقولُ : إنْ ادّعيتم أنّ هذا القرآنَ من نظمِ محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلم وعملِه فاعملوا عشرَ سُوَرٍ من جنسِ نظْمِه ، فإذا عجزتم بأسرِكم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظْمِه ولا من عمله .

لا يُقالُ: إنّ المعجزاتِ المقيّدةَ بالشروطِ الخمسة لا تظهرُ إلاّ على أيدي الصادقين، وهذا للمسيخِ الدجّالِ فيما رويتم عن نبيّكم صلى اللهُ عليه وسلم يظهرُ على يديه من الآياتِ العظامِ والأمورِ الجسامِ ، ما هو معروفٌ مشهورٌ فإنّا نقولُ : ذلك يدّعي الرسالةَ ، وهذا يدّعي الربوبيةَ وبينهما من الفرقانِ ما بين البُصَرَاءِ والعميانِ ، وقد قام الدليلُ العقليُّ على أنّ بعثةَ بعضِ الخلقِ إلى بعضٍ غيرُ ممتنعةٍ ولا مستحيلةٍ ، فلم يبعدْ أنْ يقيمَ اللهُ تعالى الأدلّةَ على صدقِ مخلوقٍ أتى عنه بالشرعِ والمِلّة . فالقرآنُ معجزةُ نبيِّنا صلى اللهُ عليه وسلم الباقيةُ بعدَه إلى يومِ القيامةِ ، ومعجزةُ كلّ نبيٍّ انقرضتْ بانقراضِه ، أو دخلها التبديلُ والتغييرُ ، كالتوراةِ والإنجيلِ .

وجوهُ إعجازِ القرآنِ عشرةٌ : منها : النظْمُ البديعُ المخالفُ لكلِّ معهودٍ في لسانِ العربِ وفي غيرِها ، لأنّ نظمَه ليس من نظْمِ الشّعرِ في شيءٍ ، وكذلك قال ربُّ العزّةِ الذي تولّى نظْمَه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ (يس:٦٩) وفي صحيحِ مسلمٍ أنّ أُنَيْسًا أخا أبي ذرٍّ قال لأبي ذرٍّ: لقيتُ رجلاً على دينك يزعمُ أنّ اللهَ أرسله ، قلتُ : وماذا يقولُ الناسُ ؟ قال: يقولون: شاعرٌ، كاهنٌ ، ساحرٌ، وكان أُنَيْسُ أحدَ الشعراءِ ، قال أُنَيْسُ: لقد سمعتُ قوْلَ الكهنةِ ، فما هو بقوْلِهم ، ولقدوضعتُ قوْلَه على أقراءِ الشّعْرِ " أنواعه وبحوره " فلم يلتئمْ على لسانِ أحدٍ بعدي أنه شِعْرٌ ، واللهِ إنه لصادقٌ وإنّهم لكاذبون .

ومنها : الأسلوبُ المخالفُ لجميعِ أساليبِ العربِ.

ومنها : الجزالةُ التي لا تصحُّ من مخلوقٍ بحالٍ ، وتأمّلْ ذلك في سورةِ ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ (ق:١) إلى آخرِها ، وقولِه سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (إبراهيم:٤٢) إلى آخرِ السّوراةِ ، وقولِه : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ (غافر:١٦) وقولِه تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ (الرعد:١٣) . فمن علم أنّ اللهَ تعالى هو الحقُّ علم أنّ هذه الجزالةَ لا تصحُّ في خطابِ غيرِه . قال ابنُ الحصارِ: وهذه الثلاثةُ من النّظْمِ ، والأسلوبِ ، والجزالةِ ، لازمةُ كلِّ سورةٍ ، بل هي لازمةُ كلِّ آيةٍ ، وبمجموعِ هذه الثلاثةِ يتميّزُ مسموعُ كلِّ آيةٍ وكلِّ سورةٍ عن سائرِ كلامِ البَشَرِ، وبها وقع التحدّي والتعجيزُ، ومع هذا فكلُّ سورةٍ تنفردُ بهذه الثلاثةِ من غيرِ أنْ يُضافَ إليها أمرٌ آخرُ من الوجوهِ العشرةِ ، فهذه سورةُ الكوْثرِ، ثلاثُ آياتٍ قِصارٍ، وهي أقصرُ سورةٍ في القرآنِ ، وقد تضمّنتْ الإخبارَ عن مُغَيَّبَيْن : أحدُهما: الإخبارُ عن الكوْثرِوعظَمِه وسعته وكثرةِ أوانيه ، وذلك يدلُّ على أنّ المصدّقين به أكثرُ من أتباعِ سائرِ الرُّسُلِ . والثاني : الإخبارُ عن الوليدِ بنِ المغيرةِ، وقد كان عند نزولِ الآيةِ ذا مالٍ وولدٍ ، على

ما يقتضيه قوْله الحقُّ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ (المدثر:١١-١٤) ثم أهلك الله تعالى ماله وولدَه ، وانقطع نسلُه .

ومنها : التصرّفُ في لسانِ العربِ على وجهٍ لا يستقلُّ به عربيٌّ ، حتى يقعَ منهم الاتفاقُ من جميعِهم على إصابتِه في وضعِ كلِّ كلمةٍ وحرفٍ موضعَه .

ومنها : الإخبارُ عن الأمورِ التي تقدّمتْ في أوّلِ الدنيا إلى وقتِ نزولِه من أُمّيٍّ ما كان يتلو من قبلِه من كتابٍ ولا يخطُّه بيمينِه ، فأخبر بما كان من قصصِ الأنبياءِ مع أُمَمِها، والقرونِ الخاليةِ في دهرِها ، وذَكَرَ ما سأله أهلُ الكتابِ عنه ، وتحدّوه به من قصةِ أهلِ الكهفِ ، وشأنِ موسى والخضرِ عليهما السلامُ ، وحالِ ذي القرنين ، فجاءهم ، وهو أُمّيٌّ من أُمّةٍ أُمّيةٍ ، ليس لها بذلك عِلْم ، بما عرفوا من الكتبِ السالفةِ صحّتَه ، فتحققوا صدقَه .

ومنها : الوفاءُ بالوعدِ ، المدرَكُ بالحسِّ في العيانِ ، في كلِّ ما وعد اللهُ تعالى ، وينقسمُ إلى : أخبارِه المطلقةِ ،كوعدِه بنصرِه رسولَه عليه السلامُ ، وإخراجِ الذين أخرجوه من وطنِه . وإلى وعدٍ مقيدٍ بشرطٍ ، كقوْله : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾(الطلاق:٣) ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾(التغابن:١١) ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق:٢،٣) و ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ﴾ (الأنفال:٦٥) وشبه ذلك .

ومنها: الإخبارُ عن المغيّبات التي لا يُطّلَعُ عليها إلاّ بالوحي، فمن ذلك ما وعد اللهُ نبيَّه عليه الصلاةُ والسلامُ أنه سيُظْهِرُ دينَه على الأديانِ بقوْله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾(الصف:٩) ففعل ذلك . وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن

شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ (الفتح:٢٧) وقال : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ (الروم:١-٣) فهذه كلُّها أخبارٌ عن الغيوبِ التي لا يقفُ عليها إلاّ ربُّ العالمين ، أو من أوقفه عليها ربُّ العالمين ، فدلّ على أنّ اللهَ تعالى قد أوقف عليها رسولَه لتكونَ دلالةً على صِدقِه .

ومنها : ما تضمّنه القرآنُ من العِلْمِ الذي هو قوامُ جميعِ الأنامِ ، في الحلالِ والحرامِ ، وفي سائرِ الأحكامِ .

ومنها : الحِكَمُ البالغةُ التي لم تَجْرِ العادةُ بأنْ تصدرَ في كثرتِها وشرفِها من آدميٍّ .

ومنها : التناسبُ في جميعِ ما تضمّنه ظاهرًا وباطنًا من غيرِ اختلافٍ ، قال تعالى : ﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ (النساء:٨٢) فهذه عشرةُ أوجهٍ ذكرها علماؤُنا رحمةُ اللهِ عليهم . ومن فصاحةِ القرآنِ أنّ اللهَ تعالى ذكر في آيةٍ واحدةٍ أمْرَيْن ، ونَهْيَيْن ، وخَبَرَيْن ، وبشارتين ، وهو قولُه تعالى :﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ ﴾ (القصص:٧).

فلما عجزتْ قريشٌ عن الإتيانِ بمثلِه ، وقالتْ : إنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم تقوّله ، أنزل اللهُ تعالى : ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الطور:٣٣،٣٤) ثم أنزل تعجيزًا أبلغَ من ذلك فقال :﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ ﴾ (هود:١٣) فلما عجزوا حطّهم عن هذا المقدارِ فقال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٣) فأُفحِمُوا عن الجوابِ ، وتقطّعتْ بهم الأسبابُ ، وعدلوا إلى الحروبِ والعنادِ ، ولو قدروا على المعارضةِ لكان أهونَ كثيرًا ، وأبلغَ في الحُجّةِ وأشدَّ تأثيرًا ، هذا مع كوْنهم أربابُ البلاغةِ والفطنةِ واللغةِ ، وعنهم تُؤخَذُ الفصاحةُ . فبلاغةُ القرآنِ في أعلى طبقاتِ الإحسانِ وأرفعِ درجاتِ الإيجازِ والبيانِ .

(٨) التنبيهُ على أحاديثَ وُضِعَتْ في فضلِ سُوَرِ القرآنِ وغيرِه :

على المسلمين ألاّ يلتفتوا لما اختلقه المختلقون من الأحاديث الكاذبة والأخبار الباطلة ، في فضلِ سُوَرِ القرآنِ وغيرِ ذلك من فضائلِ الأعمالِ ، قد ارتكبها جماعةٌ كثيرةٌ ، اختلفتْ أغراضُهم ومقاصدُهم في ارتكابها ، فمن قومٍ من الزنادقةِ وضعوا أحاديثَ وحدّثوا بها ليوقعوا بذلك الشّكَّ في قلوبِ الناسِ . فمثلاً ما رواه محمدٌ ابنُ سعيدٍ عن أنسِ بنِ مالكٍ في قولِه صلى اللهُ عليه وسلم : (أنا خاتمُ الأنبياءِ لا نبيَّ بعدي " إلاّ ما شاءَ ") فزاد هذا الاستثناءَ لما كان يدعو إليه من الإلحادِ والزندقةِ . ومنهم قومٌ وضعوا الحديثَ لِهَوًى يدعون الناسَ إليه ، وقال شيخٌ من شيوخِ الخوارجِ بعد أنْ تاب : إنّ هذه الأحاديثَ دينٌ ، فانظروا ممن تأخذون دينَكم ، فإنّا كنا إذا هَوِينَا أمرًا صيّرناه حديثًا . ومنهم جماعةٌ وضعوا الحديثَ حِسْبَةً كما زعموا ، يدعون الناسَ إلى فضائلِ الأعمالِ ، كما رُوِيَ عن أبي عصمةَ نوحٍ حين قيل له : من أين لك عن عكرمةَ عن ابنِ عباسٍ في فضلِ سُوَرِ القرآنِ سورةً سورةً ؟ فقال : إني رأيتُ الناسَ قد أعرضوا عن القرآنِ واشتغلوا بفقهِ أبي حنيفةَ ومَغازي محمدِ ابنِ إسحقَ ، فوضعتُ هذا الحديثَ حِسْبَةً . ومنهم قومٌ من السؤّالِ والمكدين يقفون في الأسواقِ والمساجدِ ، فيضعون على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أحاديثَ بأسانيدَ صحاحٍ قد حفظوها ، فيذكرون الموضوعاتِ بتلك الأسانيد . قال جعفرُ بنُ محمدٍ الطيالسيُّ : صلّى أحمدُ بنُ حنبلٍ ويحيى بنُ مَعينٍ في مسجدِ الرُّصافةِ ، فقام قاصٌّ - حاكي القصص - فقال : حدّثنا أحمدُ بنُ حنبلٍ ويحيى بنُ معينٍ قالا أنبأنا عبدُ الرزاقِ قال أنبأنا مَعْمرٌ عن قتادةَ عن أنسٍ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (من قال لا إله إلاّ اللهُ يُخْلَقُ من كلّ كلمةٍ منها طائرٌ منقارُه من ذهبٍ وريشُه مرجانٌ). وأخذ في قصّةٍ من عشرين ورقةً ، فجعل أحمدُ بنُ حنبلٍ ينظرُ إلى يحيى بنِ مَعينٍ ويحيى ينظرُ إلى أحمد ، فقال : أنت حدّثته بهذا ؟ فقال : واللهِ ما سمعتُ به إلاّ هذه الساعةَ ، قال : فسكتنا جميعًا حتى فرغَ من قصصِه ، فقال له

يحيى : من حدّثك بهذا الحديث ؟ فقال : أحمدُ بنُ حنبلٍ ويحيى بنُ مَعينٍ ، فقال يحيى : أنا ابنُ مَعين ، وهذا أحمدُ بنُ حنبلٍ ، ما سمعنا بهذا قطّ في حديث رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فإنْ ولابد من الكذبِ فعلى غيرِنا ، فقال له : أنت يحيى بنُ مَعين ؟ قال : نعم ، قال : لم أزلْ أسمعُ أنّ يحيى بنَ مَعين أحمقُ ، وما علمتُه إلاّ الساعةَ ، فقال له يحيى : وكيف علمتَ أني أحمقُ ؟ قال كأنه ليس في الدنيا يحيى بنُ معينٍ وأحمدُ بنُ حنبلٍ غيرُكما ؟ كتبتُ عن سبعةَ عشرَ أحمد بنِ حنبلٍ غيرِ هذا. قال : فوضع أحمدُ كُمَّه على وجهه وقال : دَعْهُ يقومُ ، فقام كالمستهزئ بهما . فهؤلاء الطوائفُ كَذَبَةٌ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، ومن يجري مجراهم . فلو اقتصر الناسُ على ما ثبت في الصحاحِ والمسانيدِ وغيرِهما من المصنفاتِ التي تداولها العلماءُ ورواها الأئمّةُ الفقهاءُ ، لكان لهم في ذلك غُنْيَةٌ " استغناءٌ " ، وخرجوا عن تحذيره صلى اللهُ عليه وسلم حيث قال : (اتّقوا الحديثَ عنّي إلاّ ما علمتم فمن كَذَب عليّ متعمِّدًا فليتبوّأْ مقعدَه من النارِ) ، وفي هذا الحديثِ دليلٌ على أنه كان يعلمُ أنه سيُكْذَبُ عليه . فحذارٌ مما وضعه أعداءُ الدينِ ، وزنادقةُ المسلمين ، في بابِ الترغيبِ والترهيبِ ، وأعظمُهم ضررًا ، أقوامٌ من المنسوبين إلى الزُّهدِ ، وضعوا الحديثَ حِسْبَةً كما زعموا ، فتقبّل الناسُ موضوعاتِهم ثقةً منهم بهم وركنوا إليهم ، فضلّوا وأضلّوا .

(٩) الحُجَّةُ في الرّدِ على من طعن في القرآنِ :

لا خلافَ بين الأمّة ولا بين الأئمّةِ أهلِ السّنة ، أنّ القرآنَ اسمُ كلامِ اللهِ تعالى الذي جاء به محمدٌ صلى اللهُ عليه وسلم معجزةً له ، وأنه محفوظٌ في الصدورِ ، مقروءٌ بالألسنة ، مكتوبٌ في المصاحف ، فمن ادّعى زيادةً عليه أو نقصانًا منه ، فقد أبطل الإجماعَ ، وبَهَتَ الناسَ ، فالقائلُ بأنّ القرآنَ فيه زيادةٌ ونقصانٌ رادٌّ لكتابِ اللهِ ولما جاء به الرسولُ ، وكان كمن قال : الصلواتُ المفروضاتُ خمسون صلاةً ، وتَزَوُّجُ تسعٍ من النساءِ حلالٌ ، وفرضَ اللهُ أيّامًا مع شهرِ رمضانَ ، إلى غيرِ ذلك مما

لم يثبتْ في الدينِ ، فإذا ردَّ هذا بالإجماعِ ، كان الإجماعُ على القرآنِ أثبتَ وآكدَ وألزمَ . والقرآنُ الذي جمعه عثمانُ بموافقةِ الصحابةِ له لو أنكر بعضَه مُنْكِرٌ كان كافرًا ، حكمُه حكمُ المرتدِّ ، يُستتابُ فإنْ تاب وإلاّ ضُرِبَتْ عنقُه . وفي قولِه تعالى : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ (هود:١) دلالةٌ على منعِ الخلْقِ من القدرةِ على أنْ يزيدوا فيها أو يُنقِصوا منها أو يُعارضوها بمثلِها .

(١٠) فِي الْخِلاَفَةِ وَالإِمَامَةِ وَالْحُكْمِ (مِنْ سُـورَةِ الْبَقَرَةِ):

قال تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠)

قولُه تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ وقـولُ اللهِ تعالى وخطابُه للملائكةِ متقرّرٌ قديمٌ في الأزلِ . والرّبُّ : المالكُ والسيّدُ والمُصلِحُ والجابِرُ . وقال أربابُ المعاني : خاطب اللهُ الملائكةَ لا للمشورةِ ، ولكنْ لاستخراجِ ما فيهم من رؤيةِ الحركاتِ والعبادةِ والتسبيحِ والتقديسِ ، ثم ردّهم إلى قيمتِهم فقال عـزّ وجـلّ : ﴿ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ﴾ (البقرة: ٣٤).

قولُه تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾ "جاعلٌ" هنا بمعنى خالقٌ . والأرضِ قيل إنها مكةُ . وروى ابنُ سابطٍ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (دُحِيَتْ الأرضُ من مكةَ) ولذلك سُمِّيَتْ أُمَّ القُرَى . قال : وقبرُ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ بين زمزمَ والرّكنِ والمقامِ . و" خليفة " أي يخلفُ من كان قبلَه من الملائكةِ في الأرضِ . والمعنيُّ بالخليفةِ هنا – في قولِ ابنِ مسعودٍ وابنِ عباسٍ وجميعِ أهلِ التأويلِ – آدمُ عليه السلامُ ، وهو خليفةُ اللهِ في إمضاءِ أحكامِه وأوامرِه ، لأنه أوّلُ رسولٍ إلى الأرضِ ، كما في حديثِ أبي ذرٍّ ، قال قلتُ : يارسولَ اللهِ ، أنبيًّا كان

مُرْسَلاً ؟ قال : (نعم) . ويُقالُ كان رسولاً لولده ، وكانوا أربعين ولدًا في عشرين بطنًا ، في كلّ بطنٍ ذكرٌ وأُنثى ، وتوالدوا حتى كثروا ، كما قال تعالى : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ (النساء:١) . ورُوِيَ عن وهبِ بنِ مُنَبِّهٍ أنه عاش ألفَ سنةٍ ، واللهُ أعلمُ .

(١١) الزَّكَـاةُ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (البقرة:٤٣)

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أمْرٌ معناه الوجوبُ ، ولا خلافَ فيـه . ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أمْرٌ أيضًا يقتضي الوجوبَ . الزكاةُ مأخوذةٌ من زكا الشيءَ إذا نما وزاد ، وسُمِّيَ الإخراجُ من المالِ زكاةً وهونَقْصٌ منه من حيث ينمو بالبركةِ أو بالأجرِ الذي يُثابُ به المُزَكّي . وقيل : الزكاةُ مأخوذةٌ من التطهيرِ، فكأنّ الخارجَ من المالِ يطهّره من تبعةِ الحقّ الذي جعل اللهُ فيه للمساكين ، وقد سَمَّى النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم ما يخرجُ من الزكاةِ " أوساخَ الناسِ"، وقال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (التوبة:١٠٣) واختُلِفَ في المرادِ بالزكاةِ هنا ، فقيل : الزكاةُ المفروضةُ ، لمقارنتها بالصلاة . وقيل : صدقةُ الفطْرِ ، قاله مالكُ في سماعِ بنِ القاسمِ . فالزكاةُ في الكتابِ مُجْمَلَةٌ بيّنها النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فروى الأئمّةُ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (ليس في حَبٍّ ولا تَمْرٍ صدقةٌ حتى يبلغَ خمسةَ أَوْسُقٍ)" الوسق ستون صاعًا ، وهو ثلاثمائة وعشرون رطلاً عند أهل الحجاز " ولا فيما دون خمسِ ذَوْدٍ "ما بين الثنتين إلى تسع من الإبل" ولا فيما دون خمسِ أُوَاقٍ صدقة] وقال البخاريُّ : " خمسُ أواقٍ من الورِقِ " وروى البخاريُّ عن ابنِ عمرَ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (فيما سَقَتِ السماءُ والعيونُ أو كان عَثَرِيًّا)" الزرع الذي لا يُسقَى إلاّ من ماء المطر" العُشْرُ وما سُقِيَ بالنَّضْحِ " من الآبار " نصفُ العُشْرِ) .

(١٢) في الرُّوحِ القُــدُسِ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

(البقرة:٨٧)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني التوراةَ . ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ أي أتبعنا. ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي الحُجَجَ والدّلالات . ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ ﴾ أي قوّيناه . ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ جبريلَ عليه السلامُ . قال النحّاسُ : وسُمِّيَ جبريلُ روحًا وأُضيفَ إلى القدسِ لأنه كان بتكوينِ اللهِ عزّ وجلّ له روحًا من غيرِ ولادةِ والدٍ ولــدَه ، وكذلك سُمِّيَ عيسى رُوحًا لهذا. ورَوَى غالبُ بنُ عبدِ اللهِ عن مجاهدٍ قال: القُدُسُ هو اللهُ عزّ وجلّ ، وعن ابنِ عباسٍ : ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ قال : هو الاسمُ الذي كان يُحْيي به عيسى الموْتى ، وهو اسمُ اللهِ الأعظمُ . وقيل المرادُ : الإنجيلُ ، سمّاه رُوحًا كما سمّى اللهُ القرآنَ رُوحًا في قولِه تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (الشورى:٥٢) واللهُ تعالى أعلمُ . والقدسُ : الطهارةُ .

(١٣) السِّــحْــرُ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٠٢).

﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ ﴾ هذا إخبارٌ من الله تعالى عن الطائفة الذين نبذوا الكتابَ بأنهم الذين اتّبعوا السّحْرَ أيضًا، وهم اليهودُ . وقال السُّدّيُّ : عارضَتْ اليهودُ محمدًا صلى الله عليه وسلم بالتوراة فاتّفقتْ التوراةُ والقرآنُ فنبذوا التوراةَ وأخذوا بكتاب آصف " كاتب سليمانَ " وبسحرِ هاروتَ وماروتَ . وقال محمدُ بنُ إسحقَ : لمّا ذَكَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سليمانَ في المرسَلين قال بعضُ أحبارِهم : يزعمُ محمدٌ أنّ ابنَ داودَ كان نبيًّا ! والله ما كان إلاّ ساحرًا ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي ألقتْ إلى بني آدمَ أنّ ما فعله سليمانُ من ركوبِ البحرِ واستسخارِ الطّيرِ والشّياطينِ كان سِحْرًا . وقال الكلبيُّ : كتبتْ الشّياطينُ السّحرَ على لسانِ آصفٍ ، ودفنوه تحت مُصَلاّه حين انتزع الله مُلْكَه ولم يشعرْ بذلك سليمانُ ، فلمّا مات سليمانُ استخرجوه وقالوا للناسِ: إنما مَلَكَكُمْ بهذا فتعلّموه . فأما علماءُ بني إسرائيلَ فقالوا : معاذَ الله أنْ يكونَ هذا علمَ سليمانَ ! وأما السِّفلَةُ فقالوا : هذا علمُ سليمانَ ، وأقبلوا على تعليمه ورفضوا كُتُبَ أنبيائهم، حتى بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم فأنزل الله على نبيِّه عُذْرَ سليمانَ ، وأظهر براءَتَه مما رُمِيَ به فقال : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾ وقال الطبريُّ :"اتّبعوا" بمعنى فضّلوا . والشّياطينُ هنا قيل: هم شياطينُ الجنّ ، وهو المفهومُ من هذا الاسمِ . وقيل : شياطينُ الإنسِ المتمرّدون في الضلالِ . وقولُه تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ ﴾ تبرئةٌ من الله لسليمانَ مما نسبه اليهودُ إليه من السّحرِ، ثم قال : ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ ﴾ فأثبت كفرَهم بتعليمِ السّحرِ .

السّحْرُ ، قيل : أصلُه التمويهُ بالخَيَلِ والتخاييلِ ، وهو أنْ يفعلَ السّاحرُ أشياءَ ، فيُخَيَّلُ للمسحورِ أنها بخلافِ ما هي به . وقيل أصلُه الخفاءُ ، فإنّ السّاحرَ يفعلُه في خفيةٍ . واختُلفَ ، هل له حقيقةٌ أم لا ، فذكر الغَزْنَويُّ : أنّ السّحرَ عند المعتزلةِ خِدَعٌ لا أصلَ له ، وعند الشّافعيِّ وسوسةٌ وأمراضٌ . قال : وعندنا أصلُه طِلسمٌ

يُبْنَى على تأثيرِ خصائصِ الكواكبِ ، كتأثيرِ الشمسِ في زئبقِ عصيِّ فرعَوْنَ ، أو تعظيمِ الشّياطينِ ليُسَهِّلُوا له ما عَسُر . والسّحرُ حقٌّ وله حقيقةٌ يخلقُ اللهُ عنده ما شاء . ثم من السّحرِ ما يكونُ بخفّة اليدِ كالشَّعْوَذَة ، ومنه ما يكونُ كلامًا يُحْفَظُ، ورُقًى من أسماءِ اللهِ تعالى وقد يكونُ من عهودِ الشّياطينِ، ويكونُ أدويةً. ومن السّحرِ ما يكونُ كُفْرًا من فاعلِه ، مثل ما يدّعون من تغييرِ صُوَرِ الناسِ، وإخراجِهم في بَهيمةٍ، وقطعِ مسافةِ شهرٍ في ليلةٍ ، والطيرانِ في الهواءِ ، فكلٌّ من فعلِ هذا ليوهمَ الناسَ أنه مُحِقٌّ فذلك كُفْرٌ منه .

ذهب أهلُ السنّةِ إلى أنّ السّحرَ حقيقةٌ . وذهب عامّةُ المعتزلةِ بأنّ السّحرَ تمويهٌ وتخييلٌ ، واستشهدوا بقولِه تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ (طه:٦٦) ولم يقلْ تسعى على الحقيقةِ ، ولكنْ قال : ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ . وقال أيضًا : ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (الأعراف:١١٦)، وهذا لا حجّةَ فيه ، لأننا لا ننكرِ أنْ يكونَ التخييلُ من جملةِ السّحرِ وقد ثبت وراءَ ذلك أمورٌجوّزها العقلُ وورد بها السَّمْعُ ، فمن هذا ما ورد في هذه الآيةِ من ذِكْرِ السّحرِ وتعليمِه ، ولو لم يكنْ حقيقةً لم يكنْ تعليمُه ، ولا أخبر اللهُ تعالى أنهم يُعلّمونه الناسَ، فدلّ على أنه حقيقةٌ. وقولُه تعالى في قصّةِ سَحَرَةِ فرعونَ : ﴿ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف:١١٦) وسورة الفَلَقِ مع اتّفاقِ المفسّرين على أنّ سببَ نزولِها ما كان من سِحْرِ لَبيد بنِ الأعصَمِ ، وهو ما خرّجه البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي اللهُ عنها قالتْ : سَحَرَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يهوديٌّ من يهودِ بني زُرَيْقٍ يُقالُ له لَبيد بنُ الأَعْصَمِ " الحديث " وفيه : أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال لَمّا حُلَّ السِّحْرُ : (إنّ اللهَ شفاني) والشفاءُ إنما يكونُ برفعِ العلّةِ وزوالِ المرَضِ ، فدلّ على أنه حقٌّ وحقيقةٌ ، فهو مقطوعٌ به بإخبارِ اللهِ تعالى ورسولِه على وجودِه ووقوعِه . ولقد شاع السّحرُ وذاع في سابقِ الزمانِ ، ولم يَبْدُ من الصحابةِ ولا من التابعين إنكارٌ لأصلِه . وعن

ابنِ عباسٍ قال : عُلِّمَ السِّحْرُ في قريةٍ من قَرَى مِصْرَ يُقالُ لها : " الفَرَمَا " فمن كَذَّبَ به فهو كافرٌ ، مُكَذِّبٌ للهِ ورسولِه ، مُنْكِرٌ لِمَا عُلِمَ مشاهدةً وعيانًا . وقال علماؤُنا : لا يُنْكَرُ انْ يظهرَ على يدِ السّاحرِ خَرْقُ العاداتِ مما ليس في مقدورِ البَشَرِ ، من مَرَضٍ وتفريقٍ وزوالِ عَقْلٍ ، وتَعْوِيجِ عِضْوٍ ، إلى غيرِ ذلك مما ليس في مقدورِ العبادِ.

واختلف الفقهاءُ في حُكْمِ السّاحرِ المسلمِ والذّميِّ ، فذهب مالكٌ إلى انّ المسلمَ إذا سَحَرَ بنفسِه بكلامٍ يكونُ كُفْرًا يُقْتَلُ ولا يُسْتَتَابُ ولا تُقْبَلُ توبتُه ، لأنه أمْرٌ يستَسِرُّ به كالزنديقِ والزّاني ، ولأنّ اللهَ تعالى سَمَّى السِّحرَ كُفْرًا بقولِه : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ (البقرة:١٠٢). وقال مالكٌ أيضًا في الذّميِّ إذا سَحَرَ يُعاقَبُ ، إلاّ انْ يكونَ قَتَلَ بسحرِه ، أو أحدث حَدَثًا يُؤْخَذُ منه بقدْرِه ، وقال غيرُه : يُقْتَلُ لأنه نقض العهدَ . ولا يرثُ الساحرَ ورثتُه لأنه كافرٌ ، إلاّ انْ يكونَ سِحْرُه لا يُسَمَّى كُفْرًا . وقال مالكٌ في المرأةِ تَعقدُ زوجَها عن نفسِها أو عن غيرِها : تُنَكَّلُ ولا تُقْتَلُ . واختلفوا هل يُسْأَلُ السّاحرُ حَلَّ السحرِ عن المسحورِ ، فأجازه سعيدُ بنُ المُسَيَّبِ على ما ذكره البخاريُّ . وقال الشّعبيُّ : لا بأسَ بالنُّشْرَةِ " الرُّقيةُ والعلاجُ " قال ابنُ بطّالٍ : وفي كتابِ وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ انْ يأخذَ سبعَ ورقاتٍ من سِدْرٍ أخضر فيدقُّه بين حجرين ثم يضربَه بالماءِ ، ويقرأ عليه آيةَ الكرسيِّ ، ثم يحسو " يشربُ " منه ثلاثَ حَسْوَاتٍ ويغتسلُ به ، فإنه يذهبُ عنه كلُّ ما به إنْ شاء اللهُ تعالى ، وهو جيّدٌ للرّجلِ إذا حُبِسَ عن أهلِه . ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ (البقرة:١٠٢) وذلك انّ اليهودَ قالوا : إنّ اللهَ أنزل جبريلَ وميكائيلَ بالسّحرِ، فنفى اللهُ ذلك ، وما أنزل على المَلَكَين ، ولكنّ الشّياطينَ كفروا يُعلّمون الناسَ السّحرَ ببابل هاروتَ وماروتَ . وأكثرُ ما يتعاطى السّحرَ من الإنسِ النساءُ ، وخاصّةً في حالِ طمثِهنّ ، وقال تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ (الفلق:٤). ﴿ بِبَابِلَ﴾ قيل : العراقُ وما والاه. وقالتْ طائفةٌ : ولا يُنْكَرُ

أنّ السّحرَ له تأثيرٌ في القلوبِ ، بالحبِ والبغضِ ، وبإلقاءِ الشّرورِ حتى يُفرّقَ الساحرُ بين المرءِ وزوجه ، ويحولَ بين المرءِ وقلبه ، وذلك بإدخالِ الآلامِ وعظيمِ الأسقامِ ، وكلُّ ذلك مُدْرَكٌ بالمشاهدةِ ، وإنكارُه مُعاندةٌ . ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ "هم" إشارةٌ إلى السَّحَرَةِ ، وقيل إلى اليهودِ ، وقيل إلى الشّياطينِ ﴿ بِضَآرِّينَ بِهِۦ ﴾ أي بالسّحرِ . ﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ أي أحدًا . ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي بإرادته وقضائه لا بأمْرِه ، لأنه سبحانه وتعالى لا يأمرُ بالفحشاءِ . ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ يريدُ في الآخرةِ وإنْ أخذوا به نفعًا قليلاً في الدنيا . ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ أي ما له في الآخرةِ من نصيبٍ . ﴿ شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي باعوها.

(١٤) في الأفعالِ المُكْتَسَبَة :

يقولُ تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة:١٣٤)

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي قد مضتْ . ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ يريدُ من خيرٍ وشرٍّ ، وفي هذا دليلٌ على أنّ العبدَ يُضافُ إليه أعمالٌ وأكسابٌ ، وإنْ كان اللهُ تعالى أقدره على ذلك ، إنْ كان خيرًا فبفضله وإنْ كان شرًّا فبعَدْله ، وهذا مذهبُ أهلِ السنّة ، فالعبدُ مكتسبٌ لأفعاله . ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي لا يُؤاخذُ أحدٌ بذنبِ أحدٍ ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (الأنعام:١٦٤).

(١٥) في الأُمَّـــة الوَسَـــط :

يقولُ تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾

(البقرة:١٤٣)

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ المعنى : وكما أنّ الكعبةَ وسَطُ الأرضِ كذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطاً ، أي جعلناكم دون الأنبياءِ وفوق الأُمَمِ . والوَسَطُ : العدلُ ، وأصلُ هذا أنّ أحمدَ الأشياءِ أوسطُها . أي أنّ هذه الأمّةَ لم تَغْلُ غُلُوَّ النصارى في أنبيائهم ، ولا قصّروا تقصيرَ اليهـــودِ في أنبيائهم . وفي الحديثِ : (خيرُ الأمورِ أوسَطُها) وفيه عن عليٍّ رضي اللهُ عنه : (عليكم بالنَّمَطِ * جماعة من الناس امرهم واحد * الأوسطِ ، فإليه ينزلُ العالي ، وإليه يرتفعُ النازلُ) .

(١٦) فـــي الْـــقَـــتْـــلِ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (البقرة:١٧٨)

رَوَى البخاريُّ عن ابنِ عباسٍ قال : كان في بني إسرائيلَ القصاصُ ولم تكنْ فيهم الدِّيَةُ ، فأنزل اللهُ لهذه الأُمّةِ آيةَ القصاصِ . ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ ﴾ معناه فُرِضَ وأثبت . والعفوُ أنْ تُقْبَلَ الدِّيَةُ في العَمْدِ . ﴿ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ

بِإِحْسَٰنٍ﴾ يتبعُ بالمعروفِ ويؤدِّي بإحسانٍ ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ مما كُتبَ على من كان قبلكم ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي من قَتَلَ بعد قبولِ الدِّيةِ . وقال الشَّعبيُّ في هذه الآيةِ : أُنزِلَتْ في قبيلتين من العربِ اقتتلتا فقالوا نقتلُ بعبدنا فلانًا ابنَ فلانٍ ، وبأمَتنا فلانةَ بنتَ فلانٍ . ولا خلافَ أنّ القِصاصَ في القتلِ لا يُقيمُه إلاّ أولو الأمرِ ، فُرِضَ عليهم النهوضُ بالقِصاصِ وإقامةُ الحدودِ وغيرُ ذلك ، ثم لا يتهيّأُ للمؤمنين جميعًا على القِصاصِ ، فأقاموا السلطانَ مقامَ أنفسِهم في إقامةِ القِصاصِ والحدودِ . وجاءتْ الآيةُ مبيِّنةً لحكمِ النّوعِ إذا قتل نوعَه ، فبيّنت حكمَ الحرِّ إذا قتل حرًّا ، والعبدِ إذا قتل عبدًا ، والأنثى إذا قتلت أنثى ، وقيل: والذِّمِّيُّ مع المسلمِ متساويان في الحرمةِ ، التي تكفي في القِصاصِ ، وهي حرمةُ الدّمِ الثابتةِ على التأبيدِ ، فإنّ الذمِّيَّ مَحْقُونُ الدّمِ على التأبيدِ ، والمسلمُ كذلك ، وكلاهما صار من أهلِ دارِ الإسلامِ ، والذي يحققُ ذلك أنّ المسلمَ يُقْطَعُ بسرقةِ مالِ الذمِّيّ ، وهذا يدلُّ على أنّ مالَ الذّميِّ قد ساوى مالَ المسلمِ ، فدلّ على مساواتِه لدمِه إذ المالُ إنما يحرمُ بحرمةِ مالكِه . وقال ابنُ أبي ليلى وداودُ بالقِصاصِ بين الأحرارِ والعبيدِ في النفسِ وفي جميعِ الأعضاءِ ، واستدلّ داودُ بقولِه عليه الصلاةُ والسلامُ : (المسلمون تتكافأُ دماؤُهم) فلم يُفرِّقْ بين حرٍّ وعبدٍ . وقال الجمهورُ أيضًا أنه لا يُقْتَلُ مسلمٌ بكافرٍ لقولِه صلى اللهُ عليه وسلم :(لا يُقتَلُ مسلمٌ بكافرٍ) أخرجه البخاريُّ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ . وعند أهلِ العلمِ أنّ الأبَ إذا قتل ابنَه لا يُقْتَلُ به ، وإذا قـــذفه لا يُحَدُّ . ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي أنّ من كان قبلنا لم يفرضْ اللهُ عليهم غيرَ النفسِ بالنفسِ ، فتفضّل اللهُ على هذه الأمّةِ بالدّيةِ إذا رضي بها وليُّ المقتولِ .

(١٧) في القصاص :

يقولُ تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٧٩). أي لا يقتلْ بعضُكم بعضًا، والمعنى أنّ القِصاصَ إذا أُقيم وتحقق الحكمُ فيه ازدجر من يريدُ قَتْلَ آخَر، مخافةَ أنْ يُقْتَصَّ منه ، ولما شرع اللهُ القِصاصَ قَنِعَ الكُلُّ به وتركوا الاقتتالَ ، فلهم في ذلك حياةٌ. واتّفق أئمّةُ الفتوى على أنه لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يقتصَّ من أحدٍ حقَّه دون السلطانِ، الذي جعله اللهُ ليقبضَ أيدي الناسِ بعضِهم عن بعضٍ .

(١٨) في الوَصيّة :

يقولُ تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:١٨٠) هذه آيةُ الوصيّةِ ، وليس في القرآنِ ذِكْرٌ للوصيّةِ إلاّ في هذه الآيةِ ، وفي " النساء " : ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ ﴾ (النساء:١١) وفي " المائدة " : ﴿ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ﴾ (المائدة:١٠٦) . و ﴿كُتِبَ﴾ معناه فُرِضَ ، وحضورُ الموتِ أي أسبابُه . ﴿خَيْرًا﴾ أي المالَ ، والوصيّةُ عبارةٌ عن كلِّ شيءٍ يُؤْمَرُ بفعله ويُعْهَدُ به في الحياة وبعد الموتِ . واختلف العلماءُ على من خلّف مالاً ، بعد إجماعِهم على أنّها واجبةٌ على من له ودائعُ وعليه ديونٌ ، وأكثرُ العلماءُ على أنّ الوصيّةَ غيرُ واجبةٍ على من ليس له شيءٌ من ذلك . وقال أبو ثورٍ : ليست الوصيّةُ واجبةً إلاّ على رجلٍ عليه دَيْنٌ أو عنده مالٌ لقومٍ ، فأما من لا دَيْنَ عليه ولا وديعةَ عنده فليستْ بواجبةٍ عليه إلاّ أنْ يشاءَ . وعن ابنِ عمرَ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (ما حقُّ امرئٍ مسلمٍ له شيءٌ يريد أنْ يُوصيَ فيه يبيتُ ليلتين إلاّ ووصيّتُه مكتوبةٌ عنده) ولم يُبيِّن اللهُ في كتابِه مقدارَ ما يُوصَى به ، وإنما قال : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾. وعن

عليٌ كرّم اللهُ وجهَه قال: لأنْ أُوصيَ بالخُمسِ أحبُّ إليّ من أنْ أُوصيَ بالرُّبعِ، ولأنْ أُوصيَ بالرُّبعِ أحَبُّ إليّ من أنْ أُوصيَ بالثُلثِ . واختار جماعةٌ لمن مالُه قليلٌ تَرْكَ الوصيّةِ . وعن أبي مليكةَ عن عائشةَ قال لها : إني أريدُ أنْ أُوصيَ ، قالتْ: وكم مالُك ؟ قال : ثلاثةُ آلاف . قالتْ : فكم عيالُك ؟ قال : أربعةٌ . قالتْ : إنّ اللهَ تعالى يقولُ : ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ وهذا شيءٌ يسيرٌ فدَعْه لعيالك فإنه أفضلُ لك . وذهب الجمهورُ من العلماءِ إلى أنه لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يوصيَ بأكثرَ من الثلثِ إلاّ أبا حنيفةَ وأصحابَه فإنّهم قالوا : إنْ لم يتركْ الموصي ورثةً جاز له أنْ يوصيَ بمالِه كلِّه ، وقالوا : إنّ الاقتصارَ على الثلثِ إنما كان من أجلِ أنْ يَدَعَ ورثتَه أغنياءَ لقولِه عليه الصلاةُ والسلامُ : (إنك إنْ تَذَرَ ورثَتَك أغنياءَ خيرٌ من أنْ تَذَرَهم عالةً يتكففون الناسَ). وأجمع كلُّ من يُحْفَظُ عنهم من أهلِ العلمِ على أنّ الوصيّةَ للوالدين اللذين لا يرثان ، والأقرباء الذين لا يرثون جائزةٌ وقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (إنّ اللهَ قد أعطى كلَّ ذي حقٍ حقَّه فلا وصيّةَ لوارثٍ) أي لا تجوزُ وصيّةٌ لوارثٍ . ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قيل : الوصيّةُ للأقربين أولى من الأجانبِ ، لنصِّ اللهِ تعالى عليهم ، حتى قال الضحاكُ : إنْ أوصَى لغيرِ قرابتِه فقد ختم عملَه بمعصيةٍ ، ورُوِيَ عن ابنِ عمرَ أنه أوصى لأمّهاتِ أولادِه لكلِّ واحدةٍ بأربعةِ آلافٍ . ورُوِيَ أنّ عائشةَ أوصتْ لمولاةٍ لها بأثاثِ البيتِ . وقال الحسنُ : إنْ أَوْصَى لغيرِ الأقربين رُدَّتِ الوصيّةُ للأقربين ، فإنْ كانتْ لأجنبيٍّ فمعهم ، ولا تجوزُ لغيرِهم مع تَرْكِهم . وقال الناسُ حين مات أبو العاليةِ : عَجَبًا له ! أعتقتْه امرأةٌ من رَبَاح "اسمُ قبيلةٍ" وأوصى بمالِه لبني هاشمٍ . وقال الشعبيُّ : لم يكنْ له ذلك كرامةً . وقال طاووسُ : إذا أوصى لغيرِ قرابتِه رُدَّتِ الوصيّةُ إلى قرابتِه ونُقِضَ فعْلُه . وقال الأوزاعيُّ وأحمدُ بنُ حنبلٍ : من أوصى لغيرِ قرابتِه وترك قرابتَه محتاجين فبئسما صنع! وأما أبو العاليةِ رضي اللهُ عنه فلعله نظر إلى أنّ بني هاشمٍ أولى من مُعْتِقَتِه لصحْبتِه ابنَ عباسٍ وتعليمِه إيّاه وإلحاقِه بدرجةِ العلماءِ في الدنيا والآخرةِ . وهذه الأبوّةُ وإنْ

كانت معنويّةً فهي الحقيقيةُ ، ومُعْتِقَتُه غايتُها أنْ ألحقته بالأحرارِ في الدنيا ، فحَسْبُهَا ثوابُ عتْقِها . واللهُ أعلمُ . وذهب الجمهورُ من العلماءِ إلى أنّ المريضَ يُحْجَرُ عليه في مالِه ، وشذّ أهلُ الظاهرِ فقالوا : لا يُحْجَرُ عليه . قال سعدٌ : (عادني رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في حجةِ الوداعِ من وَجَعٍ أشْفَيْتُ " أشرفتُ " منه على الموتِ، فقلتُ : يارسولَ اللهِ ، بلغ بي ما ترى من الوَجَعِ ، وأنا ذو مالٍ ولا يرثُني إلاّ بنتٌ واحدةٌ ، أفأتصدّقُ بثلثَيْ مالي ؟ قال : (لا) ، فقلتُ : أفأتصدّقُ بشَطْرِه ؟ قال : (لا) الثُلثُ والثلثُ كثيرٌ إنك إن تَذَرَ ورثتَك أغنياءَ خيرٌ من أن تَذَرَهم عالةً يتكففون الناسَ)"البخارى" . ومنع أهلُ الظاهرِ الوصيّةَ بأكثرَ من الثلثِ وإنْ أجازها الورثةُ . وأجاز ذلك الكافّةُ إذا أجازها الورثةُ ، وهو الصحيحُ ، لأنّ المريضَ إنما مُنِعَ من الوصيّةِ بزيادةٍ على الثلثِ لحقّ الوارثِ ، فإذا أسقط الورثةُ حقّهم كان ذلك صحيحًا ، وكان كالهبةِ من عندهم . وعن ابنِ عباسٍ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (لا تجوزُ الوصيّةُ لوارثٍ إلاّ أنْ يشاءَ الورثةُ) "البخارى". وقال مالكُ : إنّ الرجلَ إذا كان صحيحًا فهو أحقُّ بمالِه كلّه يصنعُ فيه ما يشاءُ ، فإذا أَذِنَ له الورثةُ في صحته فقد تركوا شيئًا لم يجبْ لهم ، وإذا أذِنُوا له في مرضِه فقد تركوا ما وجب لهم من الحقِ ، فليس لهم أنْ يرجعوا فيه إذا كان أنفذه لأنه قد فات . فإنْ لم يُنفذْ المريضُ ذلك ، كان للوارثِ الرجوعُ فيه لأنه لم يَفُتْ بالتنفيذِ . وقال مالكُ : الأمرُ المُجْمَعُ عليه عندنا أنّ الضعيفَ في عقلِه والسّفيهَ والمصابَ الذي يُفيقُ أحيانًا تجوزُ وصاياهم إذا كان معهم من عقولِهم ما يعرفون ما يوصون به ، وكذلك الصّبيُّ الصغيرُ إذا كان يعقلُ ما أوصَى به ولم يأتِ بمُنْكَرٍ من القولِ فوصيّتُه جائزةٌ ماضيةٌ . وقال أبو حنيفةَ وأصحابُه : لا تجوزُ وصيّةُ الصّبيِّ . وقال محمدُ بنُ شريحٍ : من أوصى من صغيرٍ أو كبيرٍ فأصابَ الحقَّ فاللهُ قضاه على لسانِه . ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يعني بالعدلِ ، لا وَكْسَ فيه ولا شَطَط ، وقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (إنّ اللهَ تصدّق عليكم بثلثِ أموالِكم عند

وفاتكم زيادةً لكم في حسناتكم ليجعلَها لكم زكاةً). أخرجه الدّارَقُطْنِيُّ . ﴿ حَقًّا ﴾ يعني ثابتًا ثبوتَ نظرٍ وتحصين ، لا ثبوتَ فرضٍ ووجوبٍ ، بدليلِ قوله ﴿ عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

في هذه الآيةِ دليلٌ على أنّ الدَّيْنَ إذا أوصى به الميّتُ خرج به عن ذمّته وصار الوليُّ مطالبًا به ، له الأجرُ في قضائه ، وعليه الوِزْرُ في تأخيره . وقال القاضي أبو بكرٍ ابنُ العربيِّ : وهذا إنما يصحُّ إذا كان الميّتُ لم يُفرِّطْ في أدائه ، وأما إذا قدر عليه وتركه ثم وصّى به ، فإنه لا يزيلُه عن ذمّته تفريطُ الوليِّ فيه . ولا خلافَ أنه إذا أوصى بما لا يجوزُ ، مثل أنْ يوصيَ بخمرٍ أو خنزيرٍ أو شيءٍ من المعاصي أنه يجوزُ تبديلُه ولا يجوزُ إمضاؤُه ، كما لا يجوزُ إمضاءُ ما زاد على الثلثِ . قاله أبو عمرَ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٨١) صفتان للهِ تعالى لا يخفى معهما شيءٌ من جَنَفِ المُوصين وتبديلِ المعتدين .

﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة:١٨٢) ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا ﴾ بمعنى من خَشِيَ أنْ يجنفَ " يميل " الموصي ويقطعَ ميراثَ طائفةٍ ويتعمّدَ الأذيّةَ ، أو يأتيها دون تعمُّد، فأصلح بذلك بينه وبين ورثته وبين الورثةِ فيما بينهم فلا إثمَ عليه.﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ عن الموصي إذا عملَتْ فيه الموعظةُ ورجع عمّا أراد من الأذيّة . والصدقةُ في حالِ الحياةِ والصحةِ أفضلُ منها عند الموتِ . وعن أبي سعيد الخدريِّ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (لأنْ يتصدّقَ المرءُ في حياته بدرهمٍ خيرٌ له من أنْ يتصدّقَ عند موته بمائة) (البخارى). ورَوَى النسائيُّ عن أبي الدرداء أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (مَثَلُ الذي يُنْفِقُ أو يتصدّقُ عند موته مَثَلُ الذي يُهْدِي بعد ماشَبِعَ) . ورَوَى الدّارَقُطْنِيُّ عن معاويةَ بنِ قُرّةَ عن أبيه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (من حضرته الوفاةُ فأوصَى فكانتْ وصيّتُه

على كتاب الله كانتْ كفّارةً لما تَرَكَ من زكاته) . ورَوَى الدّارَقُطْنِيُّ أيضًا عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال :(الإضرارُ بالوصيّةِ من الكبائرِ) .

(١٩) فـــي الصَّـــوْمِ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣) أي أنّ الله تعالى فرض على المؤمنين الصيامَ وألزمهم به . وفضلُ الصيامِ عظيمٌ ، ويكفي في فضلِه أنّ اللهَ تعالى خصّه بالإضافةِ إليه كما ثبت في الحديثِ عن النبيِّ صلـــى اللهُ عليه وسلـــم أنـــه قال مُخبِرًا عن ربِّه : (يقولُ اللهُ تبارك وتعالى كلُّ عملِ بنِ آدمَ له إلاّ الصّومَ فإنه لي وأنا أجزي به) (البخارى)، والصّومُ يمنعُ من ملاذِّ النفسِ وشهواتِـــها ما لا يَمنَعُ منه سائرُ العباداتِ ، والصّومُ سرٌّ بين العبدِ وربِّه لا يظـــهرُ إلاّ لـــه ، وما سواه من العباداتِ ربّما فعله العبدُ تصنُّعًا ورِيَاءً . وقال الشعبيُّ : إنّ اللهَ كتب على قومِ موسى وعيسى صومَ رمضانَ فغيّروا ، وزاد أحبارُهم عليهم عشرةَ أيّامٍ ، ثم مَرِضَ بعضُ أحبارِهم فنذر إنْ شفاه اللهُ أنْ يزيدَ في صومِهم عشرةَ أيّامٍ ففعل ، فصار صومُ النصارى خمسين يومًا ، فصعُب عليهم في الحرِّ فنقلوه إلى الربيعِ . واختار هذا القولَ النحاسُ . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣) أي لتتقوا المعاصي ، لأنّ الصيامَ كما قال عليه الصلاةُ والسلامُ : (الصّومُ جُنَّةٌ ووِجَاء) و" جُنَّةٌ " بمعنى وقاية ، و "وِجَاء" بمعنى الرّضِّ الشديدِ الذي يُذْهِبُ شهوةَ الجماعِ . ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ (البقرة:١٨٤) أي شهرَ رمضـــانَ . ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾(البقرة:١٨٤). المريضُ حالتان : إحداهما : ألاّ يُطيقَ الصّومَ بحالٍ ، فعليه الفطْرُ واجبًا ، والثانيةُ : أنْ يقدرَ على الصّومِ بضررٍ ومشقّةٍ ، فهذا يُستَحَبُّ له الفِطْرُ ولا يصومُ إلاّ جاهلٌ . وقال الشّافعيُّ رحمه اللهُ : لا يُفطِرُ

بالمرضِ إلاّ من دعتْه ضرورةُ المرضِ نفسه إلى الفِطْرِ ، ومتى احتمل الضّرورةَ لم يُفْطِرْ . ﴿ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ اختلف العلماءُ في السفرِ الذي يجوزُ فيه الفِطْرُ والقَصْرُ ، بعد إجماعِهم على سفرِ الطاعةِ كالحجِّ والجهادِ ، ويتصلُ بذلك سفرُ صلةِ الرّحِم وطلبُ العيشِ الضّروريِّ . أما سفرُ التجاراتِ والمُباحاتِ فمختلَفٌ فيه بالمنعِ والإجازةِ ، والقولُ بالجوازِ أرجحُ ، وأما سفرُ العاصي فيُختلَفُ فيه بالجوازِ والمنعِ ، والقولُ بالمنعِ أرجحُ . ومسافةُ الفِطْرِ عند مالكٍ حيث تُقْصَرُ الصلاةُ ، وقال : ثمانيةٌ وأربعون ميلاً . وقال مرّة : في البحرِ مسيرةَ يومٍ وليلةٍ ، وفي البرِّ ثمانيةٌ وأربعون ميلاً ، وقال ابنُ عمرَ وابنُ عباسٍ والثّوريُّ : الفِطْرُ في سفرِ ثلاثةِ أيامٍ .

(٢٠) الجمعُ بين الدّينِ والدّنيا :

يقولُ تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٧)

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ ﴾ أي أنه كان محرّمًا قبل ذلك ثم نُسِخَ . رَوَى أبو داود عن ابنِ أبي ليلى قال : وحدّثنا أصحابُنا قال :وكان الرجلُ إذا أفطرفنام " إذا صام فنام " قبل أنْ يأكلَ لم يأكلْ حتى يُصبحَ ، قال : فجاء عمرُ فأراد امرأته فقالتْ : إني قد نمتُ ، فظنّ أنها تعتلُّ فأتاها . فجاء رجلٌ من الأنصارِ فأراد طعامًا فقالوا له:حتى نسخّنَ لك شيئًا فنام ، فلما أصبحوا أُنزِلَتْ هذه الآيةُ ، وفيها ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ

ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ وروَى البُخَارِيُّ عن البراءِ قال : كان أصحابُ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم إذا كان الرجلُ صائمًا فحضر الإفطارَ فنام قبل أنْ يُفطرَ لم يأكلْ ليلتَه ولا يومَه حتى يُمسيَ . وفرِحَ المسلمون بنزولِ هذه الآية . ونزلتْ ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ . وكانوا لا يقربون النساءَ رمضانَ كلَّه ، وكان رجالٌ يخونون أنفسَهم ، فأنزل اللهُ تعالى : ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ و" تَختَانُونَ " بمعنى تخونون . أي تخونون أنفسَكم بالمباشرةِ في ليالي الصّومِ . ومن عصى اللهَ فقد خان نفسَه إذ جلب إليها العقابَ. وذكر الطَّبَرِيُّ أنّ عمرَ بنَ الخطابِ عندما أراد امرأته فقالتْ له: قد نمتُ فقال لها: ما نمْتِ ، فوقع بها. فغدا عمرُ إلى النبيِّ فقال: أَعْتَذِرُ إلى اللهِ وإليكَ ، فإنّ نفسي زيّنتْ لي فواقعتُ أهلي ، فهل تجدُ لي من رخصةٍ ؟ فقال لي :(لم تكنْ حقيقًا بذلك يا عمرُ) فلما بلغ بيتَه أرسل إليه فأنباه بعذرِه في آيةٍ من القرآنِ . ﴿ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾ والرَّفَثُ كنايةٌ عن الجماعِ لأنّ اللهَ عزّ وجلّ كريمٌ يَكْني . وقال الزّجّاجُ : الرَّفَثُ كلمةٌ جامعةٌ لكلّ ما يريده الرجلُ من امرأته ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ أصلُ اللباسِ في الثيابِ ، ثم سُمِّيَ امتزاجُ كلّ واحدٍ من الزوجين بصاحبِه لباسًا ، لانضمامِ الجسدين وامتزاجِهما تشبيهًا بالثوبِ . ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي بقبولِ التوبةِ من خيانتهم لأنفسِهم ، أو بالتخفيفِ عنهم بالرُّخصةِ والإباحةِ . ﴿ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ يُحتملُ العفو من الذنبِ، ويُحتملُ التوسعةُ والتسهيلُ. ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ أي قد أحلَّ لكم ما حُرِّمَ عليكم ، وسَمَّى الجماعَ مباشرةً لتلاصقِ البشرتين فيه . ﴿ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ قال العلماءُ : معناه وابتغوا الولدَ . وقيل: ماكتب اللهُ لنا هو القرآنُ . وقيل: المعنى اطلبوا الرّخصةَ والتوسعةَ . ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ

ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ . وروى مسلمٌ عن ابنِ جُنْدُب قال قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم :(لا يغرَّنكم من سحورِكم أذانُ بلالٍ ولا بياضُ الأُفُقِ المستطيلِ هكذا حتى يستطيرَ هكذا). يستطيرُ أي ينتشرُ ضَوْءُه . ومعنى ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي بياضُ النهارِ. وعن عائشةَ عن النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : (من لم يُبَيِّتْ الصِّيامَ قبل طلوعِ الفجرِ فلا صيامَ له) (الدارقطنى) والصّيامُ من العباداتِ فلا يصحُّ إلاّ بنيّةٍ ، وعن عديِّ بنِ حاتمٍ قال قلتُ : يارسولَ الله ، ما الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ ، أهما الخيطان ؟ قال : (إنك لعريضُ القفا إن أبصَرْتَ الخيطين ، ثم قال: لا بل هو سوادُ الليلِ وبياضُ النهارِ). ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ فلا يجوزُ في اليومِ " أي في النهار" شيءٌ مما أباحه في الليلِ إلاّ لمسافرٍ أو مريضٍ . فمن أفطر في رمضانَ من غيرِ ما ذُكِرَ فلا يخلو إمّا أنْ يكونَ عامدًا أو ناسيًا ، فإنْ كان عامدًا فقال مالكُ : من أفطر في رمضانَ عامدًا بأكْلٍ أو شُرْبٍ أو جِمَاعٍ فعليه القضاءُ والكفّارةُ . وفي صحيحِ مسلمٍ عن أبي هريرةَ أنّ رجلاً أفطر في رمضانَ فأمره النبيُّ أنْ يُكَفِّرَ بعتقِ رقبةٍ أو صيامِ شهرين متتابعين أو إطعامِ ستين مسكينًا . واختلفوا أيضًا فيما يجبُ على المرأةِ يطؤُها زوجُها في رمضانَ ، فقال مالكُ وأبو يوسفَ وأصحابُ الرأيِ : عليها مثلُ ما على الزوجِ . وقال الشّافعيُّ : ليس عليها إلاّ كفّارةٌ واحدةٌ وسواءٌ طاوعتْه أو أكرهها ، لأنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم أجاب السّائلَ بكفّارةٍ واحدةٍ ولم يُفَصِّلْ. ورُوِيَ عن أبي حنيفةَ: إنْ طاوعتْه فعلى كلِّ واحدٍ منهما كفّارةٌ ، وإنْ أكرهها فعليه كفّارةٌ واحدةٌ لا غيرَ. وقال مالكُ : عليه كفّارتان. واختلفوا أيضًا فيمن جامع أو أكل ناسيًا لصومه ، فقال الشّافعيُّ وأبو حنيفةَ وأصحابُه وإسحاقُ : ليس عليه في الوجهين شيءٌ ، لا قضاءَ ولا كفّارةَ. وقال مالكُ والليثُ والأوزاعيُّ: عليه القضاءُ ولا كفّارةَ . وقال قومٌ من أهل الظاهرِ : سواءٌ وطِئَ ناسيًا أو عامدًا فعليه القضاءُ والكفّارةُ . وقال ابنُ

المنذرِ : لا شيءَ عليه . وقال مالكُ والشّافعيُّ: إذا أكل ناسيًا فظنّ أنّ ذلك قد فطّره فجامع عامدًا أنّ عليه القضاءَ ولا كفّارةَ عليه . وقال الجمهورُ : إنّ من أكل أو شربَ ناسيًا فلا قضاءَ عليه وصومُه تام، لحديثِ أبي هريرةَ قال قال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم (إذا أكل الصّائمُ ناسيًا أو شربَ ناسيًا فإنما هو رزقٌ ساقه اللهُ تعالى " إليه " ولا قضاءَ عليه – وفي روايةٍ – وليُتِمَّ صومَه فإن اللهَ أطعمه وسقاه)(الدارقطني). ولمّا بيّن اللهُ محظوراتِ الصّيامِ وهي الأكلُ والشّربُ والجِمَاعُ، ولم يذكرْ المباشرةَ التي هي اتصالُ البشرةِ بالبشرةِ كالقبلةِ والجَسّةِ وغيرِها، دلّ ذلك على صحّةِ صومِ من قبّل وباشرَ، لأنّ فحوى الكلامِ إنما يدلُّ على تحريمِ ما أباحه الليلُ وهو الأشياءُ الثلاثةُ . وقال علماؤُنا : يُكْرَه لمن لا يأمنُ على نفسه ولا يملكُها ، لئلاّ يكون سببًا إلى ما يُفسدُ الصّومَ. ورَوَى البخاريُّ عن عائشةَ قالتْ: كان النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يُقَبِّلُ ويُبَاشِرُ وهو صائمٌ . وقال أبو عمرَ : ولو قبّل فأمْذَى لم يكنْ عليه شيءٌ عندهم .وقال أحمدُ : من قبّل فأمذَى أو أمْنَى فعليه القضاءُ ولا كفّارةَ عليه ، إلاّ على من جامع فأوْلَجَ عامدًا أو ناسيًا . واتّفق العلماءُ على صحّةِ صومِ من أصبح جُنُبًا . وعن عائشةَ وأمِّ سَلَمةَ رضي اللهُ عنهما أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كان يُصبحُ جُنُبًا من جِمَاعٍ غير احتلامٍ ثم يصومُ . وقال الشّافعيُّ : ولو كان الذّكَرُ داخلَ المرأةِ فنزعَه مع طلوعِ الفجرِ أنه لا قضاءَ عليه . واختلفوا في الحائضِ ، وقال عبدُ الملك : إذا طَهُرَتْ الحائضُ قبل الفجرِ فأخّرتْ غُسْلَها حتى طلع الفجرُ فيومُها يومُ فِطْرٍ ، لأنّها في بعضِه غيرُ طاهرةٍ ، وليستْ كالجُنُبِ لأنّ الاحتلامَ لا ينقضُ الصّومَ ، والحيضةَ تنقضُه . وقال الأوزاعيُّ : تقضي لأنّها فرّطَتْ في الاغتسالِ . وقيل : إذا طهُرَتْ المرأةُ ليلاً في رمضانَ فلم تَدْرِ أكان ذلك قبل الفجرِ أو بعده ، صامتْ وقَضَتْ ذلك اليومَ احتياطًا ، ولا كفّارةَ عليها . وفي حديثِ شدّادِ بنِ أوسٍ وغيرِه أنه صلى اللهُ عليه وسلم مرّ عامَ الفتحِ على رجلٍ

يحتجم لثمان عشرة ليلةَ خلتْ من رمضانَ فقال : (أفطرَ الحاجمُ والمحجومُ) (مسلم). واحتجم هو صلى الله عليه وسلم عامَ حجّةِ الوداعِ وهو مُحْرِمٌ صائمٌ ، فإذا كانتْ حجّتُه صلى الله عليه وسلم عامَ حجّةِ الوداعِ فهي ناسخةٌ لا محالةَ ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يُدْرِكْ بعد ذلك رمضانَ ، لأنه تُوُفِّيَ في ربيع الأوّلِ .

وقد نَهَى الرسولُ صلى الله عليه وسلم عن الوصالِ في الصّيامِ فقال : (لا تواصلوا فأيّكم أراد أنْ يواصلَ فليواصلْ حتى السَّحَر) قالوا: فإنك تواصلُ يارسولَ اللهِ . قال: (لستُ كهيأتكم إني أبيتُ لي مُطْعِمٌ يُطعمُني وساقٍ يَسقيني)(البخارى) قالوا : وهذا إباحةٌ لتأخيرِ الفطرِ إلى السَّحَرِ ، وهو الغايةُ في الوصالِ لمن أراده ، ومَنْعٌ من اتصالِ يومٍ بيومٍ . ويُستَحَبُّ للصائمِ أنْ يُفطِرَ على رُطَبَاتٍ أو تَمْرَاتٍ أو حَسْوَاتٍ من الماءِ قبل أنْ يُصلّيَ . وعن ابنِ عباسٍ قال : كان النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم إذا أفطر يقولُ : (لك صُمْنَا وعلى رزْقِكَ أفطرنا فتقبّل منّا إنك أنت السميعُ العليمُ) (الدارقطنى) ، كما كان يقولُ : (ذهب الظّمأُ وابتلّتْ العروقُ وثبتَ الأجرُ إنْ شاء اللهُ) خرّجه أبو داود. وعن زيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (من فَطَّرَ صائمًا كان له مثلُ أجرِهم من غير أنْ يُنْقصَ من أجورِهم شيئًا) (الدارقطنى) وكما قال : (إنّ للصائمِ عند فِطْرِه لدعوةً لا تُرَدُّ) (الدارقطنى) وفي صحيحِ مسلمٍ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم : (للصّائمِ فرْحَتَان يفرحُهما إذا أفطر فَرِحَ بفِطْرِه وإذا لَقِيَ رَبَّه فَرِحَ بصومِه) . ويُستحَبُّ الصومُ ستةَ أيّامٍ من شوّالٍ لما رواه مسلمُ والترمذيُّ عن أبي أيوبَ الأنصاريِّ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (من صام رمضانَ ثم أتبعه ستًّا من شوّالٍ كان له كصيامِ الدّهرِ كلِّه) ، وعن ثوبان مَوْلَى النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه سمع رسولَ اللهِ صلى اللهُ

عليه وسلم يقولُ : (جعل اللهُ الحسَنَةَ بعشْرِ أمثالِها فشهرُ رمضانَ بعشرةِ أشهرٍ وستّةُ أيّامٍ بعد الفطْرِ تمامُ السّنةِ) . رواه النسائيُّ .

﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ وأجمع أهلُ العلمِ أنّ من جامع امرأتَه وهو معتكفٌ عامدًا لذلك في فَرْجِهَا أنه مُفْسِدٌ لاعتكافه ، وقال الحسنُ البصريُّ والزّهريُّ :عليه ما على المواقعِ أهلَه في رمضانَ . فأمّا المباشرةُ من غير جِمَاعٍ فإنْ قُصِدَ بها التلذّذُ فهي مكروهةٌ ، وإنْ لم يُقْصَدْ لم يُكْرَهْ ، لأنّ عائشةَ كانتْ تُرَجِّلُ " تُمَشِّطُ " رأسَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وهو معتكفٌ ، وكانتْ لا محالةَ تَمَسُّ جسدَه بيدِها ، فدلّ بذلك على أنّ المباشرةَ بغيرِ شهوةٍ غيرُ محظورةٍ . ويجوزُ الاعتكافُ في أيِّ مسجدٍ له مؤذّنٌ وإمامٌ ، لما رواه الدّارَقُطْنِيُّ عن الضحّاكِ عن حُذيفةَ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ :(كُلُّ مسجدٍ له مؤذّنٌ وإمامٌ فالاعتكافُ فيه يصلحُ). وأقلُّ الاعتكافِ عند مالكٍ وأبي حنيفةَ يومٌ وليلةٌ ، فإنْ قال: للهِ عليّ اعتكافُ ليلةٍ لزم اعتكافُ ليلةٍ ويومٍ ، وكذلك إنْ نَذَر اعتكافَ يومٍ لزمه يومٌ وليلةٌ.. وقال أصحابُ أبي حنيفةَ : يصحُّ الاعتكافُ ساعةً . وليس للمعتكفِ أنْ يخرجَ من مُعْتَكَفِه إلاّ لما لابدّ له منه ، لما رَوَي الأئمّةُ عن عائشةَ قالتْ : كان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إذا اعتكف يُدْنِي إليّ رأسَه فأرجّلُه ، وكان لا يدخلُ البيتَ إلاّ لحاجةِ الإنسانِ ، تريدُ الغائطَ والبولَ . وللضرورةِ كالمرضِ البيّنِ والحَيضِ . وفرّق إسحاقُ بين الاعتكافِ الواجبِ والتطوّعِ ، فقال : في الاعتكافِ الواجبِ : لايعودُ المريضَ ولا يشهدُ الجنائزَ ، وقال في التطوّعِ : يَشترِطُ حين يبتدِئُ ، حضورَ الجنائزِ وعيادةَ المرضى والجمعةَ . وأجمع العلماءُ على أنّ الاعتكافَ ليس بواجبٍ وأنه سُنّةٌ . وفي زمنِ الاعتكافِ قال الشّافعيُّ : إذا قال المعتكفُ للهِ عليّ يومٌ دخل المسجدَ قبل طلوعِ الفجرِ وخرج بعد

غروبِ الشمسِ . وعن عائشةَ قالتْ : كان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إذا أراد أنْ يعتكفَ صلّى الفجرَ ثم دخل معتكفَه . واستحبَّ مالكُ لمن اعتكف العشرَ الأواخرَ أنْ يبيتَ ليلةَ الفِطْرِ حتى يغدوَ منه إلى الـمُصَلّى .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أي هذه الأحكامُ حدودُ اللهِ فلا تخالفوها ، والحدودُ الحواجزُ . ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ ﴾ أي كما بيّن هذه الحدودَ يُبيّنُ جميعَ الأحكامِ لتتقوا مجاوزتَها . والآياتُ : العلاماتُ الهاديةُ إلى الحقِّ .

(٢١) الْبِـرُّ الْكَـاذِب :

قولُه تعالى : ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ (البقرة: ١٨٩) كان الأنصارُ إذا حَجُّوا وعادوا لا يدخلون من أبوابِ بيوتِهم ، فإنّهم كانوا إذا أهلّوا بالحج أو العمرةِ يلتزمون شرعًا ألاّ يحولَ بينهم وبين السماءِ حائلٌ ، فإذا خرج الرجلُ منهم بعد ذلك ، أي من بعد إحرامِه من بيتِه ، فرجع لحاجةٍ لا يدخل من بابِ الحجرةِ من أجلِ سقفِ البيتِ أنْ يحولَ بينه وبين السماءِ ، فكان يتسنّم سقفَ بيتِه على الجدرانِ ثم يقومُ في حجرتِه فيأمرُ بحاجتِه فتخرجُ إليه من بيتِه ، فكانوا يَرَوْنَ هذا من النُّسُكِ والبرِّ ، فبيّن اللهُ تعالى أنّ البرَّ في امتثالِ أمرِه . وعن ابنِ زيدٍ أنّ الآيةَ مَثَلٌ في جِمَاعِ النساءِ ، أمر بإتيانِهنّ في القُبُلِ لا من الدُّبُرِ ، وسمَّى النساءَ بيوتًا للإيواءِ إليهنّ ، كالإيواءِ إلى البيوتِ . وقال الحسنُ : كانوا يتطيّرون ، فمن سافر ولم تحصلْ حاجتُه كان يأتي بيتَه من وراءِ ظهرِه تطيُّرًا من الخيبةِ ، فقيل لهم : ليس في التطيّرِ برٌّ ، بل البرُّ أنْ تتقوا اللهَ وتتوكّلوا عليه .

(٢٢) الإذْنُ بقتَـــالِ الْمُعْتَـــدِين :

قال تـــعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ (البقرة:١٩٠) هذه أوّلُ آية نزلتْ في الأمرِ بالقتالِ ، وقد كان القتالُ محظورًا قبل الهجرةِ لقولِه : ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (المؤمنون:٩٦) وقـــولـــه : ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡ ﴾(المائدة:١٣) وقـــولـــه : ﴿ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ (المزمل:١٠) وقـــولِه : ﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾ (الغاشية:٢٢) فلما هاجر إلى المدينة أُمرَ بالقتالِ. ورُويَ عن أبي بكرٍ الصدّيقِ أنّ أوّلَ آيةٍ نزلتْ في القـــتالِ : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ ﴾ (الحج:٣٩). والأوّلُ أكثر، وأنّ آيةَ الإذنِ إنما نزلتْ في القتالِ عامّةً لمن قاتل ولمن لم يقاتلْ من المشركين ، وذلك أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم خرج مع أصحابِه إلى مكّةَ للعُمْرَةِ ، فلما نزل الحُدَيْبِيَةَ بقربِ مكةَ " والحُدَيْبِيَةُ اسمُ بئرٍ ، فسُمّيَ ذلك الموضعُ باسمِ تلك البئرِ " فصدَّه المشركون عن البيتِ ، وأقام بالحُدَيْبِيَةِ شهرًا ، فصالحوه على أنْ يرجعَ من عامِه ذلك كما جاء ، على أنْ تُخلَ له مكةُ في العامِ المقبلِ ثلاثةَ أيامٍ ، وصالحوه على ألاّ يكونَ بينهم قتالٌ عشرَ سنين ، ورجع إلى المدينةِ . فلما تجهّزوا لعُمْرَةِ القضاءِ ، وخاف المسلمون غدرَ الكفّارِ وكرِهوا القتالَ في الحرمِ ، وفي الشهرِ الحرامِ ، فنزلتْ هذه الآيةُ ، أي يحلُّ لكم القتالُ إنْ قاتلكم الكفّارُ ، فكان عليه الصلاةُ والسلامُ يقاتلُ من قاتله ويكُفُّ عمن كَفَّ عنه ، حتى نزل قولُه تعالى : ﴿ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (التوبة:٥) وكـــذلك قـــولُـــه تـــعـــالـــى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ ﴾ (التوبة:٣٦) فأمر بالقتالِ لجميعِ الكفّارِ ، والقتالُ لا يكونُ في النساءِ ولا في الصبيانِ ومن أشبههم ، كالرُّهبانِ والزَّمْنَى والشيوخِ والأُجَرَاءِ ، فلا يُقتَلُونَ ، وبهذا أوصى أبو بكرٍ الصدّيقُ رضي اللهُ عنه يزيدَ بنَ أبي سفيانَ حين أرسله إلى الشامِ إلاّ أنْ يكونَ لهؤلاء إذايةٌ . ومن وصيّةِ أبي بكرٍ ليزيدَ بنِ أبي سفيانَ: " وإني مُوصِيكَ بعشرٍ : لا تقتلنَّ امرأةً ولا صبيًا ولا كبيرًا هَرِمًا ولا تقطعنَّ شجرًا

ولا تُخَرِّبَنَّ عامرًا ولا تعقرنَّ شاةً ولا بعيرا إلاّ لمأكَلَة ولا تحرِقَنَّ نخـلاً ولا تُغرِقَنَّه ولا تَغْلُلْ ولا تغبنْ". وقال عمرُ بنُ الخطابِ : اتّقوا اللهَ في الذرّيةِ والفلاحين الذين لا ينصُبون لكم الحربَ . وكان عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لا يقتلُ حرّاثًا . وقولُه تعـالى : ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ أي لا تعتدوا في القتالِ لغيرِ وجهِ اللهِ ، كالحَميّةِ وكَسْبِ الذِّكْرِ ، أما المُرتَدُّون فليس إلاّ القتلُ أو التوبةُ ، وكذلك أهل الزَّيْغِ والضلالِ ليس إلاّ السيفُ أو التوبةُ . ومن أَسَرَّ بالباطلِ ثم ظهر عليه فهو كالزِّنْديقِ يُقْتَلُ ولا يُستتابُ . وأما الخوارجُ على أئمةِ العدلِ فيجب قتالُهم حتى يرجعوا إلى الحقِ .

(٢٣) فـي الحَـجِّ والعُـمْرَة :

يقولُ تعالى : ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (البقرة:١٩٦) .

اختلف العلماءُ في المُرادِ بإتمامِ الحجِ والعُمرةِ ، فقيل أداؤهما والإتيانُ بهما . وقيل : المُرادُ تمامُهما بعد الشروعِ فيهما ، فإنَّ من أحْرَمَ بنُسُكٍ وجب أنْ يمضيَ فيه ولا يفسخَه . وعن عمرَ بنِ الخطابِ : إتمامُهما أنْ تخرجَ قاصدًا لهما لا لتجارةٍ ولا لغيرِ ذلك . وقال عمرُ أيضًا : إتمامُهما أنْ يُفْرِدَ كلٌّ واحدٍ منهما من غيرِ تَمتُّعٍ وقِرَانٍ . ورَوَى أبو داود والدّارَقُطْنِيُّ عن أمِّ سَلَمَةَ قالتْ قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (مَنْ أَحْرَمَ من بيتِ المَقْدِسِ بحجٍّ أو عُمْرَةٍ كان من ذنوبه كيَوْمِ

ولدته أمُّه) "وفي رواية"(غُفِرَ له ما تقدّمَ من ذنبه) وكره مالكُ أنْ يُحْرِمَ أحدٌ قبل الميقات بحُجَّة أنّ الرسولَ صلى الله عليه وسلم وقّت المواقيتَ وعَيّنَها ، فصارتْ بيانًا لمُجْمَلِ الحجِّ ، ولأنه صلى اللهُ عليه وسلم لم يُحْرِمْ من بيته لحجّته ، بل أحرمَ من ميقاته الذي وقّته لأمّته . وعن عائشةَ قالتْ : ما خُيِّرَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم بين أمرين إلاّ اختار أيسرَهما. وعلمَ الصّحابةُ أنّ إحرامَه من ميقاته كان تيسيرًا على أُمّته . وقد وَقّتَ لأهلِ المدينةِ ذا الْحُلَيْفَةِ " قرية بينها وبين مكة مائتا ميل" ولأهلِ الشامِ الْجُحْفَةَ " قرية بينها وبين مكة خمسُ مراحل ويقرب منها قرية رابغ " ولأهلِ نَجْد قَرْن "جبل مشرف على عرفات وهو على مرحلتين من مكة "، ولأهلِ اليمَنِ يَلَمْلَم "مكان على مرحلتين من مكة ". ورَوَى أبو داود والترمذيُّ عن ابنِ عباسٍ أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم وقّت لأهلِ المشرقِ الْعَقيقَ . وعن عائشةَ أنّ الرسولَ صلى اللهُ عليه وسلم وقّت لأهلِ العراقِ ذاتَ عِرْق . وأجمع أهلُ العِلْمِ أنّ من أحرم قبل أنْ يأتيَ الميقاتَ أنه مُحْرِمٌ ، ولكنْ فُضِّلَ الإحرامُ عند الميقاتِ كراهيةَ أنْ يُضَيِّقَ المرءُ على نفسه . وكان عبدُ اللهِ ابنُ عمرَ يقولُ : ليس من خَلْقِ اللهِ أحدٌ إلاّ عليه حجَّةٌ وعُمْرَةٌ واجبتان من استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فمن زاد بعدها شيئًا فهو خيرٌ وتطوُّعٌ . وعن زيدِ بنِ ثابتٍ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ الحجَّ والعُمرةَ فريضتان لا يضرُّك بأيِّهما بدأتَ)(الدارقطني). وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ قال : سأل رجلٌ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عن الصلاةِ والزّكاةِ والحجّ: أواجبٌ هو؟ قال:(نعم) فسأله عن العمرةِ : أواجبةٌ هي؟ قال :(لا وأنْ تعتمرَ خيرٌ لك)(الدارقطني). وعن الشّافعيِّ قال : ولو لبّى رجلٌ ولم يَنْوِ حجًّا ولا عمرةَ لم يكنْ حاجًّا ولا معتمرًا ، ولو نَوَى ولم يُلَبِّ حتى قضى المناسكَ كان حجُّه تامًّا ، واحتجّ بحديثِ الرسولِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنما الأعمالُ بالنّيات). قولُه تعالى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ الإحصارُ هو المنعُ أو العوائقُ ، أي بأيِّ عُذْرٍ كان .

(٢٤) النـــاسُ كانـــوا أُمَّةً واحدةً :

يقولُ تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة:٢١٣).

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي على دينٍ واحدٍ . قال أُبَيُّ بنُ كعبٍ وابنُ زيدٍ : المرادُ بالناسِ بنو آدمَ حين أخرجهم اللهُ نَسَمًا من ظهرِ آدم فأقرّوا له بالوحدانية . وقال مجاهدٌ : الناسُ آدمُ وحدَه ، وسُمِّيَ الواحدُ بلفظِ الجمعِ لأنه أصلُ النَّسْلِ . وقيل آدمُ وحوّاءُ . وقال ابنُ عباسٍ وقَتادة : المرادُ بالنّاسِ القرونُ التي كانتْ بين آدمَ ونوحٍ ، وهي عشرةٌ ، كانوا على الحقِ حتى اختلفوا فبعث اللهُ نوحًا فمَن بعدَه. وقال ابنُ أبي خَيْثَمَةَ : منذ خلق اللهُ آدمَ عليه السلامُ إلى أنْ بعث محمدًا صلى اللهُ عليه وسلم خمسةُ آلافِ سنةٍ وثمانمائةُ سنةٍ . وقيل أكثرُ من ذلك ، وكان بينه وبين نوحٍ ألفٌ ومائتا سنةٍ . وعاش آدمُ تسعمائةٍ وستين سنةً ، وكان الناسُ في زمانه أهلَ مِلّةٍ واحدةٍ ، متمسّكين بالدّينِ ، تُصافحُهم الملائكةُ ، وداموا على ذلك إلى أنْ رُفِعَ إدريسُ عليه السلامُ فاختلفوا . وهذا فيه نظرٌ ، لأنّ إدريسَ بعد نوحٍ على الصحيحِ. وقال قومٌ منهم الكلبيُّ والواقديُّ : المرادُ نوحٌ ومن معه في السفينةِ ، وكانوا مسلمين ثم بعد وفاةِ نوحٍ اختلفوا . وقال ابنُ عباسٍ أيضًا : كانوا أُمّةً واحدةً على الكُفْرِ ، يريدُ في مدّةِ نوحٍ حين بعثه اللهُ . وعنه أيضًا : كان الناسُ على عهدِ إبراهيمَ عليه السلامُ أُمّةً واحدةً، كُلُّهم كُفّارٌ ، ووُلِدَ إبراهيمُ في جاهليةٍ ، فبعث اللهُ إبراهيمَ وغيرَه من النبيّين . ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ ﴾ أي كان الناسُ على دينِ الحقِ فاختلفوا فبعث اللهُ النبيّينَ ، مُبشّرين من أطاع ومُنذرين من عصَى .

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ وجملتُهم مائةٌ وأربعةٌ وعشرون ألفًا ، والرُّسُلُ منهم ثلاثةُ مائةٍ وثلاثةُ عَشَرَ ، والمذكورون في القرآنِ بالاسمِ ثمانيةُ عَشَرَ ، وأوّلُ الرُّسُلِ آدمُ ، على ما جاء في حديثِ أبي ذرٍّ. وقيل: نوحٌ ، لحديثِ الشّفاعة ، فإنّ الناسَ يقولون له : أنت أوّلُ الرُّسُلِ . وقيل:إدريسُ . ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ والمرادُ التوراةُ ، و ﴿ أُوتُوهُ ﴾ " أعطُوه " وقيل : يعودُ على المنَزَّلِ عليه ، وهو محمدٌ صلى اللهُ عليه وسلم ، قاله الزجّاجُ . أي وما اختلف في النبيِّ إلاّ الّذين أُعْطُوا عِلْمَه . ﴿ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ ﴾ أي لم يختلفوا إلاّ للبغيِ ، وفي هذا تنبيهٌ على السَّفَهِ في فعْلِهم . وقالتْ طائفةٌ : معنى الآيةِ أنّ الأُمَمَ كذَّبَ بعضُهم كتابَ بعضٍ ، فهدَى اللهُ أُمّةَ محمد للتصديقِ بجميعِها . واختلفوا في عيسى فجعلتْه اليهودُ فِرْيَةً ، وجعلتْه النصارى ربًّا ، فهدَى اللهُ المؤمنين بأنْ جعلــوه عبدًا للهِ . ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي بأمرِه . ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ردٌّ على المعتزلةِ في قولِهم : إنّ العبدَ يستبدُّ بِهدايةِ نفسِه .

(٢٥) الإثْــمُ والنّفْــعُ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة:٢١٩)

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ السّائلون هم المؤمنون . والخمرُ ماءُ العِنَبِ الذي غَلَى أو طُبِخَ ، وما خامر العقلَ من غيرِه فهو في حُكْمِه . وأجمع العلماءُ على أنّ القِمَارَ كُلَّه حرامٌ، وإنما ذُكِرَ الميسرُ من بينِه فجُعِلَ كُلُه قياسًا على الميسرِ . وقال الجمهورُ من الأُمّةِ إنّ ما أسكَرَ كثيرُه فمُحَرَّمٌ قليلُه وكثيرُه ، والحدُّ في ذلك واجبٌ .

إنّ اللهَ تعالى لم يَدَعْ شيئًا من الكرامةِ والبرِّ إلاّ أعطاه هذه الأُمّةَ ، ومن كرامته وإحسانه أنه لم يوجبْ عليهم الشّرائعَ دفعةً واحدةً ، ولكنْ أوجبَ عليهم مرّةً بعد مرّة فكذلك تحريمُ الخمرِ . وهذه أوّلُ آيةٍ نزلتْ في تحريمِ الخمرِ ، ثم بعده : ﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ (النساء:٤٣) ثم قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ (المائدة:٩٠)ثم قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (المائدة:٩١) الميسرُ قمارُ العربِ بالأزلامِ . قال ابنُ عباسٍ : كان الرجلُ في الجاهليةِ يُخاطِرُ الرجلَ على أهله وماله فأيّهما قَمَرَ صاحبَه ذهب بماله وأهله فنزلتْ الآيةُ . وعن عليٍّ بنِ أبي طالبٍ وبنِ عباسٍ أيضًا : كلُّ شيءٍ فيه قِمَارٌ من نَرْدٍ وَشِطْرَنْج فهو الْمَيْسِرُ ، إلاّ ما أُبيحَ من الرّهانِ في الخيلِ والقُرْعَةِ في إفرازِ الحقوقِ . وقال مالكٌ : الْمَيْسِرُ مَيْسِران : مَيْسِرُ اللهوِ ومَيْسِرُ الْقِمَارِ ، فمن مَيْسِرِ اللهوِ النَّرْدُ والشِّطْرَنْجُ والملاهي كلّها . ومَيْسِرُ القِمَارِ ما يتخاطرُ الناسُ عليه . ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ يعني الخمرَ والمَيْسِرَ . وإثمُ الخمرِ ما يصدرُ عن الشّاربِ من المخاصمةِ والمشاتمةِ وقولِ الفُحْشِ والزُّورِ ، وزوالِ العقلِ ، وتعطيلِ الصلواتِ والتعوّقِ عن ذِكْرِ اللهِ ، إلى غيرِ ذلك . رَوَى النَّسائيُّ عن عثمانَ بنِ عفّانٍ رضي اللهُ عنه قال : اجتنبوا الخمرَ فإنها أمُّ الخبائثِ ، إنه كان رجلٌ ممن كان قبلكم تَعَبَّدَ ،فعَلِقَتْه امرأةٌ غَوِيَّةٌ ، فأرسلتْ إليه جاريتَها فقالتْ له : إنّا ندعوك للشّهادةِ ، فانطلق مع جاريتِها ، فطفقتْ كلما دخل بابًا أغلقتْه دونه ، حتى أفضى إلى امرأةٍ وَضِيئَةٍ عندها غلامٌ وإناءُ خَمْرٍ ، فقالتْ : إني واللهِ ما دعوتُك للشهادةِ ، ولكن دعوتُك لتقعَ عليّ ، أو تشربَ من هذه الخَمْرِ كأسًا أو تقتلَ هذا الغلامَ . قال : فاسقِني من هذه الخَمْرِ كأسًا ، فسقتْه كأسًا . قال : زيدوني ، فلم يَرِمْ " يبرحْ " حتى وقع عليها ، وقتل

النفسَ ، فاجتنبوا الخمْرَ ، فإنّها واللهِ لا يجتمعُ الإيمانُ وإدمانُ الخَمْرِ ، إلاّ ليوشكُ أنْ يُخرِجَ أحدُهما صاحبَه . وأما القِمَارُ فيورِّثُ العداوةَ والبغضاءَ ، لأنه أكْلُ مالِ الغيرِ بالباطلِ.﴿ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أما في الخمرِ فربحُ التجارةِ فإنهم كانوا يجلبونَها من الشامِ برخَصٍ فيبيعونَها في الحجازِ بربحٍ . هذا أصحُّ ما قيل في منفعتِها . وقيل في منافعِها : إنّها تَهضِمُ الطعامَ وتُسْخِي البخيلَ ، وتشجِّع الجبانَ . ومنفعةُ المَيْسِرِ مصيرُ الشيءِ إلى الإنسانِ في القِمَارِ بغيرِ كَدٍّ ولا تَعَبٍ ، وهو أكْلُ المالِ بالباطلِ . ﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ فالإثمُ أعْوَدُ بالضررِ في الآخرةِ من نفعِهما في الدنيا . وقال حمزةُ والنَّسائيُّ إنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم لعن الخَمْرَ ولعن معها عشرةً : بائعَها ومُبتاعَها والمُشْتَراةَ له وعاصرَها والمعصورةَ له وساقيَها وشاربَها وحاملَها والمحمولةَ له وآكِلَ ثَمَنِها . ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ سؤالاً عن النفقةِ إلى من تُصْرَفُ ، وهو في شأنِ عمرِو بنِ الجموحِ ، فإنه لما نزل : ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ ﴾ (البقرة:٢١٥) قال : كم أُنفِقُ ؟ فنزل ﴿ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ والعفوُ ما سَهُلَ وتيسّرَ وفَضَلَ، ولم يشقَّ على القلبِ إخراجُه . ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ أي في أمرِ النفقةِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ في الحياةِ الدنيا والآخرةِ فتحبسون من أموالِكم ما يُصلحُكم في معاشِ الدنيا وتنفقون الباقي فيما ينفعُكم في الآخرةِ .

(٢٦) الصّلاة :

يقولُ تعالى ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ (البقرة:٢٣٨) خطابٌ لجميعِ الأُمّةِ بالمحافظةِ على الصلواتِ في أوقاتِها بجميعِ شروطِها . وأفرد الصلاةَ الوسطى بالذّكْرِ . واختلف الناسُ في تعيينِ الصلاةِ الوسطى . فقيل : إنّها الظهرُ ، لأنها وسط النهارِ ،ولأنها أوّلُ صلاةٍ صُلّيَتْ في

obeikandl.com

الإسلامِ . وقيل : إنّ قبلها صلاتين وبعدها صلاتين . وقيل : إنّها العَصْرُ ، لأنّ قبلها صلاتَيْ نَهَارٍ وبعدها صلاتَيْ لَيْلٍ . وعلى هذا القولِ الجمهورُ من الناسِ ، واحتجّوا بالأحاديثِ الواردةِ في هذا البابِ ، وأنصُّها حديثُ ابنِ مسعودٍ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (الصّلاةُ الوسطى صلاةُ العصرِ)(الترمذى). وقيل : المغرب ، لأنها متوسِّطةٌ في عددِ الركعاتِ ، ليستْ بأقلِّها ولا أكثرِها ، ولا تُقْصَرُ في السّفرِ وبعدها صلاتا جَهْرٍ وقبلها صلاتا سرّ . وعن عائشةَ أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (إنّ أفضلَ الصلواتِ عند اللهِ صلاةُ المغربِ لم يحطّها عن مسافرٍ ولا مُقيمٍ فتح اللهُ بها صلاةَ الليلِ وختم بها صلاةَ النهارِ فمن صلّى المغربَ وصلّى بعدها ركعتين بنى اللهُ له قَصْرًا في الجنّةِ ومن صلّى بعدها أربعَ ركعاتٍ غَفَرَ اللهُ له ذُنوبَ عشرين سنةً – أوَ قال – أربعين سنةً) (البخارى). وقيل : العِشاءُ ، لأنها بين صلاتين لا تقصُران ، وتجيءُ في وقتِ نومٍ ، ويُستَحَبُّ تأخيرُها ، وذلك شاقٌّ فوقع التأكيدُ في المحافظةِ عليها . وقيل : إنّها الصّبحُ لأنّ قبلها صلاتَي ليلٍ يُجْهَرُ فيهما وبعدها صلاتَي نَهارٍ يُسَرُّ فيهما ، ولأنّ وقتَها يدخلُ والناسُ نيامٌ ، والقيامُ إليها شاقٌّ في زمنِ البرْدِ لشدّةِ البَرْدِ وفي زمنِ الصّيفِ لقِصَرِ الليلِ . وقد استدلّ من قال إنّها الصّبحُ بقولِه تعالى : ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ (البقرة:٢٣٨) يعني فيها ، ولا صلاةَ مكتوبةَ فيها قُنُوتٌ إلاّ صلاةَ الصّبحِ . وقيل : صلاةُ الجمعةِ ، لأنّها خُصَّتْ بالجَمْعِ لها والخطبةِ فيها وجُعِلَتْ عيدًا ، ورَوَي مسلمُ عن عبدِ اللهِ أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال لقومٍ يتخلّفون عن الجمعةِ (لقد هَمَمْتُ أنْ آمُرَ رجلاً يُصلّي بالناسِ ثم أحرقُ على رجالٍ يتخلّفون عن الجمعةِ بيوتَهم) . وقيل إنّها الصّبحُ والعصرُ معًا .ورَوَى عُمارةُ بنُ رُوَيْبَةَ قال سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ : (لنْ يَلِجَ النارَ أحدٌ صلّى قبل طلوعِ الشمسِ وقبل غروبِها) يعني الفجرَ والعصرَ . وعنه أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (من صلّى البَرْدَين دخل الجنّةَ) كُلُّه ثابتٌ في صحيحِ

مسلم وغيره . وسُمِّيَتا البَرْدَيْن لأنهما يُفعلان في وقتَي البَرْدِ . وقيل : إنّها العَتْمَةُ والصّبحُ . قال أبو الدرداءِ رضي اللهُ عنه في مرضِه الذي مات فيه : اسمعوا وبلّغوا من خلفَكم حافظوا على هاتين الصلاتين " يعني في جماعة " العِشاءِ والصّبحِ ، ولو تعلمون ما فيهما لأتَيْتُمُوها ولو حَبْوًا " زَحفًا " على مرافقِكم ورُكَبِكم . وقال معاذُ ابنُ جبلٍ : إنّها الصلواتُ الخمسُ بجملتِها ، لأنّ قولَه تعالى : ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ (البقرة:٢٣٨) يعمُّ الفرضَ والنّفلَ ، ثم خصَّ الفرضَ بالذِّكْرِ . وقيل : إنّها غيرُ معيّنةٍ ، فخبّأها اللهُ في الصّلواتِ كما خبّأ ليلةَ القدرِ في رمضان ، وكما خبّأ ساعةَ الجمعةِ وساعاتِ الليلِ المستجابِ فيها الدّعاءُ ، ليقوموا بالليلِ في الظلماتِ لمناجاةِ عالمِ الخفيّاتِ . فلم يَبْقَ إلاّ المحافظةُ على جميعِها وأدائِها في أوقاتِها ، واللهُ تعالى أعلمُ . ﴿ قَـٰنِتِينَ﴾ طائعين خاشعين . وقال مجاهدٌ : معنى قانتين خاشعين . والقنوتُ طولُ الرّكوعِ والخشوعِ وغضُّ البصرِ وخَفْضُ الجناحِ . وقال الرّبيعُ : القنوتُ طولُ القيامِ . وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قال : كنّا نسلّمُ على رسولِ اللهِ وهو في الصلاةِ فيردُّ علينا ، فلما رجعنا من عند النّجاشيِّ سلّمنا عليه فلم يردّ علينا ، فقلنا يارسولَ اللهِ ، كنا نسلّمُ عليك في الصلاةِ فتردُّ علينا فقال : (إنّ في الصلاةِ شُغُلاً)(مسلم) فأُمِرْنا بالسكوتِ ونُهينا عن الكلامِ . وأجمع المسلمون على أنّ الكلامَ عامدًا يُفسدُ الصلاةَ إلاّ ما رُوِيَ عن الأوزاعيِّ أنه قال : من تكلّم لإحياءِ نفسٍ أو مثلِ ذلك من الأمورِ الجسامِ لم تفسَدْ صلاتُه . فمن قطع صلاتَه لما يراه من الفضلِ في إحياءِ نَفْسٍ أو مالٍ أو ما كان بسبيلِ ذلك استأنف صلاتَه . وذهب مالكٌ والشّافعيُّ وأصحابُهما إلى أنّ الكلامَ فيها ساهيًا لا يُفسدُها . وعن مالكٍ قال : لو أنّ قومًا صلّى بهم الإمامُ ركعتين وسلّم ساهيًا فسبّحوا به فلم يَفْقَهْ ، فقال له رجلٌ من خلفه ممن هو معه في الصلاةِ: إنك لم تُتمّ فأتمّ صلاتَك ، فالتفتَ إلى القومِ فقال: أحَقٌّ ما يقول هذا ؟ فقالوا : نعم ، قال : يُصلّي الإمامُ بهم ما بَقِيَ من صلاتِهم ويُصلّون معه بقيّةَ صلاتِهم من تكلّم منهم ومن لم يتكلّم ولا شيءَ عليهم . وقال

مالكُ : يُستَحَبُّ إذا تكلّم الرجلُ في الصلاةِ أنْ يعودَ لها ولا يَبْني . وقال : إنما تكلّم رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وتكلّم أصحابُه معه يومئذ ، لأنهم ظنّوا أنّ الصلاةَ قصُرتْ ولا يجوزُ ذلك لأحدٍ اليومَ . وأجمعتْ الأمّةُ على أنّ القيامَ في صلاةِ الفرضِ واجبٌ على كلّ صحيحٍ قادرٍ عليه ، منفردًا كان أو إمامًا ، وقال صلى اللهُ عليه وسلم (إنما جُعِلَ الإمامُ ليؤتَمَّ به فإذا صلّى قائمًا فصلّوا قيامًا)(البخارى) واختلفوا في المأمومِ الصحيحِ يُصلّي قاعدًا خلفَ إمامٍ مريضٍ لا يستطيعُ القيامَ ، فأجازتْ ذلك طائفةٌ من أهلِ العلْمِ ، بل جمهورُهم ، لقولِه صلى اللهُ عليه وسلم في الإمامِ :(وإذا صلّى جالسًا فصلّوا جلوسًا أجمعون). وقد أجازتْ طائفةٌ من العلماءِ صلاةَ القائمِ خلفَ الإمامِ المريضِ لأنّ كُلاًّ يُؤدّي فَرْضَه على قدرِ طاقتِه تأسّيًا برسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إذ صلّى في مرضِه الذي تُوُفّيَ فيه قاعدًا وأبو بكرٍ إلى جنبِه قائمًا يُصلّي بصلاتِه والناسُ قيامٌ خلفَه ولم يُشرْ إلى أبي بكرٍ ولا إليهم بالجلوسِ ، وأكمل صلاتَه بهم جالسًا وهم قيامٌ . والمشهورُ عن مالكٍ أنه قال : لا يؤمُّ القيّامَ أحدٌ جالسًا ، فإنْ أمَّهم قاعدًا بطُلتْ صلاتُه وصلاتُهم ، لأنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال :(لا يَؤُمَّنَّ أحدٌ بعدي قاعدًا)(الدارقطنى) وصحّةُ قولِ من قال إنّ صلاةَ المأمومِ الصحيحِ قاعدًا خلفَ الإمامِ المريضِ جائزةٌ ، فذكر أبو حاتم بنُ حيّانٍ في المسندِ الصحيحِ له عن ابنِ عمرَ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كان في نفرٍ من أصحابِه فقال (ألستم تعلمون أني رسولُ اللهِ إليكم ؟ قالوا: بَلَى ، نشهدُ أنك رسولُ اللهِ . قال : ألستم تعلمون أنه من أطاعني فقد أطاع اللهَ ومن طاعة اللهِ طاعتي ؟ قالوا : بَلَى ، نشهدُ أنه من أطاعك فقد أطاع اللهَ ومن طاعة اللهِ طاعتُك . قال : فإنّ منْ طاعة اللهِ أنْ تُطيعوا أُمراءَكم فإنْ صلّوا قعودًا فصلّوا قعودًا) وفي هذا الخبرِ بيانٌ واضحٌ أنّ صلاةَ المأمومين قعودًا إذا صلّى إمامُهم قاعدًا من طاعةِ اللهِ جلّ وعلا أجمع العلماءُ على إجازتِه .

(٢٧) لا إكْـــرَاهَ فـــي الدِّيـــنِ :

يقولُ تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٥٦)

الدّينُ في هذه الآيةِ المُعْتَقَدُ والمِلّةُ بقرينة قوله : ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ نزلتْ في أهلِ الكتابِ خاصّةً ، وأنّهم لا يُكْرَهُون على الإسلامِ إذا أدّوْا الجزيَةَ ، والذين يُكْرَهُون أهلُ الأوثان فلا يُقْبَلُ منهم إلاّ الإسلامُ فهم الذين نـــزل فيـــهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ (التوبة:٧٣) والحجّةُ لهذا القولِ ما رواه زيدُ بنُ أسلمَ عن أبيه قال : سمعتُ عمرَ بنَ الخطابِ يقولُ لعجوزٍ نصرانيةٍ : أسلمي أيّتها العجوزُ تسلمي ، إنّ اللهَ بعث محمدًا بالحقّ . قالت: أنا عجوزٌ كبيرةٌ والموتُ إليّ قريبٌ . فقال عمرُ : اللهمّ اشـــهدْ ، وتـــلا : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾. ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ والطاغوتُ الكاهنُ والشيطانُ وكُلُّ رأسٍ في الضلالِ . ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ قال مجاهدٌ: العروةُ : الإيمانُ . وقال السُّدّيُّ : الإسلامُ . وقال ابنُ عباس وسعيـــدُ بنُ جُبَيْرٍ والضحّاكُ : لا إلهَ إلاّ اللهُ ، وهذه عباراتٌ ترجعُ إلى معـــنىً واحـــدٍ ﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ أي لا يُغَيِّرُ اللهُ ما بقومٍ حتى يُغيّروا ما بأنفسهم ، أي لا يُزيلُ عنهم اسمَ الإيمانِ حتى يكفروا . والانفصامُ : الانكسارُ . ﴿ سَمِيعٌ ﴾ من أجلِ النُّطقِ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ من أجلِ المعتَقَدِ .

(٢٨) الشَّـــكُّ والإيـــمَـــانُ

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ

فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠)

اختلف الناسُ في هذا السؤالِ ، هل صدر من إبراهيمَ عن شكٍّ أم لا ؟ فقال الجمهورُ : لم يكنْ إبراهيمُ عليه السلامُ شاكًّا في إحياء اللهِ الموتى قطّ ، وإنما طلب المعاينةَ ، وذلك أنّ النفوسَ مُسْتَشْرِفَةٌ إلى رؤيةِ ما أُخْبِرَتْ به ، ولهذا قال عليه الصلاةُ والسلامُ : (ليس الخبرُ كالْمُعاينةِ) (أحمد) رواه ابنُ عباسٍ . وقال الأحفشُ : لم يُرِدْ رؤيةَ القلبِ وإنما رؤيةَ العينِ . وقال الحسنُ وقتادة : سأل ليزداد يقينًا إلى يقينه . وذُكِرَ عن عطاءِ بن أبي رباحٍ أنه قال : دخل قلبَ إبراهيمَ بعضُ ما يدخلُ قلوبَ الناسِ فقال : ربِّ أرني كيف تُحيِي الْمَوْتَى . وذكر حديثُ أبي هريرةَ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال :(نحن أحقُّ بالشَّكِّ من إبراهيم) (مسلم) ثم رجّح الطبَريُّ هذا القولَ . ومعناه أنه لو كان إبراهيمُ شاكًّا لكنّا نحن أحقَّ به ، ونحن لا نشكُّ ، فإبراهيمُ عليه السلامُ أحرى ألاّ يَشُكَّ ، فالحديثُ مبنيٌّ على نفيِ الشَّكِّ عن إبراهيم، والذي رُوِيَ فيه عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : (ذلك مَحْضُ الإيمانِ) (أحمد) إنما هو في الخواطرِ التي لا تثبتُ ، وأما الشّكُّ فهو توقُّفٌ بين أمرين ، لا مَزِيّةَ لأحدهما على الآخرِ ، وذلك هو المنفي عن الخليلِ إبراهيم عليه السلامُ . وإحياءُ الْمَوْتَى إنما يُثْبَتُ بالسَّمَعِ ، وقد كان إبراهيمُ عليه السلامُ أعلمَ به ، يدلُّك على ذلك قولُه : ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ (البقرة:٢٥٨) فالشّكُّ يبعدُ على من تثبتُ قدمُه في الإيمانِ فقط ، فكيف بمرتبةِ النّبوّةِ والخُلّةِ ، والأنبياءُ معصومون من الكبائرِ ومن الصغائرِ التي فيها رذيلةٌ إجماعًا . وإذا تأمّلتَ سؤالَه عليه السلامُ وسائرَ ألفاظِ الآيةِ لم تُعْطِ شكًّا ، وذلك أنّ الاستفهامَ بكيف إنما هو سؤالٌ عن حالةِ شيءٍ موجودٍ متقرِّرِ الوجودِ عند السّائلِ والمسئولِ . و" كيف " في هذه الآيةِ إنما هي استفهامٌ عن هيئةِ الإحياءِ ، والإحياءُ متقرِّرٌ . وقال الطّبَريُّ : معنى " ليطمئنَّ قلبي " ليوقِنَ . وقال بعضُهم : لأزدادَ إيمانًا مع إيماني .

فقيل له : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ ﴾ قيل : هي الديكُ والطّاووسُ والحمامُ والغرابُ. وقال ابنُ عباسٍ مكانَ الغرابِ الكُرْكِيّ ومكانَ الحمامِ النّسر . و ﴿ فَصُرْهُنَّ ﴾ معناه قَطِّعْهُنَّ . فأخذ هذه الطيورَ حسب ما أُمِرَ وقطّعها قِطَعًا صِغَارًا، وخلط لحومَها مع الدّمِ والرّيشِ ، ثم جعل جزءًا منها على كلِّ جبلٍ ، ووقف هو من حيث يرى تلك الأجزاءَ ، وأمسك رءوسَ الطّيرِ في يده ، ثم قال : تعالَيْن بإذنِ اللهِ ، فتطايرتْ تلك الأجزاءُ وطار الدّمُ إلى الدّمِ والرّيشُ إلى الرّيشِ حتى التأمتْ مثل ما كانتْ أوّلاً وبقيتْ بلا رءوسٍ ، ثم كرّر النداءَ فجاءته سَعْيًا ، أي عدْوًا على أرجُلِهنّ حتى لَقِيَ كُلُّ طائرٍ رأسَه ، وطارتْ بإذنِ اللهِ .

(٢٩) الحِكْمَةُ :

يقولُ تعالى : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة:٢٦٩)

أي يُعطي اللهُ الحكمةَ لمن يشاءُ من عبادِه. واختلف العلماءُ في الحكمةِ هنا، فقال السُّدّيُّ: هي النبوّةُ . وقال ابنُ عباسٍ: هي المعرفةُ بالقرآنِ . وقال قتادةُ ومجاهدُ : هي الفقهُ في القرآنِ . وقال مجاهدُ : الإصابةُ في القولِ والفعلِ . وقال مالكُ ابنُ أنسٍ: هي المعرفةُ بدينِ اللهِ والفقهُ فيه والاتّباعُ له ، وقال أيضًا: هي طاعةُ اللهِ والفقهُ في الدّينِ والعملُ به . وقال الربيعُ بنُ أنسٍ : هي الخَشْيةُ . وقال الحسنُ : هي الوَرَعُ . يُقالُ: إنّ مَنْ أُعْطِيَ الحكمةَ والقرآنَ فقد أُعْطِيَ أفضلَ ما أُعْطَى من جَمْعِ علْمِ الأوّلين من الصحفِ وغيرِها ، لأنه قال لأولئك : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٨٥). وسمّى هذا خيرًا كثيرًا. وقال بعضُ الحكماءِ : مَنْ أُعطِيَ العلْمَ والقرآنَ ينبغي أنْ يعرفَ نفسَه ، ولا يتواضعَ لأهلِ الدّنيا لأجلِ دنياهم ، لأنّ اللهَ تعالى سمّى الدنيا " متاعًا قليلاً " فقال : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ (النساء:٧٧) وسمّى العلمَ والقرآنَ "خيرًا كثيرًا". والألبابُ : العقولُ .

(٣٠) إخْـــفـــاءُ الصَّـــدَقَة :

يقولُ تعالى : ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة:٢٧١).

ذهب جمهورُ المفسّرين إلى أنّ هذه الآيةَ في صدقةِ التطوّعِ ، لأنّ الإخفاءَ فيها أفضلُ من الإظهارِ ، وكذلك سائرُ العباداتِ الإخفاءُ أفضلُ في تطوّعِها لانتفاءِ الرّياءِ عنها ، وليس كذلك الواجباتُ . قال الحسنُ : إظهارُ الزّكاةِ أحسنُ ، وإخفاءُ التطوّعِ أفضلُ لأنه أدلُّ على أنه يُرادُ اللهُ عزّ وجلّ به وحدَه . قال ابنُ عباسٍ : جعل اللهُ صدقةَ السِّرِّ في التطوّعِ تفضُلُ علانيتَها ، يُقالُ بسبعين ضعفًا ، وجعل صدقةَ الفريضةِ علانيتُها أفضلُ من سِرِّها ، يُقالُ بخمسةٍ وعشرين ضعفًا . قال : وكذلك جميعَ الفرائضِ والنوافلِ في الأشياءِ كلِّها . وفي صحيحِ مسلمٍ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : (أفضلُ صلاةِ المرءِ في بيته إلاّ المكتوبةَ) وذلك أنّ الفرائضَ لا يدخلُها الرّياءُ والنوافلُ عُرْضةٌ لــذلك . ورَوَى النّسائيُّ عن عُقبةَ ابنِ عامرٍ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (إنّ الذي يجهرُ بالقرآنِ كالذي يجهرُ بالصدقةِ والذي يُسِرُّ بالقرآنِ كالذي يُسِرُّ بالصدقةِ) . وفي الحديثِ : (صدقةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غضبَ الرّبِّ).(البخارى) وحالُ الصّدقةِ تختلفُ بحالِ الْمُعْطِي لها والْمُعْطَى إيّاها والناسِ الشّاهدين لها . أما الْمُعْطِي فله فائدةُ إظهارِ السُّنّةِ وثوابُ القدوةِ . وأما الْمُعْطَى إيّاها فإن السِّرَّ له أسلمُ من احتقارِ الناسِ له ، أو نسبَتِه إلى أنه أخذها مع الغِنَى عنها وتَرْكَ التّعَفُّفَ ، أما حالُ الناسِ فالسِّرُّ عنهم أفضلُ لهم من العلانيةِ ، من جهةِ أنّهم ربّما طعنوا على الْمُعْطِي لها بالرّياءِ ، وعلى الآخذِ لها بالاستغناءِ . ﴿ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ ثناءٌ على إبداءِ الصّدقةِ ثم حكمٌ على أنّ الإخفاءَ خيرٌ من ذلك . وقال بعضُ الحكماءِ : إذا اصطنعتَ المعروفَ فاسترْهُ ، وإذا اصْطُنِعَ إليك فانْشُرْهُ .

(٣١) الـــرِّبَـــا :

يقولُ تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٧٥-٢٧٩).

تضمّنتْ الآياتُ أحكامَ الرّبا وجوازَ عقودِ الْمُبايعات ، والوعيدَ لمن استحلَّ الرِّبا وأصرَّ على فِعْلِه . ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ يأكلون بمعنى يأخذون، والرِّبَا : الزّيادة . رَوَى الأئمّةُ واللفظُ لمسْلِمٍ عن أبي سعيد الخُدريِّ قال قال رسولُ الله صلّى اللهُ عليه وسلم : (الذهبُ بالذهب والفضّةُ بالفضّة والبُرُّ بالبُرِّ والشّعيرُ بالشّعيرِ والتمرُ بالتّمرِ والملحُ بالملحِ مِثْلاً بمِثْلٍ يَدًا بيدٍ فمنْ زاد أو استزاد فقد أرْبَى الآخذُ والْمُعْطِي فيه سواء) . وفي رواية : (ولا بأسَ ببيعِ الذهبِ بالفضّة والفضّةُ أكثرُهما يدًا بيَد وأمّا نسيئةً فلا ولا بأسَ ببيعِ البُرِّ بالشّعيرِ والشّعيرُ أكثرُهما يدًا بيَد وأما نسيئةً فلا) (أبو داود). وقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (فإذا اختلفتْ هذه الأصنافُ فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيدٍ). وعن عليٍّ رضي اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (الدّينارُ

بالدّينارِ والدّرهمُ بالدّرهمِ لا فضلَ بينهما من كانتْ له حاجةٌ بورِقٍ فلْيَصرِفْها بذهب وإنْ كانتْ له حاجةٌ بذهب فلْيَصرْفْها بورق هاءَ وهاءَ " اي خذ واعط ") (الدارقطني). ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ والمعنى : يخرجون من قبورِهم . وقيل : يُجْعَلُ معه شيطانٌ يخنقُه . وقيل : يُبْعَثُ كالمجنونِ عقوبةً له . وقيل : تحتملُ الآيةُ تشبيهَ حالِ القائمِ بحرْصٍ وجَشَعٍ إلى تجارةِ الدنيا " تجارةِ الرّبا " بقيامِ المجنونِ ، لأنّ الطّمَعَ والرّغبةَ تستفزُّه حتى تضطرِبَ أعضاؤُه . ويُقالُ : إنّهم يُبعثون يومَ القيامة قد انتفختْ بطونُهم كالْحُبَالَى ، وكلما قاموا سقطوا والناسُ يمشون عليهم . والَمسُّ : الجنونُ . يقالُ : مُسَّ الرجلُ وأُلِسَ ، فهو ممسوسٌ ومألوسٌ إذا كان مجنونًا ، وذلك علامةُ الرِّبا في الآخرةِ . ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ معناه عند جميعِ المتأوّلين في الكفّارِ : ولهم قيل : ﴿ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ ولا يُقالُ ذلك لمؤمنٍ عاصٍ بل يُنْقَضُ بَيْعُه ويُرَدُّ فِعْلُه وإنْ كان جاهلاً ، فلذلك قال صلى اللهُ عليه وسلم : (من عمِل عملاً ليس عليه أَمْرُنا فهو رَدٌّ). ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ أي إنما الزيادةُ عند حلولِ الأجلِ كمثْلِ أصْلِ الثّمَنِ في أوّلِ العقدِ . ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ وأوضح أنّ الأجلَ إذا حلّ ولم يكنْ عنده ما يُؤَدَّى أُنْظِرَ إلى الْمَيْسَرَةِ . وهذا الرِّبا هو الذي نسخه الرسولُ صلى اللهُ عليه وسلم بقولِه يومَ عرَفَةَ لمّا قال : (ألا إنّ كلَّ رِبًا موضوعٌ ، وإنّ أوّلَ رِبا أضعُه رِبَانا رِبا عبّاسِ بنِ عبدِ المطّلبِ فإنه موضوعٌ كلُّه) (البخاري) فبدأ بعمِّه وأخصِّ الناسِ به ، وهذا من سُنَنِ العدلِ للإِمَامِ أنْ يُفَيِّضَ العدلَ على نفسه وخاصّته فيستفيضَ حينئذٍ في الناسِ . وأحلّ اللهُ البيعَ الذي هو قَبولٌ وإيجابٌ وبالتراضي وليس بالرِّبا الذي حرّمه اللهُ ليتقارضَ الناسُ . وعن ابنِ مسعودٍ أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (قَرْضُ مرّتين يعدِلُ صَدَقَةً مرّةً) أخرجه البَزّارُ . رَوَى الدّارَقُطْنِيُّ عن العاليةِ بنتِ أنفعٍ قالتْ : خرجتُ أنا وأمُّ مُحِبَّةٍ إلى مكّةَ فدخلنا على عائشةَ رضي اللهُ عنها فسلّمنا

عليها ، فقالتْ لنا : ممن أنتنَّ ؟ قلنا من أهلِ الكوفة ، قالتْ : فكأنها أعرضَتْ عنّا ، فقالتْ لها أمُّ مُحبَّة : يا أُمَّ المؤمنين ، كانتْ لي جاريةٌ وإني بعتُها لزيدِ بنِ الأرقمِ الأنصاريِّ بثمانمائةِ درهمٍ إلى عطائه ، وإنه أراد بيعَها فابتعتُها منه بستمائةِ درهمٍ نقدًا . قالتْ : فأقبلتْ علينا فقالتْ : بِئْسَمَا شَرَيْتِ وما اشتريتِ ! فأبلغي زيدًا أنه قد أبطل جهادَه مع رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إلاّ أنْ يتوبَ . فقالتْ لها : أرأيتِ إنْ لم آخُذْ إلاّ رأسَ مالي ؟ قالتْ: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ وقال جمهورُ العلماءِ : الأحكامُ مبنيّةٌ على الظّاهرِ لا على الظنونِ . وعن النعمانِ بنِ بشيرٍ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ : (إنّ الحلالَ بيِّنٌ والحرامَ بيِّنٌ وبينهما أمورٌ متشابهاتٌ لا يعلمُهنّ كثيرٌ من الناسِ فمن اتّقى الشُّبهاتِ فقد استبرأ لدينه وعِرْضه)(مسلم). ﴿ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي من أمرِ الرّبا لا تَبِعَةَ عليه في الدنيا ولا في الآخرةِ ، قاله السُّدّيُّ وغيرُه . وهذا حكمٌ من اللهِ تعالى لمن أسلمَ من كفّارِ قريشٍ وثقيفٍ ومن كان يتّجرُ هنالك . وسلف : معناه تقدّم في الزّمنِ وانقضى . ﴿ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وقال النحاسُ : إنّ الضميرَ يعود على ذي الرّبا ، بمعنى أمرُه إلى اللهِ في أنْ يُثبتَه على الانتهاءِ أو يُعيدَه إلى المعصيةِ في الرّبا . وقيل : الضميرُ يعودُ على الْمُنْتَهِي ، ولكنْ بمعنى التأنيسِ له وبَسْطِ أملِه في الخيرِ ، وأمرُه إلى طاعةٍ وخيرٍ . ﴿ وَمَنْ عَادَ﴾ يعني إلى فِعْلِ الرّبا حتى يموتَ فقد كَفَرَ . ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا﴾ يعني في الدنيا أي يُذْهِبُ بَرَكَتَه وإنْ كان كثيرًا . ﴿ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي يُنَمِّيها في الدنيا بالبركةِ ويُكْثِرُ ثوابَها بالتضعيفِ في الآخرةِ . ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ ووصْفُ كَفّارٍ بأثيمٍ مبالغةٌ في ارتكابِ الإثمِ .﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وخصَّ الصلاةَ والزّكاةَ بالذّكْرِ وقد تضمّنها عملُ الصّالحاتِ تشريفًا لهما إذ هما رأسُ الأعمالِ ، الصلاةُ في أعمالِ البدَنِ ، والزّكاةُ في أعمالِ المالِ . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا﴾ أي اجعلوا بينكم

وبين عذابِ اللهِ وقَايَةً بتَرْكِكُم ما بَقِيَ لكم من الرّبا وصفحِكم عنه .﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ باللهِ ورسوله . ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ هذا وعيدٌ من اللهِ إنْ لم يَذَرُوا الرّبا . ورُوِيَ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : (يأتي على الناسِ زمانٌ لا يبقى أحدٌ إلاّ أكل الرّبا ومن لم يأكلْ الرّبا أصابه غُبَارُه) وقال أيضًا : (الرّبا تسعةٌ وتسعون بابًا أدناها كإتيان الرجلِ بأُمِّه) يعني الزّنا بأمِّه . ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ أي خالصةً من الرّبا . وقال علماؤُنا : إنّ سبيلَ التوبةِ مما بيده من الأموالِ الحرامِ إنْ كانتْ من ربًا فليردَّها على من أربى عليه ، ويطلبْه إنْ لم يكنْ حاضرًا ، فإنْ أَيِسَ " يَئِسَ " من وجودِه فليتصدّقْ بذلك عنه .

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ لمّا حكم اللهُ لأربابِ الرّبا برءوسِ أموالِهم عند الواجدين للمالِ ، حكمَ في ذي العُسْرَةِ بالنّظرَةِ إلى حالِ الميسرةِ . وعن أبي سعيدٍ الخدريّ قال: أُصيب رجلٌ في عهدِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في ثمارٍ ابتاعها فكثُر دَيْنُه، فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (تصدّقوا عليه) فتصدّق الناسُ عليه فلم يبلغْ ذلك وفاءَ دَيْنِه ، فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لغُرَمَائه : (خُذُوا ما وجدتم وليس لكم إلاّ ذلك) أي أنّ الْمَدِينَ لا يُحْبَسُ إذا صحَّ عُسْرُه . فإنْ جُمِعَ مالُ الْمُفْلِسِ ثم تَلِفَ قبل وصولِه إلى أصحابِه ، فعلى المفلسِ ضمانُه ، ودَيْنُ الغرماءِ ثابتٌ في ذمّتِه . فإنْ باعَ الحاكمُ مالَه وقبض ثَمَنَه ثم تَلِفَ الثَمَنُ قبل قبْضِ الغرماءِ له ، كان عليهم ضمانُه وقد بَرِئَ المفلسُ منه . وقال محمدُ بنُ عبدِ الحَكَمِ : ضمانُه من المفلسِ أبدًا حتى يصلَ إلى الغرماءِ . والعُسْرَةُ ضيقُ الحالِ من جهةِ عُدْمِ المالِ ، ومنه جيشُ العُسْرَةِ . والنَظِرَةُ التأخيرُ . والْمَيْسَرَةُ بمعنى اليُسْرِ . ﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ ﴾ أي الصّدقةُ على الْمُعْسِرِ خيرٌ لكم . وعن بُرَيْدةَ بنِ الخطيبِ قال

قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (من أَنْظَرَ مُعْسِرًا كان له بكلِّ يومٍ صدقةٌ) (ابن ماجه) . ورَوَى مسلمُ عن ابنِ مسعودٍ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (حُوسِبَ رجلٌ ممن كان قبلَكم فلم يوجدْ له من الخيرِ شيءٌ إلاّ أنه كان يُخالطُ الناسَ وكان مُوسِرًا فكان يأمرُ غِلْمَانَه أنْ يتجاوزوا عن الْمُعْسِرِ قال قال اللهُ عزّ وجلّ نحن أحقُّ بذلك منه تجاوزوا عنه) ورُوِيَ عن أبي قتادةَ أنه طلب غريمًا له فتوارى عنه ثم وجده فقال : إني مُعْسِرٌ . فقال : آللهِ ؟ " للاستفهام " قال: آللهِ . قال : فإني سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ : (من سَرَّه أنْ يُنْجيَهُ اللهُ من كَرْبِ يومِ القيامةِ فلْيُنَفِّسْ عن مُعْسِرٍ أو يَضَعْ عنه) (الترمذى) وفي حديثِ أبي اليَسَرِ الطّويل " صفة للحديث " – واسمُه كَعْبُ ابن عمرو – أنه سمع رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ : (من أنْظَرَ مُعْسِرًا أو وضعَ عنه أظلَّه اللهُ في ظلِّه) (الترمذى) وحديثُ أبي قتادةَ يدلُّ على أنّ صاحبَ الدَّيْنِ إذا عَلِمَ عُسْرَةَ غريمِه أو ظنَّها حُرِّمَتْ عليه مطالبتُه ، وإنْ لم تثبتْ عُسْرَتُه عند الحاكمِ . وإنظارُ الْمُعْسِرِ تأخيرُه إلى أنْ يُوسِرَ . والوضْعُ عنه إسقاطُ الدَّيْنِ عن ذمّته . وقد جمعَ المعْنَيَيْن أبو اليَسَرِ لغريمِه حيث محا عنه الدَّيْنَ ، وقال له : إنْ وجدتَ قضاءً فاقضِ وإلاّ فأنت في حِلٍّ .

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ قال ابنُ جُرَيجٍ : نزلتْ هذه الآيةُ قبل موتِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم بتسعِ ليالٍ ثم لم ينزلْ بعدها شيءٌ . وقال ابنُ جُبَيْرٍ ومُقاتلُ : بسَبْعِ ليالٍ. ورُوِيَ بثلاثِ ليالٍ . ورُوِيَ بثلاثِ ساعاتٍ ، وأنه عليه الصلاةُ والسلامُ قال : (اجعلوها بين آيةِ الرِّبا وآيةِ الدَّيْنِ) . وحكَى مكّيٌّ أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (جاءني جبريلُ فقال اجعلْها على رأسِ مائتين وثمانين آيةً) . والآيةُ وَعْظٌ لجميعِ الناسِ ، كانّ اللهَ تعالى رَفَقَ بالمؤمنين على أنْ يُواجهَهم بذِكْرِ

الرَّجْعَةِ ، إذ هي مما تنفطِرُ لها القلوبُ ، واليومُ المُحَذَّرُ منه هو يومُ القيامةِ والحساب . وفي هذه الآيةِ نَصٌّ على أنّ الثوابَ والعقابَ مُتعلّقٌ بكسْبِ الأعمالِ وهو رَدٌّ على الجبريّةِ .

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٨٢)

قال ابنُ عباسٍ : هذه الآيةُ نزلتْ في السَّلَمِ " بَيْعٌ من البيوعِ الجائزةِ بالاتفاقِ " خاصّةً . معناه أنّ سَلَمَ أهلِ المدينةِ كان سببَ نزولِ هذه الآيةِ . ثم هي تتناولُ جميعَ المداينات إجماعًا . وقيل إنّها تضمّنتْ ثلاثين حُكْمًا. وقد استدلّ بها بعضُ علمائنا على جوازِ التأجيلِ في القروضِ . وقال الشّافعيّةُ : الآيةُ ليس فيها جوازُ التأجيلِ في

سائرِ الدّيون ، وإنّما فيها الأمرُ بالإشهادِ إذا كان دَيْنًا مُؤَجّلاً . وحقيقةُ الدَّيْنِ هو كلُّ معاملةٍ كان أحدُ العِوضَيْنِ فيها نقدًا والآخرُ في الذّمةِ نَسيئةً فإنّ العَيْنَ عند العربِ ما كان حاضرًا ، والدَّيْنَ ما كان غائبًا . قال ابنُ المنذرِ : دلّ قولُ اللهِ ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ﴾ على أنّ السَّلَمَ إلى الأجلِ المجهولِ غيرُ جائزٍ . وثبت أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قَدِمَ المدينةَ وهم يستلفون في الثّمارِ السّنتيْن والثلاثَ ، فقال : (من أَسْلَفَ في تَمْرٍ فلْيُسْلِفْ في كيْلٍ معلومٍ ووزنٍ معلومٍ إلى أجلٍ معلومٍ) (البخارى) " رواه ابنُ عباسٍ " وكانوا يستلفون في ثمارِ نخيلٍ بأعيانها ، فنهاهم عن ذلك لما فيه من الغَرَرِ، إذ قد تُخْلِفُ تلك الأشجارُ فلا تُثمرُ شيئًا.﴿ فَٱكْتُبُوهُ ﴾ يعني الدَّيْنَ والأجلَ . والمرادُ الكتابُ والإشهادُ ، لأنّ الكتابةَ بغيرِ شهودٍ لا تكونُ حُجّةً . وذهب بعضُ الناسِ إلى أنّ كتابةَ الدّيونِ واجبةٌ على أصحابها فَرْضٌ بهذه الآيةِ بَيْعًا كان أو قَرْضًا لئلاّ يقعَ فيه نسيَانٌ أو جحودٌ . وقال ابنُ جريجٍ : من أدان فليكتبْ ومن باع فليُشْهِدْ . وواجبٌ على الكاتبِ أنْ يكتبَ ، وذلك إذا لم يوجدْ كاتبٌ غيرُه . ﴿ بِٱلْعَدْلِ ﴾ أي لا يكتبُ لصاحبِ الحقِّ أكثرَ مما قال ولا أقلَّ ، ونَهى اللهُ الكاتبَ عن الإباءِ " الرّفض" ﴿ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ ﴾ أي كما أنعم اللهُ عليه بعلمِ الكتابةِ . ﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ ﴾ وهو المديونُ يُقِرُّ بنفسه بلسَانه ليُعْلَمَ ما عليه .﴿ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ من الحقِّ .﴿ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا ﴾ أي لا يعقلُ أو لا يستطيعُ أنْ يُملَّ هو . ووليُّه : وكيلُه . واطلبوا شهادةَ رجلَيْن ، وإذا لم يأتِ الطالبُ برجلَيْن فليأتِ برجلٍ وامرأتَيْن ، ربّما تنسى إحداهما فتذكّرها الأخرى ، ولأنّ شهادةَ المرأةِ نصفُ شهادةٍ ، وشهادتُهما بشهادةِ رجلٍ . وفي الآيةِ أمْرٌ للشاهدِ أنْ يشهدَ إذا دُعِيَ للشهادةِ ، خاصّةً إذا علمَ أنّ الحقَّ يذهبُ ويتلفُ بتأخُّرِ الشاهدِ ، واللهُ أعلمُ . وقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (خيرُ الشّهداءِ الذي يأتي بشهادتِه قبل أن يُسْأَلَها) رواه الأئمةُ . وقال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ (الطلاق:٢) ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ ﴾ اي

لا تَمَلُّوا أنْ تكتبوا الدَّيْنَ صغيرًا كان أو كبيرًا . ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي أعدلُ .﴿ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ ﴾(البقرة:٢٨٢) أصحُّ وأحفظُ .﴿ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا ﴾ وأقربُ ألاّ تَشُكُّوا ، إلاّ أنْ تكونَ المبايعةُ تجارةً تُديرُونَها بينكم . ولمّا علِمَ اللهُ مشقّةَ الكتابِ عليهم نصّ على تَرْكِ ذلك ورَفْعِ الْجُناحِ فيه . وفي الآيةِ نَهْيٌ عن إذايةِ الكاتبِ والشّهيدِ إذا كانا مشغولَيْن لأنّ في إذايتِهما فُسُوقُ حالٍ بكم . ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وَعْدٌ من اللهِ تعالى بأنّ من اتّقَاهُ علّمَهُ ، أي جعل في قلبه نورًا يفهمُ به ما يُلْقَى إليه ، وقد يجعلُ اللهُ في قلبه ابتداءً فُرْقَانًا ، أي فيصلاً يفصلُ بين الحقِّ والباطلِ . ومنه قولُه تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (الأنفال:٢٩). واللهُ أعلمُ .

(٣٢) (مَرْيَمُ) (من سورةِ آلِ عِمرَان)

يقولُ تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران:٤٢)

﴿ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ أي اختارك ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ من الكُفْرِ . وعن مجاهدٍ والحسنِ والزجاجِ : من سائرِ الأدناسِ من الحَيْضِ والنِّفَاسِ وغيرِهما ، واصطفاكِ لولادةِ عيسى ﴿ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ يعني عالَمي زمانِها ، وقيل : على نساءِ العالمين أجمع إلى يومِ الصُّورِ . وكرّر الاصطفاءَ لأنّ معنى الأوّلِ الاصطفاءُ لعبادته ، ومعنى الثاني لولادةِ عيسى . ورَوَى مسلمٌ عن أبي موسى قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (كَمُلَ من الرجالِ كثيرٌ ولم يكْمُلْ من النساءِ غيرُ مريمَ بنتِ عمرانَ وآسيةُ امرأةُ فِرْعَوْنَ وإنّ فضلَ عائشةَ على النساءِ كفضلِ الثريدِ على سائرِ الطعامِ) والكمالُ المطلقُ إنما هو لله تعالى خاصّةً . ولاشكّ أنّ أكملَ نوعِ الإنسانِ الأنبياءُ ثم يليهم الأولياءُ من الصدّيقين والشّهداءِ

والصّالحين . وإذا تقرّر هذا فقد قيل : إنّ الكمالَ المذكورَ في الحديثِ يُعْنَى به النبوّةُ فيلزمُ عليه أنْ تكونَ مريمُ عليها السلامُ وآسيةُ نبيّتين ، وقد قيل بذلك . والصحيحُ أنّ مريمَ نبيّةٌ ، لأنّ اللهَ تعالى أوحى إليها بواسطةِ المَلَكِ كما أوحى إلى سائرِ النبيين . وأما آسيةُ فلم يَرِدْ ما يدلُّ على نبوّتها دلالةً واضحةً بل على صِدِّيقيّتها وفضلِها . ورُوِيَ من طُرُقٍ صحيحة أنه عليه الصلاةُ والسلامُ قال فيما رواه عنه أبو هريرةَ : (خيرُ نساءِ العالَمين أربعُ مريمُ بنتُ عمرانَ وآسيةُ بنتُ مزاحمٍ امرأةُ فرعونَ وخديجةُ بنتُ خُوَيْلِد وفاطمةُ بنتُ محمد)(أحمد). ومن حديثِ ابنِ عباسٍ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم : (أفضلُ نساءِ أهلِ الجنّةِ خديجةُ بنتُ خويلد وفاطمةُ بنتُ محمدٍ ومريمُ بنتُ عمرانَ وآسيةُ بنتُ مزاحمٍ امرأةُ فرعونَ)(أحمد). وفي طريقٍ آخَرَ عنه : (سيّدةُ نساءِ أهلِ الجنّةِ بعد مريمَ فاطمةُ وخديجةُ) (أحمد). فظاهرُ القرآنِ والأحاديثِ يقتضي أنّ مريمَ أفضلُ من جميعِ نساءِ العالمِ من حوّاءَ إلى آخرِ امرأةٍ تقومُ عليها السّاعةُ ، فإنّ الملائكةَ قد بلّغتْها الوحْيَ عن اللهِ عزّ وجلّ بالتكليفِ والإخبارِ والبشارةِ ، كما بلّغتْ سائرَ الأنبياءِ ، فهي إذن نبيّةٌ ، والنبيُّ أفضلُ من الوليِّ ، فهي أفضلُ من كلِّ النساءِ ، الأوّلين والآخرين مطلقًا . ثم بعدها في الفضيلةِ فاطمةُ ثم خديجةُ ثم آسيةُ . وقد خصَّ اللهُ مريمَ بما لم يُؤتِه أحدًا من النساءِ ، وذلك أنّ رُوحَ القُدُسِ كلّمها وظهر لها ونفخ في درْعِها ودنا منها للنفخةِ ، فليس هذا لأحدٍ من النساءِ . وصدّقَتْ بربِّها ولم تسألْ آيةً عندما بُشِّرَتْ كما سألَ زكريّا صلى اللهُ عليه وسلم من الآيةِ ، ولذلك سمّاها اللهُ في القرآنِ صِدِّيقةً فقال : ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ (المائدة:٧٥) وقال : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ (التحريم:١٢) فشهِدَ لها بالصدِّيقيّةِ وشهِدَ لها بالتصديقِ لكلماتِ البُشْرَى وشهِد لها بالقنوت . وإنّما بَشَّرَ زكريّا بغلامٍ ، فَلَحَظَ إلى كِبَرِ سنِّه وعَقَامَةِ رَحِمِ امرأته فقال :﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ (مريم:٨) فسأل آيةً ، وبُشِّرَتْ مريمُ بالغلامِ

فَلَحَظَتْ أنَّها بِكْرٌ ولم يمسَسْها بَشَرٌ فقيل لـها : ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ (مريم:٩) فاقتصرتْ على ذلك وصدَّقَتْ بكلماتِ ربِّها ولم تسألْ آيةً ممن يعلمُ كُنْهَ هذا الأمر ، ومَنْ لامرأةٍ في جميعِ نساءِ العالمين من بناتِ آدمَ ما لها من هذه المناقبِ ؟!. ولذلك رُوِيَ أنَّها سبقتْ السابقين مع الرُّسُلِ إلى الجنَّة . وجاء في الخبر عنه صلى اللهُ عليه وسلم : (لو أَقْسَمْتُ لَبَرَرْتُ لا يدخلُ الجَنَّةَ قبل سابقي أُمَّتي إلاّ بِضْعَةُ عَشَرَ رجلاً منهم إبراهيمُ وإسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوبُ والأسباطُ وموسى وعيسى ومريمُ ابنةُ عمرانَ) . وقال تعالى : ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (آل عمران:٤٣) وعن مجاهد : أي أطيلي القيامَ في الصلاة . وقيل : أديمي الطّاعةَ . قال الأوزاعي : لَمّا قالتْ لَها الملائكةُ ذلك قامتْ في الصلاة حتى وَرِمَتْ قدماها ، وسالتْ دمًا وقَيْحًا عليها السلامُ ﴿ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى ﴾ قدَّم السجودَ على الرّكوعِ هنا ، لأنَّ الواوَ لا توجبُ الترتيبَ . فإذا قلتَ : قام زيدٌ وعمرو جاز أنْ يكونَ عمرو قام قبل زيدٍ ، فعلى هذا يكونُ المعنى : واركعي واسجدي . وقيل : كان شَرْعُهم السّجودَ قبل الركوعِ . ﴿ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (آل عمران:٤٣) معناه افعلي كفِعْلِهِمْ وإنْ لم تُصلّي معهم . وقيل: المرادُ به صلاةُ الجماعة .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي الذي ذكرْنا من حديثِ زكريا ويحيى ومريمَ عليهم السلامُ من أخبارِ الغيْبِ . ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ فيه دِلالةٌ على نبوّةِ محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلم حيث أُخْبِرَ عن قصّةِ زكريا ومريمَ ولم يكنْ قرأ الكُتُبَ ، وأخبر عن ذلك وصدّقه أهلُ الكتابِ بذلك . ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي وما كنتَ يا محمدُ لديهم أي بحضرَتِهم . ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ ﴾ قيل : قداحُهم وسهامُهم . وقيل : أقلامُهم التي كانوا

يكتبون بها التوراةَ . ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ أي يحضُنُها ، فقال زكريا : أنا أَحَقُّ بِها ، خالتُها عندي . وكانتْ عنده أشيعُ بنتُ فاقود أختُ حَنَّةَ بنتِ فاقودٍ أمِّ مريمَ . وقال بنو إسرائيلَ : نحن أَحَقُّ بِها ، بنتُ عالمِنا ، فاقترعوا عليها ، وجاء كلٌّ واحدٍ بقلمِه ، واتّفقوا أنْ يجعلوا الأقلامَ في الماءِ الجارِي فمن وقف قلمُه ولم يُجْرِه الماءُ فهو حاضِنُها .قال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم :(فَجَرَتِ الأقلامُ وعَالَ قلمُ زكريا) . وكانتْ آيةً له ، لأنه نبيٌّ تجري الآياتُ على يديه .

واستدلَّ بعضُ علمائنا بِهذه الآيةِ على إثباتِ القُرْعَةِ ، وهي أصلٌ في شرْعِنا لكلِّ من أراد العدلَ في القِسْمَةِ . وعن عائشةَ قالتْ : كان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إذا أراد سَفَرًا أَقْرَعَ " استعمل القُرعةَ " بين نسائِه فأيَّتُهنّ خرج سهمُها خرج بِها . وعن أبي هريرةَ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (لو يعلمُ النـــاسُ ما في النداءِ" الأذان " والصّفِّ الأوّلِ ثم لم يجدوا إلاّ أنْ يستهِموا عليه لاستهَموا) (البخارى).

ودلّت الآيةُ أيضًا على أنّ الخالةَ أحقُّ بالحضانةِ من سائرِ القراباتِ ماعدا الجدّةَ . وقد قضى النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم في ابنةِ حمزةَ " واسْمُها أمةُ اللهِ " لجعفرَ ، وكانتْ عنده خالتُها ، وقال : (إنّما الخالةُ بمنْزلةِ الأمِّ) (الترمذى) .

(٣٣) الْمَسِـــيحُ :

يقولُ تعالى :﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(آل عمران:٤٥،٤٦)
﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ ﴾ ولم يقلْ اسْمُها لأنّ معنى كلمةٍ : وَلَدٌ . والمسيحُ لَقَبٌ لعيسى

ومعناه الصدّيقُ ، قاله إبراهيمُ النَّخعيُّ . واختُلفَ في المسيحِ ابنِ مريمَ من ماذا أُخِذَ ، فقيل : لأنه مسح الأرضَ ، أي ذهب فيها فلم يستكِنّ بكِنٍّ . ورُوِيَ عن ابنِ عباسٍ أنه كان لا يمسحُ ذا عاهةٍ إلاّ بَرِئَ ، فكأنه سُمِّيَ مسيحًا لذلك . وقيل لأنه ممسوحٌ بدهنِ البرَكةِ ، كانتْ الأنبياءُ تُمْسَحُ به ، طيّبِ الرّائحةِ ، فإذا مُسِحَ به ، عُلِمَ أنه نبيٌّ.وقيل : لأنه كان ممسوحَ الأخْمَصَيْن . وقيل : لأنّ الجمالَ مسحه ، أي أصابه وظهر عليه وقيل : لأنه مُسِحَ بالطُّهْرِ من الذنوبِ . وقال أبو الهيثمِ : المسيحُ ضدّ المسيخِ ، يُقالُ : مسحه اللهُ ، أي خلقه اللهُ خَلْقًا حَسَنًا مباركًا ، ومسخه أي خلقه خلقًا ملعونًا قبيحًا . وقال ابنُ الأعرابيِّ : المسيحُ الصدّيقُ ، والمسيخُ الأعورُ، وبه سُمِّيَ الدَّجّال . وقال أبو عُبَيْد : المسيحُ أصلُه بالعبرانيةِ مشيحا فعُرِّبَ كما عُرِّبَ موشى بموسَى . وأمّا الدّجّالُ فسُمِّيَ مسيحًا لأنه ممسوحُ إحدى العينين . وقيل لأنه يسيحُ في الأرضِ أي يطوفُها ويدخلُ كلَّ بُلدانها إلاّ مكةَ والمدينةَ وبيتَ المقدسِ ، فالدّجّالُ يمسحُ الأرضَ مِحْنَةً ، وابنُ مريمَ يمسحُ الأرضَ مِنْحَةً .

(٣٤) دَعْـوَةُ أَهْـلِ الْكِتَـابِ :

يقولُ تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٦٤)

قيل: الخطابُ لأهلِ نجرانَ . وقيل: ليهودِ المدينة، خوطبوا بذلك لأنهم جعلوا أحبارَهم في الطّاعةِ لهم كالأربابِ . وقيل: لليهودِ والنصارى جميعًا . وفي كتابِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم إلى هِرَقْل : (بسم اللهِ الرحمنِ الرحيـــمِ — من محمدٍ رسولِ اللهِ إلى هرقلَ عظيمِ الرومِ ، سلامٌ على من اتّبع الهُدَى. أمّا بعد فإني أدعوكَ بدعايةِ الإسلامِ . أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، عن صحيحِ مسلم ، يُؤْتِكَ اللهُ أجرَكَ مرّتين

وإنْ تَوَلَّيْتَ فإنّ عليك إثمَ الأرِيسيّين "الأكارون والفلاحون والخدم" ويا أهلَ الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أنْ لا نعبدَ إلاّ اللهَ – إلى قوله ﴿ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٦٤). لفظُ مسلمٍ . و"سواء": العدلُ والنصفةُ . ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي لا نتبعُه في تحليلِ شيءٍ أو تحريمِه إلاّ فيما حلّله اللهُ تعالى . وهو نظيرُ قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة:٣١) أي أنّهم أنزلوهم منزلةَ ربِّهم في قبولِ تحريمِهم وتحليلِهم لِمَا لم يُحرِّمْه اللهُ ولم يُحلَّه اللهُ . وفيه ردٌّ على الرّوافضِ الذين يقولون : يجبُ قبولُ (قَوْلِ) الإمامِ دون إبانة مستند شرعيٍّ، وأنه يُحِلُّ ما حرّمه اللهُ من غيرِ أنْ يُبيِّنَ مستندًا من الشريعة . ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي أعرضوا عمّا دُعُوا إليه.﴿ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي متّصفون بدينِ الإسلامِ ، مُقَادُونَ بأحكامِه معترِفون بما للهِ علينا في ذلك من المَنِ والإنْعامِ ، غيرَ مُتَّخذين أحدًا ربًّا ، لا عيسى ولا عُزَيْرًا ، لأنّهم بشرٌ مثلُنا ، ولا الملائكةَ ، ولا نقبلُ من الرُّهْبَانِ شيئًا بتحريمِهم علينا ما لم يُحَرِّمْهُ اللهُ علينا ، فنكونُ قد اتّخذناهم أربابًا .

(٣٥) الجِـــدَالُ لِمَنْ لاَ عِلْمَ لَهُ :

يقولُ تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾
(آل عمران:٦٦)

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ ﴾ في أمرِ محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلم ، لأنّهم كانوا يعلَمونه فيما يجدون من وصْفِه في كتابِهم فحاجُّوا فيه بالباطلِ . ﴿ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ يعني دعواهم في إبراهيمَ أنه كان يهوديًّا أو نصرانيًّا . ومعنى " هَأَنْتُمْ " : أأنتم . و" هؤلاء " هنا في موضعِ النِّداءِ ، يعني : يا هؤلاء . وفي الآيةِ دليلٌ على مَنْعِ الجدالِ لِمن لا عِلْمَ له . وقد ورد الأمرُ

بالجدالِ لمن عَلِمَ وأيْقَنَ ، فقال تعالى : ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل:١٢٥) ورُوِيَ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه أتاه رجلٌ أنكر ولدَه فقال : يارسولَ اللهِ ، إنّ امرأتي ولدتْ غلامًا أسودَ . فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: (هل لك من إبلٍ ؟) قال نَعَم . قال : (ما لَوْنُها ؟) قال : حُمْرٌ قال : (هل فيها مِنْ أَوْرَق ؟ " الذي لونه بين السواد والغبرة ") قال : لعلّ عِرْقًا نَزَعَهُ . فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (وهذا الغلامُ لعلّ عِرْقًا نَزَعَهُ) (الترمذى). وهذا حقيقةُ الجدالِ ونِهايةٌ في تبيينِ الاستدلالِ من رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

(٣٦) التَّآلُفُ والاختلافُ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٣) .

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ ﴾ العِصْمَةُ : المَنْعَةُ من الأذى . والحَبْلُ هو الوسيلةُ إلى الغايةِ والحاجةِ . وقال ابنُ مسعودٍ : حبلُ اللهِ هو القرآنُ . وعن عبد اللهِ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ هذا القرآنَ هو حبلُ اللهِ) . فإنّ اللهَ يأمر بالأُلْفَةِ وينهى عن الفُرْقَةِ فإنّ الفُرْقَةَ هَلَكَةٌ والجماعةَ نجاةٌ . ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ في دينكم كما افترقتْ اليهودُ والنصارى في أديانهم ، وكونوا في دينِ اللهِ إخوانًا ، فيكونُ ذلك مَنْعًا لهم عن التقاطُعِ والتدابُرِ . ودلّ عليه ما بعده ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ وليس فيه دليلٌ على تحريمِ الاختلافِ في الفروعِ ، فإن ذلك ليس اختلافًا إذ الاختلافُ ما يتعذّرُ معه الائتلافُ والجَمْعُ ، وأمّا حكمُ الاجتهادِ فإنّ الاختلافَ فيه

بسببِ استخراجِ الفرائضِ ودقائقِ معاني الشّرعِ ومازالتْ الصّحابةُ يختلفون في أحكامِ الحوادثِ وهم مع ذلك متآلفون ، وقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (اختلافُ أُمّتي رحمةٌ)(البخارى) وإنما مَنَعَ اللهُ الاختلافَ الذي هو سببُ الفسادِ . ورَوَى الترمذيُّ عن أبي هريرةَ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال :(تفرّقتْ اليهودُ على إحدى وسبعين فِرْقَةً أو اثنتين وسبعين فِرقةً والنصارى مثلُ ذلك وتفترِقُ أُمّتي على ثلاثٍ وسبعين فِرْقَةً) . ومن حديثِ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : (ألا إنّ مَنْ قَبْلَكم من أهلِ الكتابِ افترقوا على اثنتين وسبعين مِلّةً وإنّ هذه المِلّةَ ستفترِقُ على ثلاثٍ وسبعين ثنتان وسبعون في النارِ وواحدةٌ في الجنّةِ وهي الجماعةُ وإنه سيخرجُ من أُمّتي أقوامٌ تجارى بِهم الأهواءُ كما يَتَجَارَى الكلبُ * داء يصيب الإنسان من عضّ الكلبِ فيصيبه بشبهِ الجنونِ * يُصاحبُه لا يبقى منه عِرْقٌ ولا مِفْصَلٌ إلاّ دخله) (أبوداود). وقد ظهر من هذه الفِرَقِ المختلفةِ : الحَرُورية والقَدَرِيّةُ والجَهْمِيّةُ والمُرْجِئةُ والرّافضةُ والْجَبْرِيّةُ . وقال بعضُ أهلِ العِلْمِ : أصلُ الفِرَقِ الضّالّةِ هذه الفِرَقُ السِّتُّ ، وقد انقسمَتْ كلُّ فِرْقَةٍ منها اثنتي عشرةَ فِرْقَةً ، فصارتْ اثنتين وسبعين فِرْقَةً . وفي صحيحِ مسلمٍ عن أبي هريرةَ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ اللهَ يَرْضَى لكم ثلاثًا ويَكْرَهُ لكم ثلاثًا ، رضى لكم أنْ تعبدوه ولا تُشرِكوا به شيئًا وأنْ تعتصموا بحبلِ اللهِ جميعًا ولا تفرّقوا ويكرهُ لكم ثلاثًا ، قيل : وقال : (وكثرةَ السّؤالِ وإضاعةَ المالِ) . ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ . أمرَ اللهُ تعالى بتذكُّرِ نِعَمِه ، وأعظمُها الإسلامُ ، فإنّ به زالتْ العداوةُ والفُرْقَةُ وكانتْ المحبّةُ والأُلْفَةُ ، والمرادُ الأوْسُ والخَزْرَجُ ، والآيةُ تعُمُّ . ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ أي صِرتُمْ بنعمةِ الإسلامِ إخوانًا في الدِّينِ . والإخوانُ جَمْعُ أخٍ ، وسُمِّيَ أخًا لأنه يتوخّى مذهبَ أخيه ، أي يقصدُه ، ويحرِصُ على مصلحتِه . وشفا كلِّ شيءٍ حَرْفُهُ .

(٣٧) التَّـــوَكُّلُ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران:١٢٢) واختلف العلماءُ في حقيقةِ التوكُّلِ . فقيل : هو الرِّضا بالضّمانِ ، وقَطْعِ الطّمَعِ من المخلوقين . وقيل : التوكُّلُ تَرْكُ الأسبابِ والرّكونُ إلى مُسَبِّبِ الأسبابِ ، فإذا شغله السببُ عن المُسَبِّبِ زال عنه اسمُ التوكّلِ . قال سَهْلٌ : من قال إنّ التوكّلَ يكونُ بتركِ الأسبابِ فقد طعن في سُنَّةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، لأنّ اللهَ عزّ وجلّ يقـــولُ : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾(الأنفال:٦٩) فالغنيمةُ اكتسابٌ . وقال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ اللهَ يُحبُّ العبدَ المحترفَ). والتوكُّلُ على اللهِ هو الثقةُ باللهِ والإيقانُ بأنّ قضاءَ اللهِ ماضٍ ، واتّباعُ سُنّةِ نبيِّه صلى اللهُ عليه وسلم فيما لابد منه من الأسبابِ من مَطعمٍ ومَشربٍ وتحرُّزٍ من عدوٍ وإعدادِ الأسلحةِ واستعمالِ ما تقتضيه سُنّةُ اللهِ المعتادةُ .

(٣٨) مَوْتُ محـــمد :

يقولُ تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٤)

رُوِيَ بأنّها نزلتْ بسببِ الهزامِ المسلمين يومَ أُحُدٍ حين صاح الشّيطانُ : قد قُتِلَ محمدٌ . فقال بعضُ الناسِ : قد أُصيبَ محمدٌ فأعطوهم بأيديكم فإنما هم إخوانُكم . وقال بعضُهم : إنْ كان محمدٌ قد أُصيبَ ألا تَمْضُون على ما مضى عليه نبيُّكم حتى تلحقوا به ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ إلى قوله تعالى : ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (آل عمران:١٤٨) . فأعلمَ اللهُ أنّ الرُّسُلَ ليستْ بباقيةٍ في قومِها أبدًا ، وأنه يجبُ التمسُّكُ بما أتتْ به الرُّسُلُ وإنْ فُقِدَ الرسولُ بموتٍ أو قَتْلٍ . فهذه الآيةُ من تَتِمَّةِ

العتابِ مع المنهزمين ، أي لم يكنْ لَهم الانْهزامُ وإنْ قُتِلَ محمدٌ ، والنبوّةُ لا تدرأُ الموتَ والأديانُ لا تزولُ بموتِ الأنبياءِ . واللهُ أعلمُ . وهذه الآيةُ دليلٌ على شجاعةِ الصِّدِّيق وجراءته ، فإنّ الشجاعةَ والجرأةَ حدُّهما ثُبوتُ القلبِ عند حلولِ المصائبِ ولا مصيبةَ أعظمُ من موتِ محمد صلى اللهُ عليه وسلم ، فظهرتْ عنده شجاعتُه وعِلْمُه . وقالتْ عائشةُ : لـــمّا قُبِضَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وأبو بكرٍ عند امرأته " ابنة خارجة " بالعوالي ، فجعلوا يقولون : لم يَمُتْ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم ، وإنما هو بعضُ ما كان يأخذُه عند الوَحْيِ ، ومنهم عمرُ ، وخرس عثمانُ ، واستخفَى عليٌّ . فجاء أبو بكرٍ فكشف عن وجهه وقَبَّلَ بين عينيه وقال : أنت أكرمُ على اللهِ من أنْ يُميتَك ! قد واللهِ مات رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم . وعمرُ في ناحيةِ المسجدِ يقولُ : واللهِ ما مات رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، ولا يموتُ حتى يقطعَ أيدي أُناسٍ من المنافقين كثيرٍ وأرجلَهم . فقام أبو بكرٍ فصَعِدَ المِنْبَرَ فقال : من كان يعبدُ اللهَ فإنّ اللهَ حَيٌّ لا يموتُ ومن كان يعبدُ محمدًا فإنّ محمدًا قد مات . ثـــم قرأ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ إلى آخرِ الآيةِ . قال عمرُ : " فلكأني لم أقرأها إلاّ يومئذٍ " . وعن ابنِ مالكٍ أنه سمِع عمرَ بنَ الخطّابِ حين بويِعَ أبو بكرٍ ، واستوى على مِنْبَرِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، تشهّد قبل أبي بكرٍ فقال : أمّا بعدُ فإني قلتُ لكم أمسُ مقالةً وإنّها لم تكنْ كما قلتُ ، وإني واللهِ ما وجدتُ المقالةَ التي قلتُ لكم في كتابٍ أنزله اللهُ ولا في عَهْدٍ عَهِدَهُ إليّ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، ولكني كنتُ أرجو أنْ يعيشَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حتى يَدْبُرَنَا " أي حتى يكونَ آخِرَنا مَوْتًا " فاختار اللهُ عزّ وجلّ لرسولِه الذي عنده على الذي عندكم ، وهذا الكتابُ الذي هَدَى اللهُ به رسولَه فخذوا به تَهتدوا لِما هُدِيَ له رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم . ومات صلى اللهُ عليه وسلم يومَ الاثنين بلا اختلافٍ ودُفِنَ يومَ الثلاثاءِ . وقيل ليلةَ الأربعاءِ . وقال أبو بكرٍ :" ما دُفِنَ نبيٌّ إلاّ حيث يموتُ "

واختُلِفَ هل صُلِّيَ عليه أم لا ، فمنهم من قال : لم يُصَلَّ عليه أحدٌ ، وإنما وقف كلُّ واحدٍ يدعو ، لأنه كان أشرفَ من أنْ يُصَلِّي عليه . وقيل : لم يُصَلَّ عليه لأنه لم يكن هناك إمامٌ .وهذا ضعيفٌ . وقيل: صَلَّى عليه الناسُ أفذاذًا، لأنه كان آخرَ العهدِ به، فأرادوا أنْ يأخذَ كلُّ واحدٍ بركتَه مخصوصًا دون أنْ يكونَ فيها تابعًا لغيرِه ، واللهُ أعلمُ بصحةِ ذلك. ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ أي أفتنقلبون على أعقابِكم إنْ مات أو قُتِلَ . ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ بل يضرُّ نفسَه ويُعَرِّضُها للعقاب ، واللهُ تعالى لا تنفعُه الطّاعةُ ولا تضرُّه المعصيةُ لِغِنَاه . ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي الذين صبروا وجاهدوا واستُشْهِدُوا .

وقولُه تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٥) هذا حضٌّ على الجهادِ ، وإعلامٌ بأنَّ الموتَ لابدّ منه وأنّ كلَّ إنسانٍ مقتولٍ أو غيرِ مقتولٍ مَيِّتٌ إذا بلغ أجَلَه المكتوبَ له . ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه .

(٣٩) لَوْ كُنتَ فَظًّا :

يقولُ تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

(آل عمران:١٥٩)

معنى الآيةِ أنه عليه الصلاةُ والسلامُ لمّا رَفَقَ بمن تولّى يومَ أُحُدٍ ولم يُعَنِّفْهُمْ بَيَّنَ اللهُ تعالى أنه إنما فعل ذلك بتوفيقِ اللهِ تعالى إيّاه وبرحمتِه ، وأنه لولا رِفْقُه لَمَنَعَهم

الاحتشامُ والْهَيبةُ من القُرْبِ منه بعد ما كان من تَوَلِّيهم . وقال العلماءُ : أَمَرَ اللهُ نبيَّه صلى اللهُ عليه وسلم بِهذه الأوامرِ بأنْ يعفوَ عنهم ما له في خاصّته عليهم من تَبِعَة ، وأنْ يستغفرَ فيما لله عليهم من تَبِعَةٍ أيضًا ، فإذا صاروا في هذه الدرجةِ صاروا أهلاً للاستشارةِ في الأمورِ . وقال ابنُ عطيّة : والشُّورى من قواعدِ الشَّريعةِ وعزائمِ الأحكامِ ، ومن لا يستشيرُ أهلَ العِلْمِ والدِّينِ فَعَزْلُهُ واجبٌ . وقد مدحَ اللهُ المؤمنين بقوله ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى:٣٨) . قال أعرابيٌّ : ما غُبِنْتُ قَطُّ حتى يُغْبَنَ قومي ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لا أفعلُ شيئًا حتى أشاورَهم . وقال ابنُ خُوَيْزِ مَنْدَاد : واجبٌ على الوُلاَةِ مشاورةُ العلماءِ فيما لا يعلمون ، وفيما أُشْكِلَ عليهم من أمورِ الدِّينِ ، وأمورِ الجيشِ فيما يتعلّقُ بالحربِ ، وأمورِ الناسِ فيما يتعلّقُ بالمصالحِ ، وأمورِ الكُتَّابِ والوزراءِ والعُمَّالِ فيما يتعلّقُ بمصالحِ البلادِ وعِمارتِها . وقيل : ما نَدِمَ من استشار . وقيل : مَنْ أُعْجِبَ برأيه ضَلّ . وعن الحسنِ البصريِّ والضحّاكِ : ما أَمَرَ اللهُ نبيَّه بالمشاورةِ لحاجةٍ منه إلى رأيهم ، وإنّما أراد أنْ يُعَلِّمَهم ما في المشاورةِ من الفضلِ ، ولتقتديَ به أُمَّتُه من بعده . ولقد أحسنَ القائلُ :

شَاوِرْ صَدِيقَكَ فِي الخَفِيِّ الْمُشْكِلِ ... وَاقْبَلْ نَصِيحَةَ نَاصِحٍ مُتَفَضِّلِ

فَاللهُ قَدْ أَوْصَى بِذَاكَ نَبِيَّهُ ... فِي قَوْلِهِ (شَاوِرْهُمْ) و (تَوَكَّلِ)

وقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (ما نَدِمَ مَن استشارَ ولا خابَ مَن استخارَ) . ورَوَى سهلُ بنُ سعدٍ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (ما شَقِيَ عَبْدٌ بمشورةٍ وما سَعِدَ باستغناءِ رَأْيٍ) وقال بعضُهم : شَاوِرْ مَنْ جَرَّبَ الأمورَ ، فإنّه يُعطيك من رأيه ما وقعَ عليه غاليًا وأنت تأخذُه مجّانًا . وقال حكيمٌ : مَنْ استشار في أمرِه مَلَك ، ومن استبدّ برأيه هَلَك . وقال سفيانُ الثوريُّ : ليكنْ أهلُ مشورتك أهلَ التقوى والأمانةِ ، ومن يخشى اللهَ تعالى . وقال الحسنُ : واللهِ ما تشاور قومٌ بينهم إلاّ هداهم لأفضلِ ما يحضر بِهم . ورُوِيَ عن عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه

قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (ما من قومٍ كانتْ لهم مشورةٌ فحضر معهم من اسمه أحمد أو محمد فأدخلوه في مشورتِهم إلاّ خيرٌ لهم) .
﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه عليه الصلاةُ والسلامُ إذا عزم على أمْرٍ أنْ يمضيَ فيه ويتوكّلَ على اللهِ ، لا على مشاورتِهم .والعزمُ هو الأمرُ المُرَوَّى المُنَقَّحُ ، وليس ركوبُ الرّأيِ دون رَوِيَّةٍ عزْمًا.

(٤٠) الفِكْــرُ والتَّفْكِــيرُ :

يقولُ تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩٠) ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا
بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٩١) رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ
أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى
لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا
تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (١٩٤) فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ
أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ
هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ
ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ (١٩٥) لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى
ٱلْبِلَٰدِ (١٩٦) مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (١٩٧) لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ
عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن

obeikandl.com

يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٩٠-٢٠٠)

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ختم اللهُ هذه السّورةَ بالأمرِ بالنظرِ والاستدلالِ في آياته ، إذ لا تصدرُ إلاّ عن حيٍّ قيُّومٍ قديرٍقُدُّوسٍ غنيٍّ عن العالمين ، حتى يكونَ إيمانُهم مستندًا إلى اليقينِ لا إلى التقليدِ . ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الذين يستعملون عقولَهم في تأمُّلِ الدلائلِ . ورُوِيَ عن عائشةَ رضي اللهُ عنها أنّها قالتْ : لـمّا نزلتْ هذه الآيةُ على النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم قام يُصلّي ، فأتاه بلالٌ يُؤْذِنُهُ بالصلاةِ فرآه يبكي فقال: يارسولَ الله ، أتبكي وقد غفر اللهُ لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟! فقال : (يابلالُ ، أفلا أكونُ عبدًا شكورًا ؟ ولقد أنزل اللهُ عليّ الليلةَ آيةَ ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠)، ثم قال : (ويلٌ لِمَنْ قرأها ولم يتفكّرْ فيها) (البخارى). ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ التفكّرُفي قدرةِ اللهِ تعالى ومخلوقاته والعِبَرِ التي بِها ، ليكونَ ذلك أزيَدَ في بصائرِهم .

وفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

ومرَّ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم على قومٍ يتفكّرون في اللهِ فقال : (تفكّروا في الخَلْقِ ولا تتفكّروا في الخالقِ فإنكم لا تقدرون قَدْرَهُ). وإنما التفكّرُ والاعتبارُ وانبساطُ الذّهنِ في المخلوقات . وحُكِيَ أنّ سفيانَ الثوريَّ رضي اللهُ عنه صلّى خلفَ المقامِ ركعتين ، ثم رفع رأسَه إلى السّماءِ ، فلمّا رأى الكواكبَ غشِيَ عليه ، وكان يبولُ الدَّمَ من طولِ حُزنِه وتفكُّرِه . ورُوِيَ عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه قال قال

رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم : (بينما رجلٌ مُستَلْقٍ على فراشه إذ رفعَ رأسَه فنظرَ إلى النجومِ وإلى السّماءِ فقالَ أشْهَدُ أنّ لكَ ربًّا وخالقًا ، اللهمَّ اغفرْ لي فنظرَ اللهُ إليه فغفرَ له) وقال صلى اللهُ عليه وسلم : (لا عبادةَ كتفكُّرٍ) ورُوِيَ عنه صلى اللهُ عليه وسلم : (تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سنة).
﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ أي ما خلقتَه عبثًا وهزْلاً ، بل خلقتَه دليلاً على قدرتِك وحكمتِك . ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ عن موسى بنِ طلحةَ قال : سُئِلَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عن معنى " سبحان اللهِ " فقال : (تنزيهُ اللهِ عن السوءِ) .
﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ أجِرْنا من عذابِها .

(٤١) الْمِيــرَاثُ (من سُــورةِ النِّسَــاءِ)

يقولُ تعالى :﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ

وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (النساء:١١-١٤)

اختلفتْ الرواياتُ في سببِ نزولِ آيةِ المواريثِ ، فقيل عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ أنّ امرأةَ سعدِ بنِ الربيعِ قالتْ : يارسولَ اللهِ ، إنّ سعدًا هَلَك وتَرَكَ بنتين وأخاه ، فعمَدَ أخوه فقبض ما ترك سعدُ ، وإنما تُنْكَحُ النساءُ على أموالِهنّ ، فلم يُجِبْهَا في مجلسِها ذلك . ثم جاءته فقالتْ : ابنتا سعد ؟ فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (ادْعُ لي أخاه) فجاء فقال له : (ادفعْ إلى ابنتيه الثُلُثَيْن وإلى امرأتــه الثُّمُنَ ولك ما بَقِيَ) . لفظُ أبي داودِ . وفي روايةِ الترمذيِّ وغيرِه : فنزلتْ آيةُ المواريثِ ورَوَى جابرٌ أيضًا قال : عادني رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأبو بكرٍ في بني سلمه يمشيان ، فوجداني لا أعقلُ ، فدعا بماءٍ فتوضّأَ ، ثم رشَّ عليّ منه فأفقتُ . فقلتُ : كيف أصنعُ في مالي يارسولَ اللهِ ؟ فنزلتْ ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ . وفي البخاريِّ عن ابنِ عباسٍ أنّ نزولَها كان من أجلِ أنّ المالَ كان للولدِ ، والوصيّةَ للوالدين ، فنُسِخَ ذلك بهذه الآياتِ . وقيل إنّ أهلَ الجاهليةِ كانوا لا يُوَرِّثُون إلاّ من لاقى الحروبَ وقاتل العدُوَّ ، فنزلتْ الآيةُ لتبيِّنَ أنّ لكلٍّ صغــيرٍ وكــبــيرٍ حظَّه . ولا يبعدُ أنْ يكونَ جوابًا للجميعِ ، ولذلك تأخّر نزولُها . واللهُ أعلمُ .

(٤٢) التِّجَـــارَةُ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾(النساء:٢٩) .

﴿ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ أي بغيرِ حق . وقد بيّناه في سورةِ البقرةِ . ومن أكلِ المالِ بالباطلِ بَيْعُ العُرْبَانِ " العَرْبون " ويُحتَمَلُ أنْ يكونَ بيعُ العُربانِ الجائزُ على ما تأوّله مالكٌ والفقهاءُ معه وذلك بأنْ يُعَرْبِنَهُ ثم يحسبُ عُرْبَانَهُ " عَرْبونَهُ " من الثّمَنِ إذا اختار تمامَ البيعِ . وهذا لا خلافَ في جوازِه.﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ ﴾ والتجارةُ هي البيعُ والشّراءُ . وهذا مثلُ قولِه تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ (البقرة:٢٧٥).

لو اشتريتَ من السّوقِ شيئًا ، فقال لك صاحبُه قبل الشّراءِ: ذُقْهُ وأنت في حِلٍّ، فلا تأكلْ منه ، لأنّ إذنه بالأكلِ لأجلِ الشّراءِ ، فربّما لا يقعُ بينكما شراءٌ فيكونُ ذلك الأكلُ شُبْهَةً ، ولكنْ لو وَصَفَ لك صِفَةَ ما اشتريتَه فلم تجدْه على تلك الصِّفةِ فأنت بالخِيارِ . وأجمع الجمهورُ على جوازِ الغَبْنِ في التجارةِ ، مثل أنْ يبيعَ رجلٌ ياقوتةً بدرهمٍ وهي تساوي مائةً فذلك جائزٌ ، وأنّ المالكَ الصحيحَ المِلْكِ جائزٌ له أنْ يبيعَ مالَه الكثيرَ بالتافهِ اليسيرِ ، وهذا ما لا اختلافَ فيه بين العلماءِ إذا عَرَفَ قَدْرَ ذلك ، كما تجوزُ الهِبَةُ لو وَهَبَ . واختلفوا فيه إذا لم يعرفْ قَدْرَ ذلك ، فقال قومٌ : عَرَفَ قَدْرَ ذلك أو لم يعرفْ فهو جائزٌ إذا كان رشيدًا حُرًّا بالغًا . وقالت فِرْقَةٌ : الغَبْنُ إذا تجاوز الثُّلُثَ مردودٌ وإنما أُبيحَ منه الْمُتَقَارَبُ الْمُتَعَارَفُ في التجاراتِ ، وأمّا الْمُتَفَاحَشُ الفادحُ فلا . والأوّلُ أصحُّ ، لقولِه عليه الصلاةُ والسلامُ في حديثِ الأَمَةِ الزّانيةِ : (فَلْيَبِعْهَا ولو بِضَفِيرٍ) (أحمد) وقولِه لعمرَ : (لا تَبْتَعْهُ " يعني الفرسَ "

ولو أعطاكَهُ بدرهمٍ واحدٍ) (أحمد) وقوله (دعوا الناسَ يرزقُ اللهُ بعضَهم من بعضٍ) (أحمد) وقوله : (لا يَبِعْ حاضِرٌ " المقيم في المدن والقُرَى " لِبَادٍ " المقيم بالبادية") (أحمد) وليس فيها تفصيلٌ بين القليلِ والكثيرِ من ثُلُثٍ ولا غيرِه.﴿ عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ أي عن رِضًى . وقال مالكُ وأبو حنيفةَ : تمامُ البيعِ هو أنْ يُعْقَدَ البيعُ بالألسنَةِ فينجزمَ العَقْدُ بذلك ويرتفعَ الخِيارُ . قال محمدٌ بنُ الحسنِ : معنى قوله في الحديثِ : (الْبَيِّعَانِ بالخِيارِ ما لم يتفرَّقا أو يقولُ أحدُهما لصاحبه اخْتَرْ) (البخارى) أنّ البائعَ إذا قال : قد بِعْتُكَ ، فله أنْ يرجعَ ما لم يَقُلْ المشتري قد قَبِلْتُ . والخيارُ أنْ يقولَ أحدُهما بعد تمامِ البيعِ لصاحبِه : اخْتَرْ إنفاذَ البيعِ أو فَسْخَه. وعن عبد اللهِ بنِ عمرٍو قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ : (أيُّما رجلٍ ابتاعَ من رجلٍ بيعةً فإنّ كلَّ واحدٍ منهما بالخِيارِ حتى يتفرّقا من مكانهما إلاّ أنْ تكونَ صفْقَةَ خِيارٍ فلا يحِلُّ لأحدهما أنْ يُفارِقَ صاحبَه مخافةَ أنْ يُقيلَه) (الدارقطنى) . فهذا يدلُّ على أنه قد تمّ البيعُ بينهما قبل الافتراقِ ، لأنّ الإقالةَ لا تصحُّ إلاّ فيما قد تمّ من البيوعِ .

ورَوَى الدّارَقُطْنِيُّ عن ابنِ عمرَ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (التّاجرُ الصَّدوقُ الأمينُ المسلمُ مع النبيّين والصّدّيقين والشُّهداءِ يومَ القيامةِ) ويُكْرَهُ للتاجرِ أنْ يحلِفَ لترويجِ سِلْعتِه وتزيينِها ، أو يُصلّيَ على النبيِّ في عَرْضِ سلعته ، كأنْ يقولَ : صلّى اللهُ على محمدٍ ، ما أجوَدَ هذا ! .. ويُستَحَبُّ للتاجرِ ألاّ تشغلَه تجارتُه عن الفرائضِ ، فإنْ جاء وقتُ الصلاةِ ينبغي أنْ يتركَ تجارتَه حتى يكونَ من أهلِ هذه الآيةِ ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (النور:٣٧)

(٤٣) مَنْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ (النساء:٢٩) أجمع أهلُ التأويلِ على أنّ المرادَ بهذه الآيةِ النّهيُ عن أنْ يقتلَ بعضُ الناسِ بعضًا . ولَفْظُهَا يتناولُ أنْ يقتلَ الرجلُ نفسَه بقَصْدٍ منه للقتلِ في الحِرْصِ على الدنيا وطَلَبِ المالِ ، بأنْ يحملَ على الغَرَرِ المؤدّي إلى التلفِ . ويُحْتَمَلُ أنّ المعنى : لاتقتلوا أنفسَكم في حالِ ضَجَرٍ أو غضبٍ . واحتجّ عمرو بنُ العاصِ بهذه الآيةِ حين امتنع من الاغتسالِ بالماءِ البارِدِ حين أجنبَ في غزوةِ ذاتِ السّلاسلِ خوفًا على نفسِه منه ، فقرّرَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم احتجاجَه وضَحِكَ عنده ولم يَقُلْ شيئًا . خرّجه أبو داود .

(٤٤) الْكَبَائرُ والصَّغَائرُ :

يقولُ تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ (النساء:٣١)

لمّا نَهَى اللهُ تعالى في هذه السورةِ عن آثامٍ هي كبائرُ، وَعَدَ على اجتنابِها التخفيفَ من الصّغائرِ ، ودلّ هذا على أنّ في الذنوبِ كبائرَ وصغائرَ ، وعلى هذا جماعةُ أهلِ التأويلِ وجماعةُ الفقهاءِ ، وأنّ اللمسةَ والنظرةَ تُكَفَّرُ باجتنابِ الكبائرِ قطعًا بوعدِه الصّدقِ وقولِه الحقِّ . فاللهُ تعالى يغفرُ الصّغائرَ باجتنابِ الكبائرِ ، وإقامةِ الفرائضِ . ورَوَى مسلمٌ عن أبي هريرةَ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (الصّلواتُ الخمسُ والجمعةُ إلى الجمعةِ ورمضانُ إلى رمضانَ مُكَفِّرَاتٌ ما بينهنَّ ، إذا اجتنبَ الكبائرَ) . وعن أبي هريرةَ وأبي سعيدٍ الخدريّ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم جلس على المِنْبَرِ ثم قال : (والذي نفسي بيدِه) ثلاثَ مرّاتٍ ، ثم سَكَتَ ، فأكبَّ كلُّ رجلٍ منّا يبكي حزينًا لِيَمينِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، ثم قال : (ما من عبدٍ يُؤدّي الصّلواتِ الخمسَ ويصومُ رمضانَ

ويجتنبُ الكبائرَ السَّبْعَ إلاَ فُتحَتْ له ثمانيةُ أبواب من الجنّة يومَ القيامة حتى أنّها لَتُصفّقُ) ثم تلا ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ (رواه أبو حاتم في مسنده).

(٤٥) تَفْضِيلُ الرِّجَالِ على النِّسَاء :

يقولُ تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ (النساء:٣٤)

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي يقومون بالنفقة عليهنّ ، وأيضًا فإنّ فيهم الحكّامَ والأمراءَ ومن يغزو ، وليس ذلك في النساءِ . والآيةُ نزلتْ في سعدِ بنِ الربيعِ نَشَزَتْ عليه امرأته حبيبةُ بنتُ زيدٍ فلطمَها ، فقال أبوها : يارسولَ اللهِ ، أفْرَشْتُهُ كريمتي فلطمَها ! فقال عليه الصلاةُ والسلامُ :(لِتَقْتَصَّ من زوجِها) . فانصرفتْ مع أبيها لتقتصَّ منه ، فقال عليه الصلاةُ والسلامُ (ارجعُوا هذا جبريلُ أتاني) فأنزل اللهُ هذه الآيةَ ، فقال عليه الصلاةُ والسلامُ :(أرَدْنَا أمْرًا وأراد اللهُ غيرَه). وفي روايةٍ أخرى : (أردتُ شيئًا وما أراد اللهُ خيرٌ). ثم بيّن اللهُ تعالى أنّ تفضيلَهم عليهنّ في الإرْثِ لِما على الرجالِ من المَهْرِ والإنفاقِ ، ويُقالُ إنّ الرجالَ لَهم فضيلةٌ في زيادةِ العقلِ والتدبيرِ فجُعِل لهم حقُ القيامِ عليهنّ لذلك . وقيل: للرجالِ زيادةُ قوّةٍ في النفسِ والطّبْعِ ما ليس في النّساءِ ، وطبعُ النساءِ غلب عليه اللينُ والضّعفُ ، فجعل للرجالِ حقَّ القيامِ عليهنّ بذلك ، وبقولِه تعالى : ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾. ودلّتْ هذه الآيةُ على تأديبِ الرجالِ نساءَهم ، فإذا

حفظْنَ حقوقَ الرجالِ فلا ينبغي أنْ يُسيءَ الرجلُ عِشْرَتَها . فقيامُ الرجالِ على النساءِ هو أنْ يقومَ بتدبيرِها وتأديبِها وإمساكِها في بيتِها ومنعِها من البروزِ ، وأنّ عليها طاعتَه وقبولَ أمرِه مالم تكنْ معصيةً ، وتعليلُ ذلك بالفضيلةِ والنفقةِ والعقلِ والقوّةِ في أمرِ الجهادِ والميراث والأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكرِ . وفَهِمَ العلماءُ من قولِه تعالى : ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ أنه متى عجزَ عن نفقتِها لم يكنْ قوّامًا عليها ، وإذا لم يكنْ قوّامًا عليها كان لها فَسْخُ العَقْدِ لزوالِ المقصودِ الذي شُرِعَ من أجلِه النّكاحُ . وفيه دلالةٌ واضحةٌ من هذا الوجهِ على ثبوتِ فسخِ العقدِ عند الإعسارِ بالنفقةِ والكُسوةِ ، وهو مذهبُ مالكٍ والشّافعيِّ . وقال أبو حنيفةَ : لا يُفْسَخُ ، لقولِه تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

(البقرة: ٢٨٠)

﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾ والمقصودُ الأمرُ بطاعةِ الزوجِ والقيامُ بحقّه في ماله وفي نفسِها في حالِ غيبةِ الزوجِ . وعن أبي هريرةَ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (خيرُ النساءِ التي إذا نظرتَ إليها سَرَّتْكَ وإذا أمرتَها أطاعتْكَ وإذا غِبْتَ عنها حفظَتْكَ في نفسِها ومالك)(أبو داود) قال : وتلا هذه الآيةَ ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ إلى آخرِ الآيةِ . وقال صلى اللهُ عليه وسلم لعمرَ : (ألا أُخبِرُكَ بخيرِ ما يكنزُهُ المرءُ ، المرأةُ الصالحةُ إذا نظرَ إليها سرّتْه وإذا أمَرَها أطاعتْه وإذا غابَ عنها حفظتْه) أخرجه أبو داود . ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ قال ابنُ عباسٍ : تخافون بمعنى تعلمون وتُيَقّنونَ . والنشوزُ العصيانُ . فالمعنى : أي تخافون عصيانَهنّ وتعاليهنّ عما أوجبَ اللهُ عليهنّ من طاعةِ الأزواجِ . ﴿ فَعِظُوهُنَّ ﴾ أي ذكّرُوهنّ بما أوجب اللهُ عليهنّ من حُسْنِ الصُّحْبَةِ وجميلِ العِشْرَةِ للزوجِ، والاعترافِ بالدرجةِ التي له عليها. وقال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : (لو أمرتُ أحدًا أنْ يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ

الزوجةَ أنْ تسجدَ لزوجِها)(البخارى) . وقال : (لا تمنعُه ولو كانتْ على ظهرِ قَتَبٍ " برذعة ") . وقال : (أيُّما امرأةٍ باتتْ هاجرةً فِراشَ زوجِها لعنتْها الملائكةُ حتى تُصبحَ) (أحمد) وفي روايةٍ (حتى تُراجعَ وتضعَ يدَها في يده) . ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ والهجرُ في المضاجعِ هو أنْ يُضاجعَها ويُوليَها ظَهْرَه ولا يُجامعَها . فإنّ الزوجَ إذا أعرضَ عن فِراشِها وكانتْ مُحِبَّةً للزوجِ فذلك يَشقُّ عليها فترجعُ للصلاحِ ، وإنْ كانتْ مُبْغِضَةً فيظهرُ النشوزُ منها . وهذا الهجرُ غايتُه عند العلماءِ شَهْرٌ ، كما فعل النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم حين أسرَّ إلى حفصةَ فأفشَتْه إلى عائشةَ ، وتظاهرتا عليه .ولا يبلغُ به الأربعةَ الأشهُرَ التي ضربَ اللهُ أجلاً عُذْرًا لِلْمُولي . ﴿ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ أمر اللهُ أنْ يبدأَ النساءَ بالموعظةِ أوّلاً ثم بالهجرانِ ، فإنْ لم يَنْجَعَا فالضّرب . والضربُ في هذه الآيةِ هو ضرْبُ الأدبِ غيرُ الـمُبَرِّحِ ، وهو الذي لا يكسرُ عَظْمًا ولا يُشينُ جارحةً ، فإنّ المقصودَ منه الصلاحُ لا غيرَ . وفي صحيحِ مسلمٍ : (اتَّقُوا اللهَ في النساءِ فإنكم أخذتموهنّ بأمانة اللهِ واستحللتم فروجَهنّ بكلمةِ اللهِ ولكم عليهنّ ألاّ يُوطِئْنَ فُرُشَكم أحدًا تكرهونه ، فإنْ فعلنَ فاضربوهنّ ضربًا غيرَ مُبَرِّحٍ) أي لا يُدْخِلْنَ منازلَكم أحدًا تكرهونه من الأقاربِ والأجانبِ . ورَوَى الترمذيُّ عن عمرو بنِ الأحْوَصِ أنه شهِدَ حجةَ الوداعِ مع رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه وذكَرَ ووَعَظَ فقال : (ألا واستوصوا بالنساءِ خيرًا فإنهنّ عَوَانٌ " أسيرات " عندكم ليس تملكون منهنّ شيئًا غيرَ ذلك إلاّ أنْ يأتينَ بفاحشةٍ مُبَيِّنَةٍ فإنْ فعلنَ فاهجروهنّ في المضاجعِ واضربوهنّ ضربًا غيرَ مُبَرِّحٍ فإنْ أطعنكم فلا تبغوا عليهنّ ألا إنّ لكم على نسائكم حقًّا ولنسائكم عليكم حقًّا ، فأمّا حقُّكم على نسائكم فلا يُوطِئْنَ فُرُشَكم من تكرهون ولا يأذنَّ في بيوتكم من تكرهون ، ألا وحقُّهنّ عليكم أنْ تُحْسِنُوا إليهنّ في كسْوَتهنّ وطعامِهنّ). ﴿ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ (النساء:١٩) والمعنى : لا يُدْخِلْنَ من يَكْرَهُهُ

أزواجُهنّ ولا يُغْضِبْنَهم . ورُوِيَ أنّ عمرَ بنَ الخطاب ضربَ امرأتَه فعُذلَ في ذلك فقال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : (لا يُسْأَلُ الرجلُ فيمَ ضَرَبَ أهلَه) . ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ ﴾ أي تركوا النشوزَ ﴿ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ أي لا تجنوا عليهنّ بقولٍ أو فعْلٍ ، وهذا نَهْيٌ عن ظُلْمِهنّ بعد تقريرِ الفضلِ عليهنّ والتمكينِ من أدبِهنّ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ إشارةٌ إلى الأزواجِ بخفْضِ الجناحِ ولِينِ الجانبِ، أي إنْ كنتم تقدرون عليهنّ فتذكّروا قدرةَ الله، فيَدُهُ بالقدرةِ فوق كلِّ يَدٍ . فلا يستعلي أحدٌ على امرأته ، فاللهُ بالمرصادِ ، فلذلك حُسْنُ الاتّصافِ هنا بالعُلُوِّ والكبرِ . واعلمْ أنّ اللهَ تعالى لم يأمرْ في شيءٍ من كتابِه بالضربِ صُرَاحًا إلاّ هنا وفي الحدودِ العِظَامِ ، فساوى معصيتَهنّ بأزواجِهنّ بمعصيةِ الكبائرِ ، وولّى الأزواجَ ذلك دون الأئمّةِ . جعله لهم دون القضاةِ بغيرِ شُهُودٍ ولا بيِّناتٍ ائتمانًا من اللهِ تعالى للأزواجِ على النساءِ . قال المُهَلَّبُ : إنّما جَوَّزَ ضَرْبَ النساءِ من أجلِ امتناعِهنّ على أزواجِهنّ في المباضعةِ . واختُلِفَ في وجوبِ ضَرْبِها في الخدمةِ ، والقياسُ يوجبُ أنه إذا جازَ ضَرْبُها في المباضعةِ جازَ ضربُها في الخدمةِ الواجبةِ للزوجِ عليها بالمعروفِ . وقال ابنُ خُوَيْزِ مَنْدَاد : والنشوزُ يُسْقِطُ النفقةَ وجميعَ الحقوقِ الزوجيةِ ، ويجوزُ معه للزوجِ أنْ يضربَها ضَرْبَ الأدبِ غيرَ المُبَرِّحِ، والوعظُ والهجرُ حتى ترجعَ عن نشوزِها ، فإنْ رجعتْ عادتْ حقوقُها، وكذلك كلُّ ما اقتضَى الأدبَ فجائزٌ للزوجِ تأديبُها . ويختلفُ الحالُ في أدبِ الرفيعةِ والدّنيئةِ ، فأدبُ الرّفيعةِ العَذْلُ ، وأدبُ الدّنيئةِ السَّوْطُ. وقال صلى اللهُ عليه وسلم: (رَحِمَ اللهُ امْرَأً علّقَ سَوْطَهُ وأدّبَ أهلَه) وقال ابنُ المُنْذِرِ : اتّفق أهلُ العِلْمِ على وجوبِ نفقاتِ الزوجاتِ على أزواجِهنّ إذا كانوا جميعًا بالغين إلاّ النّاشزَ منهنّ الممتنعةَ . وقال أبو عمرَ : من نشزتْ عنه امرأتُه بعد دخولِه سقطتْ عنه نفقتُها إلاّ أنْ تكونَ حاملاً . ولا تسقطُ نفقةُ المرأةِ عن زوجِها لشيءٍ غيرِ النشوزِ .

(٤٦) الإصْـــلاحُ بيْـــنَ الزَّوْجَـــيْنِ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (النساء:٣٥).

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ أي وإنْ خفتم تباعـدَ عِشْرَتِهـما وصُحْبَتِهـما ﴿ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ فينظران ممن الضررُ ، وعند ذلك يكون الخُلْعُ . ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ يعني الحَكَمَيْن ، إنْ يريدا إصلاحًا يوفّق اللهُ بين الزوجين . وقيل : إنْ يُرِد الزوجان إصلاحًا وصدقا فيما أخبرا به الحَكَمَيْن ، يُوفّق الله بينهما .

(٤٧) الأَعْـــمَالُ الصَّـــالحَةُ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (النساء:٣٦) .

أجمعَ العلماءُ أنّ هذه الآيةَ من المُحْكَمِ المُتَّفَقِ عليه ، ليس منها شيءٌ منسوخٌ ، والعبوديةُ هي التذلّلُ والافتقارُ لمن له الحُكْمُ والاختيارُ ، فأَمَرَ اللهُ عبادَه بالتذلّلِ له والإخلاصِ فيه ، وليس للهِ إلاّ العمل الخالص ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ (الزمر:٣) وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾(البينة:٥) وكذلك إذا أحسَّ الرجلُ بداخلٍ في الرّكوعِ وهو إمامٌ لم ينتظِرْهُ، لأنه يُخرِجُ ركوعَه بانتظارِه عن كونِه خالصًا للهِ . وفي صحيحِ مسلمٍ عن أبي هريرةَ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (قال اللهُ تبارك وتعالى أنا أغنى

الشُّركاءِ عن الشِّرْكِ مَنْ عملَ عملاً أشركَ فيه معي غيري تركتُه وشِرْكَه) ورَوَى الدّارَقُطْنِيُّ عن أنسِ بنِ مالك قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (يُجَاءُ يومَ القيامة بصُحُف مُخْتَمَة فَتُنْصَبُ بين يَدَيِ اللهِ تعالى فيقولُ اللهُ تعالى للملائكة ألْقُوا هذا واقْبَلُوا هذا فتقولُ الملائكةُ وعِزَّتك ما رأينا إلاّ خيرًا فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ – وهو أعلمُ – إنّ هذا كان لغيري ولا أقبلُ اليومَ من العملِ إلاّ ما كان ابْتُغِيَ به وجهي) ورُوِيَ عن الضحّاكِ ابنِ قيسٍ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم :(إنّ اللهَ تعالى يقولُ أنا خيرُ شَرِيك فَمَنْ أشركَ معي شريكًا فهو لشريكي يأيّها الناسُ أخلصوا أعمالَكم للهِ تعالى فإنّ اللهَ لا يقبلُ إلاّ ما خلُصَ له ولا تقولوا هذا لله وللرّحِمِ فإنّها للرّحِمِ وليس للهِ منها شيءٌ ولا تقولوا هذا للهِ ولوجوهِكم فإنّها لوجوهِكم وليس للهِ تعالى منها شيءٌ) (الدارقطنى).

وقال العلماءُ : إنّ الشِّرْكَ على ثلاثِ مراتبٍ وكلُّه مُحَرَّمٌ . وأصلُه اعتقادُ شريكٍ للهِ في أُلوهيّته ، وهو الشِّرْكُ الأعظمُ وهو شِرْكُ الجاهليةِ . ويليه في الرُّتبةِ اعتقادُ شريكٍ للهِ تعالى في الفعْلِ وإنْ لم يعتقدْ كونَه إلَهًا، ويلي ذلك الإشراكُ في العبادةِ وهو الرِّياءُ، وهو مُبْطِلٌ للأعمالِ . وعن سعيدِ بنِ أبي فضالةَ الأنصاريِّ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إذا جمعَ اللهُ الأوّلينَ والآخرينَ ليومِ القيامةِ ليومٍ لا رَيْبَ فيه نادَى منادٍ : من كان أشركَ في عملٍ عملَه للهِ عزَّ وجلَّ أحدًا فليطلبْ ثوابَه من عندِ غيرِ اللهِ فإنّ اللهَ أغنى الشُّرَكَاءِ عن الشِّرْكِ)(ابن ماجه). وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال : خرج علينا رسولُ اللهِ صلى اللهُ علي وسلم ونحن نتذاكرُ المسيخَ الدّجّالَ فقال : (ألا أُخبرُكم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيخِ الدّجّالِ ؟ قال : فقلنا بَلَى يارسولَ اللهِ ، فقال :(الشِّرْكُ الخَفِيُّ أنْ يقومَ الرجلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صلاتَه لما يرى من نَظَرِ رجلٍ) (ابن ماجه). قال سهلٌ قال لقمانُ لابنِه : الرِّياءُ أنْ تطلبَ ثوابَ عَمَلِكَ في دارِ الدنيا ، وإنّما عملُ القومِ

للآخـــرة . قيل له: فما دواءُ الرّياءِ ؟ قال: كِتْمَانُ العَمَلِ ، قيل له : فكيف يُكْتَمُ العَمَلُ ؟ قال : ما كُلِّفْتَ إظهارَه من العَمَلِ فلا تَدْخُلْ فيه إلاّ بإخلاصٍ ، وما لم تُكَلَّفْ إظهارَه أحبَّ ألاّ يطّلِعَ عليه إلاّ اللهُ . قال : وكلُّ عَمَلٍ اطّلعَ عليه الخَلْقُ فلا تُعِدُّه من العَمَلِ . ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ فأحَقُّ الناسِ بعد الخالقِ الْمَنّانِ بالشُّكرِ والإحسانِ والتزامِ البرِّ والطّاعةِ له والإذعانِ ، مَنْ قرنَ اللهُ الإحسانَ إليه بعبادته وطاعته وشُكْرَه بشكرِه وهما الوالدان ، فقال تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ (لقمان:١٤). وعن عبد الله بن عمرو بنِ العاصِ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (رِضَى الرَّبِّ في رِضَى الوالدينِ وسُخْطُه في سُخْطِ الوالدين) (الترمذى).

(٤٨) الْجَـــارُ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ امّا الجارُ فقد أمَر اللهُ بحِفْظِه والقيامِ بحقِّه ورَعْيِ ذمَّته . ألا تراه سبحانه وتعالى أكّدَ ذِكْرَه بعد الوالدين والأقربين فقال تعالى ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي القريبِ المسلمِ . ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ أي الغريبِ ، اليهوديِّ والنصرانيِّ . والإحسانُ إلى الجارِ قد يكونُ بالمواساةِ وقد يكونُ بحُسْنِ العِشْرَةِ وكفِّ الأذى والمحاماةِ دونه . رَوَى البخاريُّ عن عائشةَ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (مازال جبريلُ يُوصِيني بالجارِ حتى ظننتُ أنه سيُوَرِّثُه) . ورُوِيَ عن أبي شُريح أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلـــم قال : (واللهِ لا يُؤمنُ واللهِ لا يُؤمنُ واللهِ لا يُؤمنُ) قيل: يارسولَ اللهِ وَمَنْ ؟ قال: (الذي لا يأمنُ جارُه بَوَائقَه "شروره") وهذا عامٌّ في الجارِ ، وقد أكّدَ عليه الصلاةُ والسلامُ تَرْكَ إذايته بقَسَمه ثلاثَ مرّات، وأنه لا يُؤمنُ الإيمانَ الكاملَ مَنْ يُؤْذي جارَه . فينبغي للمؤمنِ أنْ يحذرَ أذَى جارِه ، وينتهي عما نَهَى اللهُ ورسولُه عنه . ورُوِيَ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : (الجيرانُ ثلاثةٌ فجارٌ له ثلاثةُ

حقوق وجارٌ له حقّان وجارٌ له حقٌّ واحدٌ ، فأمّا الجارُ الذي له ثلاثةُ حقوق فالجارُ المسلمُ القريبُ ، له حقُّ الجُوارِ وحقُّ القرابةِ وحقُّ الإسلامِ ، والجارُ الذي له حقّان هو الجارُ المسلمُ فله حقُّ الإسلامِ وحقُّ الجوارِ ، والجارُ الذي له حقٌّ واحدٌ هو الكافرُ له حقُّ الجوارِ)(البخارى) ورَوَى البخاريُّ عن عاشةَ قالتْ : قلتُ يارسولَ اللهِ ، إنّ لي جارَيْن فإلى أيِّهما أُهدي ؟ قال : (إلى أقربِهما منْك بابًا)، وقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (الجارُ أحَقُّ بِصَقَبِه)(البخارى) " الصَّقَبُ : الملاصقةُ والقُربُ ، والمرادُ به الشُّفْعَة ". واختلف الناسُ في حدِّ الجيرةِ ، فقال الأوزاعيُّ : أربعون دارًا من كلِّ ناحيةٍ . ورُوِيَ أنّ رجلاً جاء إلى النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم فقال : إني نزلتُ مَحَلَّةَ قومٍ وإنّ أقربَهم إليَّ جوارًا أشدُّهم لي أذىً ، فبعث النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم أبا بكرٍ وعمرَ وعليًّا يصيحون على أبوابِ المساجدِ : ألا إنّ أربعين دارًا جارٌ ولا يدخلُ الجنَّةَ مَنْ لا يأمَنُ جارُه بَوَائقَه . وقال عليٌّ بنُ أبي طالبٍ : مَنْ سمِعَ النِّداءَ فهو جارٌ . ومن إكرامِ الجارِ ما رواه مسلمٌ عن أبي ذرٍ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (يا أبا ذرٍ إذا طَبَخْتَ مَرَقَةً فأكثِرْ ماءَها وتعاهَدْ جيرانَك) وفي هذا حضٌّ على مكارمِ الأخلاقِ لما يترتّب عليها من المحبَّةِ وحُسْنِ العِشْرَةِ ودَفْعِ الحاجةِ والمفسدةِ ، فإنّ الجارَ قد يتأذّى بِقُتَارِ " رائحةِ الشواءِ وغيرِه " قِدْرِ جارِه ، وربّما تكونُ له ذُرِّيّةٌ فتهيجُ من ضعفائهم الشّهوةُ ويعظمُ على القائمِ عليهم الألمُ والكُلْفَةُ ، لاسيّما إنْ كان القائمُ ضعيفًا أو أرملةً فتعظمُ المشقّةُ ويشتدُّ منهم الألمُ والحسرةُ . وقال العلماءُ : لـمّا قال عليه الصلاةُ والسلامُ (فأكثِرْ ماءَهَا) نبَّهَ بذلك على تيسيرِ الأمرِ على البخيلِ تنبيهًا لطيفًا ، وجعل الزيادةَ فيما ليس له ثَمَنٌ وهو الماءُ ، ولذلك لم يَقُلْ : " فأكثِرْ لَحْمَهَا " ، إذ لا يسهُلُ ذلك على كلِّ أحدٍ . ولا يُهْدَى النَّزرُ اليسيرُ الْمُحْتَقَرُ ، لقوله عليه الصلاةُ والسلامُ : (ثم انظرْ أهلَ بيتٍ من جيرانك فأصِبْهُم منها بمعروفٍ) (مسلم) أي بشيءٍ يُهْدَى عُرْفًا ، فلو لم يتيسَّرْ إلاّ القليلُ فَلْيُهْدِه ولا يحتقرْهُ ، وعلى الْمُهْدَى

إليه قبولُه ، لقوله عليه الصلاةُ والسلامُ : (يانساءُ المؤمناتُ " بالرّفعِ على غيرِ الإضافةِ ، والتقديرُ : يأيّها النساءُ المؤمناتُ " لا تحتقِرَنَّ إحداكُنَّ لجارتِها ولو كُرَاعَ شاةٍ " مُستَدَقّ السّاقِ العاري من اللحمِ " مُحْرَقًا) أخرجه مالكٌ في موطئه . وعن معاذِ بنِ جبلٍ قال : قلنا يارسولَ اللهِ ، ما حقُّ الجارِ ؟ قال : (إنْ استقرضَك أقرضتَه ، وإنْ استعانَك أعنتَه ، وإنْ احتاجَ أعطيتَه ، وإنْ مرِضَ عُدتَه ، وإنْ ماتَ تبعْتَ جنازتَه ، وإنْ أصابَه خيرٌ سَرَّكَ وهنَّيْتَه، وإنْ أصابتْه مصيبةٌ ساءتْك وعزَّيْتَه، ولا تُؤذِه بقُتَارِ قدْرِكَ إلاّ أنْ تَغْرِفَ له منها ، ولا تستطِلْ عليه بالبناءِ لتُشْرِفَ عليه وتسُدَّ عليه الرّيحَ إلاّ بإذنه ، وإنْ اشتريتَ فاكهةً فأهْدِ له منها وإلاّ فأدخلْها سرّا لا يخرجُ ولدُك بشيءٍ منه يَغيظُون به وَلَدَه ، وهل تفقهون ما أقولُ لكم ، لن يُؤدِّيَ حقَّ الجارِ إلاّ القليلُ مـــمّن رَحِـــمَ اللهُ) أو كلمةً نحوها (البخارى). وقال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم لعائشةَ عند تفريقِ لحمِ الأضْحيَةِ : (ابدئي بجارِنا اليهوديِّ) ورُوِيَ أنّ شاةً ذُبِحَتْ في أهلِ عبد اللهِ بنِ عمرو ، فلما جاء قال : أهديتم لجارِنا اليهوديِّ ؟ " ثلاثَ مرّاتٍ " سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ : (مازال جبريلُ يوصيني بالجارِ حتى ظننتُ أنه سيورِّثُه)(البخارى). ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ أي الرّفيقِ في السَّفَرِ . وأسند الطّبَريُّ أنّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كان معه رجلٌ من أصحابه وهما على راحلتين ، فدخل رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم غَيْضَةً " مجتمع الشّجرِ في مغيضِ ماءٍ " ، فقطع قضيبين أحدُهما مُعْوَجٌّ ، فخرج وأعطى لصاحبِه القَويمَ ، فقال : كنتَ يارسولَ اللهِ أحَقَّ بهذا! فقال :(كلاّ يا فلانُ إنّ كلَّ صاحبٍ يصحبُ آخَرَ فإنه مسئولٌ عن صحابتِه ولو ساعةً من نَهارٍ). وقال عليٌّ وابنُ مسعودٍ ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ الزّوجةُ . ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ قال مجاهد : هو الذي يجتازُ بك مارًّا . والسّبيلُ الطّريقُ ، فنُسِبَ المسافرُ إليه لمرورِه عليه ولزومِه إيّاه . ومن الإحسانِ إليه إعطاؤُه وإرفاقُه وهِدَايتُه .

(٤٩) الْعَــبْدُ وَالْحُــرُّ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ أمَرَ اللهُ بالإحسانِ إلى المماليكِ . ورَوَى مسلمٌ عن المعرورِ بنِ سُويداءَ قال : مررنا بأبي ذرٍ بالرَّبذة " من قُرَى المدينةِ على ثلاثةِ أميالٍ، بها مدفنُ أبي ذرٍ الغِفَارِيّ " وعليه بُرُدٌ وعلى غلامِه مثلُه ، فقلنا : يا أبا ذرٍ ، لو جمعتَ بينهما كانتْ حُلَّةً ، فقال : إنه كان بيني وبين رجلٍ من إخواني كلامٌ ، وكانتْ أمُّه أعجميّةً فعيّرتُه بأُمِّه ، فشكاني إلى النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فلقيتُ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم فقال: (يا أبا ذرٍ إنّك امْرُؤٌ فيك جاهليّةٌ) قلتُ : يارسولَ اللهِ ، مَنْ سَبَّ الرّجالَ سَبُّوا أباه وأُمَّه . قال : (هم إخوانُكم جعلهم اللهُ تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تَلْبسون ولا تُكلِّفوهم ما يغلبُهم فإنْ كلّفتموهم فأعينوهم) . ورُوِيَ عن أبي هريرةَ أنه ركِبَ بغلةً ذاتَ يومٍ فأردف غلامَه خلفه ، فقال له قائلٌ : لو أنزلتَه يسْعَى خلف دابّتك ، فقال أبو هريرةَ : لأنْ يسْعَى معي ضِغْثَان " حِزْمَتان من حَطَبٍ " من نارٍ يَحْرِقان منّي ما أحرقا أَحَبُّ إليّ من أنْ يسْعَى غلامي خلفي . وخرّج أبو داود عن أبي ذرٍ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (مَنْ لايَمَكم " والفكم " مِن مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون واكسوه مما تَكتَسُون ومَن لا يُلايِمُكم منهم فبيعوه ولا تُعَذِّبُوا خَلْقَ اللهِ) وقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (للمملوكِ طعامُه وكسْوتُه ولا يُكَلَّفُ إلاَّ ما يُطيقُ) (مسلم) وقال : (لا يَقُلْ أحدُكم عبدي وأمَتي بل ليقُلْ فتايَ وفَتَاتي) (مسلم) فحَثَّ السّادةَ على مكارمِ الأخلاقِ وأرشدهم إلى الإحسانِ وإلى سلوكِ طريقِ التواضعِ حتى لا يَرَوْا لأنفسِهم مَزِيّةً على عبيدِهم ، إذ الكلُّ عبيدُ اللهِ والمالُ مالُ اللهِ ، لكن سخَّرَ بعضَهم لبعضٍ ، وملّك بعضَهم بعضًا إتمامًا للنعمةِ وتنفيذًا للحِكْمَةِ . ورَوَى مسلمٌ عن عبدِ اللهِ بـــنِ عمـــرَ إذ جاءه قَهْرَمَانٌ له " قهرمان : الخازن او الوكيل " فدخل فقال عبدُ اللهِ : أعطيتَ الرَّقيقَ قوتَهم ؟ قال لا . قال : فانطلقْ فأعطِهم ، قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (كَفَى بالمَرْءِ إثْمًا أنْ يحبِسَ عمّن

يملكُ قوتَهم) وثبتَ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : (مَنْ ضَرَبَ عبدَه حدًّا لم يأتِه فكفَّارتُه أنْ يعتقَه)(مسلم) ومعناه أنْ يضربَه قدْرَ الحدِّ ولم يكنْ عليه حدٌّ . وجاء عن نَفَرٍ من الصحابةِ أنّهم اقتصُّوا للخادمِ من الوَلَدِ في الضرْبِ وأعتقوا الخادمَ لـمّا لم يَرُدّ الحدَّ . وقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (لا يدخلُ الجَنَّةَ سَيِّئُ الْمَلَكَة)(أحمد) أي الذي يُسيءُ صُحْبَةَ المماليك . وقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (سُوءُ الخُلُقِ شُؤْمٌ وحُسْنُ المَلَكَة نماءٌ وصِلَةُ الرَّحِمِ تزيدُ في العمْرِ والصّدقةُ تدفعُ مَيْتَةَ السّوءِ)(أحمد). وعن ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم قال: (إنّ العبدَ إذا نصحَ لسيِّده وأحسنَ عبادةَ الله فله أجرُه مرَّتَيْن)(البخارى) فاستدلَّ بهذا وما كان مثله من فضلِ العبدِ ، لأنه مُطَالَبٌ من جهتين : مطالبٌ بعبادةِ اللهِ ، ومطالبٌ بخدمةِ سيِّده . ورَوَى أنسُ بنُ مالكٍ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : (مازال جبريلُ يوصيني بالجارِ حتى ظَننتُ أنه سيورِّثُه ، ومازال يوصيني بالنساءِ حتى ظننتُ أنه سيُحَرِّمُ طلاقَهنّ ، ومازال يوصيني بالمماليكِ حتى ظَننتَ أنه سيجعلُ لهم مدّةً إذا انتهوْا إليها عَتَقُوا ، ومازالَ يوصيني بالسِّواك حتى خشيتُ أنْ يَحْفِيَ فَمِي ، ومازال يوصيني بقيامِ الليلِ حتى ظننتُ أنّ خِيَارَ أُمّتي لا ينامون ليلاً)(البخارى). ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ﴾ أي لا يَرْضَى . ﴿ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ (النساء:٣٦) فنَفَى سبحانه وتعالى محبَّتَه ورضاه عمّن هذه صِفَتُه ، أي لا يُظْهِرُ عليه نعمَه في الآخرةِ . والمختالُ هو ذو الخُيَلاءِ والكِبْرِ .

(٥٠) السُّكَارَى :

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن

كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (النساء:٤٣)

خصَّ اللهُ تعالى بهذا الخطابِ المؤمنين ، لأنهم كانوا يقيمون الصلاةَ وقد أخذوا من الخمرِ وأتلفَتْ عليهم أذهانَهم فخُصُّوا بهذا الخطابِ . وعن عمرَ بنِ الخطابِ رضي اللهُ عنه قال : لـمّا نزل تحريمُ الخمرِ قال عمرُ : اللهمّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شافيًا ، فنزلتْ الآيةُ التي في البقرةِ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ ﴾ (البقرة:٢١٩) قال : فَدُعِيَ عمرُ فقُرِئَتْ عليه فقال : اللهمّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شافيًا ، فنزلتْ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ ﴾ فكرّر عمرُ الدّعاءَ ، فنزلتْ ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ (المائدة:٩١) الآية ، فقال عمرُ : انتهينا ، انتهينا . ثم طاف منادي رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : ألا إنّ الخمرَ قد حُرِّمَتْ . ورَوَى الترمذيُّ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ قال : صنع لنا عبدُ الرحمنِ ابنُ عوفٍ طعامًا فدعانا وسقانا من الخمرِ ، فأخَذَتْ الخمرُ منّا ، وحضَرَتْ الصلاةُ ، فقدّموني ، فقرأتُ : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (الكافرون:١،٢) ونحن نعبدُ ما تعبدون . قال : فنزلتْ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ وقال صلى اللهُ عليه وسلم : (إذا حضر العَشاءُ وأقيمت الصلاةُ فابدءوا بالعَشاءِ) فراعى صلى اللهُ عليه وسلم زوالَ كلِّ مُشَوِّشٍ يتعلّقُ به الخاطرُ ، حتى يُقبلَ على عبادة اللهِ بفراغِ قلبِه وخالصِ لُبِّه فيخشعَ في صلاته ، ويدخلَ في هذه الآيةِ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴾ (المؤمنون:١،٢) . ﴿ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ حتى تعلموه متيقّنين من غيرِ غلطٍ ، لأنّ السكرانَ لا يعلمُ ما يقولُ ، ولذلك قال عثمانُ بنُ عفّانٍ : إنّ السّكرانَ لا يلزمُه طلاقُه .

(٥١) الْحَــذَرُ والْقَــدَرُ :

يقــولُ تعــالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾ (النساء:٧١)

هذا خطابٌ للمؤمنين المخلصين من أُمَّةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، وأمرٌ لهم بجهادِ الكفَّارِ والخروجِ في سبيلِ اللهِ وحمايةِ الشَّرعِ وإحياءِ الدِّينِ وإعلاءِ دعوته ، وأمَرَهم ألاّ يقتحِمُوا على عدوِّهم على جهالةٍ حتى يتحسسوا إلى ما عندهم ، ويعلموا كيف يرِدُون عليهم ، فقال : ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ . وقيل : خذوا السلاحَ حَذَرًا ، لأنّ به الحَذَرَ والحَذَرُ لا يدفعُ القَدَرَ . وفي الحديث (اعقلْها وتوكَّلْ) (الترمذى) وإنْ كان القَدَرُ جاريًا على ما قضى ، ويفعلُ اللهُ ما يشاءُ ، فالمرادُ منه طُمَأْنِينَةُ النفسِ ، لا أنّ ذلك ينفعُ من القَدَرِ . والدليلُ على ذلك أنّ اللهَ تعالى أثنى على أصحابِ نبيِّه صلى اللهُ عليه وسلم بقوله : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ (التوبة:٥١) فلو كان يُصِيبُهم غيرُ ما قَضَى عليهم لم يكنْ لِهذا الكلامِ معنى .

(٥٢) الصُّــلْحُ عَلَى الإمْسَــاكِ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

(النساء:١٢٨)

وعن ابنِ عباسٍ قال : خَشِيَتْ سَوْدَةُ بنتُ زَمْعَةَ أنْ يُطلِّقَها رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقالتْ : لا تُطلِّقني وأمسِكْني ، واجعلْ يومي منك لعائشةَ ، ففــعل فنزلتْ : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ فما

اصطلحا عليه فهو جائزٌ . ورَوَى البخاريُّ عن عائشةَ قالتْ : الرجلُ تكونُ عنده المرأةُ ليس بمستكثرٍ منها يريدُ أنْ يفارقَها فتقولُ : أجعلُك من شأني في حِلٍّ ، فنزلتْ هذه الآيةُ . وقراءةُ العامّةِ ﴿ أَن يُصْلِحَا ﴾. وفي هذه الآيةِ رَدٌّ على الجُهَّالِ الذين يَرَوْنَ أنّ الرجلَ إذا أخذ شبابَ المرأةِ وأسنّتْ " كبرت في السّن " لا ينبغي أنْ يتبدّلَ بها. ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ والصّلحُ الحقيقيُّ الذي تسكنُ إليه النفوسُ ويزولُ به الخلافُ خيرٌ من الفُرْقَةِ على الإطلاقِ ، ويدخلُ في هذا المعنى الصّلحُ بين الرجلِ وامرأته في مالٍ أو وطْءٍ أو غيرِ ذلك ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ والشُّحُّ الضبطُ على المعتقداتِ والإرادةُ في الهممِ والأموالِ ، فما أُفرِطَ منه على الدّينِ فهو محمودٌ ، وما أُفرِطَ منه في غيرِه ففيه بعضُ المذمّةِ ، وهو الذي قال اللهُ فيه : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. وما صار إلى حيِّزِ منعِ الحقوقِ الشّرعيةِ أو التي تقتضيها المروءةُ فهو البخلُ وهي رذيلةٌ ﴿ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ في عِشْرَةِ النساءِ بإقامتكم عليهنّ مع كراهيتكم لصُحْبَتهنّ واتّقاءَ ظلمهنّ فهو أفضلُ لكم . ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء:١٢٩).

أخبر اللهُ تعالى بنفي الاستطاعةِ في العدلِ بين النساءِ ، وذلك في مَيْلِ الطّبعِ بالمحبّةِ والجماعِ والحظِ من القلبِ . ولهذا كان عليه الصلاةُ والسلامُ يقولُ : (اللهم إنّ هذه قسمتي فيما أملك فلا تلُمْني فيما تَمْلِكُ ولا أملِكُ)(البخارى). ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾ لا تتعمّدوا الإساءةَ بل الزموا التسويةَ في القَسْمِ والنفقةِ ، لأنّ هذا مما يُستطاعُ . ﴿ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ أي لا هي مطلّقة ولا ذات زوجٍ .

(٥٣) الْفِرَاقُ لِلسَّـــعَة :

يقولُ تعالى : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء: ١٣٠-١٣٢).

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ أي وإنْ لم يصطلحا بل تفرّقا فليُحسنا ظنّهما باللهِ ، فقد يُقيِّضُ للرجلِ امرأةً تَقرُّ بها عينُه ، وللمرأةِ من يُوسِّعُ عليها. ورُوِيَ عن جعفرِ بنِ محمدٍ أنّ رجلاً شكا إليه الفقرَ فأمَرَه بالنكاحِ، فذهبَ الرجلُ وتزوّجَ ، ثم جاء إليه وشكا إليه الفقرَ فأمَرَه بالطلاقِ ، فسُئِلَ عن ذلك فقال: أمرتُه بالنكاحِ لعلّه من أهلِ هذه الآية ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (النور:٣٢) فلمّا لم يكنْ من أهلِ هذه الآيةِ أمرتُه بالطلاقِ لعلّه من أهلِ هذه الآيةِ ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ .

(٥٤) السَّـــرِقَة :

يقولُ تعالى : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة:٣٨).

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ وقد قُطِعَ السّارقُ في الجاهليةِ ، وأوّلُ من حكمَ بقطعِه في الجاهليةِ الوليدُ بن المغيرةِ ، فأمَرَ اللهُ بقطعِه في الإسلامِ ، فكان أوّلَ رجلٍ قطعَه رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في الإسلامِ من الرجالِ الخيارُ ابنُ عديّ بنُ نوفل بنُ عبدِ منافٍ ، ومن النساءِ مُرَّةُ بنتُ سفيانَ بنِ عبدِ الأسدِ من

بني مخزومٍ ، وقطعَ أبو بكرٍ اليَمَنِيَّ الذي سرقَ العِقْدَ ، وقطعَ عمرُ يدَ ابنِ سَمُرةَ ، وليس الحكمُ في كلِّ سارقٍ ، لقولِه عليه الصلاةُ والسلامُ : (لاتُقْطَعُ يدُ السَّارقِ إلاّ في رُبْعِ دينارٍ فصاعدًا)(البخارى) فبيّنَ أنه أراد بعضَ السُّرَّاقِ دون بعضٍ ، فلا تُقطعُ يدُ السّارقِ إلاّ في ربعِ دينارٍ ، أو فيما قيمتُه ربعُ دينارٍ . وقال مالكُ : تُقطعُ اليدُ في ربعِ دينارٍ أو في ثلاثةِ دراهمِ ، فإنْ سرقَ درهمين ، وهو ربعُ دينارٍ لانحطاطِ الصّرْفِ لم تُقطَعْ يدُه فيهما . والعروضُ لا تُقطعُ فيها إلاّ أنْ تبلغَ ثلاثةَ دراهمٍ قلَّ الصّرفُ أو كثُر ، فجعلَ مالكُ الذهبَ والورقَ كلَّ واحدٍ منهما أصلاً بنفسِه ، وجعلَ تقويمَ العروضِ بالدّراهمِ في المشهورِ . وقال محمدُ وإسحاقُ : إنْ سرقَ ذهبًا فربعُ دينارٍ ، وإنْ سرقَ غيرَ الذهبِ والفضّةِ فكانتْ قيمتُه ربعَ دينارٍ أو ثلاثةَ دراهمٍ من الورقِ . واتّفق جمهورُ الناسِ على أنّ القطعَ لا يكونُ إلاّ على من أخرجَ من حِرْزٍ ما يجبُ فيه القطعُ . وقال الحسنُ بنُ أبي الحسنِ : إذا جمعَ الثيابَ في البيتِ قُطِعَ . والحِرْزُ ما نُصِبَ عادةً لحِفْظِ أموالِ الناسِ. وعن الحسنِ وأهلِ الظاهرِ لم يشترطوا الحِرْزَ . وعن عبدِ اللهِ بنِ عبدِ الرحمنِ أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال: (لا قطعَ في ثَمَرٍ مُعَلَّقٍ " في الأشجار " ولا في حَرِيسَةِ جَبَلٍ " ما يُحرَسُ في الجبلِ " فإذا أواه المَرَاحُ أو الجَرِين " موضع يُدَاسُ فيه البُرّ وقد يكون التمر والعنب " فالقطعُ فيما بلغَ ثَمَنَ المِجَنِّ)(مالك) وعن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو عن رسولِ صلى اللهُ عليه وسلم أنه سُئِلَ عن الثَّمَرِ المُعَلَّقِ فقال :(مَنْ أصابَ منه من ذي حاجةٍ غيرَ مُتَّخذٍ خُبْنَةً " الحجزة في السّراويلِ ، والوِعاءُ يُحْمَلُ فيه الشيءُ أيضًا وما يُحْمَلُ تحت الإبطِ " فلا شيءَ عليه ومن خرجَ بشيءٍ منه فعليه القطعُ ومن سرقَ دون ذلك فعليه غرامةُ مثليه والعقوبةُ) (مالك) وفي روايةٍ (وجَلَدَاتِ نَكَال) بدل (والعقوبة) وقال العلماءُ : ثم نُسِخَ الجَلْدُ وجُعِلَ مكانه القطعُ . وإذا اشتركَ جماعةٌ في السّرقةِ بأنْ نَقَبَ واحدٌ الحِرْزَ وأخرجَ آخرُ ، فإن كانا متعاونين قُطِعا ، وإنْ انفردَ كلٌّ منهما بفعْلِه دون اتّفاقٍ بينهما ، بأنْ يجيءَ آخرُ فيُخْرِجُ فلا قطعَ على واحدٍ منهما ، وإنْ تعاونا في

النَّقب وانفردَ أحدُهما بالإخراجِ فالقطعُ عليه خاصّةً . وقال الشّافعيُّ : لا قطعَ ، لأنّ هذا نَقَبَ ولم يسرِقْ ، والآخرُ سَرَقَ من حِرْزٍ مهتوكِ الحُرْمَةِ . وقال أبو حنيفةَ : إنْ شاركَ في النّقبِ ودخلَ وأخذَ قُطِعَ ، ولا يُشْتَرَطُ في الاشتراكِ في النّقبِ التحاملُ على آلةٍ واحدةٍ ، بل التعاقبُ في الضّربِ تحصلُ به الشّركةُ . ولو دخلَ أحدُهما فأخرجَ المتاعَ إلى بابِ الحِرْزِ فأدخلَ الآخرُ يدَه فأخذَه فعليه القطعُ ، ويُعاقبُ الأوّلُ، وقال الأشهبُ: يُقطعان . وإنْ وضعَه خارجَ الحِرْزِ فعليه القطعُ لا على الآخذِ ، وإنْ وضعَه في وسَطِ النّقبِ فأخذَه الآخرُ والتقتْ أيديهما في النّقبِ قُطِعَا جميعًا . والقبرُ والمسجدُ حِرْزٌ ، فيُقطعُ النّبّاشُ عند الأكثرِ . وقال أبو حنيفةَ : لا قطعَ عليه ، لأنه سَرَقَ من غيرِ حِرْزٍ مالاً مُعَرَّضًا للتلفِ لا مالكَ له ، لأنّ الميّتَ لا يملكُ . ومنهم من يُنكرُ السَّرِقَةَ ، لأنه ليس فيه ساكنٌ ، وإنما تكونُ السَّرِقةُ بحيث تُتَّقَى الأعينُ ، ويُتَحَفَّظُ من الناسِ ، وعلى نفيِ السَّرِقةِ عوّل أهلُ ما وراء النّهرِ .. وقال الجمهورُ : هو سارِقٌ لأنه تدرَّعَ الليلَ لِبَاسًا واتَّقَى الأعينَ ، وقصدَ وقتًا لا ناظِرَ فيه ولا مارَّ عليه ، فكان بمنزلةِ مالو سرَقَ في بروزِ الناسِ للعيدِ ، وخُلُوِّ البلدِ من جميعهـــم . وأمّا المسجدُ فمن سَرَقَ حُصُرَه قُطِعَ ، رواه عيسى عن ابنِ القاسمِ .، وإنْ لم يكنْ للمسجدِ بابٌ ، ورآها مُحْرَزَةً ، وإنْ سرقَ الأبوابَ قُطِعَ أيضًا ، ورُوِيَ عن ابنِ القاسمِ أيضًا : إنْ كانتْ السَّرِقَةُ للحُصُرِ نهارًا لم يُقطعْ ، وإنْ كان تسوّر عليها ليلاً قُطِعَ ، وذُكِرَ عن سُحْنُون : إنْ كانتْ حُصُرُهُ خِيطَ بعضُها إلى بعضٍ قُطِعَ ، وإلاّ لم يُقطَعْ . قال أصْبَغُ : يُقطعُ سارِقُ حُصُرِ المسجدِ وقناديله وبلاطه . وقال أشـــهبُ : لا قطعَ في شيءٍ من حُصُرِ المسجدِ وقناديله وبلاطه . واختلفَ العلماءُ هل يكون غُرْمٌ مع القطعِ أم لا ؟ فقال أبو حنيفةَ : لا يجتمعُ الغُرْمُ مع القطعِ بحالٍ ، لأنّ اللهَ سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ولم يذكرْ غُرْمًا . وقال الشّافعيُّ : يَغْرَمُ قيمةَ السَّرِقَةِ موسِرًا كان أم مُعْسِرًا ، وتكونُ دَيْنًا عليه إذا أيْسَرَ أدّاه . وأمّا علماؤُنا مالكٌ

وأصحابُه فقالوا : إنْ كانتْ العيْنُ قائمةً ردَّها ، وإنْ تَلِفَتْ فإنْ كان موسِرًا غَرِمَ وإنْ كان مُعْسِرًا لم يُتْبَعْ به دَيْنًا ولم يكنْ عليه شيءٌ . وقال بعضُهم : إنّ الإتباعَ بالغُرْمِ عقوبةٌ ، والقطعُ عقوبةٌ ، ولا تجتمعُ عقوبتان . وقال الشّافعيُّ : يَغْرَمُ السَّارِقُ ما سَرَقَ موسِرًا كان أم مُعسِرًا ، قُطِعَ أم لم يُقْطَعْ .، وكذلك إذا قطعَ الطَّريقَ ، قال: ولا يُسْقِطُ الحدَّ لله ما أُتْلِفَ للعباد . واختُلِفَ في الذي سَرَقَ المالَ من الذي سَرَقَه ، فقال علماؤُنا : يُقْطَعُ . وقال الشّافعيُّ : لا يُقْطَعُ ، لأنه سَرَقَ من غيرِ مالكٍ ومن غيرِ حِرْزٍ . واختلفوا إذا كرَّرَ السَّرِقَةَ بعد القطعِ في العينِ المسروقة ، فقال الأكثرُ يُقْطَعُ . وقال أبو حنيفةَ : لا قطعَ عليه . وعمومُ القرآنِ يوجبُ عليه القطعَ . وفي الخبرِ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم :(وأسوأُ السَّرِقَةِ الذي يسرِقُ صلاتَه) قالوا : وكيف يسرِقُ صلاتَه ؟ قال :(لا يُتِمُّ رُكوعَها ولا سجودَها)(البخارى). ولا يجبُ القطعُ إلاّ بجمْعِ أوصافٍ تُعتبرُ في السّارقِ وفي الشيءِ المسروقِ ، وفي الموضعِ المسروقِ منه وفي صفَتِه . فأما ما يُعْتَبَرُ في السَّارقِ فخمسةُ أوصافٍ ، وهي البلوغُ والعقلُ ، وأنْ يكونَ غيرَ مالكٍ للمسروقِ منه ، وألاّ يكونَ عليه له ولايةٌ ، فلا يُقطعُ العبدُ إنْ سرقَ من مالِ سيِّدِه ، وكذلك السَّيِّدُ إذا أخذَ مالَ عبدِه لا قَطْعَ بحالٍ ، لأنّ العبدَ ومالَه لسيِّدِه . وعن ابنِ عباسٍ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (ليس على العبدِ الآبقِ قطعٌ ولا على الذِّمِّيِّ) ولا قطعَ على صبيٍّ ولا مجنونٍ ، ويجبُ على الذِّميِّ والمُعَاهِدِ ، والحربيِّ إذا دخلَ بأمانٍ . وأمّا ما يُعْتَبَرُ في الشّيءِ المسروقِ فأربعةُ أوصافٍ ، وهي النِّصابُ ، وأنْ يكونَ مما يُتَمَوَّلُ ويُتَمَلَّكُ ويحِلُّ بَيْعُه . وقال ابنُ حبيبٍ قال أصْبَغُ : إنْ سَرَقَ الأُضْحِيَةَ قبـــل الذَّبْحِ قُطِعَ ، وأما إنْ سرقَها بعد الذَّبْحِ فلا يُقطعُ . والوصفُ الثالثُ ، ألاّ يكونَ للسَّارقِ فيه مِلْكٌ ، كمنْ سرقَ ما رهنَه أو ما استأجرَه ، ولا شُبْهَةَ مِلْكٍ . وأما ما يُعتبرُ في الموضعِ المسروقِ منه فوصْفٌ واحدٌ وهو الحِرْزُ . وجملةُ القولِ فيه أنّ كلَّ شيءٍ له مكانٌ معروفٌ فمكانُه حِرْزُه ، وكلُّ شيءٍ معه حافظٌ فحافِظُه حِرْزُه ، فالدُّورُ

والمنازلُ والحوانيتُ حِرْزٌ لما فيها ، غاب عنها أهلُها أو حضروا ، وكذلك بيتُ المالِ حِرْزٌ لجماعة المسلمين ، والسّارقُ لا يستحقُّ فيه شيئًا . وظهورُ الدَّوابِ حِرْزٌ لِما حملتْ ، وأفنيةُ الحوانيتِ حِرْزٌ لما وُضِعَ فيها في موقفِ البيعِ وإنْ لم يكنْ لها حانوتٌ ، كان معه أهلُه أم لا ، سُرِقَتْ بليلٍ أو نهارٍ . وكذلك موقفُ الشَّاةِ في السُّوقِ مربوطةً أو غيرَ مربوطةٍ ، والدَّوابُّ على مرابطِها مُحَرَّزَةٌ ، كان معها أهلُها أم لا ، فإنْ كانتْ الدَّابَّةُ ببابِ المسجدِ أو في السُّوقِ لم تكنْ مُحَرَّزَةٌ إلاّ أنْ يكونَ معها حافظٌ ، ومن ربطها بفنائه أو اتَّخذَ موضعًا مَرْبِطًا لدوابِّه فإنه حِرْزٌ لها . والسَّفينةُ حِرْزٌ لما فيها وسواءٌ كانتْ سائبةً أو مربوطةً ، فإنْ سُرِقَتْ السَّفينةُ نفسُها فهي كالدَّابَّةِ إنْ كانتْ سائبةً فليستْ بمُحَرَّزَةٍ ، وإنْ كان صاحبُها ربطَها في موضعٍ وأرساها فيه فرَبْطُها حِرْزٌ . وهكذا إنْ كان معها أحدٌ حيثما كانتْ فهي مَحَرَّزَةٌ ، كالدَّابَّةِ بابِ المسجدِ معها حافظٌ ، إلاّ أنْ ينزلوا بالسَّفينةِ في سَفَرِهم منزِلاً فيربطوها فهو حِرْزٌ لَها كان صاحبُها معها أم لا. ولا يُقْطَعُ الأبَوَان بسَرِقَةِ مالِ ابنِهما ، لقولِه عليه الصلاةُ والسلامُ :(أنت ومالُكَ لأَبيكَ)(ابن ماجه). وقال ابنُ وهبٍ وأشهبُ : لا يُقطعُ الابنُ في مالِ والديه ، لأنّ الابنَ ينبسطُ في مالِ أبيه في العادةِ ، ألا ترى أنّ العبدَ لا يُقطعُ في مالِ سيِّدِه ، فلأنْ لا يُقطعَ ابنُه في ماله أولى . واختلفوا في الجَدِّ ، فقال مالكٌ وابنُ القاسمِ : لا يُقطعُ لأنه أبٌ ، وقال مالكٌ : أحَبُّ إليَّ ألاّ يُقطعَ الأجدادُ من قِبَلِ الأبِ والأُمِّ وإنْ لم تجبْ لهم نفقةٌ . وقال ابنُ القاسمِ وأشهبُ: ويُقطعُ مَنْ سِواهما من القرابات. وقال ابنُ القاسمِ : ولا يُقطعُ من سَرَقَ من جوعٍ أصابَه . واختلفوا في سارقِ المُصْحَفِ . فبعضُهم قال : يُقطعُ وبعضُهم قال : لا يُقطعُ . فإذا قُطِعَتْ اليدُ فإلى أين تُقْطَعُ ؟ فقال الكافَّةُ : يُقْطَعُ من الرُّسْغِ ، والرِّجْلُ من المِفْصَلِ ، ويُحْسَمُ السَّاقُ إذا قُطِعَ . وقال بعضُهم : يُقطعُ إلى المِرْفَقِ . وقيل : إلى المَنْكِبِ . وقال عليٌّ : تُقطعُ الرِّجْلُ من شِطْرِ القدمِ ويُتْرَكُ له العَقِبُ "مؤخر القدم" . ولا شكَّ في أنّ اليُمْنَى هي التي تُقطعُ أوّلاً ، وإنْ سَرَقَ ثانيةً تُقطعُ

رِجْلُه اليُسْرَى ، ثم في الثالثة يدُه اليُسْرَى ، ثم في الرابعة رِجْلُه اليُمْنَى ، ثم إنْ سَرَقَ خامسةً يُعَزَّرُ ويُحْبَسُ . وقال أبو مُصْعَبٍ من علمائنا : يُقتلُ بعد الرابعة . واحتجَّ بحديثٍ خرَّجه النسائيُّ عن الحارثِ بن حاطبٍ أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أُتِيَ بِلِصٍ فقال : (اقتلوه) فقالوا : يارسولَ الله إنّما سَرَقَ قال : (اقتلوه) قالوا : يارسولَ الله إنّما سَرَقَ قال : (اقطعوا يدَه) قال : ثم سَرَقَ فقُطِعَتْ رِجْلُه ، ثم سَرَقَ على عهدِ أبي بكرٍ حتى قُطِعَتْ قوائمُه كلُّها ، ثم سَرَقَ أيضًا الخامسةَ فقال أبو بكرٍ رضي اللهُ عنه : كان رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم أعلمَ بهذا حين قال: (اقتلوه) ثم دفعه إلى فتيةٍ من قُرَيْشٍ ليقتلوه . وتُعَلَّقُ يدُ السّارقِ في عُنُقه . وقيل: جيءَ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم بسارقٍ فقُطِعَتْ يدُه ، ثم أَمَرَ بها فعُلِّقَتْ في عُنُقه. أخرجه الترمذيُّ . وإذا وجبَ حدُّ السرقةِ فَقَتَلَ السارقُ رجلاً ، فقال الشّافعيُّ : يُقْطَعُ ويُقْتَلُ لأنهما حقّان لمستحقّين . ﴿ جَزَآءً بِمَا كَسَبَا ﴾ أي لما سَرَقَا ﴿ نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي عقاباً من الله . ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ لا يُغْلَبُ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يفعلُه . ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ ﴾ (المائدة:٣٩) من بعد السّرقةِ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ (المائدة:٣٩) فإنّ اللهَ يتجاوزُ عنه، والقطعُ لا يسقطُ بالتوبةِ . وقال عطاءُ وجماعةٌ : يسقطُ بالتوبةِ قبل القدرةِ على السّارقِ وتعلّقوا بقولِ الله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ﴾(المائدة:٣٤). ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ أي ترك المعصيةَ، وتوبةُ الله على العبدِ أنْ يُوفّقَه للتوبةِ. وقيل:أنْ تُقْبَلَ منه التوبةُ . ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة:٤٠)

الآيةُ خطابٌ للنبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم وغيرِه ، أي لا قرابةَ بين الله تعالى وبين أحدٍ توجبُ المحاباةَ حتى يقولَ قائلٌ : نحن أبناءُ الله وأحبَّاؤُه ، والحدودُ تُقامُ على كلِّ من يُقارِفُ موجبَ الحدِّ . وهذا ما يتعلّقُ بآيةِ السَّرِقَةِ من بعضِ الأحكامِ، واللهُ أعلمُ.

(٥٥) الرَّجـــمُ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ (المائدة:٤١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾ قيل في سببِ نزولِها ثلاثةُ أقوالٍ: قيل: نزلتْ في بني قُرَيْظَةَ والنَّضيرِ، قَتَلَ قُرَظِيٌّ نَضيرِيًّا، وكان بنو النَّضيرِ إذا قَتَلُوا من بني قُرَيْظَة لا يُقيدوهم ، وإنّما يُعطونَهم الدِّيةَ ، فتحاكموا إلى النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم فحكمَ بالتسويةِ بين القُرَظيِّ والنَّضيريِّ فساءهم ذلك ولم يقبلا. وقيل: إنّها نزلتْ في شأنِ لُبابةَ حين أرسله النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم إلى بني قُرَيْظَة فخانه حين أشارَ إليهم أنه الذَّبْحُ " اشار إلى حلقه بمعنى انه الذبحُ ". وقيل: إنّها نزلتْ في زِنَى اليهوديَيْن وقصّةِ الرَّجمِ ، وهذا أصحُّ الأقوالِ . رواه الأئمةُ . قال أبو داود عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال لهم : (ائتوني بأعلمِ رجلَيْن منكم) فجاءوا بابنيْ صُوريا فَنَشَدَهما اللهُ تعالى(كيف تجدان أمْرَ هذين في التوراةِ ؟) قالا: نجدُ في التوراةِ إذا شَهِدَ أربعةٌ أنّهم رأوْا ذَكَرَهُ في فرْجِها كالمِرْوَدِ في المكحلةِ رُجِمَا. قال:(فما يمنعُكما أنْ ترجموهما ؟) قالا: ذهب سلطانُنا فكرهنا القَتْلَ . فدعا النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم بالشّهودِ ، فجاءوا فشَهِدوا أنّهم رأوْا ذَكَرَهُ في فَرْجِها مثل الميلِ في المكحلةِ ، فأمَرَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم فَرُجِمَا. ﴿ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ ﴾ ائتوا محمدًا، فإنْ أمَرَكم بالتحميمِ "طليُ وجهِه بالفَحْمِ" والجَلْدِ

فخذوه ، وإنْ أفتاكم بالرَجمِ فاحذروا ، فأنزل اللهُ عزّ وجلّ ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (المائدة:٤٤) و ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (المائدة:٤٥) و ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ في الكُفّارِ كلّها . ولمّا حكّمتْ اليهودُ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم حَكَمَ عليهم بمقتضى ما في التوراةِ . فإذا ترافعَ أهلُ الذِّمّةِ إلى الإمامِ ، فإنْ كان ما رفعوه ظُلْمًا كالقتلِ والعدوانِ والغَصْبِ حَكَمَ بينهم ، ومنعَهم منه بلا خلافٍ ، وأمّا إذا لم يكنْ كذلك فالإمامُ مُخَيَّرٌ في الحُكْمِ بينهم وتَرْكِه عند مالكٍ والشّافعيِّ ، غير أنّ مالكًا رأى الإعراضَ عنهم أوْلَى ، فإنْ حَكَمَ بينهم حَكَمَ بحُكْمِ الإسلامِ . وقال الشّافعيُّ : لا يحكمُ بينهم في الحدودِ ، وقال أبو حنيفةَ : يحكمُ بينهم على كلِّ حالٍ . لقولِه تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ (المائدة:٤٩). واحتجّ مالكٌ بقولِه تعالى : ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ (المائدة:٤٢) وهي نصٌّ في التخييرِ . قال مالكٌ : إذا حكّمَ رَجُلٌ رَجُلاً فحُكْمُهُ ماضٍ ، وإنْ رُفِعَ إلى قاضٍ أمضاه، إلاّ أنْ يكونَ جَوْرًا "ظُلْمًا " بَيِّناً . وقال سُحْنُون : يُمضيه إنْ رآه صوابًا . قال ابنُ العربيِّ : وذلك في الأموالِ والحقوقِ التي تختصُّ بالطالبِ ، فأمّا الحدودُ فلا يحكمُ فيها إلاّ السُّلطانُ ، والضابطُ أنّ كلَّ حقٍ اختصَّ به الخصمانُ جازَ التحكيمُ فيه بين الناسِ إنّما هو حقُّهم لا حقُّ الحاكمِ بَيْدَ أنّ الاسترسالَ على التحكيمِ خَرْمٌ لقاعدةِ الولايةِ ، ويُؤدِّي إلى تَهارجِ الناسِ ، فلابد من فاصلٍ ، فأمَرالشّرعُ بنَصْبِ الوالي ليحسِمَ قاعدةَ الهرجِ ، وأذِنَ في التحكيمِ تخفيفًا عنه وعنهم في مشقةِ الترافعِ لتتمَّ المصلحتان وتحصلَ الفائدةُ . وقال الشّافعيُّ : التحكيمُ جائزٌ وإنّما هو الفتوى . وقال الجمهورُ على رَدِّ شهادةِ الذِّميِّ ، لأنه ليس من أهلِها فلا تُقْبَلُ على مسلمٍ . فإنْ قيل: فقد حكمَ بشهادتِهم ورجم الزّانيين ، فالجوابُ أنه إنّما نفّذَ عليهم ما عَلِمَ أنه حُكْمُ التوراةِ

وألزمَهم العملَ به ، فكان مُنَفِّذًا لا حاكمًا. ﴿ لَا يَحْزُنكَ ﴾ تأنيسٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم أي لا يحزنك مسارعتُهم إلى الكُفْرِ ، فإنّ الله وعدَك النصرَ عليهم . ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ وهم المنافقون ﴿ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ أي لم يُضمروا في قلوبهم الإيمانَ كما نطقَتْ به ألسنتُهم ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ يعني يهودَ المدينة . ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أي ومن اليهودِ قومٌ سمّاعون للكذبِ أي قابلون لكَذِبِ رؤسائهم من تحريف التوراة . وقيل : أي يسمعون كلامَك يا محمدُ ليكذبوا عليك . ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ أي يتأوّلونه على غيرِ تأويله بعد أنْ فهموه عنكَ .﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ ﴾ أي ضلالتَه في الدّنيا وعقوبتَه في الآخرة . ﴿ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ فلن تنفعَه ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ أنه قضى عليهم بالكُفْرِ . ﴿ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ فضيحتهم حين أنكروا الرّجمَ ، ثم أُحضِرَتْ التوراةُ فوُجِدَ فيها الرَّجمُ . وقيل: خزيُهم في الدّنيا أخذُ الجزيةِ والذُّلّ . والله أعلمُ .

(٥٦) رِشْوَةُ الْحَاكِمِ :

يقولُ تعالى : ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (المائدة:٤٢)

﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ كرّره تأكيدًا وتفخيمًا . ﴿ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ السّحتُ : الهلاكُ والشِّدَّةُ . وقيل : سُمِّيَ الحرامُ سُحْتًا لأنه يَسْحَتُ " يُهْلِكُ " مروءةَ الإنسانِ . قال ابنُ مسعودٍ : السُّحْتُ الرِّشَا " الرِّشْوَةُ " . وقال عمرُ ابنُ الخطابِ : رِشْوَةُ الحاكمِ من السُّحْتِ . وعن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(كلُّ لَحْمٍ نَبَتَ من سُحْتٍ فالنارُ أَوْلَى به) (البخارى) قالوا : يارسولَ الله ، وما السُّحْتُ؟ قال : (الرِّشْوَةُ في الحُكْمِ) وعن ابنِ مسعودٍ أيضًا قال : السُّحْتُ أنْ يقضيَ الرجلُ لأخيه حاجةً فيُهْدِيَ إليه هديةً فيقبلَها . وقيل : السُّحْتُ أنْ يأكلَ الرجلُ بجاهِه ، وذلك أنْ يكونَ له جاهٌ عند السّلطانِ فيسألَه إنسانٌ حاجةً فلا يقضيها إلاّ برِشْوَةٍ يأخذُها ، ولا خلافَ بين السَّلَفِ أنّ أَخْذَ الرِّشْوَةِ على إبطالِ حقٍ أو ما لا يجوزُ سُحْتٌ حَرَامٌ . وقال أبو حنيفةَ : إذا ارتشى الحاكمُ انعزَلَ ، وإنْ لم ينعزلْ بَطُلَ كلُّ حُكْمٍ حَكَمَ به بعد ذلك . وقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (لَعَنَ اللهُ الرَّاشِي والْمُرْتَشِي)(البخارى) . وعن عليٍّ رضي اللهُ عنه أنه قال : السُّحْتُ الرِّشْوَةُ وحلوانُ الكاهنِ "ما يُعْطَى على الكَهَانَة" والاستعجالُ في القضيةِ . وقيل : الرِّشْوَةُ حرامٌ في كلِّ شيءٍ ؟ فقيل : لا، إنّما يُكْرَهُ من الرِّشْوَةِ أنْ تَرْشَى لتُعْطَى ما ليس لك ، أو تدفعَ حقًا لَزِمَكَ ، فأمّا أنْ ترشَى لتدفعَ عن دِينِكَ ودَمِكَ ومالِكَ فليس بحرامٍ .

(٥٧) الْحُكْمُ لِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ :

يقولُ تعالى : ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ (المائدة:٤٢) هذا تخييرٌ من اللهِ تعالى ، وتقدّمَ معناه ، أنهم كانوا أهلَ موادعةٍ لا أهلَ ذمّةٍ ، فإنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم لمّا قَدِمَ المدينةَ وادعَ اليهودَ . ولا يجبُ علينا أنْ نحكمَ بين الكُفّارِ إذا لم يكونوا أهلَ ذِمّةٍ ، بل يجوزُ الحكمُ إنْ أردنا . فأمّا أهلُ الذّمةِ فهل يجبُ علينا الحكمُ بينهم إذا ترافعوا إلينا ؟ قال الشّافعيُّ : إنْ ارتبطتْ الخصومةُ بمسلمٍ يجبُ الحكمُ . وأجمعَ العلماءُ أنّ على الحاكمِ أنْ يحكمَ بين المسلمِ والذمّيِّ . واختلفوا في الذّمّيين فذهبَ بعضُهم إلى أنّ الحاكمَ مُخَيَّرٌ . وقال مالكٌ بتَرْكِ إقامةِ حدِّ الزّنا في الذّمّي ، فإنه إنْ زَنَى المسلمُ بالكتابيةِ حُدَّ ولا حَدَّ عليها ، فإن كان الزّانيان ذِمّيّيْن فلا حدَّ عليهما . وقال أبو حنيفةَ : يُجلدان ولا يُرْجَمَان .

وقال الشّافعيُّ وأبو يوسف وغيرُهم : عليهما الحدُّ إنْ أتيا راضيَيْن بحكمنا . وقال ابنُ خُوَيْزِمَنْدَاد : ولا يُرْسِلُ الإمامُ إليهم إذا استعدَى بعضُهم على بعضٍ، ولا يُحْضِرُ الخَصْمَ مجلسَه إلاّ أنْ يكونَ فيما يتعلّقُ بالمظالمِ التي ينتشرُ منها الفسادُ كالقتلِ ونَهْبِ المنازلِ وأشباهِ ذلك . فأمّا الدّيونُ والطلاقُ وسائرُ المعاملاتِ فلا يحكمُ بينهم إلاّ بعد التراضي ، والاختيارُ له ألاّ يحكمَ ويردَّهم إلى حكّامِهم ، فإنْ حكمَ بينهم حكمَ بحكمِ الإسلامِ . وأمّا إجبارُهم على حكمِ المسلمين فيما ينتشرُ منه الفسادُ فليس على الفسادِ عاهدناهم ، وواجبٌ قَطْعُ الفسادِ عنهم ، منهم ومن غيرِهم ، وفي ذلك حِفْظٌ لأموالِهم ودمائِهم ، ولعلّ في دينِهم استباحةَ ذلك فينتشرُ منه الفسادُ بيننا ، ولذلك منعناهم أنْ يبيعوا الخمرَ جهارًا وأنْ يُظْهِرُوا الزّنا وغيرَ ذلك من القاذوراتِ لئلاّ يَفْسَدَ بِهم سُفَهاءُ المسلمين . وأمّا فيما يختصُّ به دينُهم من الطلاقِ والزّنى وغيرِه فليس يلزمُهم أنْ يتديّنوا بديننا ، وفي الحكمِ بينهم بذلك إضرارٌ بحكّامِهم وتغييرُ ملّتِهم ، وليس كذلك الدُّيونُ والمعاملاتُ ، لأنّ فيها وجهًا من المظالمِ وقطعِ الفسادِ . واللهُ أعلمُ .

(٥٨) مَنْـعُ الْحـرْمَـان :

يقولُ تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (المائدة:٨٧)

عن ابنِ عباسٍ أنّ رجلاً أتى النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم فقال : يارسولَ اللهِ ، إني إذا أصَبْتُ من اللحمِ انتشَرْتُ وأخذتني شهوتي فحرَّمتُ اللحمَ ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ . وقيل : نزلتْ بسببِ جماعةٍ من أصحابِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم منهم أبو بكرٍ وعليٌّ وغيرُهم ، اجتمعوا في دارِ عثمانَ بنِ مظعونٍ ، واتّفقوا على أنْ يصوموا النهارَ ويقوموا الليلَ ولا يناموا على الفُرُشِ ، ولا يأكلوا اللحمَ ولا الوَدَكَ

" الدَسَم " ، ولا يقربوا النساءَ والطِّيبَ ، ويلبسوا المُسُوحَ ويرفضوا الدنيا ، ويسيحوا في الأرضِ ، ويترهّبوا ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ ، والأخبارُ بهذا المعنى كثيرةٌ . فقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (مابالُ أقوامٍ قالوا كذا وكذا لكنّي أُصلّي وأنامُ وأصومُ وأُفطِرُ وأتزوّجُ النساءَ ، فمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتي فليس منّي) خرّجه مسلمٌ عن أنسٍ . وعن أبي أمامةَ الباهليِّ قال : خرجنا مع رسولِ اللهُ عليه وسلم في سريّةٍ من سراياه ، فمرّ رجلٌ بغارٍ فيه شيءٌ من الماءِ فحدّث نفسَه بأنْ يُقيمَ في ذلك الغارِ فيَقُوتَه ما كان فيه من الماءِ ، ويُصيبُ ما حوله من البَقْلِ ، ويتخلّى عن الدنيا ، فأتى النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم فقال : يانبيَّ اللهِ ، إني مررتُ بغارٍ فيه ما يقوتُني من الماءِ والبقلِ ، فحدّثتني نفسي بأنْ أُقيمَ فيه وأتخلّى عن الدنيا ، فقال له النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : (إني لم أُبْعَثْ باليهوديّة ولا النصرانيّة ولكني بُعِثْتُ بالحنيفيّة السَّمْحَة ، والذي نفسُ محمدٍ بيده لَغَدْوَةٌ " سَيْرُ اوّلِ النهارِ ، عكس الرَّواحِ " أو رَوْحَةٌ في سبيلِ اللهِ خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ولَمُقَامُ أحدِكم في الصّفِ خيرٌ من صلاته ستِّين سنةً) (أحمد) .

وفي هذه الآيةِ وما وَرَدَ في معناها من الأحاديثِ رَدٌّ على غُلاةِ المُتَزَهّدين ، وعلى أهلِ البطالةِ من المتصوِّفين . قال الطّبريُّ : لا يجوزُ لأحدٍ من المسلمين تحريمُ شيءٍ مما أحلّ اللهُ لعبادِه المؤمنين من طيِّباتِ المطاعمِ والملابسِ والمناكحِ إذا خافَ على نفسه بإحلالِ ذلك بها بعضَ العَنَتِ والمشقّة ، ولذلك رَدَّ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم التبتّلَ على ابنِ مظعونٍ ، فثبتَ أنه لا فضلَ في تَرْكِ شيءٍ مما أحلّه اللهُ لعباده ، وأنّ الفضلَ والبرَّ إنما هو في فِعْلِ ما أَمَرَ به عبادَه ، وعَمِلَ به رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وسَنَّه لأُمّته ، واتّبَعَه على منهاجه الأئمّةُ الرّاشدون ، وبذلك تبيَّنَ خطأُ من آثَرَ لِبَاسَ الشَّعْرِ والصّوفِ على لِبَاسِ القطنِ والكتّانِ إذا قَدَرَ على لِبَاسِ ذلك ، وآثَرَ أكْلَ الخَشِنِ من الطعامِ وتَرْكَ اللحمَ وغيرَه حذرًا من عرضِ الحاجةِ للنساءِ . ذلك أنّ

الأوْلى بالإنسانِ صلاحُ نفسِه وعونُه لَها على طاعةِ ربِّها ، ولا أضرَّ بالجسمِ من الأطعمةِ الرّديئةِ لأنَها مُفْسِدَةٌ لعقلِه ومُضْعِفَةٌ لأدواتِه التي جعلها اللهُ سببًا إلى طاعتِه . وقد جاء رجلٌ إلى الحسَنِ البصريِّ ، فقال : إنّ لي جارًا لا يأكلُ الفالوذجَ . فقال : ولِمَ؟ قال : يقول لا يُؤدِّي شُكْرَه ، فقال الحسنُ : أفيشربُ الماءَ الباردَ؟ قال : نَعَم. فقال : إنّ جارَكَ جاهلٌ ، فإنّ نعمةَ اللهِ عليه في الماءِ أكثرُ من نعمتِه عليه في الفالوذجِ. وقال علماؤُنا : هذا إذا كان الدِّينُ قَوَامًا ، ولم يكنِ المالُ حرامًا ، فأما إذا فسدَ الدِّينُ عند الناسِ وعمَّ الحرامُ فالتبتُّلُ أفضلُ ، وتَرْكُ اللذّاتِ أوْلَى ، وإذا وُجِدَ الحلالُ فحالُ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أفضلُ وأعلى . قال المُهَلّبُ : إنما نَهَى صلى اللهُ عليه وسلم عن التبتّلِ والترهُّبِ من أجلِ أنه مُكَاثِرٌ بأُمَّتِه الأُمَمَ يومَ القيامةِ ، وأنه في الدنيا مُقاتِلٌ بِهِم طوائفَ الكُفّارِ ، وفي آخرِ الزّمانِ يُقاتلون الدَّجّالَ ، فأراد النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم أنْ يكثُرَ النَّسْلُ . ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ أي لا تُشَدِّدُوا فتُحرِّمُوا حلالاً وتُحلُّوا حرامًا .

﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ (المائدة:٨٨) .

الأكْلُ في هذه الآية عبارةٌ عن التمتّعِ بالأكْلِ والشُّرْبِ واللباسِ والرّكوبِ ونحو ذلك . وأمّا شهوةُ الأشياءِ المُلذَّةِ ، ومنازعةُ النفسِ إلى طلبِ الأنواعِ الشّهيّةِ فمذاهبُ الناسِ في تمكينِ النفسِ منها مختلفةٌ ، فمنهم من يرى صَرْفَ النفسِ عنها وقَهْرَها عن اتّباعِ شهواتِها أحْرَى لِيُذَلَّ له قيادُها ، ويهونَ عليه عنادُها ، فإنه إذا أعطاها المُرادَ يصيرُ أسيرَ شهواتِها ، ومُنْقَادًا بانقيادِها وحُكِيَ أنّ أبا حازمٍ كان يمرُّ على الفاكهةِ فيشتهيها فيقولُ : موعِدُكِ الجنَّةُ . وقال آخرون : تمكينُ النفسِ من لذّاتِها أوْلَى لِما فيه من ارتياحِها ونشاطِها بإدراكِ إرادتِها . وقال آخرون : بل التوسُّطُ في ذلك أوْلَى ، لأنّ في إعطائِها ذلك مرّةً ومنعِها أُخرى جَمْعًا بين الأمرَيْن .

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (المائدة:٨٩)

ومعنى ﴿ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ أي من أيمانكم ، واليمينُ من اليُمْنِ وهو البركةُ ، سمَّاها اللهُ تعالى بذلك لأنها تحفظُ الحقوقَ . وقال ابنُ عباسٍ: سببُ نزولِها القومُ الذين حرّموا طيّبات المطاعمِ والملابسِ والمناكحِ على أنفسِهم ، حلفوا على ذلك ، فلما نزلتْ ﴿ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ (المائدة:٨٧) قالوا : كيف نصنعُ بأيمانِنا ؟ فنزلتْ هذه الآيةُ .

(٥٩) الخَـــمْرُ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (المائدة:٩٠-٩٢)

الآيةُ خطابٌ للمؤمنين بتَرْكِ هذه الأشياءِ ، إذ كانتْ شهواتٍ وعاداتٍ تلبَّسوا بها في الجاهليةِ وغلبَتْ على النفوسِ ، فكان نَفيٌ " بقيةٌ " منها في نفوسِ كثيرٍ من المؤمنين ، مثل أخْذِ الفألِ بالكُتُبِ وغيرِه مما يصنعُه الناسُ اليومَ . وأما الخمرُ فكانتْ لم تُحَرَّمْ بعد وإنما نزل تحريمُها في سَنَةِ ثلاثٍ بعد وقعةِ أُحُدٍ ، وكانتْ وقعةُ أُحُدٍ في

شوّال سَنَةَ ثلاثٍ من الهجرةِ . وأما الميسرُ فقد مضى القولُ فيه في " البقرة " . وأما الأنصابُ فقيل : هي الأصنامُ . وقيل : النَّردُ والشَّطْرَنْجُ . وأما الأزلامُ فهي القِداحُ. ويُقالُ : كانتْ في البيتِ عند سَدَنَةِ البيتِ وخُدّامِ الأصنامِ ، يأتي الرجلُ إذا أراد حاجةً فيقبضُ منها شيئًا ليرى إنْ كانتْ الآلهةُ ترضَى عن حاجتِه أدَّاها ، وإنْ لم تَرْضَ صَرَفَ النّظرَعنْها على ما أحَبَّ أو كَرِهَ . وتحريمُ الخمرِ جاء بالتدريجِ ، فإنّهم كانوا مُولَعين بشُربِها ، وأوّلُ ما نزلَ في شأنِها ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ . . . ﴾ (البقرة:٢١٩) فلمّا نزلتْ هذه الآيةُ تركَها بعضُ الناسِ وقالوا : لا حاجةَ لنا فيما فيه إثْمٌ كبيرٌ ، ولم يتركْها بعضُ الناسِ وقالوا : نأخذُ منفعتَها ونتركُ إثْمَها ، فنزلتْ هذه الآيةُ ﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ ﴾ (النساء:٤٣) فتركَها بعضُ الناسِ وقالوا : لا حاجةَ لنا فيما يشغلُنا عن الصّلاة ، وشَرِبَها بعضُ الناسِ في غيرِ أوقاتِ الصّلاة حتى نزلتْ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ ﴾ (المائدة:٩٠) فصارتْ حرامًا عليهم حتى صار يقولُ بعضُهم : ما حرّمَ اللهُ شيئًا أشدَّ من الخمرِ . وقال أبو ميسرة : نزلتْ بسببِ عمرَ بنِ الخطابِ ، فإنه ذكرَ للنبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم عيوبَ الخمرِ وما يزلُ بالناسِ من أجلِها ، ودعا اللهَ في تحريمِها وقال : اللهمّ بيِّنْ لنا في الخَمْرِ بيانًا شافيًا ، فنزلتْ هذه الآياتُ ، فقال عمرُ : انتهينا انتهينا . ﴿ رِجْسٌ ﴾ سُخْط ﴿ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ (المائدة:٩٠) أي بحملِه عليه وتزْيينِه . ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ أمْرٌ من اللهِ باجتنابِ هذه الأمورِ . ورَوَى ابنُ عباسٍ قال : لَمّا نزلَ تحريمُ الخمرِ ، مَشَى الصّحابةُ بعضُهم إلى بعضٍ ، وقالوا حُرِّمَتِ الخمرُ ، وجُعِلَتْ عَدْلاً " مثل " للشّركِ ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ فعلقَ الفلاحَ بالأمرِ باجتنابِ تلك المُحَرَّماتِ .

هذه الآيةُ تدلُّ على تحريمِ اللعبِ بالنَّرْدِ والشَّطْرَنجِ قمارًا أو غيرَ قمارٍ ، فكلُّ لَهْوٍ دعا قليلُه إلى كثيرٍ ، وأوقعَ العداوةَ والبغضاءَ بين العاكفين فيه ، وصدَّ عن ذِكْرِ اللهِ

وعن الصلاةِ فهو كشُرْبِ الخمرِ ، وأوجبَ أنْ يكونَ حرامًا . فإنْ قيل : إنّ شُرْبَ الخمرِ يورِثُ السُّكْرَ فلا يُقْدَرُ معه على الصلاةِ ، وليس في اللعبِ بالنَّرْدِ والشِّطْرَنجِ هذا المعنى ، قيل له : قد جمع اللهُ تعالى بين الخمرِ والميسْرِ في التحريمِ ، ووصفَهما جميعًا بأنّهما يوقِعان العداوةَ والبغضاءَ بين الناسِ ، ويصدَّان عن الصلاةِ وعن ذِكْرِ اللهِ ، فإنْ كان الخمرُ يورِثُ السُّكْرَ فإنّ اللعبَ بالنَّرْدِ والشِّطْرَنجِ يورِثُ الغفلةَ ، فتقومُ تلك الغفلةُ المسْتَوْلِيَةُ على القلبِ مكانَ السُّكْرِ ، فإنْ كانتْ الخمرُ إنّما حُرِّمَتْ لأنها تُسْكِرُ فتصدُّ بالإسْكَارِ عن الصلاةِ ، فليحْرُم اللعِبُ بالنَّرْدِ والشِّطْرَنجِ لأنه يُغْفِلُ ويُلْهِي فيصدُّ بذلك عن الصلاةِ . واللهُ أعلمُ . وسُئِلَ القاسمُ بنُ محمدٍ عن الشِّطْرَنجِ أهي ميسِرٌ ؟ وعن النَّرْدِ أهو ميسرٌ ؟ فقال : كلُّ ما صدَّ عن ذِكْرِ اللهِ وعن الصلاةِ فهو ميسرٌ . ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ لمّا علمَ عمرُ أنّ هذا وعيدٌ شديدٌ زائدٌ على معنى انتهوا قال : انتهينا . وأمر النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم مناديَه أنْ يُناديَ في سِكَكِ المدينةِ ، ألا إنّ الخمرَ قد حُرِّمَتْ ، فكُسِرَتْ الدِّنانُ " أواني الخمر" ، وأُرِيقَتْ الخمرُ حتى جَرَتْ في سِكَكِ المدينةِ . ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ﴾ تأكيدٌ للتحريمِ ، وتشديدٌ في الوعيدِ ، وامتثالٌ للأمرِ ، وكف عن المنهيِّ عنه . وكرَّرَ ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ﴾ في ذِكْرِ الرسولِ تأكيدًا ، ثم حذَّرَ في مُخالَفَةِ الأمرِ ، وتوعَّدَ من تَوَلَّى بعذابِ الآخــرةِ ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي خالفتم ﴿ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ في تحريمِ ما أمرَ اللهُ بتحريمِه وعلى المُرْسِلِ أنْ يُعاقِبَ أو يُثيبَ بحَسَبِ ما يُعْصَى أو يُطَاعُ .

يقولُ تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة:٩٣)

كان بعضُ المؤمنين يتخوّفون ويسألون عن حالِ من مات والخمرُ في بطنِه وقتَ إباحتِها ، فإمّا أنْ يكونَ ذلك السّائلُ غَفَلَ عن دليلِ الإباحةِ فلم يخطرْ له ، أو يكونَ لغَلَبَةِ خوفِه من اللهِ تعالى ، وشفقتِه على إخوانِه المؤمنين تَوَهَّمَ مُؤَاخذةً ومُعاقبةً لأجْلِ شُرْبِ الخمرِ ، فرفعَ اللهُ ذلك بقولِه : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ وثبتَ بالنقلِ الصحيحِ أنّ عمرَ بنَ الخطابِ خطب على المنبرِ فقال : يأيّها الناسُ ، ألا إنه قد نزل تحريمُ الخمرِ يومَ نزلَ ، وهي خمسةٌ : من العِنَبِ والتّمرِ والعَسَلِ والحِنْطَةِ والشَّعيرِ، والخمرُ ما خامَرَ العقلَ . وذهب جمهورُ العلماءِ إلى أنّ كلّ ما يُسْكِرُ نوعُه حرُمَ شُرْبُه ، قليلاً كان أو كثيرًا ، نيِّئًا كان أو مطبوخًا .

(٦٠) ادِّعَـــاءُ الْوَحْـــيِ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (الأنعام:٩٣)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي لا أحدَ أظلمُ . ﴿ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ أي اختلقَ ﴿ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ ﴾ فزعمَ أنه نبيٌّ يُوحَى إليه . ﴿ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ نزلتْ في رحمانِ اليمامةِ والأسودِ العَنْسيِّ وسَجَاح زوجِ مُسَيْلِمَة ، كلُّهم تنبَّأَ وزعمَ أنّ اللهَ قد أوْحَى إليه . ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي ومن أظلمُ ممن قال ، والمرادُ عبدُ اللهِ بن أبي سَرْحٍ الذي كان يكتبُ الوحْيَ لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، ثم ارتدَّ ولَحِقَ بالمشركين . وسببُ ذلك فيما ذكرَ المفسِّرون أنه لمّا

نزلتْ الآيةُ التي في " المؤمنون " ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (المؤمنون:١٢) دعاه النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم فأملاها عليه ، فلما انتهى إلى قولـه ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ (المؤمنون:١٤) عَجِبَ عبدُ اللهِ في تفصيلِ خلْقِ الإنسانِ فقال : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون:١٤) . فقال رســولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (هكذا أُنزِلَتْ) فشكَّ عبدُ اللهِ حينئذٍ وقال : لَئِنْ كان محمدٌ صادقًا لقد أُوحِيَ إليّ كما أُوحِيَ إليه ، ولئن كان كاذبًا لقد قلتُ كما قال فارتدَّ عن الإسلامِ ولَحِقَ بالمشركين . فلمّا دخل النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم المدينةَ أمَرَ بقَتْله ، ففرَّ عبدُ اللهِ إلى عثمانَ رضي اللهُ عنه وكان أخاه من الرَّضَاعةِ ، أرضَعَتْ أمُّه عثمانَ ، فغيَّبَه عثمانُ حتى أتى به رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بعدما اطمأن أهلُ مكّةَ فاستأمَنَه له ، فصَمَتَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم طويلاً ثم قال : (نَعَم). فلما انصرف عثمانُ قال عليه الصلاةُ والسلامُ : (ماصَمَتُّ إلاّ ليقومَ إليه بعضُكم فيضربَ عُنُقَه) فقال رجلٌ من الأنصارِ: فهلاّ أوْمَأتَ إليّ يارسولَ اللهِ ؟ فقال : (إنّ النبيَّ لا ينبغي أنْ تكونَ له خَائنَةُ الأعْيُنِ) " اي يُضمِرُ في نفسِه غيرَ ما يُظهِرُ فإذا كفَّ لسانَه وأومأ بعينِه فقد خان " (أحمد). قال أبو عمرَ : وأسلـمَ عبدُ اللهِ بن أبي سَرحٍ أيّامَ الفتحِ فحسُن إسلامُه ، وهو أحدُ النُّجَباءِ العقلاءِ الكُرَماءِ من قُرَيْشٍ ، وفارسُ بني عامرِ بنِ لُؤَيّ المعدودُ فيهم ، ولم يظهرْ منه ما يُنْكَرُ عليه بعد ذلك ، ثم ولاّه عثمانُ بعد ذلك مِصْرَ سَنَةَ خَمْسٍ وعشرين ، وفُتِحَتْ على يديه إفريقيةُ سنةَ سبعٍ وعشرين ، وغزا منها الأساودَ من أرضِ النُّوبةِ سنةَ إحدى وثلاثين، وهو الذي هادنَهم الهُدْنَةَ الباقيةَ إلى اليومِ .

(٦١) مَعْرِفَةُ الرَّأْيِ المُخَالِف :

يقولُ تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام:١٣٩)

هذا نوعٌ آخرُ من جهلِهم . قال ابنُ عباسٍ : هو اللبنُ ، جعلوه حلالاً للذكورِ وحرامًا على الإناث . وقيل : الأجنّة ، قالوا : إنّها لذكورِنا ، ثم إنْ مات منها شيءٌ أكلَه الرجالُ والنساءُ . ﴿ وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾ أي بناتنا ، وعن ابنِ يزيد : نساؤُهم ﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً ﴾ أي وإنْ يكنْ ما في بطونِ الأنعامِ ميّتةً . ﴿ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ أي الرجالُ والنساءُ . ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي كَذِبَهم وافتراءَهم ويُعَذِّبُهم على ذلك . وفي الآيةِ دليلٌ على أنّ العالِمَ ينبغي له أنْ يتعلّمَ قولَ من خالفَه وإنْ لم يأخذْ به ، حتى يعرِفَ فسادَ قولِه ، ويعلمَ كيف يرُدُّ عليه .

(٦٢) قَتْلُ الْبَنَات :

يقولُ تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

(الأنعام:١٤٠)

أخبرَ بخُسرانِهم لِوَأْدِهم البناتِ ، فقتلوا أولادَهم سَفَهًا خَوْفَ الإملاقِ " الفقر " ، وحجروا على أنفسِهم في أموالِهم ولم يخشَوْا الإملاقَ ، فأبان ذلك عن تناقضِ رأيِهم، وكان من العربِ من يقتل وَلَدَه خشيةَ الإملاقِ ، وكان منهم من يقتلُه سَفَهًا بغيرِ حُجَّةٍ منهم في قَتْلِه ، وكانوا يقتلون بناتِهم من أجْلِ الحَمِيّة . ومنهم من يقولُ : الملائكةُ بناتُ اللهِ ، فألْحقُوا البناتِ بالبناتِ . ورُوِيَ أنّ رجلاً من الصحابةِ كان لايزال مُغْتَمًّا ، فقال له رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (مالَك تكونُ محزونًا؟)

فقال : يارسولَ اللهِ ، إني أذنبتُ ذنبًا في الجاهليةِ فأخافُ ألاّ يغفرَه اللهُ لي ، وإني أسلمتُ ! فقال له : (أخبِرْنِي عن ذنبِك) . فقال : يارسولَ اللهِ ، إني كنتُ من الذين يقتلون بناتِهم ، فوُلِدَتْ لي بِنتٌ فتشَفَّعَتْ إليّ امرأتي أنْ أتركَها فتركتُها حتى كَبُرتْ وأدركَتْ ، وصارتْ من أجملِ النساءِ فخطبوها ، فدخلتني الحَمِيّةُ ولم يحتملْ قلبي أنْ أزوِّجَها أو أتركَها في البيتِ بغيرِ زوجٍ ، فقلتُ للمرأةِ : إني أريد أنْ أذهبَ إلى قبيلةِ كذا في زيارةِ أقربائي فابعثيها معي ، فسُرَّتْ بذلك وزيَّنَتْها بالثيابِ والحُلِيِّ ، وأخَذَتْ عليّ المواثيقَ بألاّ أخونَها ، فذهبْتُ بِها إلى رأسِ بِئْرٍ فنظرتُ في البئرِ ففَطِنَتْ البنتُ أني أريدُ أنْ أُلقِيَها في البئرِ ، فالتزمَتْني وجعَلَتْ تبكي وتقولُ : يا أبَتِ ! إيشْ تريدُ أنْ تفعلَ بي ؟ فرَحِمْتُها ، فنظرْتُ إلى البئرِ فدَخَلَتْ عليّ الحَمِيّةُ ، ثم التزمتني وجعلَتْ تقولُ : يا أبَتِ لا تُضَيِّعْ أمانةَ أمِّي ، فجعلْتُ مرَّةً أنظرُ في البئرِ ومرّةً أنظر إليها فأرحمُها ، حتى غلبني الشّيطانُ فأخذتُها وألقيتُها في البئرِ منكوسةً ، وهي تنادي في البئرِ : يا أبَتِ ، قَتَلْتَني . فمكثْتُ هناك حتى انقطعَ صوتُها فرجعْتُ . فبكى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأصحابُه وقال : (لو أُمِرْتُ أنْ أُعاقِبَ أحدًا بما فعل في الجاهليةِ لعاقبْتُك) .

(٦٣) الزِّينَةُ وَالْمَأْكَلُ وَالْمَشْرَبُ : (من سُــورَةِ الأَعْــرَافِ)

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ (الأعراف: ٣١)

الآيةُ خطابٌ إلى جميعِ العالمِ ، وإنْ كان المقصودُ به من كان يطوفُ من العربِ بالبيتِ عُرْيَانًا ، فإنه عامٌّ في كلِّ مسجدٍ للصلاةِ . لأنّ العِبْرَةَ للعمومِ لا للسببِ . ومن العلماءِ من أنكرَ أنْ يكونَ المرادُ به الطوافُ ، لأنّ الطوافَ لا يكونُ إلاّ في مسجدٍ واحدٍ ، والذي يعمُّ كلَّ مسجدٍ هو الصــلاةُ . وفي صحيــحِ مسلــمٍ عن

ابنِ عباسٍ قال : كانتْ المرأةُ تطوفُ بالبيتِ وهي عُرْيَانَةٌ ، فنزلتْ هذه الآيةُ . وأذَّنَ مُؤَذِّنُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : ألا لا يطوفُ بالبيتِ عُرْيَانٌ . وقيل: المرادُ الصلاةُ زينتُها النِّعَالُ لِمَا رُوِيَ عن أبي هريرةَ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال ذاتَ يومٍ :(خُذُوا زِينَةَ الصلاةِ) قيل: وما زينةُ الصلاةِ ؟ قال:(البِسُوا نِعَالَكم فصَلُّوا فيها) ودلَّتْ الآيةُ على وجوبِ سَتْرِ العَوْرَةِ . وذهب جمهورٌ من أهلِ العِلْمِ أنها فَرْضٌ من فروضِ الصلاةِ وعلى الإنسانِ أنْ يسترَها عن أعينِ الناسِ في الصلاةِ وغيرِها ، لقولِه عليه الصلاةُ والسلامُ للمِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَةَ : (ارجِعْ إلى ثوبِك فخُذْهُ ولا تمشوا عُرَاةً). أخرجه مسلمٌ . وذهب إسماعيلُ القاضي إلى أنَّ سَتْرَ العَورةِ من سُنَنِ الصلاةِ ، واحتجَّ بأنه لو كان فرضًا في الصلاةِ لكان العُريانُ لا يجوزُ له أنْ يُصلِّيَ لأنَّ كلَّ شيءٍ من فروضِ الصلاةِ يجبُ الإتيانُ به مع القدرةِ عليه ، أو به مع عدمِه ، أو تسقطُ الصلاةُ جُمْلَةً ، وليس كذلك . وعن سُحْنُون أيضًا: سَتْرُ العَورةِ شرطٌ من شروطِ الصلاةِ ، فإذا ظهرتْ بطُلتْ الصلاةُ . ورخَّصَ مالكٌ في الصلاةِ في القميصِ محلولِ الأزرارِ ، ليس عليه سراويلُ . وعن أحمد: فإن كان إمامًا فلا يُصلِّي إلاَّ بردائه لأنه من الزِّينةِ . وقيل : من الزِّينةِ الصلاةُ في النَّعلَيْنِ . وقيل : زِينةُ الصلاةِ رَفْعُ الأيدي في الرُّكوعِ وفي الرَّفْعِ منه . قال أبو عمرَ: لكلِّ شيءٍ زِينةٌ وزِينةُ الصلاةِ التكبيرُ ورَفْعُ الأيدي . وقال عمرُ رضي اللهُ عنه : إذا وسَّعَ اللهُ عليكم فأوسِعوا على أنفسِكم ، جَمَعَ رجلٌ عليه ثيابَه ، صلَّى في إزارٍ ورِداءٍ "الإزارُ ما يُؤتَزَرُ به في النصفِ الأسفلِ ، والرِّداءُ للنصفِ الأعلى" ، في إزارٍ وقميصٍ ، في إزارٍ و قَبَاءٍ ، في سراويلَ ورِداءٍ ، في سراويلَ وقميصٍ ، في سراويلَ وقَبَاءٍ – وأحسَبُه قال : في تُبَّانٍ وقميصٍ " التُّبَّانُ سروال صغيرٌ مقدارُشِبْرٍ يستُرُ العَورةَ المُغلظةَ فقط " – في تُبَّانٍ ورِداءٍ ، في تبَّانٍ وقَبَاءٍ . رواه البخاريُّ والدَّارَقُطْنِيُّ .﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾ قال ابنُ عباسٍ : أحَلَّ اللهُ الأَكْلَ والشُّرْبَ مالم يكنْ سَرَفًا أو مَخيلَةً " كِبرًا " . فأمَّا ما تدعو الحاجةُ إليه ، وهو ما سَدَّ الجَوْعَةَ وسكَّن الظَّمأَ ، فمندوبٌ إليه عَقْلاً وشَرْعًا لِما فيه من حِفْظِ النفسِ

والحَوَاسِ ، ولذلك وَرَدَ الشَّرْعُ بالنَّهْيِ عن الوِصَالِ ، لأنه يُضْعِفُ الجَسَدَ ويُميتُ النفْسَ ويُضْعِفُ عن العبادةِ ، وليس لِمن مَنَعَ نفسَه قَدْرَ الحاجةِ حظٌّ من برٍّ ولا نَصيبٍ من زُهْدٍ ، وقد اختُلِفَ في الزائدِ عن الحاجةِ على قولَيْن فقيل حرامٌ ، وقيل مَكْرُوهٌ . ثم قيل: في قِلَّةِ الأكْلِ منافعُ كثيرةٌ ، منها أنْ يكونَ الرجلُ أصحَّ جِسْمًا وأجودَ حِفْظًا وأزكَى فَهْمًا وأقلَّ نَوْمًا وأخَفَّ نَفَسًا . وفي كثرةِ الأكلِ كظُّ المعدةِ ونَتَنُ التُّخْمَةِ "نتن للمنفخة .والمنفخةُ هي الكِرْشُ " ، ويتولَّدُ منه الأمراضُ المختلفةُ ، فيحتاج من العلاجِ أكثرَ مما يحتاج إليه قليلُ الأكْلِ . وقال بعضُ الحكماءِ : أكبرُ الدَّواءِ تقديرُ الغِذاءِ . وقد بيَّن النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم هذا المعنى بيانًا شافيًا يُغْني عن كلامِ الأطبَّاءِ فقال:(ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطنٍ بحَسْبِ ابنِ آدمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فإن كان لا محالةَ فثُلُثٌ لطعامه وثُلُثٌ لشرابه وثُلُثٌ لنَفَسه) خرَّجه الترمذيُّ . قال علماؤُنا: لو سَمِعَ بُقراطُ هذه القسْمَةَ لَعَجِبَ من هذه الحِكْمَةِ . ويُذْكَرُ أنّ الرَّشيدَ كان له طبيبٌ نصرانيٌّ حاذقٌ فقال لِعَليِّ ابنِ الحسيْنِ : ليس في كتابكم مِنْ عِلْمِ الطِّبِّ شيءٌ ، والعِلْمُ عِلْمان : عِلْمُ الأديانِ وعِلْمُ الأبدانِ . فقال له عَليٌّ: قد جمع اللهُ الطِّبَّ في نِصْفِ آيةٍ من كتابنا . فقال : ما هي؟قال : قولُه تعالى : ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ فقال النَّصرانيُّ : ولا يُؤْثَرُ عن رسولِكم شيءٌ من الطِّبِّ . فقال عَليٌّ : جمعَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم الطِّبَّ في ألفاظٍ يسيرةٍ . قال : ما هي ؟ قال : (المعدةُ بيتُ الأدواءِ "جمع داء" والْحِمْيَةُ رأسُ كلِّ دواءٍ وأعْطِ كلَّ جَسَدٍ ما عوَّدتَّهُ)(مسلم). فقال النَّصرانيُّ : ما تَرَكَ كتابُكم ولا نبيُّكم لِجَالِينُوسَ طِبًّا . وقال الحارثُ بنُ كلدةَ طبيبُ العربِ: المعدةُ بيتُ الدَّاءِ ، والْحِمْيَةُ " قِلَّةُ الأكْلِ" رأسُ الدَّواءِ ."هكذا في الرِّوايةِ المشهورةِ وليس بحديثٍ". ويُقالُ إنّ مُعالجةَ المريضِ نِصْفان: نِصْفٌ دواءٌ ونِصْفٌ حِمْيَةٌ . فإنْ اجتمعا بَرَأَ وصحَّ المريضُ ، وإلاّ فالْحِمْيَةُ به أوْلَى، إذ لا ينفعُ دواءٌ مع تَرْكِ الحِمْيَةِ . ولقد تنفعُ الحِمْيَةُ مع تَرْكِ الدواءِ . ولقد قال عليه الصلاةُ والسلامُ :

(أصلُ كلِّ دواءٍ الحِمْيَةُ) أي أنّها تُغني عن كلِّ دواء ، ولذلك يُقالُ: إنّ الهِنْدَ جُلَّ مُعالجَتِهم الحِمْيَةُ ، يمتنعُ المريضُ عن الأكْلِ والشُّربِ والكلامِ عِدَّةَ أيّامٍ فيبرأُ ويصِحُّ . ورَوَى مسلمٌ عن ابنِ عمرَ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقول:(الكافرُ يأكلُ في سبعةِ أمعاءٍ والمؤمنُ يأكل في مَعِيٍّ واحدٍ) والمعنى أنّ المؤمنَ يتناولُ الطعامَ دون شِبَعِهِ ، ويُؤثِرُ على نفسِه ويُبقي من زادِه لغيرِه فيُقنعُه ما أكلَ . وفي هذا الحديثِ حَضٌّ على التقليلِ من الدنيا والزُّهْدِ فيها والقناعةُ بالقليلِ . وقد كانتْ العربُ تُمْتَدَحُ بقِلّةِ الأكْلِ وتُذَمُّ بكثرتِه . وقيل : ضافَ النبيَّ ضَيْفٌ كافرٌ ، فشرِبَ حِلابَ سَبْعِ شياهٍ ، ثم إنه أصبحَ فأسلمَ ، فشرِبَ حِلابَ شاةٍ فلم يستتمَّه . وقيل : إنّ القلبَ لّما تنوَّر بنورِ التوحيدِ نظر إلى الطعامِ بعينِ التَّقوَى على الطّاعةِ ، فأخذ منه قَدْرَ الحاجةِ . ويُستحَبُّ للإنسانِ أنْ يغسلَ يديه قبل الطعامِ لقولِه عليه الصلاةُ والسلامُ:(الوضوءُ قبل الطعامِ وبعده بَرَكَةٌ)(البخارى) وكذا في التوراةِ . رواه زاذان عن سَلمان . كما يُستحبُّ أنْ يَعْرِفَ قبل الأكْلِ إذا كان الطعامُ حارًّا أم باردًا ، فإنّه إنْ كان حارًّا فقد يتأذّى . ورُوِيَ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : (أبْرِدُوا بالطعامِ فإنّ الحارَّ غيرُ ذي بَرَكَةٍ)(البخارى) ولا يُستحبُّ أنْ يشُمَّه فإنّ ذلك من عَمَلِ البهائمِ ، بل إنْ اشتهاه أكلَه ، وإنْ كرِهَهُ تَرَكَهُ ، ويُصَغِّرَ اللقمةَ ويُكْثِرَ مَضْغَها لكي لا يُعَدَّ شَرِهًا . ويُسَمِّيَ اللهَ في أوّلِه ويحمدَه في آخرِه ولا ينبغي أنْ يرفعَ صوتَه بالحمدِ إلاّ أنْ يكونَ جُلَسَاؤُه قد فرغوا من الأكْلِ ، لأنّ في رفعِ الصّوتِ منعًا لَهم من الأكْلِ . وهذه جملةٌ من آدابِ الأكْلِ في الإسلامِ . وفي صحيحِ مسلمٍ عن ابنِ عمرَ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ علي وسلم قال:(إذا أكلَ أحدُكم فليأكلْ بيمينه وإذا شربَ فليشربْ بيمينه فإنّ الشّيطانَ يأكلُ بشماله ويشرَبُ بشماله). ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا ﴾ في كثرةِ الأكلِ والشُّربِ ، وذلك يُثْقِلُ المعدةَ ويُثَبِّطُ الإنسانَ عن خدمةِ ربِّه ، والأخْذِ بحظِّه من نوافلِ الخيرِ . ورَوَى أسدُ بنُ موسى من حديثِ عونِ بنِ جُحَيْفَةَ عن أبيه قال: أكلتُ

ثريدًا بلحمٍ سمينٍ فأتيتُ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم وأنا أتجشَّى"التجشُّؤ تنفسُ المعدةِ عند الامتلاء" ، فقال:(اكْفُفْ عليك من جُشائكَ أبا جُحَيْفَةَ فإنّ أكثرَ الناسِ شبَعًا في الدنيا أطولُهم جوعًا يومَ القيامةِ)(ابن ماجه) فما أكَلَ أبو جُحَيْفَةَ بملْءِ بطنِه حتى فارقَ الدنيا ، وكان إذا تغدّى لا يتعشَّى وإذا تعشَّى لا يتغدَّى . وقد يكونُ هذا معنى قولِه عليه الصلاةُ والسلامُ : (المؤمنُ يأكُلُ في مَعِيٍّ واحد) "المعيّ:المعدة "وروَى أنسُ بنُ مالكٍ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : (مِنَ السَّرَفِ أنْ تأكلَ كلَّ ما اشتهيتَ) . خرّجه ابنُ ماجه في سُنَنِه. وقيل: من الإسرافِ الأكلُ بعد الشِّبَعِ ، وكلُّ ذلك محظورٌ . وقال لقمانُ لابنِه : يابُنَيَّ لا تأكلْ شِبَعًا فوق شِبَعٍ ، فإنّك إنْ تنبذْه للكلبِ خيرٌ من أنْ تأكلَه . وقيل: إنّ العربَ في الجاهليةِ لا يأكلون دسمًا في أيّامِ حجِّهم ويكتفون باليسيرِ من الطعامِ ويطوفون عُراةً . فنزلتْ : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ .

(٦٤) تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ اللهُ :

يقولُ تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٣٢)

بيَّن اللهُ أنّهم حرَّموا من تلقاءِ أنفسِهم ما لم يُحَرِّمْه اللهُ عليهم . والزِّينةُ هنا الملْبَسُ الحَسَنُ ، إذا قَدَرَ عليه صاحبُه . ورُوِيَ عن عليِّ بن الحُسَيْنِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ شيْخِ مالكٍ ، رضي اللهُ عنهم ، أنه كان يلبسُ كساءَ خَزٍّ بخمسين دينارًا ، يلبَسُه في الشّتاءِ ، فإذا كان في الصَّيفِ تصدَّقَ به ، أو باعه وتصدَّقَ بثَمَنِه ، وكان يلبَسُ في الصَّيفِ ثَوْبَين من متاعِ مِصْرَ مُمَشَّقَيْنِ"مصبوغين بالمشقِ وهو صِبغٌ احمر"ويقول: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ ودلّت الآيةُ على لباسِ الرّفيعِ من الثيابِ ، والتجمّلِ بها في الجُمَعِ والأعيادِ ، وعند لقاءِ الناسِ

ومُزاورةِ الإخوانِ . وفي صحيحِ مسلمٍ من حديثِ عمرَ بنِ الخطابِ أنه رأى حُلَّةً "رداء او بُرْدَة "سِيَرَاءَ "نوعٌ من البرودِ فيه خطوطٌ صفر او يُخالطُهُ حريرٌ " تُباعُ عند المسجدِ فقال : يارسولَ اللهِ ، لو اشتريتَها ليومِ الجمعةِ وللوفودِ إذا قَدِمُوا عليك ؟ فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّما يَلْبَسُ هذا مَنْ لا خَـلاَقَ له في الآخـرةِ). فما أنكرَ عليه ذِكْرَ التجمُّلِ ، وإنّما أنكرَ عليه كونَها سِيَرَاءَ . وقد اشترى تميمُ الدَّاريُّ حُلَّةً بألفِ درهمٍ كان يُصلّي فيها ، وكان مالكُ بنُ دينارٍ يَلْبَسُ الثيابَ العَدَنيةَ الجيادَ "اي الجيّدة ". وكان ثوبُ أحمد بنِ حنبلٍ يُشْتَرَى بنحوِ الدينارِ. أين هذا ممن يرغبُ عنه ويُؤثِرُ لِبَاسَ الخَشِنِ من الكتّانِ والصُّوفِ من الثـيابِ ، ويقـول : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف:٢٦) هيهات ! أترى مَنْ ذَكَرْنا تركوا لِباسَ التَّقوَى ، لا واللهِ ! بل هم أهلُ التَّقوَى وأُولوالمعرفةِ والنُّهَى"العقول"، وغيرُهم أهلُ دَعْوَى ، وقلوبُهم خاليةٌ من التَّقوَى . ودخل أبو محمدٍ ابنُ أخي معروفٍ الكرخيّ على أبي الحَسَنِ بنِ يَسَار وعليه جبَّةُ صوفٍ ، فقال له الحسنُ : يا أبا محمد ، صَوَّفْتَ قلبَكَ أو جِسْمَكَ ؟ صَوِّفْ قلبَكَ والبَسْ الْقُوهِيَّ على الْقُوهِيِّ ." القوهيّ نوعٌ من الثيابِ بيض فارسيّ منسوبةٌ إلى قهستان " وقال أبو الفرج بنُ الجوزِيِّ : وأنا أكرَهُ لِبْسَ الفُوَطِ والمُرَقَّعَاتِ لأربعةِ أوجُهٍ : أحدُها ، أنه ليس من لِبْسِ السَّلَفِ وإنّما كانوا يُرقعون ضرورةً . والثاني ، أنه يتضمَّنُ ادِّعاءَ الفقرِ، وقد أُمِرَ الإنسانُ أنْ يُظْهِرَ نِعَمَ اللهِ عليه. والثالثُ، إظهارُ التَّزَهُّدِ ، وقد أُمِرْنا بستْرِهِ . والرابعُ، أنه تشبُّهٌ بهؤلاء المُتزحزحين عن الشّريعةِ ، ومن تشبَّهَ بقومٍ فهو منهم . وفي الحديث(إنّ اللهَ يُحبُّ أنْ يرَى أثَرَ نِعَمِهِ على خَلْقِه) رواه الترمذيُّ وقال الطّبريُّ: ولقد أخطأ من آثَرَ لِبَاسَ الشّعرِ والصُّوفِ على لِبَاسِ القطنِ والكتّانِ مع وجودِ السَّبيلِ إليه ، ومَنْ أكَلَ البقولَ والعدسَ واختاره على خُبْزِ البُرِّ ، ومن تَرَكَ أكْلَ اللحمِ خوفًا من عارضِ شهوَةِ النساءِ . وقال أبو الفرجِ : وقد كان السَّلَفُ يَلْبَسون الثيابَ المتوسِّـطـةَ ،

لا المترفِّعةَ ولا الدُّونَ ، ويتخيَّرون أجوَدَه للجمعةِ والعيدِ وللقاءِ الإخوانِ . ولم يكنْ تخيُّرُ الأجودِ عندهم قبيحًا . وأمّا اللباسُ الذي يزْرِي بصاحبِه فإنه يتضمَّنُ إظهارَ الزُّهْدِ والفقرِ ، وكأنه لِسَانُ شكوى من الله تعالى ، وكلُّ ذلك مكروهٌ ومنهيٌّ عنه . والإنسانُ يُحبُّ أنْ يُرَى جميلاً ، وذلك حظٌّ للنفسِ لا يُلامُ فيه . ولهذا يُسَرِّحُ شعرَه وينظر في المرآةِ ويُسَوِّي عِمامتَه وملبَسَه وليس في هذا شيءٌ مما يُكْرَه ولا يُذَمُّ.

وعن عائشةَ قالتْ : كان نفرٌ من أصحابِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ينتظرونه على البابِ ، فخرج يريدُهم ، وفي الدَّارِ رَكْوَةٌ فيها ماءٌ ، فجعل ينظر في الماءِ ويُسوِّي لحيَتَه وشَعرَه فقلتُ: يارسولَ الله ، وأنت تفعلُ هذا ؟ قال : (نَعَم إذا خرج الرجلُ إلى إخوانِه فَلْيُهَيِّئْ من نفسِه فإنّ اللهَ جميلٌ يُحبُّ الجمالَ) (مسلم). وفي صحيحِ مسلمٍ عن ابنِ مسعودٍ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم قال: (لا يدخلُ الجنَّةَ من كان في قلبِه مثقالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ). فقال رجلٌ: إنّ الرجلَ يُحبُّ انْ يكونَ ثوبُهُ حَسَنًا ونَعْلُهُ حَسَنَةً. قال:(إنّ اللهَ جميلٌ يُحبُّ الجمالَ ، الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناسِ) ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ الطَّيباتُ اسمٌ عامٌّ لما طابَ كَسْبًا وطعْمًا . قال أبو الحَسَنِ عليٌّ بنُ الفضلِ المقدسيّ شيخُ أشياخِنا : فإنه لم يُنْقَلْ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه امتنعَ عن طعامٍ لأجلِ طيبِه قَطُّ ، بل كان يأكل الحلوى والعسلَ والبِطّيخَ والرُّطَبَ ، وإنّما يكرهُ التكلُّفَ لما فيه من التشاغُلِ بشهواتِ الدنيا عن مهمَّاتِ الآخرةِ . واللهُ تعالى أعلمُ . وقال صلى اللهُ عليه وسلم :(سَيِّدُ إدامِ الدنيا والآخرةِ اللحمُ)(ابن ماجه). ﴿ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يعني بحقِّها من توحيدِ اللهِ تعالى والتصديقِ له ، فإنّ اللهَ يُنعِمُ ويرزقُ ، فإنْ وحَّدَهُ المُنْعَمُ عليه وصدَّقَه فقد قام بحقِّ النِّعمةِ ، وإنْ كفرَ فقد أمكنَ الشَّيطانَ من نفسِه . وفي صحيحِ الحديثِ (لا أحدَ أصبرَ على أذًى من اللهِ يُعافيهم ويرزُقُهم وهم يدَّعُون له الصّاحبةَ والولدَ)(أحمد) . ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ وقرأها ابنُ عباسٍ ونافعُ "خَالِصَةٌ" بالرفعِ .أي يُخْلِصُ اللهُ الطَّيِّبات في الآخرةِ للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شيءٌ كما كان لهم في الدنيا . ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ أي كالتي فصَّلتْ لكم الحربَ والحرامَ أُفَصِّلُ لكم ما تحتاجون إليه .

(٦٥) الْفَوَاحِشُ :

يقولُ تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٣٣)

قال الكلبيُّ : لمّا لبسَ المسلمون الثيابَ وطافوا بالبيتِ عيَّرهم المشركون ، فنزلتْ هذه الآيةُ . ﴿ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ الأعمالُ المُفرِطةُ في القُبحِ ، ما ظهرَ منها وما بَطَنَ . ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ نكاحُ الأمَّهاتِ في الجاهليةِ .﴿ وَمَا بَطَنَ ﴾ الزِّنى . وقال قتادة : سرُّها وعلانيتُها . ﴿ وَٱلْبَغْىَ ﴾ الظلمُ وتجاوزُ الحدِّ فيه .

(٦٦) الأَجَلُ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف:٣٤)

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أي وقتٌ معلومٌ . ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي الوقتُ المعلومُ عندَ اللهِ . ﴿ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ عنه ساعةً ولا أقلُّ من ساعةٍ . ﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ودلَّ هذا على أنَّ المقتولَ إنّما يُقتَلُ بأجَلِهِ ، والأجَلُ هو الوقتُ . وأجلُ الإنسانِ هو الوقتُ الذي يموتُ فيه .

(٦٧) النَّــومُ قَبْــلَ المَعْرَكَــةِ : (من سُورةِ الأنْفالِ)

يقولُ تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال: ١١)

أخبر بأنّ النعاسَ هو الذي يُغشي القومَ ، والأَمَنَةُ هي النُّعاسُ ، والنّعاسُ حالةُ الآمنِ الذي لا يخافُ ، وكان هذا النّعاسُ في الليلةِ التي كان القتالُ في غدها ، فكان النومُ عجيبًا مع ما كان بين أيديهم من الأمرِ المُهِمّ ، ولكن اللهُ ربَطَ جأشَهم . وعن عليٍّ رضي اللهُ عنه قال : ما كان فينا فارسٌ يومَ بدرٍ غيرُ المِقدادِ على فرَسٍ أبلق ، وقد رأيتُنا وما فينا إلاّ نائمٌ إلاّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم تحتَ شجرة يُصَلّي ويبكي حتى أصبحَ . ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ ظاهِرُ الآيةِ يدلُّ على أنّ النّعاسَ كان قبل المطرِ.وحكَى الزَّجاجُ أنّ الكفّارَ يومَ بدرٍ سبقوا المؤمنين إلى ماءِ بدرٍ، وبقِيَ المؤمنون بلا ماء ، وعطشوا وأجنبوا، فأنزل اللهُ المطرَ ليلةَ بدرٍ السابعةَ عَشَرَ من رمضانَ حتى سالتْ الأوديةُ ، فشربوا وتطهّروا وسقَوْا الظَّهْرَ "الإبلَ"وتلبّدتْ السَّبخةُ "الأرض التي تسوخ فيها الأرجلُ" التي كانتْ بينهم وبين المشركين حتى ثبتتْ فيها أقدامُ المؤمنين وقتَ القتالِ . وقيل: إنّ هذه الأحوالَ كانتْ قبل وصولِهم إلى بدرٍ، وهو أصحُّ وذكَرَ البيهقيُّ عن أبي أيّوب الأنصاريِّ قال : فخرجــنا " إلى بدر" فلما سِرنا يومًا أو يومين أمَرَنا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أنْ نتعادَّ " نُحصي عددَنا "، ففعلنا فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثةُ عَشَرَ رجلاً ، فأخبرْنا النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم بِعِدَّتِنا فسُرَّ بذلك وحَمِدَ اللهَ وقال:(عِدَّةَ أصحاب طالوت). وكان أبو سفيانَ حين دنا من الحجازِ يتجسّسُ الأخبارَ ويسألُ مَنْ لَقِيَ من الرُّكبانِ تخوُّفًا على أموالِ الناسِ ، حتى أصابَ خبرًا أنّ محمدًا رسولَ اللهِ عليه وسلم قد

استنفرَ الناسَ ، فحَذرَ عند ذلك واستأجرَ ضَمْضَمَ بنَ عمرو الغفاريّ وبعثه إلى مكّةَ ، وأمَرَه أنْ يأتيَ قُرَيْشًا يستنفرُهم " يجمعهم " إلى أموالِهم ، ويُخبرَهم أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم قد عَرَضَ لَها في أصحابِه ، ففعلَ ضَمْضَمُ . فخرج أهلُ مكّةَ في ألفِ رجلٍ أو نحو ذلك ، وخرجَ النبيُّ في أصحابِه وأتاه الخبرُ عن قريشٍ بخروجِهم ليمنعوا عِيرَهم " ليَحْمُوها " فاستشار النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم الناسَ . فقام أبو بكرٍ فقال فأحسَنَ ، وقام عمرُ فقال فأحسَنَ ، ثم قام المِقدادُ بنُ عمروفقال: يارسولَ الله ، امْضِ لِما أمَرَكَ اللهُ ، فنحن معكَ ، واللهِ لا نقول كما قالتْ بنو إسرائيل ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ (المائدة:٢٤) ولكن اذهبْ أنت وربُّكَ فقاتلا إنّا معكم مُقَاتِلُون، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ لو سِرْتَ إلى بِرْكِ العمادِ "يعني مدينةَ الحبشةِ " لَجالَدْنا معكَ من دونِه . فسُرَّ بذلك رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ودعا له بخيرٍ.ثم قال :(أشيروا عليّ أيُّها الناسُ)(البخارى) يريدُ الأنصارَ . وذلك أنّهم عددُ الناسِ ، وكانوا حين بايعوه بالعقبةِ قالوا: يارسولَ الله ، إنّا بُرَآءُ من ذمامِكَ حتى تصلَ إلى ديارِنا ، فإذا وصلتَ إلينا فأنت في ذِمّمنا ، نمنعُكَ مما نمنعُ منه أنفسَنا وأبناءَنا ونساءَنا . فكان صلى اللهُ عليه وسلم يتخوّفُ ألاّ تكونَ الأنصارُ ترى أنّ عليها نُصْرَتَه بالمدينةِ ، وأنه ليس عليهم أنْ يسيرَ بِهم إلى عدوٍّ بغيرِ بلادِهم . فلما قال ذلك رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم، كلّمه سعدُ بنُ معاذٍ – وقيل سعدُ ابنُ عبادةَ – ، ويُمكنُ أنّهما تكلّما جميعًا في ذلك اليومِ . فقال: يارسولَ الله ، كأنّك تريدُنا معشرَ الأنصارِ؟ فقال صلى اللهُ عليه وسلم :(أجَل) فقال سعدٌ : إنّا قد آمنّا بك واتّبعناك ، فامْضِ لِما أمَرَكَ اللهُ ، فوالذي بعثك بالحقِّ لو استعرَضتَ بنا هذا البحرَ فَخُضْتَه لَخُضناه معك . فقال صلى اللهُ عليه وسلم:(امضوا على بركةِ اللهِ فكأني أنظرُ إلى مصارِعِ القومِ) فمضى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وسَبَقَ قريشًا إلى ماءِ بدرٍ . ومنعَ قريشًا من السَّبْقِ إليه مَطَرٌ أنزله اللهُ عليهم ، ولم يُصِبْ منه المسلمين إلاّ ما شدَّ لَهم دَهْسَ الوادي "الدَّهس الرَّملُ الليِّنُ الذي تسوخُ فيه الأرجلُ" فنزل

رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم على أدنى ماءٍ من مياهِ بدرٍ ، فأشار عليه الْحُبابُ ابنُ المنذرِ بغيرِ ذلك ، وقال له: يارسولَ اللهِ ، أرأيتَ هذا المنزِلَ أنزلَكَه اللهُ ، فليس لنا أنْ نتقدَّمَه أو نتأخَّرَ عنه ، أم هو الرَّأيُ والحربُ والمكيدةُ ؟ فقال:(بل هو الرَّأيُ والحربُ والمكيدةُ) فقال الحُبابُ : يارسولَ اللهِ ، إنّ هذا ليس لك بمنزِلٍ ، فانهضْ بنا إلى أدنى ماءٍ من القومِ ، فننزِلُه ونُغَوِّرُ "نـفِنُ ونسُدّ" ما وراءَه من القُلُبِ " جمعُ قَليب ، وهي البئرُ العاديّةُ القديمةُ " ، ثم نبني عليه حَوْضًا فنملؤُه فنشربُ ولا يشربون . فاستحسَنَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ذلك من رأيِه ، وفَعَلَه .ثم التَقَوْا فنصر اللهُ نبيَّه والمسلمين فقَتَلَ من المشركين سبعين وأسَرَ منهم سبعين وانتقم منهم للمؤمنين ، وشفى اللهُ صدرَ رسولِه عليه الصلاةُ والسلامُ وصدورَ أصحابِه من غيظِهم.

(٦٨) رِبَاطُ الْخَـيْلِ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال:٦٠)

أمَرَ اللهُ سبحانه المؤمنين بإعدادِ القوّةِ للأعداءِ بعد أنْ أكّدَ تقدمةَ التقوى ، فإنّ اللهَ تعالى لو شاء لَهزمهم بالكلامِ والتَّفْلِ"البصق" في وجوهِهم وبحفنةٍ من ترابٍ ، كما فعَلَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم. ولكنه أراد أنْ يبتليَ بعضَ الناسِ ببعضٍ بعلمِه السَّابقِ وقضائِه النَّافذِ ، قال ابنُ عباسٍ: القوّةُ هنا السلاحُ. وفي صحيحِ مسلمٍ عن عُقبةَ بنِ نافعٍ قال:سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وهو على المنبريقول:(وأعدُّوا لَهم ما استطعتم من قوّةٍ ألا إنّ القوّةَ الرَّمْيُ ألا إنّ القوّةَ الرَّمْيُ ألا إنّ القوّةَ الرَّمْيُ). وقال صلى اللهُ عليه وسلم :(كلُّ شيءٍ يلهو به

الرجلُ باطلٌ إلاّ رَمْيَه بقوسه وتأديبَهُ فَرَسَهُ ومُلاعبتَهُ أهلَهُ فإنه من الحقِّ) ومعنى هذا واللهُ أعلمُ : أنّ كلَّ ما يتلهَّى الإنسانُ به مما لا يفيده في العاجلِ ولا في الآجلِ فائدةً فهو باطلٌ ، والإعراضُ عنه أوْلَى . وهذه الأمورُ الثلاثةُ فإنه وإنْ كان يفعلُها على أنه يتلهَّى بِها وينشطُ ، فإنّها حقٌّ لاتّصالِها بما يفيدُ ، فإنّ الرَّميَ بالقوسِ وتأديبَ الفَرَسِ جميعًا من معاونِ القتالِ. ومُلاعَبَةُ الأهلِ قد تؤدِّي إلى ما يكونُ عنه وَلَدٌ يُوَحِّدُ اللهَ ويعبدُه ، فلهذا كانتْ هذه الثلاثةُ من الحقِّ . وقال صلى اللهُ عليه وسلم : (يابني إسماعيل ارموا فإنّ أباكم كان راميًا)(أبو داود). ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ الرِّباطُ من الخيلِ الخَمْسُ فما فوقها. ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ أي تُخيفون به ﴿ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ من اليهودِ وقريشٍ ومن كفّارِ العربِ. ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ﴾ يعني فارسَ والرّومَ ، قاله السُّدِّيُّ . وقيل: الجنُّ. وهو اختيارُ الطّبريِّ. ولا ينبغي أنْ يُقالَ فيهم شيءٌ لأنّ اللهَ سبحانه وتعالى قال : ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ فكيف يدَّعي أحدٌ عِلْمًا بِهم؟ إلاّ أنْ يصِحَّ حديثٌ جاء في ذلك عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، وهوقولُه في هذه الآية : (هم الجنُّ) . ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ ﴾ أي تتصدَّقوا ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ في الآخرةِ الحسَنَةُ بعشْرِ أمثالِها إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ .

(٦٩) السَّـــلْمُ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الأنفال:٦١)

وإنْ مالوا إلى المسالمةِ " اي الصُلح "، فمِلْ إليها . وقد صالَحَ الصّحابةُ في عهدِ عمرَ ابنِ الخطابِ ومَنْ بعده من الأئمّةِ كثيرًا من بلادِ العَجَمِ ، على ما أخذوه منهم ،

وتركوهم على ما هم فيه ، وهم قادرون على استئصالهم . وكذلك صالَحَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم كثيرًا من أهلِ البلادِ على مالٍ يُؤدُّونه ، من ذلك خَيْبَرُ ، ردَّ أهلَها إليها بعد الغَلَبة على أنْ يعملوا ويُؤدُّوا النِّصْفَ . وقيل : عُنِيَ بهذه الآيةِ قُرَيْظَةُ ، لأنّ الجزْيَةَ تُقبَلُ منهم ، فأما المشركون فلا يُقبَلُ منهم شيءٌ . وقال اللهُ عزّ وجلّ : ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ (محمد:٣٥) فإذا كان المسلمون على عِزَّةٍ وقوّةٍ ومنعةٍ ، وجماعةٍ عديدةٍ فلا صُلْحَ ، وإنْ كان للمسلمين مصلحةٌ في الصُّلحِ ، لنفعٍ يجتلبونه ، أو ضَرَرٍ يدفعونه ، فلا بأسَ أنْ يبتدئَ المسلمون به إذا احتاجوا إليه . وقد صالَحَ الرسولُ صلى اللهُ عليه وسلم أهلَ خيبرَ على شروطٍ نقضوها فنقض صُلحَهم . وقد هادن قريشًا لعشرةِ أعوامٍ حتى نقضوا عهدَه .وقال الشّافعيُّ: لا تجوزُ مهادنةُ المشركين أكثرَ من عشرِ سنين ، على ما فعَلَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عامَ الحُدَيْبِيَةِ ، فإنْ هُودِنَ المشركون أكثرَ من ذلك فهي مُنْتَقَضَةٌ ، لأنّ الأصلَ فَرْضُ قتالِ المشركين حتى يُؤمنوا أو يُعطوا الجزْيَةَ . ويجوزُ صُلحُ المشركين ومهادنَتُهُم دون مالٍ يُؤخَذُ منهم ، إذا رأى الإمامُ ذلك وجهًا . ويجوزُ للمسلمين عند الحاجةِ عقدُ الصُّلحِ بمالٍ يبذلونه للعدُوِّ ، لموادعةِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم عُيَيْنَةَ بنَ حِصْنٍ الفَزَارِيّ، والحارثَ بنَ عوفٍ المُرِّيّ يومَ الأحزابِ ، على أنْ يُعطيَهما ثُلُثَ ثَمرِ المدينةِ ، وينصرِفا بمن معهما من غطفان ويخذلا قريشًا ، ويرجعا بقومِهما عنهم ، وكانتْ هذه المقالةُ مُراوضةً "مداراةً ومخاتلةً" ولم تكنْ عقدًا . فلما رأى الرسولُ صلى اللهُ عليه وسلم أنّهما قد أنابا ورضيا استشار سعدَ ابنَ معاذٍ وسعدَ بنَ عبادةَ ، فقالا : يارسولَ اللهِ ، هـذا أمْرٌ تُحبُّهُ فنصنعُـه لك ، أو شيءٌ أمَرَكَ اللهُ به فنسمعُ له ونطيعُ ؟ فقال:(بل أمْرٌ أصنعُه لكم فإنّ العربَ قد رَمَتْكم عن قوسٍ واحدةٍ)(البخارى) فقال سعدُ بنُ معاذٍ : يارسولَ اللهِ ، واللهِ قد كنا نحن وهؤلاء القومِ على الشّركِ وعبادةِ الأوثانِ ، لا نعبدُ اللهَ ولا نعرِفُه ، وما طمِعوا قَطُّ أنْ ينالوا منّا ثَمَرَةً إلاّ شِراءً أو قِرًى ، فحين أكرمَنا اللهُ بالإسلامِ ،

وهدانا له وأعزّنا بك ، نُعطيهم أموالَنا ! واللهِ لاَ نُعطيهم إلاّ السَّيفَ ، حتى يحكمَ اللهُ بيننا وبينهم . فسُرَّ بذلك النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم وقال:(أنتم وذاكَ) . وقال لعُيَيْنةَ والحارثِ : (انصَرِفا فليس لكما عندنا إلاّ السَّيفُ)(البخارى)، وتناول سعدٌ الصحيفةَ ، وليس فيها شهادةُ أنْ لا إله إلاّ اللهُ . فمحاها .

(٧٠) الْخِـدَاعُ والْغَـدْرُ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ (الأنفال:٦٢،٦٣).

﴿ يَخۡدَعُوكَ ﴾ بأنْ يُظهِروا لك السِّلمَ ويُبطِنوا الغَدْرَ والخيانةَ ، فاجنَحْ فما عليكَ من نيّاتهم الفاسدة . ﴿ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ ﴾ كافيك اللهُ ، أي يتولّى كفايتَكَ وحياطتَكَ ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ ﴾ أي قوّاك بنصره يومَ بدرٍ . ﴿ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ قال النعمانُ بنُ بشيرٍ : نزلتْ في الأنصارِ. ﴿ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ ﴾ بين قلوبِ الأوسِ والخزرَجِ . وكان تألُّفُ القلوبِ مع العصبيّةِ الشديدةِ في العربِ من آياتِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ومعجزاته لأنّ أحدَهم كان يُلطَمُ اللطمةَ فيقاتلُ عنها حتى يستقيدَها ، وكانوا أشدَّ خَلْقِ اللهِ حَمِيَّةً فألّفَ اللهُ بالإيمانِ بينهم حتى قاتلَ الرجلُ أباه وأخاه بسبب الدِّينِ . وقيل: أراد التأليفَ بين الأنصارِ والمهاجرين .والمعنى متقاربٌ. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ قال ابنُ عباسٍ: نزلتْ في إسلامِ عمرَ، فإنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم كان قد أسلمَ معه ثلاثةٌ وثلاثون رجلاً وستُّ نسوة ، فأسلم عمرُ وصاروا

أربعين. وعن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ قال: ما كنّا نقدرُ على أنْ نُصلّيَ عند الكعبةِ حتى أسلمَ عمرُ ، فلما أسلمَ قاتلَ قريشًا حتى صلّى عند الكعبةِ وصلّينا معه . ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي حسبُك اللهُ وحسبُكَ المهاجرون والأنصارُ. وقيل: المعنى كافيك اللهُ وكافي من تبعَكَ.

(٧١) الْمَسْجِدُ الْحَرَامَ : (مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ)

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:٢٨)

اختلف العلماءُ في معنى وَصْفِ المُشْرِكِ بالنَّجَسِ . فقال قتادةُ ومَعْمَرٌ وغيرُهما : لأنه جُنُبٌ ، إذ غُسْلُهُ من الجنابةِ ليس بغسلٍ . وقال ابنُ عباسٍ : بل إنّ الشِّرْكَ هو الذي نجّسَهُ . قال الحَسَنُ البصريُّ : من صافحَ مشركًا فليتوضّأْ . ﴿ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ فإذًا يحرُمُ تمكينُ المُشْرِكِ من دخولِ الحرَمِ ، فإذا جاءنا رسولٌ منهم خرجَ الإمامُ إلى الحِلِّ ليسمعَ ما يقولُ . ولو دخلَ مشركٌ الحرَمَ مستورًا ومات نُبِشَ قبرُه وأُخرِجَتْ عظامُه . فليس لهم الاستيطانُ ولا الاجتيازُ . وأمّا جزيرةُ العربِ ، وهي مكّةُ والمدينةُ واليمامةُ واليمنُ ومخاليفُها * جمع مِخلاف وهي قُرَى اليَمَنِ * ، فقال مالكٌ : يخرجُ من هذه المواضعِ كلُّ من كان على غيرِ الإسلامِ ، ولا يُمنعون من التردُّدِ بها مسافرين . ويُضْرَبُ لهم أجَلٌ ثلاثةُ أيّامٍ كما ضربَه لَهم عمرُ رضي اللهُ عنه حين أجلاهم ، ولا يُدفَنون بها . وقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (لا أُحِلُّ المسجدُ لحائضٍ ولا لجُنُبٍ) والكافرُ جُنُبٌ . وقال الشّافعيُّ : الآيةُ عامّةٌ في سائرِ المشركين ، خاصةً في المسجدِ الحرامِ ، ولا يُمنعون من دخولِ غيرِه ، فأباح دخولَ اليهوديِّ والنّصرانيِّ في سائرِ المساجدِ . وقال أبو حنيفةَ وأصحابُه : لا يُمنعُ

اليهودُ والنصارى من دخولِ المسجدِ الحرامِ ولا غيرِه ، ولا يُمنعُ دخولُ المسجدِ الحرامِ إلاّ المشركون وأهلُ الأوثانِ . ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾ قيل : إنه سنةَ تسعٍ التي حجَّ فيها أبو بكرٍ ، وقيل : سنةَ عشر . ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ " العيلةُ :الفقرُ " وكان المشركون يجلبون الأطعمةَ والتجاراتِ ، فخاف بعضُ المسلمين من الفقرِ وقالوا : كيف نعيشُ ؟ فوعدهم اللهُ أنْ يُغنيَهم من فضلِه . قال الضحَّاكُ : ففتح اللهُ عليهم بابَ الجزيَةِ من أهلِ الذِّمَّة . وقال عكرِمةُ : أغناهم اللهُ بإدرارِ المطرِ والنباتِ وخصبِ الأرضِ ، فأخصبت تبالةُ " بلد في اليمنِ خصبة " وجُرَشُ "من قُرَى اليمنِ" وحملوا إلى مكَّةَ الطعامَ والوَدَكَ "دسَم اللحمِ" وكثُر الخيرُ . وأسلمتْ العربُ : أهلُ نجدٍ وصنعاءَ وغيرُهم ، فتمادى حجُّهم وازدهرتْ تجارتُهم ، وأغناهم اللهُ من فضلِه بالجهادِ والظهورِ على الأُمَمِ . وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أنّ تعلُّقَ القلبِ بالأسبابِ في الرِّزقِ جائزٌ وليس ذلك بمُنافٍ للتَّوَكُّلِ ، وإنْ كان الرِّزقُ مُقَدَّرًا ، وأمْرُ اللهِ مفعولاً ، ولكنّه علَّقَه بالأسبابِ حِكْمَةً . قال صلى اللهُ عليه وسلم : (لو تَوَكَّلتم على اللهِ حقَّ توكُّلِه لَرزقَكم كما يرزقُ الطَّيرَ تغدو خماصًا وتروحُ بِطانًا) أخرجه البخاريُّ . فأخبر أنّ التَّوكُّلَ لا يتناقضُ مع الغُدُوِّ والرَّواحِ في طلبِ الرِّزقِ . وقال صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ أطيبَ ما أكل الرجلُ من عَمَلِ يدِه وإنّ نبيَّ اللهِ داودَ كان يأكلُ من عَمَلِ يدِه)(البخارى). ﴿ إِن شَآءَ ﴾ دليلٌ على أنّ الرِّزقَ ليس بالاجتهادِ ، وإنّما هو من فضلِ اللهِ تَوَلَّى قِسْمَتَه بين عبادِه ، وذلك بيِّنٌ في قولِه تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الزخرف:٣٢) .

(٧٢) حَـقُّ الْفُقَـرَاءِ :

يقولُ تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:٦٠)

خصَّ اللهُ سبحانه بعضَ الناسِ بالأموالِ دون بعضٍ نِعمةً منه عليهم ، وجعَلَ شُكْرَ ذلك منهم إخراجَ سَهْمٍ يُؤدُّونه إلى من لا مالَ له ، نيابةً عنه سبحانه وتعالى فيما ضَمِنَهُ بقولِهِ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (هود:٦). ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ تبيينٌ لمصارفِ الصَّدقاتِ والمحلِّ حتى لا تخرجَ عنهم .ثم الاختيارُ لِمن يَقْسِمُ. وروَى أبو داود والدَّارَقُطْنِيُّ أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم يسألُه عن الصَّدقات فقال له (إنَّ اللهَ لم يَرْضَ في الصَّدقاتِ بحُكْمِ نبيٍّ ولا غيرِهِ حتى جزَّأها ثمانيةَ أجزاءٍ فإنْ كنتَ من أهلِ تلك الأجزاءِ أعطيتُكَ). والصَّدقةُ متى أُطلقَتْ في القرآنِ فهي صحةُ الفَرْضِ . وقال صلى اللهُ عليه وسلم : (أُمِرْتُ أنْ آخذَ الصَّدقةَ من أغنيائكم وأرُدَّها على فقرائكم) (البخارى) وهذا نصٌّ في ذِكْرِ أحدِ الأصنافِ الثمانيةِ قرآنًا وسُنَّةً ، وهو قولُ عمرَ وعلي وابنِ عباسٍ وحُذَيفةَ . وقال به من التابعين جماعةٌ . قالوا : جائزٌ أنْ يدفعَها إلى الأصنافِ الثمانيةِ ، وإلى أيِّ صِنفٍ منها دُفِعَتْ جازَ.واختلف أهلُ اللغةِ وأهلُ الفقهِ في الفَرْقِ بين الفقيرِ والمسكينِ ، فذهب بعضُهم إلى أنَّ الفقيرَ هو الذي له بعضُ ما يكفيه ويُقيمُهُ ، والمسكينُ الذي لا شيءَ له . وقال آخرون بالعكسِ ، فجعلوا المسكينَ أحسَنَ حالاً من الفقيرِ، واحتجُّوا بقولِه تعالى : ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ ﴾ (الكهف:٧٩) فأخبر بأنَّ لَهم سفينةً من سُفُنِ البحرِ. وعضَدوه بما رُوِيَ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه تعوَّذَ من الفقرِ، وأنه قال:(اللهم أحيني مسكينًا وأمِتْني مسكينًا) ولو كان المسكينُ أسوأ حالاً من الفقيرِ لَتناقضَ الْخَبَرَان إذ يستحيلُ أنْ يتعوَّذَ من الفقرِ، ثم يسألُ ما هو أسوأُ حالاً منه ، وقد استجاب اللهُ دعاءَه وقبضه وله مالٌ مما أفاء اللهُ عليه، ولم يكنْ معه تمامُ الكفايةِ ولذلك رَهَنَ دِرْعَهُ. وقال أصحابُ مالكٍ والشَّافعيِّ: الفقيرُ والمسكينُ سواءٌ. وقال مالكٌ : الفقيرُ المحتاجُ المتعفِّفُ ، والمسكينُ السَّائلُ . وقال محمدُ بنُ مسلمةَ :

الفقيرُ الذي له المسكنُ والخادمُ إلى من هو أسفلُ من ذلك ، والمسكينُ الذي لا مالَ له . واختلف العلماءُ في حدِّ الفقرِ الذي يجوزُ معه الأخْذُ ، وبعد إجماعِ أكثرِ من يُحفَظُ عنه من أهلِ العلمِ ، أنَّ من له دارٌ وخادمٌ لا يستغني عنهما له أنْ يأخذَ من الزكاةِ ، وللمُعْطِي أنْ يُعطيَه . وكان مالكٌ يقولُ: إنْ لم يكنْ في ثَمَنِ الدَّارِ والخادمِ فضلُهُ ما يحتاجُ إليه منهما جازَ له الأخْذُ وإلاّ لم يَجُزْ . وقال أبو حنيفةَ : مَنْ معه عشرون دينارا أو مائتا درهمٍ فلا يأخذْ من الزكاةِ . وقال الشَّافعيُّ وأبو ثَور : مَنْ كان قويًّا على الكَسْبِ والتحرُّفِ مع قوّةِ البدنِ وحُسْنِ التصرُّفِ حتى يُغنيَهُ ذلك عن الناسِ فالصَّدقةُ عليه حرامٌ . واحتجَّ بحديثِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم :(لا تحِلُّ الصّدقةُ لغنيٍّ ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ)"المِرّة الشِّدّة والسَّويُّ الصّحيحُ الأعضاء" (الدارقطني) ﴿ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ كالسَّاعي والكاتبِ والقسَّامِ وغيرِهم ، فالقائمُ به يجوزُ له أخْذُ الأجرةِ عليه. ومن ذلك الإمامةُ في الصلاةِ فلا جَرَمَ يجوزُ أخْذُ الأجرةِ عليها. ﴿ وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ وهم قومٌ كانوا في صدرِ الإسلامِ ممن يُظهرُ الإسلامَ ، يتألَّفون بدفعِ سهمٍ من الصَّدقةِ إليهم لضعفِ يقينِهم . وقال الزُّهريُّ : المؤلَّفةُ من أسلم من يهوديٍّ أو نصرانيٍّ وإنْ كان غنيًا . وقيل : إنّهم صِنفٌ من الكفّارِ يُعطَوْنَ ليتألَّفوا على الإسلامِ ، وكانوا لا يُسلِمون بالقهرِ والسَّيفِ ، ولكن يُسلِمون بالعطاءِ والإحسانِ . وفي صحيحِ مسلمٍ من حديثِ أنسٍ قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إني أُعطي رجالاً حديثي عهدٍ بكُفْرٍ أتألَّفُهم) وكانوا أشرافًا ، فاعطى أبا سفيانَ بنَ حربٍ مائةَ بعيرٍ ، وأعطى ابنَه مائةَ بعيرٍ، وأعطى سُهيلَ بنَ عمرٍو مائةَ بعيرٍ، وأعطى حُوَيْطِبَ بنَ عبدِ العُزَّى مائةَ بعيرٍ، وأعطى صفوانَ بنَ أُميّةَ مائةَ بعيرٍ، وكذلك أعطى مالكَ بنَ عوفٍ والعلاءَ بنَ جارية . ﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ أي في فكِّ الرِّقابِ بشراءِ العبيدِ وعِتقِهم ﴿ وَٱلْغَٰرِمِينَ ﴾ هم الذين ركِبَهم الدَّيْنُ ولا وفاءَ عندهم به ، إلاّ من ادَّان في سفاهةٍ فلا يُعطَى منها ولا من غيرِها إلاّ أنْ يتوبَ .

ويُعطَى منها من له مالٌ وعليه دَيْنٌ محيطٌ به ما يقضي به دَيْنَهُ ، فإنْ لم يكنْ له مالٌ وعليه دَيْنٌ فهو فقيرٌ وغارمٌ فيُعطَى بالوصفين . ﴿ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وهم الغزاةُ يُعطَوْنَ ما يُنفقون في غزوِهم أغنياءَ كانوا أو فقراءَ . وقال ابنُ عمرَ : الحُجَّاجُ والعُمَّارُ. ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ المسافرِ في الطريقِ . ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي فرضَ اللهُ الصَّدقاتِ فرضًا .

(٧٣) الْغِلْظَةُ مَعَ الْمُنَافِقِينَ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (التوبة:٧٣).

الخطابُ للنبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، وتدخلُ فيه أُمَّتُهُ من بعدِهِ . قيل : المرادُ جاهد بالمؤمنين الكفَّارَ . قال ابنُ عباسٍ : أمَرَ بالجهادِ مع الكفَّارِ بالسَّيفِ ، ومع المنافقين باللسانِ وشِدَّةِ الزَّجْرِ والتغليظِ . ورُوِيَ عن ابنِ مسعودٍ أنه قال : جاهد المنافقين بيدكَ فإنْ لم تستطعْ فبلسانك ، فإنْ لم تستطعْ فاكفَهِرَّ في وجوهِهم " اعبس ". وقال الحَسَنُ : جاهد المنافقين بإقامةِ الحدودِ عليهم وباللسانِ . وكانوا أكثرَ من يُصيبُ الحدودَ . وليس العاصي بمنافقٍ ، إنّما المنافقُ بما يكونُ في قلبِهِ من النفاقِ كامنًا ، لا بما تتلبَّسُ به الجوارحُ ظاهرًا ، وأخبارُ المحدودين يشهدُ سياقُ الكلامِ أنّهم لم يكونوا منافقين . ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ الغِلْظَةُ نقيضُ الرَّأفةِ ، وهي شدَّةُ القلبِ على إحلالِ الأمْرِ لصاحبِهِ وليس ذلك في اللسانِ ، فإنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (إذا زَنَتْ أَمَةُ أحدكم فليجلدْها الحدَّ ولا يُثَرِّبْ عليها) " اي لا يُوبِّخها بعد الضربِ ". ومنه قولُه تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ ومنه قولُ النَّسوةِ لعمرَ : أنت أفَظُّ وأغْلَظُ من رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم . ومعنى الغلظةِ خشونةُ الجانبِ .

(٧٤) التـــوبـــةُ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (التوبة:٧٤)

رُوِيَ أنّ هذه الآيةَ نزلتْ في الجُلاّسِ بنِ سُوَيْدِ بنِ الصّامتِ ووديعةَ بنِ ثابتٍ ، وقعوا في رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وقالوا : واللهِ لئن كان محمدٌ صادقًا على إخواننا الذين هم ساداتُنا وخيارُنا لَنحن شرٌّ من الحميرِ . فقال عامرُ بنُ قيسٍ : أجَلْ! واللهِ إنّ محمدًا لصادقٌ ، وإنّك لَشرٌّ من حمارٍ . وأخبر عامرٌ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بذلك . وجاء الجُلاّسُ فحلف باللهِ إنّ عامرًا لكاذبٌ . وحلف عامرٌ ، وقال : اللهم أنزلْ على نبيِّكَ الصّادقِ شيئًا ، فنزلتْ هذه الآيةُ . وقيل : إنّ الذي سمع الجُلاّسَ وَلَدُ امرأتِه واسمُهُ عُمَيْرُ بنُ سعدٍ ، وقال غيرُه : اسمُه مُصعبٌ ، فهمّ الجلاّسُ بقتله لئلاّ يُخبرَ بخبرِه ، ولكنّه عجز عن ذلك ولم يفعلْ ، ففيه نزل : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ . ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ قال النقّاشُ : تكذيبُهم بما وعد اللهُ من الفتحِ . وقيل : قولُ الجُلاّسِ : إنْ كانَ ما جاء به محمدٌ حقًّا لَنحن أشرُّ من الحميرِ . قال القُشَيْرِيُّ : كلمةُ الكفرِ سَبُّ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم والطّعنُ في الإسلامِ . ﴿ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ أي بعد الحكمِ بإسلامهم . فدلّ هذا على أنّ المنافقين كُفّارٌ ، وفي قولِه تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ دليلٌ قاطعٌ ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ يعني المنافقين من قَتْلِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ليلةَ العقبةِ في غزوةِ تبوك ، وكانوا اثنيْ عشر رجلاً . قال حُذَيْفَةُ : سمّاهم رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حتى عدّهم كلّهم . فقلتُ : ألا تبعثُ إليهم فتقتلَهم ؟

فقال : (أكرهُ أنْ تقولَ العربُ لمّا ظَفَرَ بأصحابه أقبلَ يقتلُهم بل يكفيهم اللهُ الدُّبَيْلَةَ) (مسلم) قيل : يارسولَ الله ، وما الدُّبَيْلَةُ؟ قال : (شهابٌ من جهنَّمَ يجعلُهُ على نياط فؤادِ أحدهم حتى تزهقَ نفسُهُ) . ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ كانوا يطلبون ديَةً فيقضي لهم بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فاستغنوا . ذكرَ عكرمةُ أنّها كانتْ اثني عشر ألفًا . ويُقالُ إنّ القتيلَ كان مَوْلَى الجُلاّسِ . وقال الكلبيُّ : كانوا قبل قدومِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في ضَنْك من العيشِ ، لا يركبون الخيلَ ولا يحوزون الغنيمةَ ، فلما قَدِمَ عليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم استغنوْا بالغنائم . وهذا المَثَلُ المشهورُ : اتّقِ شرَّ من أحسنتَ إليه . ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ رُوِيَ أنّ الجُلاّسَ حين نزلتْ الآيةُ قام فاستغفرَ وتابَ . فدلّ هذا على توبةِ الكافرِ الذي يُسِرُّ الكفرَ ويُظهِرُ الإيمانَ ، وهو الذي يُسمِّيه الفقهاءُ الزِّنديقَ . ﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ ﴾ أي يُعرِضوا عن الإيمانِ والتوبةِ ﴿ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ في الدنيا بالقَتْلِ ، وفي الآخرةِ بالنارِ. ﴿ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ ﴾ أي مانعٌ يمنعُهم . ﴿ وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي مُعينٌ .

(٧٥) الصَّدَقَةُ :

يقولُ تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (التوبة:١٠٣)

اختُلِفَ في هذه الصّدقةِ المأمورِ بها ، فقيل : هي صدقةُ الفَرْضِ ، قاله جُوبيرُ عن ابنِ عباسٍ . وقيل : هو مخصوصٌ بمن نزلتْ فيه ، فإنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أخذ منهم ثُلُثَ أموالِهم ، وليس هذا من الزّكاةِ المفروضةِ في شيءٍ ، ولهذا قال مالكٌ : إذا تصدّق الرجلُ بجميعِ ماله أجزأه إخراجُ الثُلُثِ . ﴿ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ ذهب بعضُ العربِ إلى أنّ المالَ الثّيابُ والمتاعُ والعُرُوضُ ، ولا تُسَمَّى العَيْنُ مالاً

وعن أبي هريرةَ قال : خرجنا مع رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عامَ خيبر فلم نغنمْ ذهبًا ولا ورِقًا إلاّ الأموالَ الثيابَ والمتاعَ . وذهب غيرُهم إلى أنّ المالَ الصّامتَ من الذهبِ والورِقِ . وقيل : الإبل خاصّةً . وقيل : جميعُ الماشيةِ . وقال ابنُ الأنباريِّ : ما قصُرَ عن بلوغِ ما تجبُ فيه الزّكاةُ من الذّهبِ والورِقِ فليس بمالٍ . قال أبو عمرَ : والمعروفُ من كلامِ العربِ أنّ كلَّ ما تُمُوِّلَ وتُمُلِّكَ هو مالٌ ، لقولِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (يقولُ ابنُ آدمَ مالي مالي وإنّما له من ماله ما أكَلَ فأفنَى أو لبسَ فأبلَى أو تصدَّقَ فأمضَى) (أحمد) . ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾ مطلقٌ غيرُ مقيّدٍ بشرطٍ في المأخوذِ والمأخوذِ منه ، ولا تبيينُ مقدارِ المأخوذِ ولا المأخوذِ منه ، وإنّما بيانُ ذلك في السُّنَّةِ والإجماعِ . فتؤخذُ الزّكاةُ من جميعِ الأموالِ . وقد أوجب رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم الزّكاةَ في المواشي والحبوبِ والعَيْنِ ، وهذا ما لا خِلافَ فيه . ورَوَى الأئمّةُ عن أبي سعيدٍ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (ليس فيما دون خمسة أوسُقٍ من التمرِ صدقةٌ وليس فيما دون خمسِ أواقٍ من الورِقِ صدقةٌ وليس فيما دون خمسِ ذَوْدٍ من الإبلِ صدقةٌ)(البخارى ورواه الأئمة). وقد مضى الكلامُ في " الأنعام" في زكاةِ الحبوبِ وما تُنبتُه الأرضُ . وفي المعادنِ في " البقرة " ، وفي الحُليِّ في هذه السّورةِ . وأجمع العلماءُ على أنّ الأوقيّةَ أربعون درهمًا ، فإذا مَلَكَ المسلمُ الحرُّ مائتيْ درهمٍ من فِضّةٍ مضروبةٍ " وهي الخمسُ أواقٍ المنصوصةُ في الحديثِ " حولاً كاملاً • عامًا • فقد وجبَتْ عليه صدقتُها ، وذلك رُبُعُ عُشْرِها خمسةُ دراهم .وإنما اشترِطَ الحَوْلُ لقولِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (ليس في مالٍ زكاةٌ حتى يحولَ عليه الحَوْلُ) أخرجه الترمذيُّ . وما زاد على المائتيْ درهمٍ من الورِقِ فبحسابِ ذلك في كلِّ شيءٍ منه رُبُعُ عُشْرِهِ قَلّ أو كثُرَ . هذا قولُ مالكٍ والليثِ والشّافعيِّ وغيرِهم . وقال سعيدُ بنُ المُسيَّبِ وغيرُهُ : لا شيءَ فيما زاد عن مائتيْ درهمٍ حتى تبلغَ الزّيادةُ أربعين

درهمًا ، فإذا بلغتها كان فيها درهمٌ ، وذلك رُبُعُ عُشرِها . وأما زكاةُ الذّهبِ فال الجمهورُ من العلماءِ على أنّ الذّهبَ إذا كان عشرين دينارًا قيمتُها مائتا درهمٍ فما زاد أنّ الزكاةَ فيها واجبةٌ ، على حديثِ عليٍّ ، أخرجه الترمذيُّ . وعن ابنِ عمر وعائشةَ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كان يأخذُ من كلّ عشرين دينارًا نصفَ دينارٍ، ومن الأربعين دينارًا دينارًا . على هذا جماعةُ أهلِ العلمِ .﴿ صَدَقَةً ﴾ مأخوذٌ من الصّدقِ ، إذ هي دليلٌ على صحّةِ إيمانِه وصدقِ باطنِه مع ظاهرِه . ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ أي خذها مُطهِّرًا ومُزكّيًا لهم بها . ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ادْعُ لَهم بالبركةِ . كان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إذا أتاه قومٌ بصدقتِهم قال : (اللهم صَلِّ عليهم)، فأتاه ابنُ أبي أوفى بصدقتِه فقال : (اللهم صَلِّ على آلِ أبي أوفَى) . وقال تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ أي إذا دعوتَ لَهم حين يأتون بصدقاتِهم سَكَّنَ ذلك قلوبَهم وفرِحوا به . وقد رَوَي جابرُ ابنُ عبدِ اللهِ قال : أتاني النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم فقلتُ لامرأتي لا تسألي رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم شيئًا . قالتْ : يخرجُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم من عنـــدنا ، ولا نسألُه شيئًا ! فقالتْ : يارسولَ اللهِ ، صَلَّ على زوجي . فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (صَلَّى اللهُ عليكِ وعلى زوجكِ) (أبو داود). والصلاةُ هنا الرحمةُ والترحُّمُ . ﴿ سَكَنٌ ﴾ أي وقارٌ لَهم وطمأنةٌ للقلوبِ .

(٧٦) الرِّزْقُ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (هود:٦)

الدَّابَّةُ هي كلُّ ما يدبُّ على الأرضِ من إنسانٍ وحيوانٍ وغيرِ ذلك من مخلوقاتِ اللهِ . ﴿ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ أي من اللهِ رزقُها . وقال مجاهدٌ : كلُّ ما جاءها من

رزقٍ فمن اللهِ . وقيل : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي فضلاً لا وجوبًا ، وأنه سبحانه لا يجبُ عليه شيءٌ . والرزقُ هو ما يتغذّى به الحيُّ . ولا يجوزُ أنْ يكونَ الرزقُ بمعنى المِلْكِ : لأنّ البهائمَ تُرْزَقُ وليس يصِحُّ وصْفُها بأنها مالكةٌ لعَلَفِها ، وهكذا الأطفالُ تُرْزَقُ اللبنَ ، ولا يُقالُ إنّ اللبنَ الذي في الثديِ مِلْكُ الطفلِ . وقال تعالى : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ وليس لنا في السّماءِ مِلْكٌ . وقيل لبعضهم : من أين تأكلُ ؟ فقال : الذي خَلَقَ الرَّحى يأتيها بالطّحينِ ،والذي شدقَ الأشداقَ هو خالقُ الأرزاقِ . وقيل لأبي أُسَيْدٍ : من أين تأكلُ ؟ فقال : سبحان اللهِ واللهُ أكبرُ ! إنّ اللهَ يرزقُ الكلبَ ، أفلا يرزقُ أبا أُسَيْد !! . وقيل لحاتمٍ الأصمِّ : من أين تأكل ؟ فقال : من عند اللهِ . فقيل له : اللهُ يُنزِلُ لك دنانيرَ ودراهمَ من السّماءِ ؟ فقال : كأنّ ما له إلاّ السَّماءُ ! يا هذا ، الأرضُ له والسّماءُ له ، فإن لم يُؤتِني رِزْقي من السّماءِ ساقه لي من الأرضِ . وذَكَرَ الترمذيُّ عن زيدِ بنِ أسلمَ : أنّ الأشعريين لمّا هاجروا وقدِموا على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في ذلك وقد أُرْمِلوا من الزّادِ " أي نَفَدَ زادُهم " فأرسلوا رجلاً منهم إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يسألُه ، فلما انتهى إلى بابِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم سمعه يقرأ هذه الآيةَ ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ فقال الرجلُ : ما الأشعريّون بأهونَ الدّوابِّ على اللهِ ، فرجع ولم يدخلْ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقال لأصحابِه : أبشِروا أتاكم الغوثُ ، ولا يظنُّون إلاّ أنه كلّم رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فوعدَه ، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعةً بينهما مملوءةً خُبزًا ولحمًا فأكلوا منها ما شاءوا ، ثم قالَ بعضُهم لبعضٍ : لو أنا رددنا هذا الطّعامَ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ليقضيَ به حاجتَه ، فقالوا للرجلين : اذهبا بهذا الطعامِ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فإنّا قد قضينا منه حاجتَنا ، ثم إنّهم أتوْا رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقالوا : يا رسولَ اللهِ ، ما رأينا طعامًا أكثرَ وأطيبَ من طعامٍ أرسلتَ به ، فقال : (ما أرسلتُ إليكم طعامًا) فأخبروه أنّهم أرسلوا صاحبَهم ، فسأله

رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فأخبره ما صنعَ ، وما قال لَهم ، فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (ذلك شيءٌ رزقَكُمُوه اللهُ) (الترمذى).

(٧٧) الأَرَاذِلُ :

يقولُ تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ (هود:٢٧)

الملأُ : الرؤساءُ . ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ اي آدميًا . ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ الأراذلُ هم الفقراءُ ، والذين لا حَسَبَ لَهم ، والخسيسو الصناعاتِ . وكان قولُهم هذا جهلاً منهم ، لأنهم عابوا رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بما لا عيبَ فيه ، فالأنبياءُ إنما عليهم أنْ يأتوا بالبراهين والآياتِ ، وليس عليهم أنْ يُغيِّروا الصُّورَ والهيئاتِ ، وهم يُرسَلون إلى الناسِ جميعًا ، فإذا أسلم منهم الفقيرُ والبسيطُ ، لم يلحقْهم من ذلك نُقصانٌ ، لأنَّ عليهم أنْ يقبلوا إسلامَ كلِّ من أسلم منهم . وقال هِرَقْلُ لأبي سفيانَ : أشرافُ الناسِ اتَّبعوه أم ضعفاؤُهم ؟ فقال : بل ضعفاؤُهم . فقال هِرَقْلُ : هم أتباعُ الرُّسُلِ .

(٧٨) شَهَادَةُ الزُّورِ : (مِنْ سُورَةِ يُوسُفَ)

يقولُ تعالى : ﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾ (يوسف:٨١)

﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ ﴾ قاله الذي قال : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ وقرأ ابنُ عباسٍ والضحّاكُ ﴿ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ أي اتُّهِمَ بالسرقةِ . ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ أي شهدنا بالظّاهرِ وما نعلمُ الغيبَ . كأنهم وقعتْ لَهم تُهمةٌ من

قولِ بنيامين : دَسَّ هذا في رَحْلي مَن دسَّ بضاعتَكم في رَحْلِكم . وتضمَّنت الآيةُ جوازَ الشهادةِ على أيِّ وجهٍ حصل العِلْمُ بها ، فإنّ الشهادة مرتبطةٌ بالعِلمِ عقلاً وشرعًا ، ولا تُسْمَعُ إلاّ ممن عَلِمَ . وهذا هو الأصلُ في الشهادات . ولهذا قيل : إنّ شهادةَ الأعمى جائزةٌ ، وشهادةَ المستمعِ جائزةٌ ، وشهادةَ الأخرسِ إذا فُهِمَتْ إشارتُهُ جائزةٌ ، وكذلك الشهادةُ على الخطِّ – إذا تبيّنَ أنه خطُّهُ أو خطُّ فلان – صحيحةٌ ، فكلُّ من حصلَ له علمٌ بشيءٍ جاز أنْ يشهدَ به ، وإنْ لم يُشْهِدْهُ المشهودُ عليه ، لقولِهِ تعالى : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (ألا أُخبرُكم بخيرِ الشُّهداءِ خيرُ الشُّهداءِ الذي يأتي بشهادته قبل أنْ يُسْأَلَهَا)(الترمذى). واختُلِفَ في شهادةِ المرورِ ، وهو أنْ يقولَ: مررتُ بفلانٍ فسمعتُهُ يقول كذا ، فإنْ استوعبَ القولَ شهِدَ في أحدِ قَوْلَيْهِ ، وفي القَوْلِ الآخَرِ لا يشهدُ حتى يُشهداه . والصحيحُ أداءُ الشهادةِ عند الاستيعابِ ، وبه قال جماعةُ العلماءِ ، وهو الحقُّ ، لأنه قد حصلَ المطلوبُ وتعيَّنَ عليه أداءُ العلمِ ، فكان خيرَ الشهداءِ إذا أعلمَ المشهودَ له ، وشرَّ الشهداءِ إذا كتمها. واللهُ أعلمُ . ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ (يوسف:٨٢) يريدون رفْعَ التهمةِ عن أنفسِهم بقولِهم ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ ويريدون بالقريةِ مِصْرَ ، وقيل : قريةٌ من قُرَاها نزلوا بها . والقولُ في العِيرِ كالقولِ في القريةِ سَواءٌ . ﴿ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ في قولنا . وفي هذه الآيةِ من الفقه أنّ كلَّ مَنْ كان على الحقِّ ، وعَلِمَ أنه قد يُظَنُّ به أنه على خلافِ ما هو عليه أنْ يَرْفَعَ التُّهمةَ وكلَّ رِيبةٍ عن نفسِه ، وقد فَعَلَ هذا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بقولِهِ للرجلَيْن اللذيْن مرَّا به وهو قد خرجَ مع صفيةَ يَقْلِبُهَا " يرُدُّها " من المسجدِ :(على رِسْلِكما إنّما هي صفيةُ بنتُ حُيَيٍّ) فقالا : سبحان اللهِ ! وكَبُرَ عليهما ، فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ الشَّيطان يبلغُ من الإنسانِ مبلغَ الدَّمِ وإني خَشِيتُ أنْ يقذِفَ في قلوبِكما شيئًا) (البخارى ومسلم).

يقولُ تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (الرعد:٢)

لمّا بيّن اللهُ تعالى أنّ القرآنَ حقٌّ ، بيّن أنّ مَنْ أنزلَهُ قادرٌ على الكمالِ ، فانظروا في مصنوعاتِه لتعرِفوا كمالَ قدرتِه . ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ أنّها مرفوعةٌ بغيرِ عمدٍ ترونَها . وقيل : لَها عَمَدٌ ولكنّا لا نراه . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ تقدّمَ الكلامُ فيه . ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ أي ذلّلهما لمنافعِ خَلْقِه . ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي إلى وقتٍ معلومٍ ، وهو فناءُ الدنيا ، وقيامُ السّاعةِ التي عندها تُكَوَّرُ الشّمسُ ، ويُخسَفُ القمرُ ، وتنكدِرُ النجومُ ، وتنتثِرُ الكواكبُ . وقال ابنُ عباسٍ : أراد بالأجلِ المسمّى درجاتِهما ومنازلَهما الـتي ينتهـيان إليـها لا يُجاوزانِها، وأنّ القمرَ يقطعُ فلكَه في شهرٍ ، والشّمسَ في سنةٍ .﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ أي يصرِفُه على ما يُريدُ . ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ أي يبيّنُها ، ومن يقدرُ على هذه الأشياءِ يقدرُ على الإعادةِ ، ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ .

ويقولُ تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الرعد:٣)

لمّا بيّن آياتِ السّمواتِ بيّنَ آياتِ الأرضِ فقال:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي بسطها طولاً وعرضًا . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ أي جبالاً ثوابتَ ، لأنّ الأرضَ ترسو بها ، أي تثبتُ . ﴿ وَأَنْهَـٰرًا ﴾ أي مياهًا جاريةً في الأرضِ ، فيها منافعُ للخَلْقِ . ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ بمعنى صِنفين . كالحلوِ والحامضِ ، والرّطبِ واليابسِ، والأبيضِ والأسودِ ، والصّغيرِ والكبيرِ .﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ﴾ أي دلالاتٍ وعلاماتٍ . ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في قدرةِ اللهِ .

(٨٠) الْحُدُوثُ والْمُحْدِثُ

يقولُ تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد:٤)

القطعُ المتجاوراتُ هي المدنُ والقُرى وما كان عامرًا ، ترابُها واحدٌ ، وماؤُها واحدٌ ، وفيها زروعٌ وجنّاتٌ وأعنابٌ ونخيلٌ ، ثم تتفاوتُ في الثمارِ والتّمرِ ، فيكون البعضُ حُلوًا والبعضُ حامضًا ، والغصنُ الواحدُ من الشجرةِ قد يختلفُ الثّمرُ فيه من الصِّغرِ والكِبَرِ واللونِ والطّعمِ ، وفي هذا أدلُّ دليلٍ على وحدانيتِه وكمالِ قدرتِه ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾ وذلك بمشيئتِه وإرادتِه . كالصّالحِ والخبيثِ من أبناءِ آدمَ ، رغم أنّ أباهم واحدٌ . وذهبتْ الكَفَرَةُ – لعنهم الله – إلى أنّ كلَّ حادثٍ يحدثُ بنفسِه لا من صانعٍ ، وادَّعَوْا ذلك في الثّمارِ الخارجةِ من الأشجارِ ، وقد أقرُّوا بحدوثِها ، وأنكرُوا مُحْدِثَها وخالقَها . ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ﴾ لاختلافِ طعمِها ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي علاماتٍ لمن كان له قلبٌ يفهمُ عن اللهِ .

يقولُ تعالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (الرعد:٥)

أي إنْ تعجبْ يا محمدُ من تكذيبِهم لك بعد ما كنتَ فيهم الصّادقَ الأمينَ ، فأعجبُ منه تكذيبُهم بالبعثِ وبالصّانعِ مع الأدلّةِ الواضحةِ بأنّ المتغيِّرَ لابد له من مُغَيِّرٍ . ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا ﴾ أي أنُبْعَثُ إذا كنّا ترابًا ؟! . ﴿ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي أيُعادُ خَلْقُنا مرّةً ثانيةً ؟ ﴿ ٱلْأَغْلَٰلُ ﴾ جمعُ غُلٍّ وهوطوقٌ تُشَدُّ به اليدُ إلى العُنُقِ يومَ القيامةِ . وقيل : الأغلالُ أعمالُهم السيِّئةُ التي هي لازمةٌ لهم .

(٨١) الْوَفَـــاءُ بْعَـــهْد الله :

يقولُ تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾(الرعد: ٢٠)

أي إنّما يتذكّرُ أُولو الألـــبابِ الموفــون بعهـــدِ اللهِ . وهـــو أوامـــرُه ونواهـــيه . ﴿ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ أي إذا عقدوا في طاعةِ اللهِ عهدًا لم ينقضوه . ورَوَى أبو داود وغيرُه عن عوفِ بنِ مالكٍ قال : كنا عند رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم سبعةً أو ثمانيةً أو تسعةً فقال :(ألا تُبايعون رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم؟) وكنّا حديثَ عهدٍ ببيعةٍ فقلنا : قد بايعناك ، حتى قالَها ثلاثًا ، فبسطنا أيدَينا فبايعناه ، فقال قائلٌ : يارسولَ اللهِ إنّا قد بايعناك ، فعلى ماذا نُبايعُك ؟ قال : (ألاّ تعبـــدوا إلاَ اللهَ ولا تُشرِكوا به شيئًا وتُصلُّوا الصّلواتِ الخمسَ وتسمعوا وتُطيعوا – وأسرَّ كلمةً خفيةً – قال لا تسألوا الناسَ شيئًا) قال عوفُ بنُ مالكٍ : ولقد كان بعضُ هؤلاء النَّفَرِ يَسقطُ سَوْطُهُ فما يسألُ أحدًا أنْ يُناولَه إيَّاه . قال ابنُ العربيّ : من أعظمِ المواثيقِ في الذِّكْرِ ألاّ يُسْأَلَ سواهُ . فقد كان أبو حمزةَ الخـــراسانيُّ من كبارِ العبَّادِ سمِعَ أنّ أُناسًا بايعوا رسولَ اللهِ صلى اللهُ عيه وسلم ألاّ يسألوا أحدًا شيئًا ، فقـــال أبو حمزةَ : ربِّ ، إنّ هؤلاء عاهدوا نبيَّكَ إذْ رأوْهُ ، وأنا أُعاهِدُكَ ألاّ أسألَ أحدًا شيئًا ، قال : فخرج حاجًّا من الشامِ يريدُ مكّةَ ، فبينما هو يمشي إذ سَقَطَ في بئرٍ ، فلمّا حلَّ في قعرِه قال : أستغيثُ لعلّ أحدًا يسمعُني . ثم قال : إنّ الذي عاهدتُهُ يراني ويسمعُني ، واللهِ لا تكلّمتُ بحرفٍ لبَشَرٍ ، ثم لم يلبثْ إذ مرَّ بذلك البئرِ جماعةٌ ، فلما رأوْهُ على حافّةِ الطريقِ قالوا : إنّه لينبغي سَدُّ هذا البئرِ ، ثم قطعوا خشبًا ونصبوها على فَمِ البئرِ وغطّوْها بالترابِ ، فلما رأى أبو حمزةَ ذلك قال : هذه مهلكةٌ ، ثم أراد أنْ يستغيثَ بِهِم ، ثم قال : واللهِ ، لا أخرجُ منها أبدًا ، ثم رجع إلى نفسه فقال : أليس قد عاهدتَ مَنْ يراكَ ؟ فسكتَ وتوكّلَ ، ثم استندَ في قعرِ البئرِ مفكِّرًا في أمرِهِ ، فإذا بالترابِ يقعُ عليه ، والخشبِ يُرْفَعُ عنه ، وسمِعَ في أثناءِ ذلك

مَنْ يقولُ : هاتِ يَدَكَ . قال : فأعطيتُهُ يدي فألَني في مرَّة واحدة إلى فمِ البئرِ ، فخرجتُ فلم أرَ أحدًا فسمعتُ هاتِفًا يقــولُ : كيف رأيتَ ثَمَرَةَ التَّوكُّلِ ؟ قــال ابنُ العربيِّ : هذا رجلٌ عاهدَ اللهَ فوجدَ الوفاءَ على التمامِ والكمالِ ، فاقتدوا به إنْ شاء اللهُ تهتدوا . قال أبو الفرج الجوزيّ : سكوتُ هذا الرجلِ في هذا المُقام على التَّوكُّلِ بزعمِهِ إعانةٌ على نفسِهِ ، وذلك لا يحِلُّ ، ولو فَهِمَ معنى التَّوكُّلِ لَعَلِمَ أنه لا يُنافي استغاثتُهُ في تلك الحالةِ ، كما لم يخرجْ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم من التَّوكُّلِ بإخفائِهِ الخروجَ من مكّةَ ، واستئجارِهِ دليلاً ، واستكتامِهِ هذا الأمرَ ، واستتارِهِ في الغارِ، وقولِهِ لسُرَاقَةَ : (اخْفِ عنّا) . فالتَّوكُّلُ الممدوحُ لا يُنالُ بفعلِ محظورٍ ، وسكوتُ هذا الواقعِ في البئرِ محظورٌ عليه ، وبيانُ ذلك أنّ اللهَ قد خَلَقَ للآدميِّ آلةً يدفعُ بِها الضَّرَرَ عنه ، فإذا عطّلَها مدَّعِيًا التَّوكُّلَ كان ذلك جهلاً بالتَّوكُّلِ ، وردًّا لحكمةِ التواضعِ ، لأنّ التَّوكُّلَ إنّما هو اعتمادُ القلبِ علــى اللهِ تعالى ، وليس من ضرورتِهِ قطعُ الأسبابِ ، ولو أنّ إنسانًا جاعَ فلم يسألْ حتى ماتَ دخلَ النارَ ، قاله سفيانُ الثوريُّ وغيرُهُ ، لأنه دلَّ على طريقِ السلامةِ ، فإذا تقاعدَ عنها أعان على نفسِهِ . وقد يكونُ ما حدث لأبي حمزةَ لُطفًا من اللهِ بالعبدِ الجاهلِ ، ولا يُنكَرُ أنْ يكونَ اللهُ قد لطفَ به ، إنّما يُنكَرُ فِعْلُهُ وهو إعانتُهُ على نفسِهِ ، التي هي وديعةٌ للهِ تعالى عنده وقد أمَرَهُ بحفظِها .

(٨٢) كِتَــابُ صُــلْحِ الْحُــدَيْبِيَــةِ :

يقولُ تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ (الرعد: ٣٠)

أي أرسلناك كما أرسلنا الأنبياءَ من قبلكَ . ﴿ لِتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يعني القرآنَ . ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ قال مقاتلٌ وابنُ جُرَيْج : نزلتْ في صُلحِ الحُدَيْبِيَةِ حين أرادوا أنْ يكتبوا كِتابَ الصُّلحِ ، فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِعليٍّ : (اكتبْ بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ) فقال سُهَيْلُ بنُ عمرٍو والمشركون : ما نعرفُ الرحمنَ إلاّ صاحبَ اليمامةِ " يعنون مُسَيْلِمَةَ الكذّابَ"، اكتبْ باسمِك اللهم ، وهكذا كان أهلُ الجاهليةِ يكتبون ، فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِعليٍّ : (اكتبْ هذا ما صالَحَ عليه محمدٌ رسولُ اللهِ) فقال مشركو قريشٍ : لَئِنْ كنتَ رسولَ اللهِ ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك ، ولكن اكتبْ : هذا ما صالَحَ عليه محمدُ بنُ عبدِ اللهِ ، فقال أصحابُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : دعنا نُقاتلُهم ، فقال :(لا ولكنْ اكتبْ ما يريدون) فنزلتْ هذه الآيةُ . وقال ابنُ عباسٍ : نزلتْ في كفّارِ قريشٍ حين قال لَهم رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ﴿ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ (الفرقان:٦٠) قالوا وما الرَّحمنُ ؟ فنزلتْ ﴿ قُلْ ﴾ لَهم يا محمد : الذي أنكرتم ﴿ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ولا معبودَ سِواهُ ، واحدٌ بذاتِه ، وإنْ اختلفتْ أسماءُ صِفاتِه . ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ واعتمدتُ ووثقتُ . ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أي مرجعي غدًا ، واليومَ أيضًا عليه توكّلتُ رِضًا بقضائِه ، وتسليمًا لأمْرِه . وقيل : سَمِعَ أبو جهلٍ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يدعو في الحِجْرِ ويقول : (يا اللهُ يارحمنُ) فقال : كان محمدٌ ينهانا عن عبادةِ الآلهةِ وهو يدعو إلَهَيْن ، فنزلتْ هذه الآيةُ : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ (الإسراء:١١٠).

(٨٣) الأَزْوَاجُ والذُّرِّيَّـــةُ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾

(الرعد:٣٨)

قيل : إنّ اليهودَ عابوا على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم الأزواجَ ، وعيّرته بذلك وقالوا : ما نرى لهذا الرجلِ همّةً إلاّ في النساءِ والنكاحِ ، ولو كان نبيًّا لشغله أمرُ النبوّة عن النساء ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ ، وذكّرهم أمرَ داودَ وسليمانَ فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ أي جعلناهم بشرًا يقضون ما أحلّ اللهُ من شهواتِ الدنيا ، وإنّما التخصيصُ في الوَحْيِ . وهذه الآيةُ تدلُّ على الترغيبِ في النكاحِ والحضِّ عليه ، وتنهي عن التَّبَتُّلِ ، وهو تركُ النكاحِ ، وهذه سُنَّةُ الْمُرسَلين كما نصَّتْ عليه هذه الآيةُ ، والسُّنَّةُ واردةٌ بمعناها . قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (تزوّجوا فإني مُكاثرٌ بكم الأُممَ) (البخارى) وقال :(مَنْ تزوَّجَ فقد استكملَ نصفَ الدِّينِ فليتَّقِ اللهَ في النِّصفِ الثاني) (البخارى) . ورَوَى ابنُ الجوزيِّ في العللِ : (من تزوَّجَ فقد أحرزَ نصفَ دينه فليتَّقِ اللهَ في النِّصفِ الباقي) (البخارى). ومعنى ذلك أنّ الزواجَ يعفُّ عن الزِّنى ، والعفافُ أحدُ الخَصْلَتَيْنِ اللتين ضَمِنَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عليهما الجنَّةَ ، فقال : (مَنْ وقاهُ اللهُ شَرَّ اثنتين وَلَجَ الجنَّةَ ما بين لَحْيَيْهِ وما بين رِجلَيْهِ) خرّجه الموطّأ . وفي صحيحِ البخاريِّ عن أنسٍ قال : جاء ثلاثةُ رهطٍ إلى بيوتِ أزواجِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يسألون عن عبادتِهِ ، فلما أُخبروا كأنّهم تَقالُّوها ، فقالوا : وأين نحن من رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ! قد غفرَ اللهُ له ما تقدَّم من ذنبِهِ وما تأخَّر ، فقال أحدُهم : أمّا أنا فأُصلّي الليلَ أبدًا ، وقال الآخرُ : إني أصومُ الدَّهرَ فلا أُفطرُ . وقال الثـالثُ : أنا أعتـزلُ النســاءَ

فلا أتزوّجُ ، فجاء رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال : (أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما واللهِ إني لأخشاكم للهِ وأتقاكم له ، لكني أصومُ وأُفطرُ وأصلّي وأرقدُ وأتزوَّجُ النساءَ ، فمنْ رَغِبَ عن سُنَّتي فليس مني) خرّجه مسلمٌ .
ورُوِيَ عن عمرَ بنِ الخطابِ أنه كان يقولُ: إني لأتزوَّجُ المرأةَ ومالي فيها من حاجةٍ ، وأطؤُها وما أشتهيها ، قيل له : وما يحمِلُك على ذلك يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : حُبّي أنْ يُخرِجَ اللهُ مني من يُكاثرُ به النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم النبيّين يومَ القيامةِ ، وإني سمِعتُه يقولُ : (عليكم بالأبكارِ فإنّهن أعذبُ أفواهًا وأحسنُ أخلاقًا وأنتقُ أرحامًا وإني مُكاثِرٌ بكم الأُممَ يومَ القيامة)· انتقُ أرحامًا اي اقبلُ للولدِ · وخرج أبو داودَ عن معقلِ ابنِ يسارٍ قال : جاء رجلٌ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال : إني أصبتُ امرأةً ذاتَ حسَبٍ ومالٍ ، وأنّها لا تلدُ ، أفأتزوّجُها ؟ قال : (لا) ثم أتاهُ الثانيةَ فنهاهُ ، ثم أتاهُ الثالثةَ فقال : (تزوَّجوا الوَدُودَ الوَلُودَ فإني مُكاثِرٌ بكم الأُممَ) .

(٨٤) السَّبْعُ الْمَثَانِي : (مِنْ سُورَةِ الْحِجْرِ)

يقولُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾

(الحجر:٨٧)

اختلف العلماءُ في السبعِ المثاني ، فقيل : الفاتحةُ ، قاله عليٌّ بنُ أبي طالبٍ وأبو هريرةَ وغيرُهم . ورُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم من وجوهٍ ثابتةٍ من حديثِ أُبَيّ بنِ كعبٍ . وخرّج الترمذيُّ من حديثِ أبي هريرةَ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (الحمدُ للهِ أُمُّ القرآنِ وأُمُّ الكتابِ والسَّبعُ المثاني). وقال ابنُ عباسٍ : هي السبعُ الطّوالُ : البقرةُ وآلُ عمرانَ ، والنساءُ ، والمائدةُ ، والأنعامُ ، والأعرافُ ، والأنفالُ والتوبةُ معًا ، إذ ليس بينهما تسميةٌ . وقيل : المرادُ

بالسبعِ المثاني أقسامُ القرآنِ من الأمرِ والنَّهْيِ ، والتبشيرِ ، والإنذارِ ، وضرْبِ الأمثالِ ، وتعديدِ النِّعَم ، وأنباءُ قُرونٍ . والصحيحُ الأوّلُ لأنه نَصٌّ . وقد قدَّمنا في الفاتحةِ أنه ليس في تسميتِها بالمثاني ما يمنعُ من تسميةِ غيرِها بذلك ، إلاّ أنه إذا وَرَدَ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وثبتَ عنه نَصٌّ في شيءٍ لا يحتملُ التأويلَ كان الوقوفُ عنده . ﴿ وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ تقديرُه أنّ الفاتحةَ هي القرآنُ العظيمُ لاشتمالِها على ما يتعلّقُ بأصولِ الإسلامِ .

(٨٥) مَدُّ الْعَيْنِ إلى ما للغَيْرِ :

يقولُ تعالى : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الحجر:٨٨)

المعنى : قد أغنيتُك عمّا في أيدي الناسِ ، فإنه ليس منّا من لم يتغنَّ بالقرآنِ ، أي ليس منّا من رأى أنه ليس يَغْنَى بما عنده من القرآنِ حتى يطمحَ بصرُهُ إلى زخارفِ الدنيا وعنده معارفُ الْمَوْلَى . يُقالُ : إنه وافَى سبعُ قوافلٍ من بُصْرَى وأذرِعاتٍ ليهودِ بني قُريظةَ والنّضيرِ في يومٍ واحد ، فيها البُرُّ والطِّيبُ والجوهرُ وأمتعةُ البحرِ ، فقال المسلمون : لو كانتْ هذه الأموالُ لنا لَتقوَّينا بها وأنفقناها في سبيلِ اللهِ ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي ﴾ أي فهي خيرٌ لكم من القوافلِ السَّبعِ ، فلا تَمُدُّنَّ أعينَكم إليها .وقال بذلك أبو عُيَيْنَة ، وأوردَ قولَهُ عليه الصلاةُ والسلامُ : (ليس منّا من لم يتغنَّ بالقرآنِ)(أبو داود) أي من لم يستغنِ به . ﴿ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ أي أمثالاً في النّعمِ ، اي الأغنياءُ بعضُهم أمثالُ بعضٍ في الغنَى ، فهم أزواجٌ . ورُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : (حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النساءُ والطِّيبُ وجُعلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاةِ) . ولم يكنْ في دينِ محمدٍ الرّهبانيةُ والإقبالُ على الأعمالِ الصالحةِ بالكلّيةِ كما كان في دينِ عيسى ، وإنّما شرعَ اللهُ سبحانه حنيفيّةً سَمْحَةً خالصةً عن الحَرَجِ خفيفةً على الآدميِّ ، يأخذُ من الآدميّةِ بشهواتِها ، ويرجعُ إلى اللهِ بقلبٍ سليمٍ .

يقولُ تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل:١٤)

تسخيرُ البحرِ هو تمكينُ البشرِ من التصرّفِ فيه وتذليلُهُ بالرّكوبِ والإرفـاءِ وغيرِه . وهذه من نعمِ اللهِ علينا ، فلو شاء سلّطَه علينا وأغرقَنا . ﴿ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ وهو جميعُ أنواعِ السَّمكِ . ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ يعني اللؤلؤَ والمَرجانَ ، لقولِه تعالى ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ . وامتنَّ اللهُ على عبادِه من الرجالِ والنساءِ بما يخرجُ من البحرِ ، فلا يحرُمُ عليهم شيءٌ منه ، وإنّما حرّمَ اللهُ على الرجالِ الذهبَ والحريرَ . رَوَى الصحيحُ عن عمرَ بنِ الخطابِ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (لا تلبسوا الحريرَ فإنه من لبِسَهُ في الدنيا لم يلبَسْهُ في الآخرةِ) . ورَوَى البخاريُّ عن ابنِ عمرَ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم اتَّخذَ خاتمًا من ذهبٍ ، وجعلَ فَصَّهُ مما يلي باطِنَ كفِّه ، ونقشَ فيه : محمدٌ رسولُ اللهِ ، فاتَّخذ الناسُ مثلَهُ ، فلما رآهم قد اتَّخذوها رَمَى به وقال: (لا ألبَسُهُ أبدًا) ثم اتَّخذ خاتمًا من فِضّةٍ ، فاتَّخذ الناسُ خواتيمَ الفضّةِ . قال ابنُ عمرَ : فلبس الخاتمَ بعد رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أبو بكرٍ ثم عمرُ ثم عثمانُ حتى وقعَ من عثمانَ في بئرِ أَرِيسٍ "حديقة بالقربِ من مسجدِ قُباء" . وقال الخطابيُّ : وكُرِهَ للنساءِ التختُّمُ بالفضّةِ ، لأنه من زِيِّ الرجالِ ، فإنْ لم يجِدْنَ ذهبًا فليُصفِّرْنَهُ بزعفرانٍ أو بشبهِهِ . وجمهورُ العلماءِ من السَّلَفِ إلى الخَلَفِ على تحريمِ اتّخاذِ الرجالِ خاتمَ الذهبِ . ورَوَى البخاريُّ عن أنسٍ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم اتَّخذَ خاتمًا من فِضّةٍ ونقش فيه"محمدٌ رسولُ الله"وقال: (إنِّي اتَّخذتُ خاتمًا من ورِقٍ ونقشتُ فيه محمدٌ رسولُ اللهِ فلا ينقُشَنَّ أحدٌ على نقشِهِ) . قال علماؤُنا : فهذا دليلٌ على

جوازِ نَقْشِ اسمِ صاحبِ الخاتمِ على خاتمِه. قال مالكٌ : ومن شأنِ الخلفاءِ والقضاةِ نقشُ أسمائِهم على خواتيمِهم ، ونَهْيُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ : ألاّ ينقشنَّ أحدٌ على نقشِ خاتمِه ، من أجلِ أنّ ذلك اسمُهُ وصفتُهُ برسالةِ اللهِ له إلى خَلْقِه . وكان نقشُ خاتمِ الزُّهريّ " محمدٌ يسألُ اللهَ العافيةَ". وكان نقشُ خاتمِ مالك "حسبيَ اللهُ ونعمَ الوكيلُ". وذَكَرَ الترمذيُّ الحكيمُ أنّ نقشَ موسى عليه السلامُ "لكلِّ أجَلٍ كتابٌ". وبلغَ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ أنّ ابنَه اشترى خاتمًا بألفِ درهمٍ فكتبَ إليه : إنه قد بلغني أنك اشتريتَ خاتمًا بألفِ درهمٍ ، فبِعْهُ وأطعِمْ ألفَ جائعٍ ، واشترِ خاتمًا من حديدٍ بدرهمٍ ، واكتبْ عليه"رَحِمَ اللهُ امرءًا عرفَ قدرَ نفسِه". ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ مواخرَ اي جواريَ . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ولتركبوه للتجارةِ وطلبِ الرِّبحِ . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ لتحمدوا اللهَ وتشكروه .

(٨٧) دَسُّ الْبِنْتِ فِي التُّـرَابِ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل:٥٩)

كان الرجلُ يختفي ويتغيَّبُ من سوءِ الحـزْنِ والعارِ والحياءِ الذي يلحقُهُ بسببِ البنتِ . ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ ﴾ أيُبقي على المولودِ على هوانٍ ، أم يدسُّهُ في الترابِ ، وهو ما كانوا يفعلونه من دفنِ البنتِ حيَّةً . وقيل: دسُّها أي إخفاؤُها عن الناسِ حتى لا تُعرفَ كالمدسوسِ في الترابِ لإخفائِهِ عن الأبصارِ، وهذا محتملٌ . وثبتَ في حديثِ مسلمٍ عن عائشةَ أنها قالتْ: جاءتني امرأةٌ ومعها ابنتان لَها فسألتني ، فلم تجدْ عندي غيرَ تمرةٍ واحدةٍ ، فأعطيتُها إيّاها فأخذتُها فقسَمَتْها بين ابنتيها ولم تأكلْ منها شيئًا، ثم قامتْ فخرجتْ وابنتاها ، فدخلَ عليّ رسـولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فحدَّثتُهُ حديثَها، فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم :(مَن

ابْتُلِيَ من البناتِ بشيءٍ فأحسنَ إليهن كُنَّ له سِتْرًا من النّارِ) (البخارى).
ففي هذا الحديثِ ما يدلُّ على أنّ البناتِ بَلِيَّةٌ ، ثم أخبرَ أنّ في الصّبرِ عليهنّ والإحسانِ إليهنّ ما يقي من النّارِ. وعن عائشةَ رضي اللهُ عنها قالتْ: جاءتني مسكينةٌ تحملُ ابنتين لها فأطعمتُها ثلاث تمراتٍ ، فأعطتْ كلَّ واحدةٍ منهما تمرةً ورفعتْ إلى فيها تمرةً لتأكلَها، فاستطعمتْها ابنتاها فشقّتْ التمرةَ التي كانتْ تريدُ أنْ تأكلَها بينهما ، فأعجبني شأنُها، فذكرْتُ الذي صنَعَتْ لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال: (إنّ اللهَ عزّ وجلّ قد أوجبَ لها بها الجنَّةَ أو أعتقَها من النّارِ) .
وعن أنسٍ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (مَنْ عالَ جاريتين حتى تبلُغَا جاء يومَ القيامةِ أنا وهو) وضمَّ أصابعَه . خرَّجهما أيضًا مسلمٌ . ومن حديثِ الأعمشِ عن أبي وائلٍ عن عبدِ اللهِ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: (من كانتْ له بنتٌ فأدَّبها فأحسنَ تأديبَها وعلَّمها فأحسنَ تعليمَها وأسبغَ عليها من نِعَمِ اللهِ التي أسبغَ عليه كانتْ له سِترًا أو حجابًا من النّارِ) (البخارى). ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ اي في إضافةِ البناتِ إلى اللهِ وإضافةِ البنين إليهم .

(٨٨) الأَنْعَامُ وَمِمَّا فِي بُطُونه :

يقولُ تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ (النحل:٦٦)

الأنعامُ هي الأصنافُ الأربعةُ : الإبلُ والبقرُ والضّأنُ والمعزُ . ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ اي دلالةَ على قدرةِ اللهِ ووحدانيّتِه وعظمتِه . ومن العبرةِ في الأنعامِ تسخيرُها لأربابِها وطاعتُها لهم . ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ ﴾ أي مما في بطونِ بعضِه ، إذ الذكورُ لا ألبانَ لَها . ﴿ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾ نبّه اللهُ سبحانه على عظيمِ قدرتِهِ

بخروجِ اللبنِ خالصًا بين الفَرْثِ والدَّمِ . والفرثُ : الزَّبلُ الذي يترلُ إلى الكِرْشِ ، فإذا خرج لم يُسَمَّ فرثًا . والمعنى : أنّ الطعامَ يكونُ منه ما في الكِرْشِ ويكونُ منه الدَّمُ ، ثم يخلُصُ اللبنُ من الدَّمِ ، فأعلمَ اللهُ أنّ اللبنَ يخرجُ من بين ذلك وبين الدَّمِ في العروقِ . وقال ابنُ عباسٍ : إنّ الدَّابةَ تأكلُ العَلَفَ فإذا استقرَّ في كِرشِها طبختْه فكان أسفلُهُ فَرْثًا ، وأوسطُهُ لبنًا ، وأعلاهُ دمًا ، والكبدُ مسلّطٌ على هذه الأصناف فتقسمُ الدَّمَ وتُميِّزُهُ وتُجْرِيهِ في العروقِ ، وتُجرِي اللبنَ في الضَّرْعِ ، ويبقى الفرثُ كما هو في الكِرْشِ . ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ (القمر:٥) !! ﴿ خَالِصًا ﴾ من حُمرةِ الدَّمِ وقذارةِ الفرثِ وقد جمعهما وعاءٌ واحدٌ . ﴿ سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ أي لذيذًا لا يغُصُّ به من شرِب . ورُوِيَ أنّ اللبنَ لم يَشْرَقْ به أحدٌ قطّ. ورَوَى أبو داودَ وغيرُه عن ابنِ عباسٍ قال : أُتِيَ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم بلبنٍ فشرِبَ ، فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إذا أكلَ أحدُكم طعامًا فليقُلْ اللهم بارِكْ لنا فيه وأطعمنا خيرًا منه ، وإذا سُقِيَ لبنًا فليقُلْ اللهم بارِكْ لنا فيهِ وزِدنا منه فإنه ليس يُجزِي الطعامَ والشَّرابَ إلاّ اللبنُ) . قال علماؤُنا : فكيف لا يكونُ ذلك وهو أوّلُ ما يتغذّى به الإنسانُ وتُنَمَّى به الأبدانُ ، فهو قوتٌ خَلِيٌّ من المفاسدِ ، به قِوامُ الأجسامِ ، وقد جعله اللهُ تعالى علامةً لجبريلَ على هدايةِ هذه الأُمَّةِ التي هي خيرُ الأممِ ، فقال في الصحيحِ : (فجاءني جبريلٌ بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبنٍ فاخترتُ اللبنَ فقال لي جبريلٌ : اخترتَ الفِطرةَ ، أما إنّك لو اخترتَ الخمرَ غَوَتْ أُمَّتُك) (مسلم) ثم إنّ في الدُّعاءِ بالزيادةِ منه علامةَ الخِصْبِ وظهورِ الخيراتِ وكثرةِ البركاتِ ، فهو مُباركٌ كلُّهُ .

ويقولُ تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل:٦٧)

أي ومن ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ ما تجعلون منه سَكَرًا. والسَّكَرُ هو ما يُسْكِرُ . وقال ابنُ عباسٍ: نزلتْ هذه الآيةُ قبل تحريمِ الخمرِ ، وأراد بالسَّكَرِ الخمرَ ، وبالرزقِ الحسَنِ جميعَ ما يُؤكَلُ ويُشرَبُ حلالاً من هاتين الشجرتين . وقيل: إنّ السَّكَرَ الخلُّ بلغةِ الحبشةِ ، والرزقَ الحسنَ الطعامُ . وقيل: السَّكَرُ العصيرُ الحلوُ الحلالُ ،وسُمِّيَ سَكَرًا لأنه قد يصيرُ مُسْكِرًا إذا بَقِيَ ، فإذا بلغ الإسكارَ حَرُمَ . وقد رُوِيَ بالنقلِ الثابتِ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال: (كلُّ شرابٍ أسْكَرَ فهو حرامٌ) (أبو داود) وقال : (كلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وكلُّ مُسْكِرٍ حرامٌ) (النسائى) وقال : (ما أسْكَرَ كثيرُهُ فقليلُهُ حرامٌ) النسائى .

(٨٩) جِنْسُ الزَّوْجَةِ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (النحل:٧٢)

جعل بمعنى خَلَقَ . وقيل : المعنى جعل لكم من أنفسكم ، أي من جنسكم ونوعكم وعلى خِلقتكم . وقيل : يعني آدمَ خَلَقَ منه حوَّاءَ . ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ أي أولادًا وأولادَ أولادٍ . ويُحتملُ أنْ يكونَ أراد وجعل لكم من أزواجِكم بنين وبناتٍ تزوِّجونهنَّ ، فيكون لكم بسببهنَّ أختانٌ "اصهار" . وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ فكأنه جمع لنا فيها السَّكَنَ والاستمتاعَ وضربًا من الخدمةِ بحسبِ جَرْيِ العادةِ . ويخدمُ الرجلُ زوجتَه فيما خفَّ من الخدمةِ ويُعينُها ، لِما رَوَتْهُ عائشةُ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كان يكونُ في مِهنةِ أهلِه فإذا سمع الأذانَ خرجَ . وهذا قولُ مالكٍ . وفي أخلاقِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : أنه كان يخصِفُ النَّعلَ ويقُمُّ البيتَ ويخيطُ الثوبَ.

(٩٠) الافتراءُ بتعليمِ النَّبيِّ :

يقولُ تعالى :﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

(النحل:١٠٣)

اختُلِفَ في اسمِ هذا الذي قالوا إنما يُعلِّمُهُ ، فقيل : هو غلامُ الفاكهِ بنِ المغيرةِ ، واسمُه جبرٌ ، كان نصرانيًّا فأسلمَ ، وكانوا إذا سمعوا من رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ما مضَى وما هو آتٍ مع أنه أُمِّيٌّ لم يقرأ ، قالـوا : إنما يُعلِّمُهُ جبرٌ وهو أعجميٌّ ، فقال تعالى في معنى الآيةِ : كيف يُعلِّمُهُ جبرُ وهو أعجميٌّ هذا الكلامَ الذي لا يستطيعُ الإنسُ والجِنُّ أنْ يُعارِضوا منه سورةً واحدةً فما فوقها . وذَكَرَ النقَّاشُ أنّ مَوْلَى جبرٍ كان يضربُهُ ويقولُ له : أنت تُعلِّمُ محمدًا ؟ فيقولُ: لا واللهِ ، بل هو يُعلِّمُني ويهديني . وقيل إنه غلامٌ لبني المغيرةِ واسمُهُ يعيش ، وكان يقرأُ الكتبَ الأعجميةَ ، فقالتْ قريشٌ : إنما يُعلِّمُهُ بشرٌ ، فنزلتْ الآيةُ . وقيل : رجلٌ نصرانيٌّ يُقالُ له ميسرةُ يتكلَّمُ بالروميةِ ، وقيل : إنه عدّاسٌ غلامُ عُتبةُ بنُ ربيعةَ . وقيل : عابسٌ غلامُ حُويطِب . وربّما جلس رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إليهم في أوقاتٍ مختلفةٍ ليعلِّمَهم مما علَّمَهُ اللهُ . والعربُ يُسمُّون كلَّ من لا يعرفُ لغتَهم أعجميًّا . وأراد باللسانِ القرآنَ .

ويقولُ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النحل:١٠٤).

أي هؤلاء المشركون الذين لا يُؤمنون بالقرآنِ لا يهديهم اللهُ ولهم عذابٌ في الآخرةِ .

ويقولُ تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ (النحل:١٠٥)

هذا جوابُ وصْفِهم رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بالافتراءِ ، فوصَفَهم اللهُ بالكذبِ .

(٩١) الإكْرَاهُ عَلَى الْكُفْرِ :

يقولُ تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (النحل:١٠٦)

إنما يفتري الكذبَ من كفرَ من بعد إيمانه وارتدَّ وعليه غضبُ الله . ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ . هذه الآيةُ نزلتْ في عمّارِ بنِ ياسرٍ ، في قولِ أهلِ التفسيرِ ، لأنه قاربَ بعضَ ما ندبوهُ إليه . قال ابنُ عباسٍ : أخذه المشركون وأخذوا أباه وأمَّهُ سُمَيَّةَ وصُهَيْبًا وبلالاً وخبّابًا وسالمًا وعذّبوهم ، ورُبِطَتْ سُمَيَّةُ بين بعيرين وضُرِبَتْ بحربة في قُبُلِها ، وقيل لها : إنّك أسلمتِ من أجلِ الرجالِ ، فقُتِلَتْ وقُتِلَ زوجُها ، وهما أوّلُ قتيلين في الإسلامِ . وأمّا عمّارٌ فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مُكْرَهًا ، فشكا ذلك إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقال له : (كيف تجدُ قلبَك ؟) قال :مطمئنٌ بالإيمانِ ، فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (فإنْ عادوا فعُدْ) . وعن مجاهدٍ قال : أوّلُ شهيدةٍ في الإسلامِ أُمُّ عمّارٍ ، قتلها أبو جهلٍ ، وأوّلُ شهيدٍ من الرجالِ مهجعٌ مَوْلَى عمرَ . ورَوَى منصور أيضًا عن مجاهدٍ قال : أوّلُ من أظهرَ الإسلامَ سبعةٌ : رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وأبو بكرٍ ، وبلالٌ ، وخبّابٌ ، وصُهَيْبٌ ، وعمرُ ، وسُمَيَّةُ أُمُّ عمّارٍ ، فأمّا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فمنَعَه أبو طالبٍ ، وأما أبو بكرٍ فمنعَه قومُه ، وأخذوا الآخَرين فألبسوهم أدراعَ الحديدِ ،

ثم صهروهم في الشَّمسِ حتى بلغَ منهم الجَهدُ كلَّ مبلغٍ من حرِّ الحديدِ والشَّمسِ ، فلما كان من العَشيِّ أتاهم أبو جهلٍ ومعه حربةٌ ، فجعل يسبُّهم ويُوبِّخُهم ، وأتى سُميَّةَ فجعل يسبُّها ويرفُثُ " الرَّفثُ الفُحشُ من القولِ " ثم طعنها بالحربةِ في فَرْجِها فقتلها رضي اللهُ عنها ، وقال الآخَرون ما سُئِلُوا ، إلاّ بلالاً ؛ فإنه هانتْ عليه نفسُهُ في اللهِ ، فجعلوا يُعذِّبونه ويقولون له : ارجِعْ عن دينِكَ ، وهو يقولُ : أحدٌ أحدٌ ، حتى ملّوه ثم كتَّفوه وجعلوا في عُنُقِهِ حبلاً من ليفٍ ، ودفعوه إلى صبيانِهم يلعبون به بين أخشَبَيْ مكّةَ " جبلان محيطان بمكّةَ " حتى ملّوه وتركوه ، فقال عمَّارٌ : كلُّنا تكلَّمَ بما قالوا – لولا أنّ اللهَ تداركنا – غيرَ بلالٍ فإنه هانتْ عليه نفسُهُ في اللهِ ، فهان على قومِه حتى ملّوه وتركوه ، والصحيحُ أنّ أبا بكرٍ اشترى بلالاً فأعتقَه . ورَوَى ابنُ أبي نَجيحٍ عن مجاهدٍ أنّ ناسًا من أهلِ مكّةَ آمنوا ، فكتبَ إليهم بعضُ أصحابِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بالمدينةِ : أنْ هاجِروا إلينا ، فإنّا لا نراكم منّا حتى تُهاجروا إلينا ، فخرجوا يريدون المدينةَ حتى أدركتْهم قريشٌ بالطريقِ ، ففتنوهم فكفروا مُكْرَهين ، ففيهم نزلتْ هذه الآيةُ . ورَوَى الترمذيُّ عن عائشةَ قالتْ قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (ما خُيِّرَ عمّارٌ بين أمرين إلاّ اختارَ أرشدَهما) . ورُوِيَ عن أنسِ بنِ مالكٍ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ الجنّةَ لتشتاقُ إلى ثلاثةٍ : عليٍّ وعمّارٍ وسَلمانَ بنِ ربيعةَ) (الترمذى وقال هذا حديث غريب).

لمّا سمحَ اللهُ عزّ وجلّ بالكفرِ به وهو أصلُ الشّريعةِ عند الإكراهِ ولم يُؤاخِذْ به ، حَمَلَ العلماءُ عليه فروعَ الشَّريعةِ كلّها، فإذا وقع الإكراهُ عليها لم يُؤاخَذْ به، ولم يترتَّبْ عليه حُكْمٌ ، وبه جاء الأثرُ المشهورُ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (رُفِعَ عن أُمَّتي الخطأُ والنسيانُ وما استُكْرِهُوا عليه). وأجمعَ أهلُ العلمِ على أنّ من أُكْرِهَ على الكفرِ حتى خَشِيَ على نفسِه القتلَ، أنه لا إثمَ عليه إنْ كفَرَ وقلبُهُ مطمئنٌ بالإيمانِ ولا تبينُ منه زوجتُه ولا يُحْكَمُ عليه بالكفرِ، هذا قولُ مالكٍ

والكوفيين والشَّافعيِّ . وذهبت طائفةٌ من العلماء إلى أنّ الرُّخصةَ إنما جاءتْ في القولِ ، وأمّا في الفعلِ فلا رُخصةَ فيه ، مثل أنْ يُكْرَهوا على السجـــودِ لغـــيرِ اللهِ أو الصلاةِ لغيرِ القِبلةِ ، أو قتلِ مسلمٍ أو ضربِه أو أكْلِ مالِه ، أو الزِّنى وشربِ الخمرِ وأكلِ الرِّبا ، يُرْوَى هذا عن الحسَنِ البصري . وقالتْ طائفةٌ : الإكراهُ في القولِ والفعلِ سواءٌ إذا أسَرَّ الإيمانَ . رُوِيَ ذلك عن عمرَ بنِ الخطابِ ومَكْحُولٍ. ورَوَى ابنُ القاسمِ عن مالكٍ أنّ من أُكْرِهَ على شربِ الخمرِ وترك الصلاةِ أو الإفطارِ في رمضانَ ، أنّ الإثمَ عنه مرفوعٌ . وأجمعَ العلماءُ على أنّ من أُكْرِهَ على قتلِ غيرِه أنه لا يجوزُ له الإقدامُ على قتلِه ولا انتهاكُ حُرمتِه بجَلْدٍ أو غيرِه ، ويصبرُ على البلاءِ الذي نزل به ، ولا يَحِلُّ له أن يَفْدِيَ نفسَه بغيرِه، ويسألُ اللهَ العافيةَ في الدنيا والآخرةِ . واختلف العلماءُ في طلاقِ المُكْرَهِ وعتاقِه ، فقال الشَّافـــعيُّ وأصحابُه : لا يلزمُه شيءٌ. وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم :(إنّما الأعمالُ بالنيَّاتِ) (البخارى). وقال الشَّعبيُّ: إنْ أكرهَهُ اللصوصُ على الطلاقِ فليس بطلاقٍ ، وإنْ أكرهَهُ السُّلطانُ فهو طلاقٌ. وفسَّره ابنُ عُيَيْنَةَ فقال: إنّ اللصَّ يُقدِمُ على قتلِه والسُّلطانُ لا يقتلُه. وأمّا بيعُ المُكْرَهِ والمضغوطِ فله حالتان . الأُولى : أنْ يبيعَ ما له في حقٍّ وجبَ عليه، فذلك ماضٍ سائغٍ لا رجوعَ فيه عند الفقهاءِ، لأنه لا يلزمُه أداءُ الحقِّ إلى ربِّه من غيرِ المبيعِ ، فلما لم يفعلْ ذلك كان بيعُهُ اختيارًا منـــه فلـــزمَهُ . وأما بيعُ المُكْرَهِ ظُلمًا أو قَهرًا فذلك بيعٌ لا يجوزُ عليه، وهو أوْلَى بمتاعِـــه يأخـــذُه بلا ثَمَنٍ أو بقيمتِه بالأكثرِ من ذلك على الظالمِ إذا كان المُشتري غيرَ عالمٍ بظلمِه. وأما نكاحُ المُكْرَهِ ، فقال سُحنونٌ : أجمعَ أصحابُنا على إبطالِ نكاحِ المُكْرَهِ والمُكْرَهَةِ. وإذا استُكْرِهَتْ المرأةُ على الزِّنا فلا حدَّ عليها، لقولِه : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ وقولِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم (إنّ اللهَ تجاوزَ عن أُمَّتي الخطأَ والنسيانَ وما استُكْرِهُوا عليه)(ابن ماجه) ولقولِ اللهِ تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور:٣٣) يريدُ الفتياتِ. والعلماءُ متَّفقون على

أنه لا حدَّ على امرأةٍ مُسْتَكْرَهَة . وأما يمينُ المُكْرَهِ فغيرُ لازمةٍ عند مالكٍ والشَّافعيِّ وأبي ثورٍ وأكثرِ العلماءِ . وأجمعَ العلماءُ على أنّ من أُكْرِهَ على الكفرِ فاختار القتلَ أنه أعظمُ أجرًا عند اللهِ ممن اختار الرُّخصةَ .﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أي وسعه لقبولِ الكفرِ ، ولا يقدرُ أحدٌ على ذلك إلاّ اللهُ ، فهو يردُّ على القدَرِيةِ . ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو عذابُ جهنَّم .

(٩٢) الْمُجَادَلَةُ بالْحُسْنَى :

يقولُ تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل:١٢٥)

نزلتْ هذه الآيةُ بمكّةَ في وقتِ الأمرِ بمهادنةِ قريشٍ ، وأمره أنْ يدعوَ إلى دينِ اللهِ وشرعِهِ بتلطُّفٍ ودون مخاشنةٍ وتعنيفٍ ، وهكذا ينبغي أنْ يُوعِظَ المسلمون إلى يومِ القيامةِ .

(٩٣) الثَّأْرُ وَالصَّبْرُ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ (النحل:١٢٦)

نزلتْ هذه الآيةُ في شأنِ التمثيلِ بحمزةَ في يومِ أُحُدٍ . رَوَى الدَّارَقُطْنِيُّ عن ابنِ عباسٍ قال : لمّا انصرفَ المشركون عن قتلَى أُحُدٍ انصرفَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فرأى منظرًا ساءه ، رأى حمزةَ قد شُقَّ بطنُهُ ، واصطُلِمَ أنفُهُ ، وجُدِعَتْ أُذُناهُ، فقال : (لولا أنْ يحزنَ النساءُ أو تكونَ سُنَّةً بعدي لَتركتُهُ حتى يبعثَهُ اللهُ من بطونِ السِّباعِ والطَّيرِ ، لأُمَثِّلَنَّ مكانَه بسبعين رجلاً) ثم دعا ببُرْدَةٍ وغطَّى بها وجهَهُ ، فخرجتْ رِجلاهُ فغطَّى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وجهَهُ وجعل على

رِجلَيْه من الإذخرِ ، ثم قدَّمه فكبَّرَ عليه عشرًا ، ثم جعلَ يُجاءُ بالرجلِ فيُوضعُ ، وحمزةُ مكانَه ، حتى صلَّى عليه سبعين صلاةً ، وكان القتلى سبعين ، فلما دُفنُوا وفرغ منهم نزلتْ هذه الآيةُ ، إلى قولِه تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ فصبَرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ولم يُمَثِّلْ بأحدٍ .

(٩٤) الصَّــبْرُ وَالْعَــفْوُ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل:١٢٧،١٢٨).

أي اصبرْ بالعفوِ عن المعاقبةِ بمثلِ ما عاقبوا من المُثْلَةِ . ولا تحزنْ على قتلَى أُحُدٍ فإنهم صاروا إلى رحمةِ اللهِ . واللهُ مع الذين اتَّقَوْا الفواحشَ والكبائرَ ، بالنَّصرِ والمعونةِ والفضلِ والبرِّ والتأييدِ .

الإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ :

مِنْ سُــورَةِ الإِسْــرَاءِ   بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يقولُ تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الإسراء:١).

﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ اسمٌ معناه التنزيهُ والبراءةُ للهِ عزّ وجلّ من كلِّ نَقْصٍ وسُــوءٍ . ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ الإسراءُ سَيْرُ الليلِ. وقال العلماءُ : لو كان للنبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم اسمٌ أشرفُ من "عبدِه" لَسَمَّاهُ به في تلك الحالةِ العليّة. وقال القُشيريُّ: لمّا رفعه اللهُ تعالى إلى حضرتِه السَّنيةِ ، وأرقاهُ فوقَ الكواكبِ العُلويةِ، ألزمَهُ العبوديةَ تواضُعًا للأُمّةِ. وثبتَ الإسراءُ في جميعِ مصنَّفاتِ الحديثِ . وروَى الصحيحُ

عن أنسِ بنِ مالكٍ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال:(أُتيتُ بالبراقِ وهو دابَّةٌ أبيضٌ "طويلٌ" فوقَ الحمارِ ودون البغلِ يضعُ حافرَهُ عند منتهى طرْفِهِ فركِبتُهُ حتى أتيتُ بيت المقدسِ- قال – فربطتُهُ بالحَلْقَةِ التي يربطُ بِها الأنبياءُ ، ثم دخلتُ المسجدَ فصلّيتُ فيه ركعتين ثم خرجتُ فجاءني جبريلُ عليه السلامُ بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبنٍ فاخترتُ اللبنَ فقال جبريلُ اخترتَ الفِطرةَ ثم عرَجَ بنا إلى السَّماءِ) ثم جاء بالمعراجِ الذي تعرُجُ فيه أرواحُ بني آدمَ فإذا هو أحسنُ ما رأيتُ ، أوَ لم تروا إلى الميتِ كيف يُحَدُّ بصرُهُ إليه ، فعرج بنا حتى أتينا بابَ السَّماءِ الدنيا فاستفتحَ جبريلُ فقيل من هذا ؟ قال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : محمدٌ ، قالوا : وقد أرسِلَ إليه ؟ قال : نعم ، ففتحوا لي وسلَّموا عليّ ، وإذا مَلَكٌ يحرسُ السَّماءَ يُقالُ له إسماعيلُ معه سبعون ألفِ مَلَكٍ مع كلِّ مَلَكٍ مائةُ ألفٍ ـ قال ـ وما يعلمُ جنودَ ربِّكَ إلاّ هُوَ ...) وذَكَرَ الحديثَ إلى أنْ قال : (ثم مضينا إلى السَّماءِ الخامسةِ ، وإذا بِهارونَ بنِ عمرانَ المُحَبُّ في قومِهِ وحولَهُ تَبَعٌ كثيرٌ من أمّتِهِ) فوصفَهُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وقال : (طويلُ اللحيةِ تكادُ تضربُ لحيتُهُ في سُرَّتِهِ ، ثم مضينا إلى السَّماءِ السَّادسةِ فإذا أنا بموسى فسلَّم عليّ ورحَّب بي) – فوصفَهُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقـال : (رجلٌ كثيرُ الشَّعرِ ولو كان عليه قميصان خرج شعرُهُ منهما ...) الحديث . وقد جاء في وصفِ البراقِ من حديثِ ابنِ عباسٍ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (بينا أنا نائمٌ في الحِجْرِ إذ أتاني آتٍ فحركني برجلِهِ فاتَّبعتُ الشَّخصَ فإذا هو جبريلُ عليه السلامُ قائمٌ على بابِ المسجدِ معه دابَّةٌ دون البغلِ وفوق الحمارِ وجهُهَا وجهُ إنسانٍ وخُفُّها خُفُّ حافرٍ وذَنَبُها ذَنَبُ ثورٍ وعُرْفُها عُرْفُ الفرَسِ ، فلمّا أدناها مني نفرَتْ ونفَشَتْ فمسَحَها جبريلُ عليه السلامُ وقال : يا بُرْقَةُ لا تنفري من محمدٍ فواللهِ ما ركِبَك مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرسَلٌ أفضلُ من محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلم ولا أكرمُ على اللهِ منه ، قالتْ قد علمتُ أنه كذلك وأنه صاحبُ الشَّفاعةِ وإني أُحِبُّ أنْ أكونَ في شفاعتِهِ ، فقلتُ أنتِ في شفاعتي إنْ

شاء الله تعالى ..) الحديث (أحمد). وعن أبي سعيد الخدريِّ قال : لمّا مرَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بإدريسَ عليه السلامُ في السَّماءِ الرابعةِ قال : مرحبًا بالأخِ الصّالحِ والنبيِّ الصّالحِ الذي وُعِدْنا أنْ نراهُ فلم نرَهُ إلاّ الليلةَ قال فإذا فيها مريمُ بنتُ عمرانَ لَها سبعون قصرًا من لؤلؤٍ ولأُمِّ موسى بنِ عمرانَ سبعون قصرًا من مرجانة حمراءَ مُكَلَّلَة باللؤلؤِ أبوابُها وأسرَّتُها من عِرْقٍ واحدٍ ، فلما عرج المعراجُ إلى السَّماءِ الخامسةِ وتسبيحُ أهلِها سبحان من جمعَ بين الثَّلجِ والنّارِ ، مَنْ قالَها مرَّةً واحدةً كان له مثلُ ثوابِهم ، استفتحَ البابَ جبريلُ عليه السلامُ ففُتِحَ له فإذا هو بكَهْلٍ لم يُرَ قطُّ كَهْلٌ أجملُ منه عظيمُ العينين تضربُ لحيتُهُ قريبًا من سُرَّتِه قد كاد أنْ يكونَ شَمْطَةً * الشَّمَطُ في الشَّعرِ اختلافُه بلونين من سوادٍ وبياضٍ * وحولَهُ قومٌ جلوسٌ يقُصُّ عليهم ، فقلتُ : (ياجبريلُ مَنْ هذا ؟ قال : هارون المُحَبَّبُ في قومِه ..) وذَكَرَ الحديثَ .

فهذه نُبْذَةٌ مختصرةٌ من أحاديثِ الإسراءِ خارجةٌ عن الصحيحين . ولا خلافَ أنَ الصلاةَ فُرِضَتْ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بمكّةَ في حينِ الإسراءِ حين عُرِجَ به إلى السَّماءِ واختُلِفَ في الإسراءِ ، هل كان بالجسدِ أم بالرُّوحِ . فذهبتْ طائفةٌ إلى أنه إسراءٌ بالرُّوحِ ، ولم يُفارقْ شخصُهُ مضجعَهُ ، وأنّها كانتْ رُؤيا رأى فيها الحقائقَ ، ورُؤيا الأنبياءِ حقٌّ . ذهب إلى هذا معاويةُ وعائشةُ . وقالتْ طائفةٌ : كان إسراءً بالجسدِ يقظةً إلى بيتِ المقدسِ ، وإلى السَّماءِ بالرُّوحِ . وليس في الإسراءِ بجسدِه وحالِ يقظتِه استحالةٌ ، ولا يُعْدَلُ عن الظاهرِ والحقيقةِ إلى التأويلِ إلاّ عند الاستحالةِ ، ولو كان منامًا لَقالَ بروحِ عبدِه ولم يقُلْ بعبدِه . وقولُهُ تعالى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ (النجم:١٧) يدلُّ على ذلك . ولو كان منامًا لما كانتْ فيه آيةٌ ولا معجزةٌ . واستخبره أهلُ قريشٍ عن عِيرِهم فأخبرهم وصدقَ ، فاستخبروه عن صفةِ بيتِ المقدسِ فوصفه لَهم ولم يكنْ رآه من قبلُ . وعن أبي هريرةَ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (لقد رأيتُني في الحِجْرِ وقريشٌ تسألُني عن

مسرايَ فسألتني عن أشياءَ من بيت المقدسِ لم أُثبتْها " أي لم أعرفْها حقَّ المعرفةِ " فكُربتُ كَرْبًا ما كُربْتُ مثلَهُ قطُّ ـ قال ـ فرفعَهُ اللهُ لي أنظرُ إليه فما سألوني عن شيءٍ إلاّ أنبأتُهم به) . وفي نصوصِ الأخبارِ الثّابتةِ دِلالةٌ واضحةٌ على أنّ الإسراءَ كان بالجسدِ . وكان الإسراءُ قبل الهجرةِ بدليلِ أنّ خديجةَ رضي اللهُ عنها صلّتْ مع رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، والصلاةُ فُرِضَتْ ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ ، وخديجةُ تُوُفِّيتْ قبل الهجرةِ بخمسِ سنين ، وقيل بثلاثِ سنين . أمّا هيئةُ الصلاةِ ، فقال ابنُ إسحاقَ : : ثم إنّ جبريلَ عليه السلامُ أتى رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حين فُرِضَتْ عليه الصلاةُ ، فهمز له بعقبِهِ في ناحيةِ الوادي فانفجرتْ عينُ ماءٍ فتوضّأَ جبريلُ ومحمدٌ ينظرُ ، فوضّأَ وجهَهُ واستنشقَ وتمضمضَ ومسحَ برأسِهِ وأُذُنيه ورِجليه إلى الكعبين ، ونضح فَرْجَهُ ، ثم قام يُصلّي ركعتين بأربعِ سجداتٍ ، فرجع رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وقد أقرَّ اللهُ عينَهُ وطابتْ نفسُهُ وجاءه ما يُحِبُّ من أمرِ اللهِ تعالى ، فأخذ بيدِ خديجةَ رضي اللهُ عنها ثم أتى بها العينَ فتوضّأَ كما توضّأَ جبريلُ ثم ركعَ ركعتين وأربعَ سجداتٍ هو وخديجةُ ، ثم كانا يُصلّيان سواءً . ورُوِيَ أنّ فرضَ الصلاةِ في الحضَرِ أربعٌ إلاّ المغربَ والصُّبحَ . وقيل : إنّ أوّلَ مسجدٍ وُضِعَ في الأرضِ المسجدُ الحرامُ ، ثم المسجدُ الأقصى ، وأنّ بينهما أربعين عامًا " من حديثِ أبي ذرٍ " . وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلاّ إلى ثلاثةِ مساجد ، إلى المسجدِ الحرامِ وإلى مسجدي هذا وإلى مسجد إيلياء – أو بيتِ المقدسِ) خرّجه مالكٌ من حديثِ أبي هريرةَ . ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ سُمِّيَ الأقصى لبعدِ ما بينه وبين المسجدِ الحرامِ ، وكان أبعدَ مسجدٍ عن أهلِ مكّةَ في الأرضِ يُعظَّمُ . ﴿ ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ قيل : بالثّمارِ والأنهارِ . وقيل بمن دُفِنَ حوله من الأنبياءِ والصّالحين ، وبهذا جعله مُقَدَّسًا . ورَوَى معاذُ بنُ جبلٍ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أنه

قال : (يقولُ اللهُ تعالى يا شامُ أنتِ صفويّ من بلادي وأنا سائقٌ إليكِ صفويّ من عبادي) • اصلُه سام فعُرِّب • ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ والآياتُ التي أراهُ اللهُ من العجائبِ التي أخبرَ الناسَ بها ، وإسراؤُه من مكّةَ إلى المسجدِ الأقصى في ليلةٍ وهو مسيرةُ شهرٍ وعروجُه إلى السَّماءِ ووصْفُه الأنبياءَ واحدًا واحدًا .

(٩٥) إلْزَامُ الإنْسَانِ طَائِرَهُ فِي عُنُقِه :

يقولُ تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (الإسراء:١٣،١٤) .

ذِكْرُ العُنُقِ عبارةٌ عن اللزومِ كلزومِ القلادةِ للعنقِ . ﴿ طَٰٓئِرَهُۥ ﴾ عملَه وما قُدِّرَ عليه من خيرٍ وشرٍّ ، وهو ملازمُهُ أينما كان لا يُفارقُهُ حتى يُحاسَبَ عليه . ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ أي كتابَ طائرِه الذي في عنقِه . ﴿ مَنشُورًا ﴾ تعجيلاً للبُشْرَى بالحسَنَةِ والتوبيخِ بالسَّيِّئة . ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾ يقرأُ الإنسانُ كتابَهُ أُمِّيًّا كان أو غيرَ أُمِّيٍّ. ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أي مُحاسِبًا . وأنت الذي أمليتَ على حَفَظَتِكَ أعمالَكَ وأقوالَكَ ، ما زِيدَ فيه ولا نقصَ منه ، ومتى أنكرتَ منه شيئًا يكون فيه الشَّاهدُ منكَ عليكَ .

(٩٦) حِسَابُ الإنْسَانِ عَنْ نَفْسِه :

يقولُ تعالى : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (الإسراء:١٥).

أي إنّما كلُّ أحدٍ يُحاسَبُ عن نفسه لا عن غيرِه ، فمن اهتدى فثوابُ اهتدائه له، ومن ضلَّ فعقابُ كفرِه عليه . ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ الوِزْرُ : الثِّقْلُ المُثْقِل . وقال ابنُ عباسٍ : نزلتْ في الوليدِ بنِ المغيرةِ ، قال لأهلِ مكّةَ : اتبعوني واكفروا بمحمدٍ وعليّ أوزارُكم ، فنزلتْ هذه الآيةُ ، أي إنّ الوليدَ لا يحملُ آثامَكم وإنّما إثمُ كلِّ واحدٍ عليه . حتى إنّ الوالدةَ تلقى ولدَها يومَ القيامةِ فتقولُ : يابنيّ ! ألم يكنْ حجْري لك وِطاءً ، ألم يكنْ ثديي لك سِقاءً ، ألم يكنْ بطني لك وِعاءً ؟ فيقولُ : بَلَى يا أُمَّه . فتقولُ يابنيّ ، فإنّ ذنوبي أثقلتني فاحملْ عنّي منها ذنبًا واحدًا ! فيقولُ : إليكِ عنّي يا أُمَّه ، فإنّي بذنبي عنكِ اليومَ مشغولٌ . وأمّا الحديثُ الذي رُوِيَ عن ابنِ عمرَ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (إنّ الميِّتَ لَيُعَذَّبُ ببكاءِ أهلِه) (مسلم) فمعناه أنّ الميِّتَ إنّما يُعَذَّبُ بنَوْحِهم وبكائهم لأنه أهملَ نَهْيَهم عن البكاءِ قبلَ موته ، فيُعذَّبُ بتفريطه في ذلك ، وبتركِه ما أمَرَه اللهُ به في قوله تعالى : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ لا بذنبِ غيرِه . ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ أي لم نترك الخلقَ سُدًى ، بل أرسلنا الرُّسُلَ ، وهذا دليلٌ على أنّ الأحكامَ لا تثبتُ إلاّ بالشَّرعِ ، أي أنّ اللهَ تعالى لا يُهلِكُ أُمَّةً بعذابٍ إلاّ بعد الرِّسالةِ إليهم والإنذارِ ، ومن لم تبلغْه الدَّعوةُ فهو غيرُ مستحقٍّ للعذابِ من جهةِ العقلِ ، واللهُ أعلمُ .

(٩٧) إرادةُ السَّبَب :

يقولُ تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الإسراء:١٦)

أخبر اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنه لم يُهلِكِ القُرَى قبلَ ابتعاثِ الرُّسُلِ ، لأنه وعْدٌ منه ، ولا خُلْفَ في وعدِه ، فإذا أراد إهلاكَ قريةٍ أمَرَ مترفيها بالفِسْقِ والظُّلمِ فيها

فحقَّ عليها القولُ بالتدمير . ﴿ أَمَرْنَا ﴾ أي سلَّطنا شرارَها فعَصَوْا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم . ﴿ فَفَسَقُوا۟ فِيهَا ﴾ أي فخرجوا عن الطَّاعة عاصين لنا . ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ ﴾ أي فوجب عليها الوعيدُ .﴿ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ أي استأصلناها بالهلاك . وفي الصحيحِ من حديث زينب بنتِ جحشٍ زوجةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالتْ :خرج رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يومًا فَزِعًا مُحْمَرًا وجهُهُ يقولُ : (لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ وَيْلٌ للعربِ من شرٍ قد اقتربَ ، فُتِحَ اليومَ من رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه) (ابن ماجه) وحلقَ بإصبعِهِ الإبْهامِ والتي تليها . قالتْ : فقلتُ يارسولَ اللهِ ، أنَهلكُ وفينا الصَّالحون ؟ قال :(نَعَم إذا كثُرَ الخُبْثُ). وإنّ المعاصي إذا ظهرتْ ولم تُغَيَّرْ كانتْ سببًا في هلاكِ الجميعِ ، واللهُ تعالى أعلمُ .

ويقولُ تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ (الإسراء:١٧)

أي كم من قومٍ كفروا حلَّ بهم البَوَارُ . ﴿ خَبِيرًۢا ﴾ عليمًا بهم . ﴿ بَصِيرًا ﴾ يُبصرُ أعمالَهم .

(٩٨) الإِحْسَـانُ إِلَى الْوَالِدَيْـنِ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (الإسراء:٢٣،٢٤)

﴿ وَقَضَىٰ ﴾ أي أمَرَ والزَمَ وأوجبَ. أمَرَ اللهُ سبحانه بعبادتِهِ وتوحيده ، وجعلَ برَّ الوالدين مقرونًا بذلك ، كما قَرَنَ شُكْرَهما بشُكْرِهِ. وقال : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (لقمان:١٤) وفي البخاريِّ عن عبدِ اللهِ قال: سألتُ

رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أيُّ العملِ أحَبُّ إلى اللهِ عزّ وجلّ ؟ قال :(الصلاةُ على وقتها) قال: ثم أيّ ؟ قال:(ثم برُّ الوالدين) قال: ثم أيّ ؟ قال: (الجهادُ في سبيلِ اللهِ) فأخبر رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أنّ برَّ الوالدين أفضلُ الأعمالِ بعد الصلاةِ التي هي أعظمُ دعائمِ الإسلامِ . ومن البرِّ بهما ألاّ يتعرَّضَ لسبِّهما ولا يعُقّهما، فإنّ ذلك من الكبائرِ بلا خلافٍ ، وبذلك وَرَدَتْ السُنَّةُ الثّابتةُ ، ففي صحيحِ مسلمٍ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال: (إنّ من الكبائرِ شَتْمَ الرجلِ والديه) قالوا: يارسولَ اللهِ وهل يشتُمُ الرجلُ والديه ؟ قال: (نَعَم ، يسُبُّ الرجلُ أبا الرجلِ فيسُبُّ أباهُ ويسُبُّ أُمَّهُ فيسُبُّ أُمَّهُ). وعقوقُ الوالدين مخالفتُهما في أغراضِهما الجائزةِ لهما ، كما أنّ برَّهما موافقتُهما على أغراضِهما، وعلى هذا إذا أمَرَا أو أحدُهما ولدَهما أمْرًا، وجبتْ طاعتُهما فيه ، إذا لم يكنْ هذا الأمرُ معصيةً. ورَوَى الترمذيُّ عن ابنِ عمرَ قال : كانتْ تحتي امرأةٌ أحبُّها، وكان أبي يكرهُها فأمرني أنْ أُطلّقَها فأبَيْتُ ، فذكرتُ ذلك لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال: (ياعبدَ اللهِ بنَ عمرَ،طَلِّقِ امرأتَكَ) ورَوَى الصحيحُ عن أبي هريرةَ قال: جاء رجلٌ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال: مَنْ أحقُّ الناسِ بحُسْنِ صحابتي ؟ فقال: (أُمُّك) قال: ثم مَنْ ؟ قال: (أُمُّك) قال: ثم مَنْ ؟ قال : (أُمُّك) قال: ثم مَنْ ؟ قال: (ثم أبوك). فهذا الحديثُ يدلُّ على أنّ محبَّةَ الأمِّ والشفقةَ عليها ينبغي أنْ تكونَ ثلاثةَ أمثالِ محبَّةِ الأبِ ، وذلك أنّ صعوبةَ الحملِ والوضعِ والرّضاعِ والتربيةِ والرّعايةِ تنفردُ بها الأمُّ دون الأبِ . ورُوِيَ عن مالكٍ أنّ رجلاً قال له: إنّ أبي في بلدِ السُّودانِ ، وقد كتب إليّ أنْ أقدمَ عليه ، وأمّي تمنعُني من ذلك ، فقال له: أَطِعْ أباك ، ولا تعْصِ أمَّكَ .فدلّ قولُ مالكٍ على أنّ برَّهما متساوٍ عنده . وقد قيل : لاخلافَ بين العلماءِ أنّ للأمِّ ثلاثةَ أرباعِ البِرِّ وللأبِ الرُّبعَ ، على مقتضى حديثِ أبي هريرةَ. واللهُ أعلمُ . ولا يختصُّ برُّ الوالدين بأنْ يكونا مسلمين ، بل إنْ كانا كافرَيْن يَبَرُّهما ويُحسنُ معاملتَهما إذا كان لَهما عهدٌ .

قال تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ (الممتحنة:٨) وفي البخاريِّ عن أسماءَ قالتْ : قَدِمَتْ أُمِّي وهي مشركةٌ في عهدِ قريشٍ ومدَّتهم إذ عاهـــدوا رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مع أبيها، فاستفتيتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقلتُ: إنَّ أُمِّي قدمتْ وهي راغبةٌ " اي راغبةٌ في برِّي ، او راغبةٌ عن الإسلامِ كارهةٌ له " أفأصِلُها؟ قال: (نَعَم صِلِي أُمَّكِ) . ومن الإحسانِ إليهما إذا لم يتعيَّنِ الجهادُ ألاّ يُجاهِدَ إلاّ بإذنِهما. رَوَى الصحيحُ عن ابنِ عمرٍو قال: جاء رجلٌ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يستأذنُه في الجهادِ فقال: (أَحَيٌّ والداك ؟) قال: نعم . قال : (ففيهما فجاهِدْ) لفظُ مسلمٍ. في غيرِالصحيحِ قال: نَعَم وتركتُهما يبكيان. قال (اذهبْ فأضحِكْهما كما أبكيتَهما) وفي خبرٍ آخر قال: (نَوْمُكَ مع أبويْكَ على فراشِهما يُضاحِكانكَ ويُلاعبانكَ أفضلُ لك من الجهادِ معي). وكان طاوسُ يرى السَّعيَ على الأخَواتِ أفضلَ من الجهادِ في سبيلِ اللهِ . ومن برِّ الوالدين صِلةُ أهلِ وُدِّهما، ففي الصحيحِ عن ابنِ عمرَ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ : (إنَّ من أبَرِّ البرِّ صِلَةَ الرجلِ أهلَ وُدِّ أبيه بعد أنْ يُوَلِّي)(البخارى). ورَوىَ أبو أُسَيْدٍ وكان بدريًّا قال: كنتُ مع رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم جالسًا، فجاءه رجلٌ من الأنصارِ فقال: يارسولَ اللهِ ، هل بَقِيَ من برِّ والديّ من بعدِ موتِهما شيءٌ أبرُّهما به ؟ قال: (نعم الصلاةُ عليهما والاستغفارُ لَهما وإنفاذُ عهدِهما بعدهما وإكرامُ صديقِهما وصِلَةُ الرَّحِمِ التي لا رَحِمَ لك إلاّ من قِبَلِهما فهذا الذي بَقِيَ عليكَ). وكان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يُهدي لصدائقِ خديجةَ رضي اللهُ عنها برّاً بها ووفاءً لَها وهي زوجتُهُ ، فما ظَنُّكَ بالوالدين . ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ خَصَّ اللهُ تعالى حالةَ الكِبَرِ لأنها الحالةُ التي يحتاجان فيها إلى برِّهِ لتغيُّرِ الحالِ عليهما بالضَّعْفِ والكِبَرِ ، فألزمَ في هذه الحالةِ من مراعاةِ أحوالِهما أكثرَ مما ألزَمَهُ من قبلُ ، لأنهما صارا كَلاًّ عليه ، فيحتاجان أنْ

يليَ منهما في الكِبَرِ ما كان يحتاجُ في صِغَرِه أنْ يَليَا منه ، وأيضًا فطولُ المُكْثِ للمرءِ يوجبُ الاستثقالَ للمرءِ عادةً ويحصلُ الملَلُ ويكثرُ الضَّجَرُ فيظهرُ غضبُهُ على أبويه وتنتفخُ لَهما أوداجُهُ ، وأقلُّ المكروهِ ما يُظهِرُهُ بتنفُّسِه المتردِّد من الضَّجَرِ . وقد أُمِرَ أنْ يُقابلَهما بالقولِ الموصوفِ بالكرامة وهو السَّالمُ عن كلِّ عيْبٍ فقال : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ رَوَى مسلمُ عن أبي هريرةَ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: (رَغِمَ أنفُهُ رَغِمَ أَنفُهُ رَغِمَ أَنفُهُ) قيل: مَنْ يارسولَ اللهِ ؟ قال: (مَنْ أدركَ والديه عندَ الكِبَرِ أحدَهما أوكِلَيْهما ثم لم يدخلِ الجنَّةَ). وعن أبي هريرةَ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال: (رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عنده فلم يُصلِّ عليَّ ، رَغِمَ أنفُ رجلٍ أدرك أبويه عنده الكِبَرُ أو أحدَهما فلم يُدخلاهُ الجنَّةَ ، ورغِمَ أنفُ رجلٍ دخلَ عليه رمضانُ ثم انسلخَ قبلَ أنْ يُغفَرَ له) (أحمد) . وقيل : إنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم رقَى المنبرَ ، فرقَى أوّلَ درجةٍ منه فقال آمين ثم رقَى في الثانيةِ فقال آمين ثم لمّا رقَى في الثالثة قال آمين ، فلمّا فَرَغَ ونزلَ من المنبرِ قلنا : يارسولَ اللهِ ، لقد سمعنا منك اليومَ شيئًا ما كنّا نسمعُهُ منكَ قال : (وسمعتموه)؟ قلنا : نعم . قال: (إنَّ جبريلَ عليه السلامُ اعترضَ قال: بَعُدَ مَنْ أدرك رمضانَ فلم يُغفرْ له فقلتُ آمين فلمّا رقيتُ في الثانيةِ قال بَعُدَ مَنْ ذُكِرْتَ عنده فلم يُصلِّ عليك فقلتُ آمين فلمّا رقيتُ في الثالثة قال بَعُدَ مَنْ أدركَ عنده أبواهُ الكِبَرَ أوأحدُهما فلم يُدخلاهُ الجنَّةَ قلتُ آمين). فالسَّعيدُ الذي يُبادرُ باغتنامِ فرصةِ برِّهما لئلاّ تفوتَهُ بموتِهما فيندمَ على ذلك ، والشَّقيُّ مَنْ عقَّهما ، لاسيَّما مَنْ بلغَهُ الأمرُ ببرِّهما .﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ أي لا تقُلْ لَهما ما يكونُ فيه أدنى تبرُّمٍ . وقال مجاهدٌ : معناه إذا رأيتَ منهما في حالِ الشَّيخِ الغائطَ والبوْلَ الذي رأياهُ منكَ في الصِّغَرِ فلا تقذرْهما وتقول أُفٍّ . ومن حديثِ عليِّ بنِ أبي طالب قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلـــم (لو عَلِمَ اللهُ من العقوقِ شيئًا أردأَ من " أُفٍّ " لَذَكَرَهُ فليعملْ البارُّ

ما شاء أنْ يعمل فلن يدخلَ النَّارَ ، ولْيعملْ العاقُّ ما شاء أنْ يعملَ فلن يدخلَ الجنَّةَ)(البخارى) . ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ النَّهرُ:الزَّجْرُ والغِلْظةُ . ﴿ قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ قولاً طيِّبًا حَسَنًا. ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ هذه استعارةٌ في الشَّفقةِ والرَّحمةِ بِهما والتذلُّلِ لَهما تذلُّلَ الرَّعيّةِ للأميرِ والعبدِ للسيِّدِ ، فينبغي بحكمِ هذه الآيةِ أنْ يجعلَ الإنسانُ نفسَهُ مع أبويه في خيرِ ذلَّة ، في أقوالِه وسكَناته ونظَرِه ، ولا يُحِدُّ لَهما بَصَرَهُ فإنّ تلك هي نظرةُ الغاضبِ . ثُمَّ أَمَرَ اللهُ عبادَه بالترحُّمِ على آبائهم والدُّعاءِ لهم . وأنْ ترحَمَهما كما رحماك ، وترْفُقَ بِهما كما رفَقَا بك ، إذ ولِياكَ صغيرًا جاهلاً محتاجًا فآثَرَاكَ على أنفسِهما، وسَهِرَا ليلَهما لرعايتك ، وجاعا وأشبعاكَ ، وتعرَّيا وكَسَوَاكَ، فلا تجزيهما إلاّ أنْ يبلغا من الكِبَرِ الحدَّ الذي كنتَ فيه من الصِّغَرِ، فتَلِيَ منهما ما وَلِيَا منكَ ، ويكونَ لَهما حينئذٍ فضلُ التقدُّمِ . ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي ﴾ خَصَّ اللهُ تعالى التربيةَ بالذِّكْرِ ليتذكَّرَ العبدُ شفقةَ الأبوين وتعبَهما في التربيةِ ، فيزيدَه ذلك إشفاقًا لَهما وحنانًا عليهما ، وهذا كلُّهُ في الأبوين المؤمنين ، فإذا كان والدا المسلمِ ذِمِّيَيْن استعملَ معهما ما أمَرَه اللهُ تعالى به هاهنا ، إلاّ التَّرحُّمَ عليهما بعد موتِهما على الكفرِ ، فالدُّعاءُ بالرَّحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيَّيْن ، لا رحمة الآخرةِ . وقيل : إنّ قولَه تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا ﴾ نزلتْ في سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ فإنه أسلمَ ، فألقتْ أُمُّهُ نفسَها في الرَّمضاءِ متجرِّدةً ، فذُكِرَ ذلك لسعدٍ فقال : لِتَمُتْ ، فنزلتْ الآيةُ . وقال ابنُ عباسٍ قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم :(مَنْ أمسى مُرْضِيًا لوالديه وأصبحَ أمسى وأصبحَ وله بابان مفتوحان من الجنَّة وإنْ واحدًا فواحدًا و مَنْ أمسى وأصبحَ مُسْخِطًا لوالديه أمسى وأصبحَ وله بابان مفتوحان إلى النَّارِ وإنْ واحدًا فواحدًا) فقال رجلٌ: يارسولَ اللهِ ، وإنْ ظَلَمَاهُ ؟ قال :(وإنْ ظَلَمَاهُ وإن ظَلَمَاهُ وإن ظَلَمَاهُ) (البخارى) وعن جابرِ بنِ عبدِ الله قال: جاء رجلٌ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال : يارسولَ اللهِ، إنّ أبي أخذ مالي ، فقال رسولُ اللهِ

صلى اللهُ عليه وسلم للرجلِ :(فَأْتني بأبيكَ) فنزل جبريلُ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال: إنّ اللهَ يُقرئُكَ السّلامَ ويقولُ لك إذا جاءكَ الشّيخُ فاسألْهُ عن شيءٍ قالَهُ في نفسه ما سَمِعَتْهُ أُذُناهُ . فلما جاء الشّيخُ قال له رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم (مابالُ ابنِكَ يشكوكَ أتريدُ أنْ تأخذَ مالَهُ ؟) فقال: سَلْهُ يارسولَ اللهِ، هل أُنفقُهُ إلاّ على إحدى عمّاتِهِ أو خالاتِهِ أوعلى نفسي! فقال له رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسل(إيه "كلمةُ استزادةٍ واستنطاقٍ" دَعْنَا من هذا، أخبرْني عن شيء قلتَهُ في نفسكَ ما سَمِعَتْهُ أُذُناك) فقال الشّيخُ: واللهِ يارسولَ اللهِ مازال اللهُ عزّ وجلّ يُزيدُنا بكَ يقينًا، لقد قلتُ في نفسي شيئًا ما سَمِعَتْهُ أُذُناي ، قال: (قُلْ وأنا أسمعُ) قال الرجلُ : قلتُ :

غَذَوْتُكَ مَوْلُودًا وَمُنْتُكَ (١) يَافِعًـــا ... تُعَلُّ (٢) بِمَا أَجْنِي (٣) عَلَيْكَ وَتُنْهَلُ(٤)
إِذَا لَيْلَةٌ ضَافَتْكَ(٥) بِالسُّقْمِ لَمْ أَبِتْ ... لِسُـــقْمِكَ إِلاّ سَـــاهِرًا أَتَمَلْمَـــلُ
كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّـــذِي ... طُرِقْتَ بِـــهِ دُونِـــي فَعَيْنِـــي تَهْمُـــلُ
تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْكَ وَإِنَّهـــا ... لَتَعْلَمُ أَنَّ الْمَـــوْتَ وَقْـــتٌ مُؤَجَّـــلُ
فَلَمَّا بَلَغْتَ السِّـــنَّ وَالْغَايَـــةَ الَّـــتِي ... إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْـــتُ فِيـــكَ أُؤَمِّـــلُ
جَعَلْتَ جَزَائِـــي غِلْظَـــةً وَفَظَاظَـــةً ... كَأَنَّـــكَ أَنْـــتَ الْمُـــنْعِمُ الْمُتَفَضِّـــلُ
فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَـــرْعَ حَـــقَّ أُبُـــوَّتِي ... فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُصَـــاقِبُ يَفْعَـــلُ
فَأَوْلَيْتَنِي حَقَّ الْجِوَارِ وَلَـــمْ تَكُـــنْ ... عَلَـــيَّ بِمَـــالٍ دُونَ مَالِـــكَ تَبْخَـــلُ

(١) مُنْتُكَ : مُنْتُكَ . (٢) تُعَلُّ : تُمَرِّضُ . (٣) أجْنِي : أكسَبُ . (٤) تُنْهَلُ : تُسقَى . (٥) ضافتك : نابَتْكَ .

قال : فحينئذ أخذ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بتلابيبِ ابنِهِ وقال : (أنت ومالُكَ لأبيكَ) (البخارى) .

(٩٩) التَّسْـــبِيحُ :

يقولُ تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (الإسراء:٤٤)

أعاد اللهُ تعالى على السَّماواتِ والأرضِ ضميرَ من يعقلُ لمّا أسْنَدَ إليها فِعْلَ العاقلِ وهو التسبيحُ . ﴿ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ من الملائكة والإنسِ والجنِّ ، ثم عمَّ بعد ذلك الأشياءَ كلَّها في قولِه : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ .وقالتْ طائفةٌ : هذا التسبيحُ حقيقةٌ ، وكلُّ شيءٍ على العمومِ يُسبِّـــحُ تسبيحًا لا يسمعُـــهُ البَشَرُ ولا يفقهُهُ ، ولو كان ما قاله الأوّلون من أنه أثرُ الصّنعةِ والدّلالةِ لكان أمرًا مفهومًا، والآيةُ تنطقُ بأنّ هذا التسبيحَ لا يُفْقَهُ. وأُجيبُوا بأنّ المرادَ بقولِه ﴿ لَّا تَفْقَهُونَ ﴾ الكفّارُ الذين يُعرِضون عن الاعتبارِ فلا يفقهون حِكْمَةَ اللهِ سبحانه وتعالى في الأشـــياءِ . وقيل: إنّ كلَّ شيءٍ من الجمادِ يُسبِّحُ . لقولِه تعـــالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ (ص:١٧،١٨) وقولِه : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:٧٤) وقولِه : ﴿ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ (مريم:٩٠،٩١) وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ: إنّ الجَبَلَ يقولُ للجَبَلِ: يافلانُ ، هل مرَّ بك اليومَ ذاكرٌ لله ؟ فإنْ قال نعم سُرَّ به ثم قرأ عبدُ الله : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ (مريم:٨٨) قال : أفتراهنَّ يسمعن الزُّورَ ولا يسمعنَ الخيرَ. وفيه عن أنسٍ قال : ما من صباحٍ ولا رَوَاحٍ إلاّ تنادي بقاعُ الأرضِ بعضُـــها بعضًا ياجاراهُ ، هل مرَّ بك اليومَ عبدٌ فصلّى أو ذَكَرَ اللهَ عليك ؟ فمن قائلة لا، ومن قائلة نعم ، فإذا قالتْ نعم رأتْ لها بذلك فضلاً عظيمًا وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (لا يسمعُ صَوْتَ المؤذّنِ جنٌّ ولا إنسٌ ولا شجرٌ ولا حَجَرٌ ولا مَدَرٌ ولا شيءٌ إلاّ شَهِدَ له يومَ القيامةِ) (ابن ماجه). وعن ابنِ مسعودٍ رضي اللهُ تعالى

عنه : كنّا نأكلُ مع رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلمِ الطعامَ ونحن نسمعُ تسبيحَهُ.
وفي صحيحِ مسلمٍ عن جابرِ بنِ سَمُرةَ قال قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّي لأَعرِفُ حَجَرًا بمكّةَ كان يُسلِّمُ عليّ قبل أنْ أُبْعَثَ إنّي لأَعرِفُهُ الآن). قيل : إنه الحجرُ الأسودُ ، واللهُ أعلمُ . وخبَرُ الجِذْعِ أيضًا مشهورٌ في هذا البابِ خرّجه البخاريُّ في مواضعَ من كتابِهِ . وإذا ثبتَ ذلك في جمادٍ واحدٍ جاز في جميعِ الجمادات ، ولا استحالةَ في شيءٍ من ذلك ، فكلُّ شيءٍ يُسبِّحُ للعمومِ . ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا ﴾ عن ذنوبِ عبادِهِ في الدنيا . ﴿ غَفُورًا ﴾ للمؤمنين في الآخرةِ .

(١٠٠) الْفِتْنَــةُ عَــنِ الْحَــقِّ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٧٣)

قال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ : كان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يستلمُ الحجرَ الأسودَ في طوافِهِ ، فمنعتْهُ قريشٌ وقالوا : لا نَدَعُكَ تستلمُ حتى تُلمَّ بآلهتنا . فحدَّث نفسَهُ وقال : (ما عليّ أنْ أُلمَّ بِها بعد أنْ يَدَعُوني أستلمُ الحجرَ واللهُ يعلمُ أنّي لَها كارِهٌ) فأبى اللهُ تعالى ذلك وأنزل عليه هذه الآيةَ . وقيل : هو قولُ أكابرِ قريشٍ لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : اطْرُدْ عنّا هؤلاء السُّقاطَ والموالي ، حتى نجلسَ معك ونسمعَ منك ، فهمَّ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بذلك حتى نُهِيَ عــنه . ﴿ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ يصرفونك . ﴿ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي حكمِ القرآنِ، لأنّ في إعطائِهم ما سألوه مخالفةَ لحكمِ القرآنِ . ﴿ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ﴾ أي لتختلقَ علينا غيرَ ما أوحينا إليكَ ، وهوقولُ ثقيف : حَرِّمْ وادينا كما حرَّمتَ مكّةَ شَجَرَها وطَيْرَها ووحْشَهَا ، فإنْ سألَتْكَ العربُ لِمَ خَصَّصْتَهم فقُلْ اللهُ أَمَرَني بذلك حتى يكونَ عُذرًا لك . ﴿ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ أي لو فَعَلْتَ ما أرادوا لاتَّخذوكَ خليلاً ، أي وَالَوْكَ وصافوكَ .

ويقولُ تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (الإسراء:٧٤،٧٥)

أي ولولا أنْ ثبّتناك على الحقِّ وعصمناك من موافقتهم . ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ أي تميلُ . ﴿ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴾ أي ركونًا قليلاً . قال قتادةُ : لمّا نزلتْ هذه الآيةُ قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : (اللهمَّ لا تَكلْني إلى نفسي طَرْفَةَ عَيْنٍ) . ﴿ إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ أي لو ركنتَ لأذقناك مثليْ عذابِ الحياةِ في الدنيا ومثليْ عذابِ المماتْ في الآخرةِ .

ويقولُ تعالى : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (الإسراء:٧٦)

قال ابنُ عباسٍ : حسدتْ اليهودُ مقامَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بالمدينةِ ، فقالوا : إنّ الأنبياءَ إنّما بُعثُوا بالشّامِ ، فإنْ كنتَ نبيًّا فالْحَقْ بها ، فإنّك إنْ خرجتَ إليها صدَّقناك وآمنّا بك ، فوقعَ ذلك في قلبِهِ لِمَا يُحبُّ من إسلامِهم ، فرحَلَ من المدينةِ على مرحلةٍ فأنزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ . وقال مجاهدٌ وقتادةُ : نزلتْ في همِّ مكّةَ بإخراجِه ، ولو أخرجوه لما أُمْهِلُوا ، ولكنّ اللهَ أمَرَهُ بالهجرةِ فخرجَ ، وهذا أصحُّ ، لأنّ السُّورةَ مكّيّةٌ ، ولأنّ ما قبلَها خبرٌ عن أهلِ مكةَ ، ولم يجْرِ لليهودِ ذِكْرٌ . ﴿ مِنَ ٱلأَرْضِ ﴾ يريدُ أرضَ مكّةَ . ولو أخرجوهُ من أرضِ العربِ لم يُمْهَلُوا ، وهو معنى قولِهِ ﴿ وَإِذاً لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ . ومعنى ﴿ خِلَٰفَكَ ﴾ أي بعدك . وقيل بمعنى مخالفتِك . ﴿ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ قيل في المدَّةِ التي لبثوها بعده ما بين إخراجِهم له إلى قَتْلِهم يومَ بدرٍ ، وهذا قولُ من ذَكَرَ أنّهم قريشٌ . وقيل ما بين ذلك وقَتْلِ بني قريظةَ وإجلاءِ بني النّضيرِ ، وهذا قولُ من ذَكَرَ أنّهم اليهودُ .

(١٠١) السُّؤَالُ عَنِ الرُّوحِ :

يقولُ تعالى . ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٨٥)

رَوَى البخاريُّ ومسلمُ والترمذيُّ عن عبدِ اللهِ قال : بينا أنا مع رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في حَرْثٍ وهو متَّكئٌ على عسيبٍ إذ مرَّ اليهودُ فقال بعضُهم لبعضٍ: سَلُوه عن الرُّوحِ . فقال : ما رابَكم إليه ؟ أي ما دعاكم إلى مثلِ هذا السُّؤالِ ؟ وقالوا : لا يستقبلُكم بشيءٍ تكرهونه . فقالوا : سَلُوه . فسألوه عن الرُّوحِ ، فأمسك رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فلم يرُدَّ عليهم شيئًا ، فعلمتُ أنه يوحَى إليه، فقمتُ مقامي، فلما نزل الوحيُ قال : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وقد اختلف الناسُ في الرُّوحِ المسئولِ عنه ، أيُّ الرُّوحِ هو ؟ فقيل : هو جبريلُ . وقيل : هو عيسى . وقيل : هو القرآنُ . وقيل : هو مَلَكٌ من الملائكةِ . وذهب أكثرُ أهلِ التأويلِ إلى أنهم سألوه عن الرُّوحِ الذي يكونُ به حياةُ الجسدِ . وهذا شيءٌ لا يعلمُهُ إلاّ اللهُ عزّ وجلّ. إذ هو شأنٌ من أمْرِ اللهِ تعالى مُبْهِمًا له وتاركًا تفصيلَه ، ليعرِفَ الإنسانُ عجزَه عن علْمِ حقيقةِ نفسِه مع العلمِ بوجودِها . وعجزُهُ عن إدراكِ خالقِه أعجَزُ . ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وقيل : المخاطَبون هم السَّائلون فقط . وقيل : المرادُ اليهودُ بجملتِهم . وقيل : المرادُ العالمُ كلُّه . وهو الصحيحُ .

(١٠٢) الْعَصَا : (مِنْ سُورَةِ طَهَ)

يقولُ تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾

(طه:١٧،١٨)

كان هذا الخطابُ من اللهِ تعالى لموسى وَحْيًا ، لأنه قال : ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ ولابد للنبيِّ في نفسِهِ من معجزةٍ يعلمُ بِها صِحَّةَ نبوَّةِ نفسِه ، فأراه في العصا وفي نفسه ما أراهُ ذلك . وفي هذه الآيةِ دليلٌ على جوابِ السُّؤالِ بأكثرَ مما سُئِلَ ، لأنه ذَكَرَ أربعةَ معانٍ هي : إضافةُ العصا إليه وكان حقًّا أنْ يقولَ عصا بدونِ إضافة، والتوكُّؤُ ، والهشُّ، والمآربُ المطلقةُ . فذكَرَ موسى من منافعِ عصاهُ معظمَها . ﴿ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا ﴾ أي أتحاملُ عليها في المشيِ والوقوفِ . ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا ﴾ أي أضربُ بِهَا أغصانَ الشَّجرِ ليسقطَ ورقُها ، لتأكلَه عنـــمي . ورُوِيَ عن ميمـــونِ ابنِ مهرانَ قال : إمساكُ العصا سُنَّةٌ للأنبياءِ ، وعلامةٌ للمؤمنِ . وقال الحسَنُ البصريُّ : فيها ستُّ خِصالٍ ، سُنَّةٌ للأنبياءِ ، وزينةُ الصُّلحاءِ ، وسلاحٌ علـــى الأعداءِ ، وعوْنُ الضُّعفاءِ ، وغمُّ المنافقين ، وزيادةٌ في الطَّاعاتِ . ويُقالُ : إذا كان مع المؤمنِ العصا يهربُ منه الشَّيطانُ ، ويخشعُ منه المنافقُ والفاجرُ ، وتكونُ قِبلتَهُ إذا صلَّى ، وقوَّةً إذا أعيا .

(١٠٣) التَّدْوِيـــنُ لِلْعُـــلُومِ بِالْكِتَـــابَة :

يقولُ تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ (طه:٥١،٥٢)

البالُ : الحالُ ، أي ما حالُها وما شأنُها ؟ فأعلمَهُ أنَّ عِلمَها عند اللهِ تعالى ، أي أنَّ هذا من علمِ الغيبِ الذي سألتَ عنه ، وهو مما استأثرَ اللهُ تعالى به لا يعلمُهُ إلاَّ هُوَ ، وما أنا إلاَّ عبدٌ مثلُك ، لا أعلمُ منه إلاَّ ما أخبرَنِي به علاَّمُ الغيوبِ ، وعِلمُ أحوالِ القرونِ مكتوبةٌ عند اللهِ تعالى في اللوْحِ المحفوظِ . وقيل : المعنى فما بالُ القرونِ الأُولَى لم يُقِرُّوا بذلك . أي فما بالُهم ذهبوا وقد عبدوا غيرَ ربِّك . وقيل : إنَّما سأله عن أعمالِ القرونِ الأُولى ، فأعلمَهُ أنَّها مُحْصَاةٌ عند اللهِ تعالى ، ومحفوظةٌ عنده في كتابٍ ، فسيُجازيهم بِها غدًا . وهذه الآيةُ ونظائرُها ، تدلُّ على تدوينِ

العلومِ وكتابتِها لئلاّ تُنْسَى . فإنّ الحفظ قد تعتريه الآفاتُ من النسيانِ والغلطِ وعن قتادةَ أنه قيل له : أنكتبُ ما نسمعُ منك ؟ قال : وما يمنعُك أنْ تكتبَ وقد أخبرك اللطيفُ الخبيرُ أنه يكتبُ ، فقال :﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ (طه:٥٢) . وفي صحيحِ مسلمٍ عن أبي هريرةَ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (لمّا قضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ في كتابٍ على نفسه فهو محفوظٌ عنده إنّ رحمتي غلبَتْ غضبي) . وقال رجلٌ من الأنصارِ لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : يارسولَ اللهِ ، إني أسمعُ منك الحديثَ يُعجبُني ولا أحفظُهُ ، فقال له رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (استَعِنْ بيمينك) وأوْمَأَ إلى الخطِّ . وهذا نَصٌّ على جوازِ كَتْبِ العلمِ وتدوينه ، وأجمعَ عليه جمهورُ الصحابةِ والتابعين ، وقد أمَرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بكتبِ الخطبةِ في الحجِّ لأبي شاه " رجلٌ من اليمنِ " لمّا سأله كَتْبَها . ورَوَى عمرو بنُ شعيبٍ عن أبيه عن جدِّه عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال :(قَيِّدُوا العلمَ بالكتابةِ) (الدارمي). وقال معاويةُ ابنُ أبي قُرَّةَ : من لم يكتبْ العلمَ لم يعُدْ علمُه علمًا . وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الأعراف:١٤٥) . والعلمُ لا يُضبَطُ إلاّ بالكتابةِ . ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ تنزيهٌ للهِ تعالى عن هاتين الصِّفتين ، أي لا يغيبُ عنه شيءٌ ولا يغيبُ عن شيءٍ.

(١٠٤) النَّحْوُ والْمُصْحَفُ :

يقولُ تعالى : ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ (طه:٦٢-٦٤)

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ﴾ تشاوروا ، يريدُ السَّحَرة . ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓاْ ﴾ إنْ كان ما جاء به سحرًا فسنغلبُه ، وإنْ كان من عند الله فسيكونُ له أمرٌ ، وهذا الذي أسرُّوه . ﴿ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴾ المناجاةُ . وقيل : أحيانًا تكونُ "إنَّ" بمعنى " نَعَم" ، وحكى سيبويه أنّ " إنَّ " تأتي بمعنى " أَجَلْ ". وعن عليِّ بنِ أبي طالب قال: لا أُحْصِي كم سمِعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ على منبرِه :(إنَّ الحمدُ للهِ نحمدُه ونستعينُه) ثم يقولُ : (أنا أفصحُ قريشٍ كلِّها وأفصحُها بعدي أبَانُ بنُ سعيدِ بنُ العاصِ) . إعرابُهُ عند أهلِ العربيةِ والنَّحوِ (إنّ الحمدَ للهِ) بالنَّصبِ إلاّ أنَّ العربَ تجعلُ " إنّ " في معنى " نَعَم" ، كأنه أراد " نَعَمْ الحمدُ للهِ " ، وذلك أنّ خطباءَ الجاهليةِ كانتْ تفتتحُ في خُطَبِها بنَعَمْ . فعلى هذا جائزٌ أنْ يكونَ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ بمعنى " نَعَمْ " ولا تَنصِبُ .

(١٠٥) بَشَرِيَّةُ الرَّسُولِ : (مِنْ سُورَةِ الأَنْبِيَاءِ)

يقولُ تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٩ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ (الأنبياء:٧-١٠)

هذا رَدٌّ عليهم في قولِهم : ﴿ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ (الأنبياء:٣) ، وتأنيسٌ لرسولِه صلى اللهُ عليه وسلم ، أي لم يرسلْ قبلَك إلاّ رجالاً. ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ يريدُ أهلَ التوراةِ والإنجيلِ الذين آمنوا برسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وسمَّاهم أهلَ الذِّكرِ لأنَّهم كانوا يذكرون الأنبياءَ مما لم تعرِفْهُ العربُ ، وكان كفَّارُ قريشٍ يُراجعون أهلَ الكتابِ في أمْرِ محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلم . وقال ابنُ زيدٍ : أراد بالذِّكْرِ القرآنَ ، أي فاسئلوا المؤمنين العالِمين من

أهلِ القرآن . قال جابرُ الجعفيُّ : لمّا نزلتْ هذه الآيةُ قال عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه : نحن أهلُ الذِّكْرِ . وقد ثبت بالتواترِ أنّ الأنبياءَ كانوا من البشرِ .، فالمعنى لا تبدءوا بالإنكارِ وبقولِكم إنّ الرّسولَ ينبغي أنْ يكونَ من الملائكةِ ، بل ناظِرُوا المؤمنين ، ليبيِّنوا لكم جوازَ أنْ يكونَ الرَّسولُ من البشرِ ، والمَلَكُ لا يُسَمَّى رجلاً ، فقولُهُ : ﴿ إِلَّا رِجَالاً ﴾ يعني من بني آدمَ . ولم يختلفِ العلماءُ أنّ العامَّةَ لا يجوزُ لَها الفُتْيَا ، لجهلِها بالمعاني التي منها يجوزُ التحليلُ والتحريمُ . ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ أي لم نجعلِ الرُّسُلَ قبلَك خارجين عن طباعِ البشرِ لا يحتاجون إلى طعامٍ وشرابٍ . ﴿ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾ يريدُ لا يموتون . و ﴿ جَسَدًا ﴾ الجسدُ البَدَنُ .

(١٠٦) اتِّخَاذُ الصَّنَائِعِ وَالأَسْبَابِ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ (الأنبياء:٨٠)

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ يعني اتِّخاذَ الدُّروعِ بإلانَةِ الحديدِ له ، واللبوسُ عند العربِ السِّلاحُ كلُّه، وأراد اللهُ تعالى هنا الدِّرْعَ ، وهو بمعنى الملبوسِ . وقال قتادةُ : أوَّلُ من صنعَ الدُّروعَ داودُ . ﴿ لِتُحْصِنَكُم ﴾ لتحرزَكم . ﴿ مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ من حربكم . وقيل : من السَّيفِ والسَّهمِ والرُّمحِ . وقيل :من أعدائكم. ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ على تيسيرِ نعمةِ الدُّروعِ لكم . وقيل : بأنْ تُطيعوا رسولي . وهذه الآيةُ أصلٌ في اتِّخاذِ الصَّنائعِ والأسبابِ ، وهو قولُ أهلِ العقولِ والألبابِ . وقد أخبرَ اللهُ تعالى أنّ داوُدَ عليه السلامُ كان يصنعُ الدُّروعَ ، وكان أيضًا يصنعُ الخُوصَ ، وكان يأكلُ من عَمَلِ يدِه ، وكان آدمُ حرَّاثًا ، ونوحٌ نجَّارًا ، ولقمانُ خيَّاطًا ، وطالوتُ دبَّاغًا وقيل سَقَّاءً ، فالصَّنعةُ يكُفُّ الإنسانُ بها نفسَهُ عن الناسِ ، ويدفعُ بها عن نفسِه الضَّرَرَ والبأسَ . وفي الحديثِ : (إنَّ اللهَ يُحِبُّ المؤمنَ المحترِفَ الضّعيفَ المتعفِّفَ ويبغَضُ السَّائلَ الملحِفَ) .

(١٠٧) عِبَادَةُ اللهِ عَلَى حَرْفٍ : (من سُورةِ الْحَجِّ)

يقولُ تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الحج:١١)

قال ابنُ عباسٍ : يريدُ شيبةَ بنَ ربيعةَ ، كان قد أسلمَ قبل أنْ يظهرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فلمّا أوَى إليه ارتدَّ شيبةُ . وقال أبو سعيدٍ الخُدريُّ : أسلمَ رجلٌ من اليهودِ فذهب بصرُهُ ومالُهُ ، فتشاءمَ بالإسلامِ فأتى رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال : أقِلْني . فقال: (إنّ الإسلامَ لا يُقالُ) فقال : إني لم أُصبْ في ديني هذا خيرًا . ذهب بصري ومالي وولدي ! فقال : (يايهوديُّ إنّ الإسلامَ يسْبِكُ الرجالَ كما تَسْبِكُ النّارُ خَبَثَ الحديدِ والفضَّة والذّهبِ) ، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ . وعن ابنِ عباسٍ قال : كان الرجلُ يَقْدَمُ المدينةَ فإنْ ولدتْ امرأتُهُ غلامًا ونُتِجَتْ خيلُهُ قال : هذا دينٌ صالحٌ ، فإنْ لم تلدْ امرأتُهُ ولم تُنْتَجْ خيلُهُ قال: هذا دينُ سَوْءٍ .وقال المفسِّرون : نزلتْ في أعرابٍ كانوا يقدمون على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فيُسْلِمون ، فإنْ نالوا رخاءً أقاموا ، وإنْ نالتهم شِدَّةٌ ارتدُّوا . ومعنى "على حرفٍ" على شَكٍ ، وقيل : على ضَعفٍ في عبادته ، وحَرْفُ كلِّ شيءٍ طَرَفُهُ . وقيل : على شَرْطٍ ، وذلك أنّ شَيْبَةَ بنَ ربيعةَ قال لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قبل أنْ يظهرَ أمرُهُ : ادعُ لي ربَّك أنْ يرزقَني مالاً وإبلاً وخَيْلاً وولدًا حتى أُومِنَ بك وأعدلَ إلى دينك ، فدعا له فرزقَهُ اللهُ تعالى ما تمنّى ، ثم أراد اللهُ تبارك وتعالى فِتْنَتَهُ واختبارَهُ فأخذ منه ما كان رزقَهُ به بعد أنْ أسلمَ ، فارتدَّ عن الإسلامِ ، فأنزل اللهُ تعالى فيه هذه الآيةَ . ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ صحَّةُ جِسمٍ ورخاءُ معيشةٍ رضِيَ وأقام على دينه . ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أي

خلافُ ذلك مما يُختبَرُ به . ﴿ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ ارتدَّ عن الدِّينِ . ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ وخُسرانه الدنيا بأنْ لا حَظَّ له في غنيمةٍ ولا ثناءٍ ، والآخرةَ بأنْ لا ثوابَ له فيها .

(١٠٨) الرِّسَالَةُ وَالإِلْهَامُ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحج:٥٢)

﴿ تَمَنَّىٰٓ ﴾ أي قرأ وتلا . وقيل : حدَّثَ . ﴿ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ أي قراءته وتلاوته . وقال الفراءُ : الرسولُ الذي أُرسِلَ إلى الخَلْقِ بإرسالِ جبريلَ عليه السلامُ إليه عيانًا ، والنبيُّ الذي تكونُ نبوَّتُهُ إلهامًا أو منامًا ، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً . وإنّ الرُّسُلَ من الأنبياءِ ثلاثُمائةٍ وثلاثةُ عَشَرَ ، أوَّلُهم آدمُ وآخرُهم محمدٌ صلى اللهُ عليه وسلم . وعن أبي بكرِ بنِ عبدِ الرحمنِ بن الحارثِ قال: قرأ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ (النجم:١) فلمّا بلغَ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ (النجم:١٩-٢٠) سَهَا فقال : [إنَّ شَفَاعَتَهُمْ تُرْتَجَى] فلَقِيَهُ المشركون والذين في قلوبهم مرضٌ فسلَّموا عليه وفرِحوا ، فقال : (إنّ ذلك من الشَّيطانِ) فأنزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ . ومن شيوخِ العلماءِ والمتكلِّمين من قال : هذا لا يجوزُ على النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم وهو المعصومُ في التبليغِ ، وإنّما الأمْرُ أنّ الشَّيطانَ نطقَ بلفْظٍ أسمعَه الكفّارَ عند قولِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم : ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ (النجم:٢٠) وقرَّب الشَّيطانُ صَوْتَهُ من صَوْتِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حتى التَبَسَ الأمرُ على المشركين ، وقالوا : قرأها محمدٌ . ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ قال

ابنُ عباسٍ : فيُبطِلُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيطانُ . والمعنى أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كان إذا حدَّثَ نفسَهُ ألقى الشَّيطانُ في حديثِهِ على جهةِ الحيلةِ فيقولُ : لو سألتَ اللهَ عزّ وجلّ أنْ يُغنِّمَكَ ليتَّسعَ المسلمون ، ويعلمُ اللهُ عزَّ وجلَّ أنّ الصّلاحَ في غيرِ ذلك ، فيُبطِلُ ما يُلْقِي الشَّيطانُ . ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليمٌ بما أوْحَى إلى نبيِّهِ حَكيمٌ في خَلْقِهِ .

ويقولُ تعالى : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (الحج:٥٣)

﴿ فِتْنَةً ﴾ أي ضلالةً . ﴿ مَّرَضٌ ﴾ شرْكٌ ونفاقٌ . ﴿ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ فلا تلينُ لأمرِ اللهِ . قال الثّعلبيُّ : وفي الآيةِ دليلٌ على أنّ الأنبياءَ يجوزُ عليهم السَّهوُ والنسيانُ والغلطُ بوسواسِ الشَّيطانِ ، أو عند شَغْلِ القلبِ حتى يَغلطَ ، ثم يُنبَّهُ ويرجعُ إلى الصحيحِ ، وهو معنى قولِهِ تعالى : ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ . ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي الكافرين لفي خِلافٍ وعِصيانٍ ومشاقّةٍ للهِ عزَّ وجلَّ ولرسولِهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

سُـــورَةُ الْمُؤْمِنُـــونَ : (مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا فِي قَوْلِ الْجَمِيعِ)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ

صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (المؤمنون:١-١١)

(١٠٩) خُشُوعُ الصَّلَاةِ : (مِنْ سُورَةِ " الْمُؤْمِنُونَ ")

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ رَوَى البيهقيُّ من حديثِ أنسٍ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لَمّا خَلَقَ اللهُ جنَّةَ عَدْنٍ وغرس أشجارَها بيدِه قال لَها تكلَّمي فقالتْ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾) وفي الترمذيِّ عن عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه قال : كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا أُنزِلَ عليه الوَحْيُ سُمِعَ عند وجهِهِ كَدَوِيِّ النَّحْلِ ، وأُنزِلَ عليه يومًا فمكثنا عنده ساعةً فَسُرِّيَ عنه فاستقبلَ القِبْلَةَ فرفعَ يديه وقال : (اللهم زِدْنَا ولا تَنْقُصْنَا وارضِنَا وارْضَ عنَّا "ثم قال" أُنْزِلَ عليّ عَشْرُ آياتٍ من أقامهنّ دخلَ الجنَّةَ "ثم قرأ " قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) حتى خَتَمَ عَشْرَ آياتٍ . وقال النَّحاسُ : معنى [مَنْ أَقَامَهُنَّ] من أقام عليهنّ ولم يُخالفْ ما فيهنّ . ثم نزل بعد ذلك فرْضُ الوضوءِ والحجِّ فدخلَ معهنّ . ﴿ خَٰشِعُونَ ﴾ خاضعون لجلال الله ﴿ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾. وإنّما عُرِفَ حِفْظُ المرأةِ فَرْجَهَا من أدلّةٍ أُخَرَ كآياتِ الإحصانِ عمومًا وخصوصًا وغيرِ ذلك من الأدلّة . ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾ اللاتي أحلّ الله لَهم لا يُجاوِزون . ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ وهذا يقتضي تحريمَ الزِّنى والاستمناءَ ، ونكاحَ المُتْعَةِ ، لأنّ المتمتَّعَ بِها لا تجرِي مجرَى الزوجاتِ ، لا ترِثُ ولا تُوَرَّثُ، ولا يُلْحَقُ بِها ولدُها، ولا يُخْرَجُ من نكاحِها بطلاقٍ يُستأنفُ لَها وإنّما يُخْرَجُ بانقضاءِ المدَّةِ التي عُقِدَتْ عليها وصارتْ كالمُسْتَأْجَرَةِ ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ فسمَّى من نكحَ مالا يحِلُّ له عاديًا ، وأوجبَ عليه الحدَّ لعدوانِه .، واللائطُ عادٍ قرآنًا ولُغَةً ، بدليلِ قولِه تعالى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (الشعراء:١٦٦).

﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ أي من طلبَ سوى الأزواجِ والولائدِ المملوكةِ له ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أي المجاوِزون الحدَّ . ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ والأمانةُ والعهدُ كلُّ ما يحملُهُ الإنسانُ من أمرِ دينِه ودنياهُ قولاً وفعلاً. وهذا يعُمُّ معاشرةَ الناسِ والمواعيدَ وغيرَذلك ، والأمانةُ أعمُّ من العهدِ ، وكلُّ عهدٍ فهو أمانةٌ فيما تقدَّمَ فيه قولٌ أو فعلٌ أو مُعْتَقَدٌ . والمحافظةُ على الصّلوات إقامتُها والمبادرةُ إليها أوائلَ أوقاتِها ، وإتمامُ ركوعِها وسجودِها . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ أي من عملَ بما ذُكِرَ في هذه الآياتِ فهم الوارثون ، أي يرِثون منازلَ أهلِ النّارِ من الجنَّةِ . وعن أبي هريرةَ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ اللهَ تعالى جعلَ لكلِّ إنسانٍ مسكنًا في الجنَّةِ ومسكنًا في النّارِ فأمّا المؤمنون فيأخذون منازلَهم ويرِثون منازلَ الكفّارِ ويجعلُ الكفّارَ في منازلِهم في النّارِ)(خرجه ابن ماجه بمعناه). وعن أبي هريرةَ أيضًا قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (ما منكم من أحد إلاّ وله منزلان منزلٌ في الجنَّةِ ومنزلٌ في النّار فإذا مات فدخلَ النّارَ وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ منزلَهُ فذلك قولُهُ تعالى : " أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ") (ابن ماجه)

الْفِرْدَوْسَ : ربوةٌ في الجنَّةِ واوسَطُها وأفضلُها . خرَّجَهُ الترمذيُّ . وفي صحيحِ مسلمٍ : (فإذا سألتم اللهَ فسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ فإنه أوسطُ الجنَّةِ وأعلى الجنَّةِ ومنه تفجرُ أنهارُ الجنَّةِ) . ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي في الجنَّةِ .

(١١٠) الزّنـــي : (مِنْ سُورَةِ النُّورِ)

يقـــولُ تعـــالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور:٢)

الزِّنى هو اسمٌ لوطءِ الرجلِ امرأةً في فرجِها من غيرِ نكاحٍ ولا شُبهةِ نكاحٍ بمطاوعتِها . فإذا كان ذلك وجبَ الحدُّ ، وهذه الآيةُ ناسخةٌ لآيةِ الحبسِ وآيةِ الأذى اللتين في سورةِ " النساءِ " باتِّفاقٍ . ﴿ مِأْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ هذا حدُّ الزَّاني الحرِّ البالغِ البِكْرِ ، وكذلك الزَّانية البالغة البِكْرِ الحرَّة . أمّا المملوكاتُ فالواجبُ خمسون جلدةً، لقولِه تعالى : ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ (النساء:٢٥). وهذا في الأمَةِ ، ثم العبدِ في معناها . وأما الْمُحْصَنُ من الأحرارِ فعليه الرَّجْمُ دونَ الجَلْدِ . ومن العلماءِ من يقولُ : يُجْلَدُ مائةً ثم يُرْجَمُ . وقُدِّمَتِ المرأةُ في هذه الآيةِ لأنّ زِنى النساءِ في ذلك الزمانِ كان فاشيًا ، وكان لإماءِ العربِ وبغايا الوقتِ راياتٌ ، وكُنَّ مجاهِراتٍ بذلك . وقيل : لأنّ الشهوةَ في المرأةِ أكثرُ وأغلبُ ، وإنْ كان قد رُكِّبَ فيها حياءٌ لكنّها إذا زَنَتْ ذهبَ الحياءُ عنها . ونصَّ اللهُ تعالى على ما يجبُ على الزَّانِيَيْن إذا شُهِدَ بذلك عليهما ، على ما يأتي ، وأجمعَ العلماءُ على القولِ به . واختلفوا فيما يجبُ على الرجلِ يُوجَدُ مع المرأةِ في ثوبٍ واحدٍ ، فقال إسحاقُ بنُ رَاهَوَيْه : يُجْلَدُ كلُّ واحدٍ منهما مائةَ جلدةٍ . وقال عطاءٌ وسفيانُ الثوريّ ، وبه قال مالكٌ وأحمدُ: يُؤدَّبان ، على قدْرِ مذاهبِهم في الأدبِ . وقيل : الخطابُ للمسلمين ، لأنّ إقامةَ مراسمِ الدِّينِ واجبةٌ على المسلمين ، ثم الإمامُ ينوبُ عنهم ، إذ لا يُمكنُهم الاجتماعُ على إقامةِ الحدودِ . وأجمعَ العلماءُ على أنّ الجَلْدَ يكونُ بالسَّوْطِ . السَّوْطُ الذي يجبُ أنْ يُجْلَدَ به يكونُ سَوطًا بين سَوْطَين ، لا شديدًا ولا لَيِّنًا . ورَوَى مالكٌ عن زيدِ بنِ أسلمَ أنّ رجلاً اعترفَ على نفسِه بالزِّنى على عهدِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فدعا له رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بسوْطٍ فأُتِيَ بسَوْطٍ مكسورٍ ، فقال :(فوقَ هذا) فأُتِيَ بسَوْطٍ جديدٍ لم تقعْ ثَمَرَتُهُ " اي طرْفُهُ مُحَدَّدٌ لم تكسرْ حِدَّتُهُ " ، فقال : (دونَ هذا) فأُتِيَ بسَوْطٍ قد رُكِبَ به ولاَنَ " انكسَرَتْ حِدَّتُهُ " فأمَرَ به رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَجُلِدَ به. واختلفَ العلماءُ في تجريدِ المجلودِ في الزِّنى ، فقال مالكٌ وأبو حنيفةَ:

يُجَرَّدُ ، ويُتْرَكُ على المرأةِ ما يسترُها دونَ ما يقيها الضربَ . وقال الأوزاعيُّ : الإمامُ مُخَيَّرٌ إنْ شاءَ جرَّدَ وإنْ شاءَ تَرَكَ . وقال الشَّعبيُّ والنَّخَعيُّ : لا يُجَرَّدُ ولكن يُتْرَكُ عليه قميصٌ . وقال ابنُ مسعودٍ : لا يَحِلُّ في هذه الأُمَّةِ تجريدٌ ولا مدٌّ . وقال مالكُ : الرجلُ والمرأةُ في الحدودِ سواءٌ ، لا يُقامُ واحدٌ منهما ، ولا يجزي عنده إلاّ في الظهرِ . وأصحابُ الرأيِ والشَّافعيُّ يرَوْنَ انْ يُجْلَدَ الرجلُ وهو واقفٌ . وقال أبــو حنيفةَ والشَّافعيُّ : الضَّربُ في الحدودِ كلِّها وفي التعزيرِ مُجَرَّدًا قائمًا غيرَ ممدودٍ ، إلاّ حدَّ القذفِ فإنه يُضرَبُ وعليه ثيابُهُ . ويُتَّرَعُ عنه الحشْوُ والفرْوُ . وقال الشَّافعيُّ : إنْ كان مدُّهُ صلاحًا مُدَّ . وفي المواضعِ التي تُضرَبُ من الإنسانِ قال مالكُ : الحدودُ كلُّها لا تُضْرَبُ إلاّ في الظَّهرِ ، وكذلك التعزيرُ . وقال الشَّافعيُّ وأصحابُه : يُتَّقَى الوجهُ والفرْجُ وتُضْرَبُ سائرُ الأعضاءِ . وأشارَ ابنُ عمرَ إلى رِجْلَيْ أَمَةٍ جلَدَها في الزِّنى . والضَّرْبُ الذي يجبُ هو انْ يكونَ مؤلمًا لا يجرحُ ولا يبضعُ ، ولا يُخْرِجُ الضارِبُ يدَهُ من تحتِ إبطِهِ . وأُتِيَ عمرَ برجلٍ في حدٍ فأتى بسوطٍ بين سوطَين ، وقال للضَّارِبِ: اضربْ ولا يُرَى إبطُكَ ، وأَعْطِ كلَّ عُضْوٍ حقَّهُ . ويجبُ انْ تُرَكَّبَ العقوباتُ على تغليظِ الجناياتِ وهَتْكِ الحُرُماتِ . وقد لَعِبَ رجلٌ بصبيٍّ فضرَبَهُ الوالي ثلاثمائةَ سوْطٍ ، فلم يُغيِّرْ ذلك مالكُ حين بَلَغَهُ ، فكيف لو رأى زمانَنا هذا بهَتْكِ الحُرُماتِ والاستهتارِ بالمعاصي ، والتظاهُرِ بالمُنْكَرِ وبيعِ الحدودِ واستيفاءِ العبيدِ لَها في منصبِ القُضاةِ ، لَماتَ كَمَدًا ولم يُجالسْ أحدًا ، وحسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ . ولهذا المعنى زِيدَ في حدِّ الخمرِ حتى انتهى إلى ثمانين ، واللهُ تعالى أعلــمُ . ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ أي لا تمتنعوا عن إقامةِ الحدودِ شفقةً على المحدودِ ، ولا تُخَفِّفُوا الضَّربَ من غيرِ إيجاعٍ ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقيل : لابد من حضورِ أربعةٍ قياسًا على الشهادةِ على الزِّنى وقيل : لابد من اثنين . وقيل : ثلاثة لأنه أقلُّ الجمعِ . وقيل : واحدٌ فصاعدًا ، والواحدُ يُسمَّى طائفةً إلى الألْفِ . وعن حُذَيفة رضي اللهُ عــنه انّ رســولَ اللهِ

صلى الله عليه وسلم قال : (يا معاشرَ الناسِ اتَّقوا الزِّنى فإنّ فيه ستَّ خصالٍ ثلاثًا في الدنيا وثلاثًا في الآخرةِ فأمّا اللواتي في الدنيا فيُذْهِبُ البهاءَ ويُورِّثُ الفقرَ ويُنقِصُ العُمْرَ، وأمّا اللواتي في الآخرةِ فيُوجِبُ السُّخْطَ وسوءَ الحسابِ والخلودَ في النّارِ).
وعن أنسٍ أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنّ أعمالَ أُمَّتي تُعرَضُ عليّ في كلِّ جمعةٍ مرَّتين فاشتدَّ غضبُ الله على الزُّناة)(البخارى). وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا كانَ ليلةُ النِّصفِ من شعبان اطَّلَعَ اللهُ على أُمَّتي فغفرَ لكلِّ مؤمنٍ لا يُشرِكُ باللهِ شيئًا إلاّ خمسةً ساحرًا وكاهنًا وعاقًّا لوالديه ومدمنَ خمرٍ ومُصِرًّا على الزِّنى)(ابن ماجه).

يقولُ تعالى : ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور:٣)
يريدُ بقولِه : ﴿ لَا يَنكِحُ ﴾ أي لا يَطَأُ ، فيكونُ النكاحُ بمعنى الجماعِ . والمعنى أنّ الزّاني لا يطأُ في وقتِ زِناه إلاّ زانيةً من المسلمين ، أو من هي أحسنُ منها من المشركاتِ . وإنْ زَنا بالغٌ بصبيّةٍ ، أو عاقلٌ بمجنونةٍ ، أو مستيقظٌ بنائمةٍ ، فإنّ ذلك من جهةِ الرجلِ زِنًى ، فهذا زَانٍ نَكَحَ غيرَ زانيةٍ ، ووجبَ الحدُّ على الرجلِ وحده . وقال قومٌ من المتقدِّمين : من زَنَى فَسَدَ النكاحُ بينه وبين زوجتِه ، وإذا زَنَتْ الزوجةُ فسَدَ النكاحُ بينها وبين زوجِها . وقال قومٌ من هؤلاء : لا ينفسِخُ النكاحُ بذلك ، ولكن يُؤمَرُ الرجلُ بطلاقِها إذا زَنَتْ ، ولو أمسكَهَا أثِمَ ، ولا يجوزُ التَّزَوُّجُ بالزّانيةِ ، بل لو ظَهَرَتِ التوبةُ فحينئذٍ يجوزُ النكاحُ . ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي نكاحُ أولئك البغايا . وقال أصحابُ الرأيِ في الرجلِ المسلمِ ، إذا كان في دارِ الحربِ بأمانٍ ، وزَنى هنالك ثم خرجَ لم يُحَدَّ . وقال ابنُ المنذرِ : دارُ الحربِ ودارُ الإسلامِ سواءٌ ، ومن زَنى فعليه الحدُّ .

(١١١) رَمْيُ الْمُحْصَنَات :

يقولُ تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور:٤،٥)

سببُ نزولِ هذه الآيةِ ما قيل في عائشةَ أُمِّ المؤمنين رضي اللهُ عنها . وقيل : بل نزلتْ في القَذَفَةِ عامَّةً . ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ﴾ أي يسبُّون . وذَكَرَ اللهُ تعالى في الآيةِ النساءَ من حيثُ أنهنّ أهمُّ ، ورميُهنّ بالفاحشةِ أشنعُ وأقسَى للنفوسِ . وقَذْفُ الرجالِ داخلٌ في حكمِ الآيةِ بالمعنى . والمحصَناتُ : العفائفُ . وللقَذْفِ شروطٌ عند العلماءِ تسعةٌ : شرطان في القاذفِ ، وهما العقلُ والبلوغُ لأنهما أصلُ التكليفِ ، إذ التكليفُ ساقطٌ دونهما . وشرطان في الشيءِ المقذوفِ به ، وهو أنْ يُقْذَفَ بوَطْءٍ يلزمُهُ فيه الحدُّ وهو الزِّنى واللواطُ ، أو بنفْيِهِ من أبيه دونَ سائرِ المعاصي . وخمسةٌ في المقذوفِ ، وهي العقلُ والبلوغُ والإسلامُ والحرِّيةُ والعِفَّةُ عن الفاحشةِ التي رُمِيَ بها ، كان عفيفًا من غيرِها أم لا . وقال الجمهورُ من العلماءِ : إنه لا حدَّ على من قذفَ رجلاً من أهلِ الكتابِ أو امرأةً منهم . وقال الزهريُّ وسعيدُ بنُ المسيّبِ : عليه الحدُّ إنْ كان لَها ولدٌ من مسلمٍ . وقيل : إذا قذفَ النصرانيةَ تحتَ المسلمِ جُلِدَ الحدَّ . قال ابنُ المنذرِ : وجلُّ العلماءِ مُجمعون وقائلون بالقولِ الأوَّلِ . قال مالكٌ : ومن قذفَ أُمَّ الوَلَدِ حُدَّ . وقال الحسنُ البصريُّ : لا حدَّ عليه . وقال أحمدُ في الجاريةِ بنتِ تسْعٍ : يُجْلَدُ قاذفُها ، وكذلك الصَّبيُّ إذا بلغَ عَشْرًا ضُرِبَ قاذفُهُ . وقال إسحاقُ : إذا قذفَ غلامًا يُطَأُ مثلُهُ فعليه الحدُّ ، والجاريةُ إذا جاوزتْ تسْعًا مثلُ ذلك . وفي حديثِ عليٍّ رضي اللهُ عنه أنّ امرأةً جاءته فذَكَرَتْ أنّ زوجَها يأتي جاريتَها فقال : إنْ كنتِ صادقةً رجمناهُ ، وإنْ كنتِ كاذبةً جَلَدْناكِ . فقالتْ : رُدُّوني

إلى أهلي غَيْرَى نَغِرَةُ . ﴿ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ الذي يفتقِرُ إلى أربعةِ شهداءَ دونَ سائرِ الحقوقِ هو الزِّنَى ، رحمةً بعبادِهِ وسِتْرًا لَهم . ومن شرْطِ أداءِ الشُّهودِ الشَّهادةَ عند مالكٍ أنْ يكونَ ذلك في مجلسٍ واحدٍ ، فإنْ افترقَتْ لم تكنْ شهادةً . وقال عبدُ الملكِ : تُقبَلُ شهادتُهم مجتمعين ومفترقين . وحُكْمُ شهادةِ الأربعةِ أنْ تكونَ على معاينةٍ يَرَوْنَ ذلك كالمِرْوَدِ في المُكْحُلَةِ ، وأنْ تكونَ في موطنٍ واحد ، على قولِ مالكٍ . وإنْ اضطربَ واحدٌ منهم جُلِدَ الثلاثةُ . ﴿ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا ﴾ مُدَّةَ أعمارِهم ، ثم حَكَمَ عليهم بأنّهم فاسقون ، أي خارجون عن طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ . ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ إلاّ الذين تابوا وأصلحوا بعد القذفِ . والقاذفُ لا تُقبَلُ شهادتُهُ ولو تابَ وأكذبَ نفسَهُ ولا بحالٍ من الأحوالِ . وقال الجمهورُ : الاستثناءُ عاملٌ في رَدِّ الشهادة ، فإذا تابَ القاذفُ قُبِلَتْ شهادتُهُ ، وإنما كان رَدُّها لعلّةِ الفِسْقِ ، فإذا زالَ بالتوبةِ قُبِلَتْ شهادتُهُ مطلقًا قبل الحدِّ وبعده ، وهو قولُ عامَّةِ الفقهاءِ . وقد قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ ﴾ . وأجمعت الأُمَّةُ على أنَّ التوبةَ تمحو الكفرَ ، فيجبُ أنْ يكونَ ما دونَ ذلك أولَى . واللهُ أعلمُ . وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (التَّائبُ من الذَّنْبِ كمن لا ذَنْبَ له) (ابن ماجه)، وإذا قَبِلَ اللهُ التوبةَ من العبدِ كان العبادُ بالقبولِ أولَى .﴿ وَأَصۡلَحُواْ ﴾ أي أظهروا التوبةَ وأصلحوا العملَ . ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ حيثُ تابوا وقُبِلَتْ توبتُهم.

(١١٢) اللِّعَـــانُ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا

ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور:٦-١٠)

﴿ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ ﴾ لتُزيلَ عنه حدَّ القذف . وسببُ نزولِ هذه الآيةِ ما رواه أبو داوُدَ عن ابنِ عباسٍ أنّ هلالَ بنَ أُمَيَّةَ قذفَ امرأتَهُ عندَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِشَرِيك بنِ سَحْمَاءَ ، فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم :(الْبَيِّنَةَ أوحَدٌّ في ظهرِك) قال: يارسولَ اللهِ ، إذا رأى أحدُنا رجلاً على امرأتِهِ يلتمسُ البيِّنةَ ! فجعل النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ :(البيِّنةَ وإلاّ حُدَّ في ظهرِك).فقال هلالُ : والذي بعثك بالحقِّ إني لصادقٌ ولَيُنزِلَنَّ اللهُ في أمري ما يُبرِئُ ظهري من الحدِّ ، فنزلتْ هذه الآيةُ ، فقرأ حتى بلغَ ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. وقيل: لمّا نزلَتْ هذه الآيةُ في الذين يرمون المحصنات وتناولَ ظاهرُها الأزواجُ ، قال سعدُ بنُ معاذٍ : يارسولَ اللهِ ، إنْ وجدتُ مع امرأتي رجلاً أُمْهِلُهُ حتى آتيَ بأربعةِ شهداءَ ! واللهِ لأضربَنَّ بالسَّيفِ غيرَ مُصْفِحٍ عنه . فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (أتعجبونَ من غَيْرَةِ سعدٍ ، لأنا أَغْيَرُ منه واللهُ أَغْيَرُ مني) (أحمد) ثم جاء من بعد ذلك هلالُ بنُ أُمَيَّةَ فرمَى زوجتَه بشريكِ ابنِ سَحْمَاءَ " اسمُ أمِّه وسُمِّيت بالسَّحماءِ لسوادِها " على ما ذكَرناه ، وعزمَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم على ضربِهِ حدَّ القذفِ ، فنزلتْ هذه الآيةُ عند ذلك ، فجمعهما رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في المسجدِ وتلاعَنا ، فتلكَّأَت المرأةُ عند الخامسةِ لمّا وُعِظَتْ ، ثم قالتْ لا أفضحُ قومي ، فالتعَنَتْ ، وفرَّقَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بينهما ، وولَدَتْ غلامًا كأنه جَمَلٌ أَوْرَقُ " في لَوْنِهِ بياضٌ إلى سوادٍ " – على النَّعتِ المكروهِ – ثم كان الغلامُ بعد ذلك أميرًا على مِصْرَ ، وهو لا يعرِفُ لنفسِهِ أبًا .

(١١٣) حَـديثُ الإفْـك :

يقولُ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور: ١١-٢٢)

الإفك : الكَذِبُ . والعُصبةُ : ثلاثة رجالٍ فما فوقَ . وسببُ نزولِ هذه الآياتِ ما رواه الأئمَّةُ من حديثِ الإفكِ الطويلِ في قصَّةِ عائشةَ رضي اللهُ عنها ، وأخرجهُ

البخاريُّ تعليقًا ، قال : وقال أسامةُ عن هشامِ بنِ عروةَ عن أبيه عن عائشةَ ، وأخرجهُ أيضًا عن محمدِ بنِ كثيرٍ عن أخيه سليمانَ من حديثِ مسروقٍ عن أمِّ رُومانَ أُمِّ عائشةَ أنها قالتْ : لمَّا رُمِيَتْ عائشةُ خرَّتْ مغشيًا عليها . ومن حديثِ أبي وائل قال : حدَّثني مسروقُ بنُ الأجدعِ قال حدَّثتني أُمُّ عائشةَ قالتْ : بينا أنا قاعدةٌ أنا وعائشةُ إذ وَلَجَتْ * دخَلَتْ * امرأةٌ من الأنصارِ فقالتْ : فَعَلَ اللهُ بِفُلانٍ وفَعَلَ بِفُلانٍ ! فقالتْ أُمُّ رُومان : وما ذاك ؟ قالتْ إنني فيمن حدَّثَ الحديثَ ! قالتْ : وما ذاك ؟ قالتْ : كذاوكذا . قالتْ عائشةُ : سمِعَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم؟ قالت نَعَمْ. قالتْ : وأبو بكرٍ ؟ قالتْ نَعَمْ . فخَرَّتْ مغشيًا عليها ، فما أفاقتْ إلاَّ وعليها حُمَّى بِنافِضٍ * برَغْشَةٍ * فطرحْتُ عليها ثيابَها فغطَّيْتُها ، فجاء رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال :(ما شأنُ هذه ؟) فقلتُ : يارسولَ اللهِ ، أخذتْها الحُمَّى بنافضٍ . قال: (فلعلَّ في حديثٍ تُحُدِّثَ به) قالتْ نَعَمْ . فقعدَتْ عائشةُ فقالتْ : واللهِ ، لَئِنْ حَلَفْتُ لا تُصَدِّقُونِي ! ولَئِنْ قلتُ لا تَعْذِرونِي ! مَثَلي ومَثَلُكم كيعقوبَ وبَنيه واللهُ المستعانُ على ما تصِفون . قالتْ : وانصرفَ ولم يَقُلْ شيئًا ، فأنزلَ اللهُ عُذْرَهَا . قالتْ : بِحمدِ اللهِ لا بِحمدِ أحدٍ ولا بِحمدكَ . ومن حديثِ مَعْمَرٍ عن الزهريِّ وفيه : قال كنتُ عند الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ فقال : الذي تَوَلَّى كِبْرَهُ منهم عليُّ بنُ أبي طالبٍ ؟ فقالتْ : لا . وسمِعَ كثيرون عائشةَ تقولُ : والذي تولَّى كِبْرَهُ عبدُ اللهِ ابنُ أُبَيِّ بنُ سَلولٍ . والبلاءُ النازلُ على الأولياءِ هو خيرٌ ، لأنَّ ضَرَرَهُ من الألمِ قليلٌ في الدنيا ، وخيرَهُ هو الثوابُ الكبيرُ في الأخرى . فنبَّهَ اللهُ عائشةَ وأهلَها وصَفْوانَ ، إذ الخطابُ لَهم في قولِه : ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ لرجحانِ النفعِ والخيرِ على جانبِ الشَّرِّ . والقصَّةُ أنه لمَّا خرج رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بعائشةَ في غزوةِ بني المُصْطَلِقِ وهي غزوةُ الْمُرَيْسِيعِ ، وقَفَلَ ودنا من المدينةِ آذنَ ليلةً بالرَّحيلِ ، وقامتْ عائشةُ حين آذنوا بالرحيلِ فمشتْ حتى جاوزتْ الجيشَ، فلما فرغتْ من شأنِها أقبلتْ إلى الرَّحْلِ فلمسَتْ صدرَها فإذا عِقْدٌ قد انقطعَ ،

فرجعتْ فالتمسَتْهُ فحبسها ابتغاؤُه ، فوجدتْهُ وانصرفتْ فلم تجدْ أحدًا ، وكانتْ شابَّةً قليلةَ اللحمِ ، فرفعَ الرجالُ هَوْدَجَهَا ولم يشعروا بزوالِها منه ، فلما لم تجدْ أحدًا ، اضطجعتْ في مكانِها رجاءَ أنْ تُفتَقَدَ فيُرْجَعَ إليها ، فنامتْ في الموضعِ ولم يوقظْها إلاّ قوْلُ صَفْوَان بنِ الْمُعَطَّلِ : إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون ، وذلك أنه كان قد تخلَّفَ وراءَ الجيشِ لحفظِ السَّاقةِ . وقيل : إنها استيقظتْ لاسترجاعِه ، ونزلَ عن ناقته وتنحَّى عنها حتى ركبتْ عائشةُ ، وأخذ يقودُها حتى بلغَ بِها الجيشَ في نَحرِ الظهيرةِ ، فوقعَ أهلُ الإفْكِ في مقالتِهم ، وكان الذي يُجتَمَعُ إليه ويستوشيه " يستخرجه بالبحث ثم يُفشيه ويُشيعُه " عبدُ اللهِ بنُ أُبَيّ بنُ سَلُولٍ ، المنافقُ ، وهو الذي رأى صَفْوَانَ آخذًا بزمامِ ناقةِ عائشةَ فقال : واللهِ ما نَجَتْ منه ولا نجا منها ، وقال : امرأةُ نبيِّكم باتتْ مع رجلٍ . وكان ممن خاض في ذلك حسَّانُ بنُ ثابتٍ ومِسْطَحُ بنُ أُثاثةَ وحَمْنَةُ بنتُ جحشٍ . وهذا اختصارُ الحديثِ . ولمّا بلغَ صفوانَ قوْلُ حسَّان في الإفْكِ ، جاء فضرَبَهُ بالسَّيفِ ضربةً على رأسِهِ وقال :

تَلَقَّ ذُبَابَ السَّيْفِ عَنِّي فَإِنَّنِي   غُلَامٌ إِذَا هُوجِيتُ لَيْسَ بْشَاعِرِ

فأخذ جماعةُ حسَّانَ ولبَّبُوهُ " أخذوا بتلابيبِهِ أي جمعوا ثيابَه عند صدرِه " وجـــاءوا به إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فأهدر رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم جرحَ حسَّانٍ واستوهبَه إيَّاهُ . وهذا يدلُّ على أنّ حسَّانَ ممن تولَّى الكِبْرَ ، واللهُ أعلمُ . وكان صفوانُ هذا صاحِبَ ساقةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في غزواتِهِ لشجاعته ، وكان من خِيارِ الصّحابةِ رضي اللهُ عنهم . وقيل : كان حصورًا لا يأتِي النساءَ ، وقيل : كان له ابنان لقوْلِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في ابنيه :(لَهما أشبهُ به من الغرابِ بالغرابِ) وقوْلِ صفوانَ في الحديثِ : واللهِ ما كَشَفْتُ كَنَفَ أُنثى قطُّ، يريد ما زَنَى . وقُتِلَ شهيدًا في غزوةِ أرمينيّةَ سنةَ تِسْعَ عشرةَ في زمانِ عمرَ. وقيل : ببلادِ الرومِ سنةَ ثمانٍ وخمسين في زمـــانِ معاويـــة . ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم

مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ يعني ممن تكلَّمَ بالإفك . ولم يُسَمَّ من أهلِ الإفكِ إلاّ حسَّانُ ومِسْطَحُ وحمنةُ وعبدُ اللهِ بنُ أُبَيّ .﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ ﴾ وقد رُوِيَ عن عائشةَ أنه حسَّانُ ، وأنّها قالتْ حين عَمِيَ : لعلَّ العذابَ العظيمَ الذي أوعدَه اللهُ به ذَهَابُ بَصَرِهِ . رواهُ عنها مسروقٌ . ورُوِيَ عنها أنه عبدُ اللهِ بنُ أُبَيّ ، وهو الصحيحُ ، وحكى أبو عمرَ بنُ عبدِ البَرِّ أنّ عائشةَ برَّأتْ حسَّانَ من الفِرْيَةِ وقالتْ : إنه لم يَقُلْ شيئًا . وقد أنكرَ حسَّانُ أنْ يكونَ قال شيئًا من ذلك في قصيدةٍ منها :

حَـلِيلَةُ خَيْرِ النَّاسِ دِينًا ومَنصِـبًا ... نَبِيِّ الْهُدَى والْمَكْرُمَاتِ الْفَوَاضِلِ

عَقِيـلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَـالِبٍ ... كِرَامِ الْمَسَـاعِي مَجْدُهَا غَيْرُ زَائِلِ

مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللهُ خِيمَهَا ... وَطَهَّـرَهَا مِنْ كُلِّ شَيْـنٍ وَبَاطِلِ

فَإِنْ كَانَ مَا بُلِّغْـتَ أَنِّـي قُلْتُـهُ ... فَلاَ رَفَعَـتْ سَـوْطِي إِلَيَّ أَنَامِلِي

فَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حَيِيتُ وَنُصْرَتِي ... لآلِ رَسُـولِ اللهِ زَيْنِ الْمَحَـافِلِ

ويُمكنُ أنْ يُقال : إنّ حسَّانَ لم يَقُلْ ذلك نصًّا وتصريحًا ، ويكونُ عرضَ بذلك وأومأ إليه فنُسبَ ذلك إليه ، واللهُ أعلمُ . وقيل إنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حدَّ أهلَ الإفْكِ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيّ ومِسْطَحَ بنَ أُثاثةَ وحسَّانَ بنَ ثابتٍ وحَمْنَةَ بنتَ جحشٍ . وقال بعضُ العلماءِ إنّ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيّ لم يُحدَّ لأنّ اللهَ تعالى قد أعدَّ له في الآخرةِ عذابًا عظيمًا . ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ هذا عتابٌ من اللهِ سبحانه وتعالى للمؤمنين في ظنِّهم حين قال أصحابُ الإفكِ ما قالوا . ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ هذا توبيخٌ لأهلِ الإفكِ . ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ ولكنه برحمته سَتَرَ عليكم في الدنيا ، ويرحمُ في الآخرةِ من أتاهُ تائبًا . ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا ﴾ أي سيِّئًا يسيرًا لا يلحقُكم فيه إثمٌ . ﴿ وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ في الوِزْرِ . ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا

لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (النور:١٦-١٧) أي كان ينبغي عليكم أنْ تُنكِرُوا ما قيل ولا تتناقلوه ، وأنْ تنزّهوا الله عن أنْ يقعَ هذا من زوجِ نبيِّه صلى الله عليه وسلم . ثم وعظهم الله ألاّ يعودوا إلى مثلِ ذلك . ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي في المحصَنينَ والمُحْصَنَاتِ ، والمرادُ بهذا اللفظِ العامِّ عائشةُ وصفوانُ رضي الله عنهما . ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي الحدُّ في الدنيا ، وعذابُ النارِ في الآخرةِ . ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يعلمُ مقدارَ عِظَمِ هذا الذنبِ ، ويعلمُ كلَّ شيءٍ . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ لا تسلكوا الطريقَ الذي يدعوكم إليه الشَّيطانُ . ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾ لا يأتلِ أي لا يحلفْ ، ونزلتْ هذه الآيةُ في قصَّةِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ومِسْطَحِ بنِ أُثاثةَ ، وذلك أنه كان ابنَ خالةِ أبي بكرٍ ، وكان من المهاجرين البدريين المساكين ، وكان أبو بكرٍ يُنفقُ عليه لمسكنته وقرابته ، فلما وقعَ أمرُ الإفكِ وقال فيه مسطحُ ، حلَفَ أبو بكرٍ ألاّ يُنفقَ عليه أبدًا، فنزلتْ هذه الآيةُ ، إلى قولِه تعالى : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ فقال أبو بكرٍ : واللهِ إني لأُحِبُّ أنْ يَغفرَ اللهُ لي ، فرجعَ إلى مِسْطَحٍ النَّفقةَ ، وقال : لا أنزِعُها منه أبدًا . وقال عبدُ اللهِ بنُ المباركِ : هذه أرجى آيةٍ في القرآنِ .

ويقولُ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (النور:٢٣) وأجمعَ العلماءُ على أنّ حكمَ المحصَنين في القذفِ كحكمِ المحصَناتِ قياسًا . وقال قومٌ : هيَ في عائشةَ وسائرِ أزواجِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم . ولا تنفعُ التوبةُ .ومن قذف غيرَهنّ من المحصناتِ فقد جعلَ اللهُ له توبةً . وقيل : هذا الوعيدُ لمن أصرَّ على القذفِ ولم يَتُبْ .

(١١٤) وَعْـدُ الله بالْخِـلافَة :

يقولُ تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

(النور:٥٥)

قال مالكٌ : نزلتْ في أبي بكرٍ وعمرَ رضي اللهُ عنهما . وقيل : سببُها أنّ بعضَ أصحابِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم شكا جَهْدَ مكافحة العدوِّ ، وما كانوا فيه من الخوفِ على أنفسِهم ، وأنّهم لا يضعون أسلحتَهم ، فنزلتْ . وقال أبو العالية : مَكَثَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في مكّةَ عشرَ سنينَ بعد ما أُوحِيَ إليه خائفًا هو وأصحابُه ، يدعون إلى اللهِ سرًّا وجهرًا ، ثم أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ ، وكانوا فيها خائفين يُصبحون ويُمسون في السّلاحِ . فقال رجلٌ : يارسولَ اللهِ ، أما يأتي علينا يومٌ نأمَنُ فيه ونضعُ السِّلاحَ؟ فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم :(لا تلبثون إلاّ يسيرًا حتى يجلِسَ الرجلُ منكم في الملأ العظيمِ مُحْتَبِيًا ليس عليه حديدةٌ) (البخارى). ونزلتْ هذه الآيةُ ، وأظهرَ اللهُ نبيَّهُ على جزيرةِ العربِ فوضعوا السِّلاحَ وأمِنُوا . قال النّحاسُ : فكان في هذه الآيةِ دليلٌ على نبوّةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، لأنّ اللهَ عزَّ وجلَّ أنجزَ ذلك الوعدَ . وقال الضّحاكُ : تتضمَّنُ هذه الآيةُ خِلافةَ أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ ، لأنّهم أهلُ الإيمانِ وعمِلوا الصَّالحاتِ . وقد قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (الخلافةُ بعدي ثلاثون) . وقال علماؤُنا : هذه الآيةُ دليلٌ على خِلافةِ الخلفاءِ الأربعةِ رضي اللهُ عنهم ، وأنّ اللهَ استخلفَهم ورضِيَ أمانتَهم ، وكانوا على الدِّينِ الذي ارتضَى لَهم ، لأنّهم لم يتقدَّمْهم أحدٌ في الفضيلةِ حتى اليوم ، فاستقرَّ الأمرُ لَهم ، وقاموا بسياسةِ المسلمين ، وذَبّوا عن حوْزَةِ

الدِّين ، فنفَّذَ الوعْدَ فيهم . ورَوَى سفينةُ مَوْلَى رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم قال : سمعتُ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ : (الخلافةُ بعدي ثلاثون سنةً ثم تكون مُلْكًا) (أحمد) . قال سفينةُ : خلافةُ أبي بكرٍ سنتين ، وخلافةُ عمرَ عشرًا ، وخلافةُ عثمانَ ثنتيْ عشرةَ سنةً ، وخلافةُ عليٍّ ستًّا . وقال قومٌ : هذا وعدٌ لجميعِ الأُمَّةِ في مُلْكِ الأرضِ كلِّها ، تحت كلمةِ الإسلامِ ، كما قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (زُوِيَتْ لِيَ الأرضُ فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها وسيبلغُ مُلْكُ أُمَّتي ما زُوِيَ لي منها) (ابن ماجه) . واختار هذا القولَ ابنُ عطيَّة في تفسيرِه حيثُ قال : والصحيحُ في الآيةِ أنها استخلافُ الجمهورِ ، واستخلافُهم هو أنْ يُمَلِّكَهم البلادَ ويجعلَهم أهلَها، كالذي جرَى في الشَّامِ والعراقِ وخراسان والمغربِ . ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ إنّ اللهَ تعالى ردَّ الكافرين لم ينالوا خيرًا ، وأمَّنَ المؤمنين وأورَثَهم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم . ﴿ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني بني إسرائيلَ ، إذ أهلَكَ اللهُ الجبابرةَ بمصْرَ والشَّامِ ، وأورثَهم أرضَهم وديارَهم فقال : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ﴾ (الأعراف:١٣٧) وهكذا كان الصحابةُ مُستضعفين خائفين فأمَّنهم اللهُ ومكَّنهم وملَّكهم ، وبدَّلَ خوفَهم بالأمنِ . وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (واللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموت لا يخافُ إلاّ اللهَ والذئبَ على غنمِه ولكنَّكم تستعجلون).خرَّجهُ مسلمٌ . فالآيةُ معجزةُ النبوَّة لأنها إخبارٌ عما سيكونُ فكانَ . ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ وهو الإسلامُ ، كما قال تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة:٣) ورَوَى سليمٌ بنُ الأسودِ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ :(ما على ظهرِ الأرضِ بيتُ حجرٍ ولا مَدَرٍ إلاّ أدخلَهُ اللهُ كلمةَ الإسلامِ بعزِّ عزيزٍ أو ذُلِّ ذليلٍ أمّا بعزِّهم فيجعلُهم من أهلِها وأمّا بذُلِّهم فيدينون بِـــها). ﴿ لَا يُشْرِكُونَ

بِي شَيْـًٔا ﴾ لا يعبدون إلهًا غيري ولا يُراءُون بعبادتي أحدًا ، ولا يخافــون غيري .
﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي بهذه النِّعَمِ . ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ الكافرُ باللهِ فاسقٌ بعد هذا الإنعامِ وقبلَهُ .

(١١٥) فَضْلُ الرَّسُولِ بالرِّسَالَة : (مِنْ سُــورَةِ الْفُرْقَــان)

يقولُ تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ (الفرقان:٧،٨).

قال أهلُ قريشٍ لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : ما بالُك وأنت رسولُ اللهِ تأكلُ الطعامَ ، وتقفُ في الأسواقِ ! فعيَّروهُ بأكْلِ الطعامِ ، لأنهم أرادوا أنْ يكونَ الرسولُ مَلَكًا ، وعيَّروهُ بالمَشْيِ في الأسواقِ حين رأَوْا الأكاسرةَ والقياصرةَ والمُلُوكَ يترفَّعون عن الأسواقِ ، وكان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يُخالطُهم في أسواقِهم ، ويأمرُهم وينهاهم ، فقالوا : هذا يطلبُ أنْ يتملَّكَ علينا ، فمالَهُ يُخالفُ سيرةَ المُلُوكِ ، فأجابَهم اللهُ بقوله بما أنزلَهُ على نبيِّه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان: ٢٠) فلا تغتمَّ ولا تحزَنْ .

(١١٦) الشِّــعْرُ والشُّــعَرَاءُ : (مِنْ سُــورة الشُّــعَرَاءِ)

يقولُ تعالى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ (الشعراء:٢٢٤-٢٢٧)

قال ابنُ عباسٍ : هم الكفّارُ ﴿ يَتَّبِعُهُمُ ﴾ ضلالُ الجنِّ والإنسِ . وقيل : ﴿ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ الزّائلون عن الحقِّ ، ودلّ بهذا أنّ الشعراءَ أيضًا غاوون ، لأنّهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعُهم كذلك . ومن الشّعرِ ما يجوزُ إنشادُهُ ، ومنه ما يُكرَهُ ، ومنه ما يحرمُ . ورَوَى مسلمٌ من حديثِ عمرِو بنِ الشّريدِ عن أبيه قال : كنتُ رِدْفَ " رِفقَ " رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يومًا فقال : (هل معك من شعرِ أُميّةَ بنِ أبي الصَّلتِ شيءٌ؟) قلتُ : نَعَمْ .قال :(هيه) فأنشدتُهُ بيتًا . فقال: (هيه) ثم أنشدتُهُ . فقال : (هيه) حتى أنشدتُهُ مائةَ بيتٍ . وفي هذا دليلٌ على حفظِ الأشعارِ والاعتناءِ بها إذا تضمّنت الحِكَمَ والمعاني المستحسنةَ شرعًا وطبعًا ، وإنّما استكثرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم من شعرِ أُميّةَ ، لأنه كان حكيمًا ، ألا ترى قولَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (وكاد أُميّةُ بنُ أبي الصّلتِ أنْ يُسْلِمَ) فأمّا ما تضمَّنَ ذِكْرَ اللهِ والثناءَ عليه ، ومدْحَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فذلك محمودٌ . ورَوَى أبو هريرةَ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم على المنبرِ يقولُ : (أصدقُ كلمةٍ ـ أو أشعَرُ كلمةٍ ـ قالتْها العربُ قولُ لبيدٍ : * أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ *) . وعن أبي هريرةَ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم :(حَسَنُ الشِّعرِ كحَسَنِ الكلامِ وقبيحُهُ كقبيحِ الكلامِ). والشّاعرُ الذي يُفرِطُ في المدحِ إذا أُعطِيَ ، وفي الهجاءِ إذا مُنِعَ ، ويُؤذي الناسَ في أموالِهم وأعراضِهم فكلُّ ما يكتسبُه بالشّعرِ حرامٌ . وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في الشّعرِ الذي يَرُدُّ به حسّانُ على المشركين : (إنه لأسرعُ فيهم من رَشْقِ النَّبْلِ) أخرجَه مسلمٌ . ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ في كلّ لُغوٍ يخوضون . ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ اي أكثرُهم يكذبون بكلامِهم على الكرمِ والخيرِ ولا يفعلونه . ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ في كلامِهم وشعرِهم . ﴿ وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ ويكونُ الانتصارُ بالحقِّ . وقال أبو الحسَنِ المبرد : لمّا نزلتْ

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ ﴾ جاء حسَّانُ وكعبُ بنُ مالك وابنُ رواحة يبكون إلى رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم ، فقالوا : يانبيَّ الله ، أنزلَ اللهُ هذه الآيةَ ، وهو يعلمُ أنَّا شعراء، فقال :(اقرءوا ما بعدها ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ (أنتم) ﴿ وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ (أنتم) أي بالرَّدِّ على المشركين . قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (انتصروا ولا تقولوا إلاّ حقًّا ولا تذكروا الآباءَ والأمَّهاتِ) (مسلم) فقال حسَّانُ لأبي سفيانَ :

هَجَوْتَ محمدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
وَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَتِي وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ محمدٍ مِنْكُمْ وِقَــاءُ
أَتَشْــتُمُهُ وَلَسْــتَ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّ كمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ
لِسَانِي صَارِمٌ لاَ عَيْبَ فِيهِ ... وَبَحــْرِي لاَ تُكَدِّرُهُ الدِّلاَءُ

وقال كعبٌ بنُ مالك :

جَاءَتْ سَخِينَةُ كَيْ تُغَــالِبَ رَبَّهَا ... وَلَيُغْــلَبَنَّ مُغَــالِبُ الْغَــلاَّبِ

* سخينة *:طعامٌ حارٌّ من دقيقٍ وسمنٍ أو دقيقٍ وتمرٍ ، وكانت قريشٌ تُكثِر من أكلِها فعُيِّرت بها حتى سُمُّوا سخينة .

فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم :(لقد مَدَحَكَ اللهُ يا كعبُ في قوْلِكَ هذا) .

﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ (الشعراء:٢٢٧) هذا تهديدٌ لمن انتصرَ بظلمٍ ، أيَّ مصيرٍ يصيرون ، لأنَّ مصيرَهم النَّارُ .

(١١٧) ضَــحِكُ النَّــبِيِّ : (مِنْ سُــورَةِ النَّمْــلِ)

يقولُ تعالى : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ (النمل:١٩) والمعنى تَبَسَّمَ مقدارَ الضَّحِكِ ، لأنَّ الضَّحكَ يستغرقُ التَّبَسُّمَ ، والتَّبَسُّمُ دونَ الضَّحك . إلاّ أنَّ الضَّحكَ يقتضِي مزيدًا على التبسُّمِ ، فإذا زاد ولم يضبطِ الإنسانُ نفسَه قيل قَهْقَهَ . والتَّبسُّمُ

ضَحِكُ الأنبياءِ في غالبِ أمرِهم . وعن سعدٍ قال : كان رجلٌ من المشركين قد أحْرَقَ المسلمينَ - اي اثخنَ فيهم - فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (ارمِ فداكَ أَبي وأُمِّي) قال فنزعتُ له بسهمٍ ليس فيه نَصْلٌ فأصَبْتُ جنبَه فسَقَطَ فانكشَفَتْ عَوْرَتُهُ ، فضَحِكَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حتى نظرتُ إلى نواجذِهِ . وكان عليه الصلاةُ والسلامُ في أكثرِ أحوالِه يبتسمُ . وكان أيضًا يضحَكُ في أحوالٍ أُخَر ضَحِكا أعلى من التبسُّمِ وأقلَّ من الاستغراقِ الذي تبدو فيه اللهواتُ ، وكان في النَّادرِ عند إفراطِ تَعَجُّبِه ربَّما ضَحِكَ حتى بَدَتْ نواجذُهُ .

(١١٨) خِـــلافَةُ المَــرْأَة :

يقولُ تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ ﴾ (النمل:٢٣) لمّا قال الهُدْهُدُ : ﴿ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴾ (النمل:٢٢) قال سليمانُ : وما ذلك الخبرُ ؟ قال : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ ﴾ يعني بَلْقِيسَ بنتَ شراحيلَ تملكُ أهلَ سَبَإٍ . ويُقالُ كيف خَفِيَ على سليمانَ مكانُها وكانتْ المسافةُ بين مَحَطِّه وبين بلدها قريبةً ، وهي من مسيرةِ ثلاث بين صنعاءَ ومأرب ؟ والجوابُ أنّ اللهَ تعالى أخفَى ذلك عنه لمصلحةٍ ، كما أخفَى على يعقوبَ مكانَ يوسفَ . ويُرْوَى أنّ أحدَ أبويها كان من الجنِّ . رَوَى البخاريُّ من حديثِ ابنِ عباسٍ أنّ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم لمّا بلغه أنّ أهلَ فارسَ قد ملَّكوا بنتَ كِسْرَى قال : (لن يُفلِحَ قومٌ ولَّوْا أَمرَهم امرأةً) . قال القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ : هذا نَصٌّ في أنّ المرأةَ لا تكونُ خليفةً ولا خِلافَ فيه . ونُقِلَ عن أبي حنيفةَ أنّها إنّما تقضِي فيما تشهَدُ فيه وليس بأنْ تكونَ قاضيةً على الإطلاقِ ، ولا بأنْ يُكْتَبَ لَها مسطورٌ بأنّ فلانةَ مُقَدَّمَةٌ للحُكْمِ ، وإنّما سبيلُ ذلك والاستنابةُ في القضيّةِ الواحدةِ ، وهذا هو الظَّنُّ بأبي حنيفةَ وابنِ جريرٍ . وقال ابنُ العربيِّ : فإنّ المرأةَ لا يتأتَّى منها أنْ تبرُزَ إلى المجلسِ ، ولا تُخالطَ الرجالَ ، ولا تُفاوضَهم مفاوضةَ النظيرِ للنظيرِ ، لأنّها إنْ كانتْ فتاةً

حَرُمَ النَّظرُ إليها وكلامُها ، وإنْ كانتْ بَرْزَةً ، كَهْلَةً ، لم يجمعْها والرجالَ مجلسٌ واحدٌ تزدحمُ فيه معهم ، وتكونُ مُناظِرَةً لَهم ، ولن يُفْلِحَ قطُّ من تصوَّرَ هذا ولا من اعتقدَهُ .

(١١٩) الْغَـيْبُ :

يقولُ تعالى : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ (النمل:٦٥،٦٦)

أَخْفَى اللهُ تعالى غَيْبَهُ عن الخَلْقِ ، ولم يُطْلِعْ عليه أحدًا لئلاَّ يأمنَ أحدٌ من عبادِه مَكْرَهُ . وقيل : نزلتْ في المشركين حين سألوا رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عن قيامِ السَّاعةِ ، وقال النحَّاسُ: وسمعتُهُ يحتجُّ بهذه الآيةِ على من صدَّقَ مُنَجِّمًا، وقال : أخافُ أنْ يكفرَ بهذه الآيةِ . وقالتْ عائشةُ : من زعمَ أنَّ محمدًا يعلمُ ما في غَدٍ فقد أعظَمَ على اللهِ الفِرْيَةَ . ورُوِيَ أنه دخلَ على الحجَّاجِ مُنَجِّمٌ فاعتقلَه الحجَّاجُ ، ثم أخذَ حَصَيَاتٍ فَعَدَّهنَّ ، ثم قال : كم في يدي من حصاةٍ ؟ فحسبَ المنجِّمُ ثم قال : كذا ، فأصابَ . ثم اعتقلَه فأخذَ حصياتٍ لم يعدَّهنَّ فقال : كم في يدي ؟ فحسبَ فأخطأَ ثم حسبَ فأخطأَ ، ثم قال : أيُّها الأميرُ ، أظنُّكَ لا تعرفُ عددَها ، قال : لا . قال : فإني لا أُصيبُ . قال : وما الفرقُ ؟ قال : إنَّ ذلك أحصيتَهُ فخرجَ عن حدِّ الغَيْبِ ، وهذا لم تُحْصِهِ فهو غَيْبٌ و﴿ لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ .

(١٢٠) الْخِـيَرَةُ والاسْتِخَـارَةُ : (مِنْ سُـورَةِ الْقَصَصِ)

يقولُ تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ

وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:٦٨-٧٠)

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ هذا متصلٌ بذكْرِ الشركاءِ الذين عبدوهم واختاروهم للشَّفاعة، أي الاختيارُ يرجعُ إلى الله في الشُّفعاء لا إلى المشركين. وقيل: هو جوابُ الوليدِ بنِ المغيرةِ حين قال: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف:٣١) يعني زَعَمَ نفسَه. وعُرْوَةَ بنَ مسعودٍ الثقفيَّ من الطَّائف. وقيل: هو جوابُ اليهودِ إذ قالوا: لو كان الرسولُ إلى محمدٍ غيرَ جبريلَ لآمنَّا به. قال ابنُ عباسٍ: والمعنى، وربُّكَ يخلقُ ما يشاءُ من خَلْقه ويختارُ منهم من يشاءُ لطاعته. وقال يحيى بنُ سلاَّمٍ: ويختارُ من يشاءُ لنبوَّته. وحكى النقَّاشُ: أنّ المعنى، وربُّكَ يخلقُ ما يشاءُ من خَلْقه، يعني محمدًا صلى اللهُ عليه وسلم، ويختارُ الأنصارَ لدينه. وعن جابرٍ مرفوعًا صحيحًا قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: (إنَّ اللهَ تعالى اختارَ أصحابي على العالمين سوَى النَّبيِّين والمُرْسَلين واختارَ لي من أصحابي أربعةً "يعني أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليًّا" فجعلَهم أصحابي، وفي أصحابي كلِّهم خيرٌ، واختارَ أُمَّتي على سائرِ الأُممِ، واختارَ لي من أُمَّتي أربعةَ قرونٍ). ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ أي لا يُرسِلُ من اختاروه هم. قال بعضُ العلماءِ: لا ينبغي لأحدٍ أنْ يَقْدُمَ على أمرٍ من أمورِ الدنيا حتى يسألَ اللهَ الخِيَرَةَ في ذلك، بأنْ يُصلِّيَ ركعتين صلاةَ الاستخارةِ، يقرأُ في الركعةِ الأولَى بعد الفاتحةِ:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (الكافرون:١) وفي الركعةِ الثانيةِ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:١). واختارَ بعضُ المشايخِ أنْ يقرأَ في الركعةِ الأولَى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ (القصص:٦٨) الآية. وفي الركعةِ الثانيةِ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب:٣٦) وكلٌّ حَسَنٌ.

ثم يدعو بهذا الدُّعاءِ بعد السلامِ ، وهو ما رواه البخاريُّ عن جابرِ بنِ عبدِ الله قال كان النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يُعلِّمُنا الاستخارةَ في الأمورِ كلِّها كما يُعلِّمُنا السُّورةَ من القرآنِ ، يقولُ : (إذا هَمَّ أحدُكم بالأمرِ فليركعْ ركعتين غيرَ الفريضةِ ثم ليقُلْ اللهم إني أستخيرُكَ بعلمكَ وأستقدرُكَ بقدرتكَ وأسألُكَ من فضلكَ العظيمِ فإنّك تقدرُ ولا أقدرُ وتعلمُ ولا أعلمُ وأنتَ علاَّمُ الغيوبِ ، اللهم إنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري – أو قال في عاجلِ أمري وآجله – فاقدُرْهُ لي ويَسِّرْهُ لي ثم بارِكْ لي فيه وإنْ كنتَ تعلمُ أنّ هذا الأمرَ شَرٌّ لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبةِ أمري – أو قال في عاجلِ أمري وآجله – فاصرِفْهُ عني واصرِفْني عنه واقدُرْ لِيَ الخيرَ حيثُ كانَ ثم رَضِّني به) قال : ويُسَمِّي حاجتَه . ورَوَتْ عائشةُ عن أبي بكرٍ رضي اللهُ عنه أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم كان إذا أرادَ أمرًا قال : (اللهم خِرْ لي واخْتَرْ لي)(الترمذى) ورَوى أنسٌ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (يا أنسُ ، إذا هممتَ بأمرٍ فاستخرْ ربَّكَ فيه سَبْعَ مرَّاتٍ ثم انظُرْ إلى ما يسبقُ قلبُكَ فإنّ الخيرَ فيه)(البخارى) . قال العلماءُ : وينبغي له أنْ يُفرِّغَ قلبَه من جميعِ الخواطرِ حتى لا يكونَ مائلاً إلى أمرٍ من الأمورِ ، فعند ذلك ما يسبقُ إليه قلبُه يعملُ عليه ، فإنّ الخيرَ فيه إنْ شاءَ اللهُ ، وإنْ عزمَ على سفرٍ فيتوخَّى بسفرِه يومَ الخميسِ أو يومَ الاثنين ، اقتداءً برسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أي تنزّهَ عن كلِّ نقصٍ . ﴿ وَتَعَٰلَىٰ ﴾ أي تقدّسَ وتمجَّدَ ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وهو سبحانه عالمُ الغيبِ والشهادةِ ويعلمُ ما يُخفون في أنفسهم وما يُظهرون . ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:٧٠) وأنه المنفردُ بالوحدانيةِ ، وأنّ جميعَ المحامدِ إنّما تجبُ له ، وأنْ لا حُكْمَ إلاّ له وإليه المصيرُ .

(١٢١) نَصِيبُ الدُّنْيَا والآخِرَة

يقولُ تعالى : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ (القصص:٧٧) قال ابنُ عباسٍ والجمهورُ : لاتُضيِّعْ عمرَكَ في ألاّ تعملَ صالحـاً في دنياكَ ، إذ الآخرةُ إنّما يُعْمَلُ لَها ، فنصيبُ الإنسانِ عمرُهُ وعملُهُ الصَّالحُ فيها .وقـال الحسَنُ وقـتادةُ : لا تُضيِّعْ حظَّكَ من دنياكَ في تمتُّعِكَ بالحلالِ وطلبِكَ إيَّاه ، ونظرِك لعاقبةِ دنياكَ . أي كُلْ واشربْ ما طابَ لكَ ولا تُسْرِفْ . فالكلامُ على هذا التأويلِ فيه بعـضُ الرِّفْقِ به ، وإصلاحُ الأمرِ الذي يشتهيه . وهذا مما يجبُ استعمالُهُ مع الموعوظِ . وهذان التأويلانِ قد جمعهما ابنُ عمرَ في قولِهِ : احْرُثْ لدنياكَ كأنّكَ تعيشُ أبدًا ، واعملْ لآخرتِكَ كأنّكَ تموتُ غدًا . وقال شاعرٌ :

وهِيَ الْقَنَاعَـــةُ لاَ تَبْغِي بِهَا بَدِيلاً ... فِيهَا النَّعِـيمُ وَفِيهَا رَاحَــةُ الْبَدَنِ

انْظُرْ لِمَنْ مَلكَ الدُّنْيـــا بِأَجْمَعِهَا ... هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الْقُطْنِ وَالْكَفَنِ

وقال ابنُ العربيِّ : فإنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كان يُحبُّ الحلواءَ ، ويشربُ العسلَ ، ويستعملُ الشِّواءَ ، ويشربُ الماءَ البارِدَ .

(١٢٢) الْعِـلْمُ وَكُنُـوزُهُ :

يقولُ تعالى ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ (القصص:٧٨)

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾ يعني عِلمَ التوراة . وكان قارونُ فيما رُوِيَ من أقرإِ الناسِ لَها ، ومن أعْلَمِهم بِها . وكان أحدَ العلماءِ السَّبعين الذين اختارَهم موسى للميقاتِ . وقال ابنُ يزيدٍ : أي إنّما أُوتيتُهُ لعلْمِهِ بفضلِي ورِضاهُ عني ، وأنه آتاني هذه الكنوز على علمٍ منه باستحقاقي إيَّاها لفضلٍ فيَّ . وقيل :

أُوتِيتُهُ على عِلمٍ عندي بوجوهِ التجارةِ والمكاسبِ . ولم يعلمْ أنَّ اللهَ لو لم يُسَهِّلْ له اكتسابَها لما اجتمعَتْ عنده . وقال ابنُ عباسٍ : على عِلمٍ عندي بصنعةِ الذهبِ ، وأشار إلى عِلمِ الكيمياءِ . وحكَى النَّقاشُ : أنَّ موسى عليه السلامُ علَّمَه الثُلُثَ من صنعةِ الكيمياءِ ، ويُوشَعَ الثلثَ ، وهارونَ الثلثَ ، فخدعَهما قارونُ — وكان على إيمانه — حتى عَلِمَ ما عندهما وعَمِلَ الكيمياءَ ، فكثُرتْ أموالُهُ . وقيل : إنَّ موسى عَلَّمَ الكيمياءَ ثلاثةً ، يُوشَعَ بنَ نون ، وكالبَ بنَ يُوفنا ، وهارونَ . وقيل : إنَّ موسى علَّمَ أختَهُ عِلْمَ الكيمياءِ ، وكانتْ زوجةَ قارون ، وعلَّمَتْ أُختُ موسى قارونَ .

(١٢٣) الْحِكْمَةُ وَلُقْمَانُ : (مِنْ سُورَةِ لُقْمَانَ)

يقولُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (لقمان:١٢)

هو لقمانُ بنُ باعوراءَ بنُ ناحورَ بنُ تارح ، وهو آزرُ أبو إبراهيمَ . وقيل : هو لقمانُ بنُ عنقاءَ بنُ سرون ، وكان نوبيًّا من أهلِ أيلةَ ، ذَكَرَه السُّهَيْليُّ . وقال وهبٌ : كان ابنَ أُختِ أيُّوبَ أو ابنَ خالتِه . وقيل : من أولادِ آزرَ ، عاشَ ألفَ سَنَةٍ ، وأدركَهُ داوُدُ عليه السلامُ وأخَذَ عنه العلمَ ، وكان يُفْتِي قبل مبعثِ داوُد ، فلمّا بُعِثَ داوُدُ قطعَ لقمانُ الفتوى ، ولمّا سُئِلَ قال : ألا أكتفي إذ كُفِيتُ . وقال الواقدي : كان قاضيًا في بني إسرائيلَ . وقال سعيدُ بنُ المسَيَّبِ : كان لقمانُ أسودَ من سودانِ مِصْرَ ذا مشافِرَ " اي عظيمَ الشفتين "، مُشَقَّقَ الرِّجْلَيْنِ ، أعطاه اللهُ الحكمةَ ومنعَهُ النُّبُوَّةَ ، وقال أهلُ التأويلِ : إنه كان وليًّا ولم يكن نبيًّا . ومن حديثِ ابنِ عمرَ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ : (لم يكنْ لقمانُ نبيًّا ولكنْ كان عبدًا كثيرَ التفكُّرِ حَسَنَ اليقينِ ، أَحَبَّ اللهَ فأَحبَّه ، فمنَّ عليه بالحكمةِ ، وخيَّرَهُ في أنْ يجعلَهُ خليفةً يحكمُ بالحقِّ ، فقال : ربِّ ، إنْ خيَّرتَني قبلتُ

العافيةَ وتركتُ البلاءَ ، وإنْ عَزَمْتَ عَلَيَّ فسمعًا وطاعةً فإنَّكَ ستعصمُني) (البخارى). ذَكَرَهُ ابنُ عطيَّة . وزاد الثعلبيُّ : فقالتْ له الملائكةُ بصوتٍ لا يراهم : لِمَ يالقمانُ ؟ قال : لأنّ الحاكمَ بأشدِّ المنازلِ وأكدرِها ، يغشاه المظلومُ من كلِّ مكانٍ ، إنْ يُعَنَ " اي يأتيه العونُ " فبالْحَرَى " جديرٌ " أنْ ينجوَ ، ولإنْ أخطأ أخطأ طريقَ الجنَّةِ . ومن يكنْ في الدنيا ذليلاً فذلك خيرٌ من أنْ يكونَ فيها شريفًا " حاكمًا " . ومن يختَرِ الدنيا على الآخرةِ نَفَتْهُ الدنيا ولا يُصيبُ الآخرةَ . فعجِبَتِ الملائكةُ من حُسْنِ منطقه، فنام نَوْمَةً فأُعْطِيَ الحكمةَ ، فانتبَهَ يتكلَّمُ بِها . ثم نوديَ داوُدُ بعدها فقبلَها – أي الخلافةَ – ولم يشترِطْ ما اشترطَهُ لقمانُ ، فهَوَى في الخطإِ غيرَ مرَّةٍ ، كلُّ ذلك يعفو اللهُ عنه . وكان لقمانُ يُؤازرُهُ بحكمته ، فقال له داوُدُ : طوبَى لك يا لقمانُ ! أُعْطِيتَ الحكمةَ وصُرِفَ عنك البلاءُ ، وأُعْطِيَ داوُدُ الخلافةَ وابتُلِيَ بالبلاءِ والفتنة . وقيل : كان لقمانُ خيَّاطًا ، قاله سعيدُ بنُ المسيَّب ، وقال لرجلٍ أسودٍ : لا تحزَنْ من أنَّكَ أسودٌ ، فإنه كان من خيرِ الناسِ ثلاثةٌ من السودانِ : بلالٌ ومِهجَعٌ مولَى عمرَ ولقمانُ . وقيل : كان يحتطِبُ كلَّ يومٍ لمولاهُ حُزْمَةَ حطَبٍ . وقال لرجلٍ ينظرُ إليه : إنْ كنتَ تراني غليظَ الشفتين فإنه يخرجُ من بينهما كلامٌ رقيقٌ ، وإنْ كنتَ تراني أسودَ فقلبي أبيضٌ . وقيل : كان راعيًا ، فرآه رجلٌ كان يعرِفُهُ قبل ذلك ، فقال له: ألستَ عبدَ بني فلانٍ ؟ قال : بَلَى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ " اي كيف صِرْتَ بهذه الحكمةِ ؟ " قال : قَدَرُ اللهِ ، وأدائي الأمانةَ ، وصِدْقُ الحديثِ ، وتَرْكُ ما لا يعنيني . وقيل : كان نجَّارًا ، فقال له سيِّدُه : اذبَحْ شاةً وائتِني بأطيبِها مُضْغَتَيْن ، فأتاهُ باللسانِ والقلبِ ، فقال سيِّدُه : ما كان فيها شيءٌ أطيبُ من هذين ؟ فسكتَ ، ثم أمَرَهُ بذبْحِ شاةٍ أخرى ثم قال له : أَلْقِ أخبَثَها مُضْغَتَيْن ، فألقَى اللسانَ والقلبَ ، فقال له : أمرتُكَ أنْ تأتيَني بأطيبِ مضغتين فأتيتَني باللسانِ والقلبِ ، وأمَرْتُكَ أنْ تُلْقِيَ أخبَثَها فألقَيْتَ اللسانَ والقلبَ! فقال له : إنه ليس شيءٌ منهما أطيبَ إذا طابا، ولا أخبَثَ منهما إذا خَبَثَا . وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (ألا وإنَّ في

الجسَد مُضْغَةً إذا صلُحتْ صلُحَ الجسَدُ كلُّه وإذا فسدَتْ فَسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ) (البخارى). وقال أيضًا : (من وقاهُ اللهُ شرَّ اثنتين ولَجَ الجنَّةَ : ما بين لَحْيَيْه • فكيه • ورِجْلَيْه) . وحِكَمُ لقمانَ كثيرةٌ مأثورةٌ منها . وقيل له : أيُّ الناسِ شرٌّ ؟ قال: الذي لا يُبالي أنْ رآهُ الناسُ مسيئًا . وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (كلُّ أُمَّتي مُعافَى إلاَّ المجاهِرون ، وإنّ من الْمُجاهرةِ أنْ يعملَ الرجلُ بالليلِ عملاً ثم يُصبحُ وقد ستَرَهُ اللهُ فيقولُ : يا فلانُ عملتُ البارحةَ كذا وكذا وقد باتَ يستُرُهُ رَبُّهُ ويُصبحُ يَكْشفُ سِتْرَ اللهِ عنه) رواهُ أبو هريرةَ وخرّجَهُ البخاريُّ . ومن حِكَمِ لقمانَ قوْلُهُ : الصَّمتُ حِكْمَةٌ ، وقليلٌ فاعِلُهُ . ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أي بأنْ اشكرْ للهِ فشَكَرَ ، فكان حكيمًا بشُكرِهِ للهِ . ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ أي من يُطِعِ اللهَ فإنما يعملُ لنفسه، لأنّ نفعَ الثوابِ عائدٌ عليه . ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أي كفرَ النِّعَمَ فلم يُوحِّدِ اللهَ . ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ عن عبادةِ خلْقِهِ . ﴿ حَمِيدٌ ﴾ عند الخَلْقِ ، أي محمودٌ في فعْلِهِ .

(١٢٤) غِـنَى اللهِ عَنِ خَـلْقِه :

يقولُ تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (لقمان:٢٥،٢٦)

أي أنّهم يعترفون بأنّ اللهَ هو خالقُ السّماواتِ والأرضِ فلِمَ يعبدون غيرَه ؟ ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على ما هدانا من دينه وليس الحمدُ لغيرِه . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لا ينظرون ولا يتدبَّرون . ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ مِلْكًا وخلْقًا . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ الغنيُّ عن خَلْقِه وعن عبادتِهم .﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴾ المحمودُ على صُنْعِه .

(١٢٥) في كَلِمَات الله الْعِلْمُ وحقائقُ الأشياء :

يقولُ تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان:٢٧)

بيَّن اللهُ تعالى أنّ معاني كلامِهِ سبحانه لا تنفدُ ، وأنّها لانهايةَ لَها ، وأنّ الأشجارَ لو كانتْ أقلامًا ، والبحارُ مِدادًا فكُتِبَ بِها عجائبُ صُنعِ اللهِ الدَّالّةُ على قدرتِهِ ووحدانيّتِهِ لم تنفَدْ تلك العجائبُ . قال ابنُ عباسٍ : إنّ سببَ نزولِ هذه الآيةِ أنّ اليهودَ قالتْ : يامحمدُ ، كيف عُنينا بِهذا القولِ ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ونحن قد أوُتينا التوراةَ فيها كلامُ اللهِ وأحكامُهُ ، وعندكَ أنّها تبيانُ كلّ شيءٍ ؟ فقال لَهم رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (التَّوراةُ قليلٌ من كثيرٍ) ونزلتْ هذه الآيةُ . قال أبو جعفرٍ النحاس : فقد تبيَّنَ أنّ الكلماتِ هاهنا يُرادُ بِها العلمُ وحقائقُ الأشياءِ ، لأنه تعالى قبل أنْ يخلقَ الخَلْقَ عَلِمَ ما هو خالقٌ في السَّماواتِ والأرضِ من كلّ شيءٍ ، وعِلمِ الأجناسِ كلِّها ، وما فيها من شعرةٍ وعُضْوٍ ، وما في الشجرةِ من ورقةٍ، وما فيها من ضَروبِ الخَلْقِ ، وما يتصرَّفُ فيه من ضَروبِ الطَّعمِ واللوْنِ ، فلو سَمَّى كلَّ دابَّةٍ وحدَها ، وسَمَّى أجزاءَها على ما عُلِمَ من قليلِها وكثيرِها ، وما تحوَّلَتْ عليه من الأحوالِ ، وما زادَ فيها في كلّ زمانٍ ، وبيَّنَ كلَ شَجَرَةٍ وحدَها وما تفرَّعَتْ إليه ، وقدَّرَ ما يبَسُ من ذلك في كلّ زمانٍ ، ثم كتب البيانَ على كلّ واحدٍ منها ، ما أحاطَ اللهُ جَلَّ ثناؤُهُ به منها ، ثم كان البحرُ مِدادًا لذلك البيانِ الذي بيَّنَ اللهُ تعالى عن تلك الأشياءِ يُمِدُّهُ من بعدِهِ سبعةُ أبحُرٍ لكان البيانُ عن تلك الأشياءِ أكثرَ . وقال قومٌ : إنّ قريشًا قالتْ : سيتمُّ هذا الكلامُ لمحمد وينحسرُ ، فنزلتْ هذه الآيةُ . ويقولُ تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (لقمان:٢٨) .

قال الضَّحاكُ : المعنى ما ابتداءُ خَلْقِكم جميعًا إلاّ كخَلْقِ نفسٍ واحدةٍ ، وما بَعْثُكم يومَ القيامةِ إلاّ كبَعْثِ نفسٍ واحدةٍ . وقال مجاهدٌ : لأنه يقولُ للقليلِ والكثيرِ كُنْ فيكونُ . ونزلتْ الآيةُ في أُبيّ بنِ خلفٍ وأبي الأسدين ومنبِّهٍ ونبيهِ ابنيْ الحجاجِ ابنِ السباقِ ، قالوا لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : إنّ اللهَ تعالى خَلَقَنا أطوارًا ، نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عظامًا ، ثم تقولُ إنَّا نُبْعَثُ خَلْقًا جديدًا في ساعةٍ واحدةٍ ! فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ ، لأنّ اللهَ تعالى لا يصعُبُ عليه ما يصعُبُ على العبادِ ، وخَلْقُهُ للعالَمِ كخلْقِهِ لنفسٍ واحدةٍ .

(١٢٦) مَلَكُ الْمَوْتِ : (مِنْ سُورةِ السَّجْدَةِ)

يقولُ تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (السجدة:١١) .

لمّا ذَكَرَ استبعادَهم للبعثِ ذَكَرَ توفّيهم وأنه يُعيدُهم . ﴿ يَتَوَفَّىٰكُم ﴾ أي استوفاهم الأجَلَ ثم قبضَهم . ﴿ مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ واسمُه عزرائيلُ ومعناه عبدُ الله ، وتصرُّفُهُ كلُّهُ بأمرِ اللهِ تعالى . ورُوِيَ في الحديثِ (البهائمُ كلُّها يتوفّى اللهُ أرواحَها دونَ مَلَكِ الموتِ) ذكَرَه ابنُ عطية . وقد رُوِيَ خلافُه ، وأنّ مَلَكَ الموْتِ يتوفّى أرواحَ جميعِ الخلائقِ حتى البرغوثِ والبعوضةِ . رَوَى جعفرُ بنُ محمدٍ عن أبيه قال : نَظَرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إلى مَلَكِ الموْتِ عند رأسِ رجلٍ من الأنصارِ فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (ارْفقْ بصاحبي فإنه مؤمنٌ) فقال مَلَكُ الموْتِ عليه السلامُ :"يا محمدٌ ، طِبْ نَفْسًا وقَرَّ عينًا فإني بكلِّ مؤمنٍ رفيقٌ .واعلَمْ أنّ ما من أهلِ بيتِ مَدَرٍ ولا شَعْرٍ في بَرٍّ ولا في بَحْرٍ إلاّ وأنا أتصفَّحُهم في كلِّ يومٍ خَمْسَ مرّاتٍ حتى لأنا أعرَفُ بصغيرِهم وكبيرِهم منهم بأنفسهم . واللهِ يا محمدٌ لو أني أردتُ أنْ أقبِضَ رُوحَ بعوضةٍ ما قدَرْتُ حتى يكونَ اللهُ هو الآمِرُ بقبضِها "

ورُوِيَ أنّ مَلَكَ الموْتِ لمّا وكّلَه اللهُ تعالى بقبضِ الأرواحِ قال : ربِّ جعلتَني أُذْكَرُ بسوءٍ ويشتُمُني بنو آدمَ . فقال اللهُ تعالى له : إني أجعلُ للموتِ عِلَلاً وأسبابًا من الأمراضِ والأسقامِ ينسبون الموتَ إليها فلا يذكُرُكَ أحدٌ إلاّ بخيرٍ .

(١٢٧) مَشِيئَةُ الْهِدَايَةِ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (السجدة:١٣)

لَمَّا قالوا :﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (السجدة:١٢) رَدَّ عليهم بقولِه : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ أي لو شئتُ لَهديتُ الناسَ جميعًا . ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ . وقيل : إنّ سياقَ الكلامِ على أنه في الآخرةِ ، أي لو شئنا لرددناهم إلى الدنيا كما سألوا ، ولكن حقَّ القوْلُ منِّي لأُعَذِّبَنَّ من عصاني بنارِ جهنَّمَ . وعَلِمَ اللهُ تعالى أنه لو رَدَّهم لعادوا ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ (الأنعام:٢٨) . وإنما هدى اللهُ المؤمنين إلى الإيمانِ والطّاعةِ على طريقِ الاختيارِ حتى يصحَّ التكليفُ ، فمن شاءَ آمَنَ وأطاعَ اختيارًا لا جبْرًا ، قال تعالى : ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ (التكوير:٢٨) وقال : ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ (الإنسان:٢٩) .

(١٢٨) مَسْئُولِيَّةُ الرَّسُولِ عَنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ : (مِنْ سُورَةِ الأَحْزَابِ)

يقولُ تعالى : ﴿ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٨) .

قال النَّقاشُ : ليسألَ الأنبياءَ عن تبليغِهم الرسالة . وفي هذا تنبيهٌ ، أي إذا كان يسألُ الأنبياءَ فكيف مَنْ سِواهم ؟ وقال عليُّ بنُ عيسى : ليسألَ الأنبياءَ عما

أجابَهم به قومُهم . وقيل : ليسألَ الأفواهَ الصَّادقةَ عن القلوبِ المخلِصةِ . ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وهو عذابُ جهنَّمَ .

(١٢٩) الأَحْـزَابُ والْخَـنْدَقُ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾(الأحزاب:٩)

يعني غزوةَ الخندقِ والأحزابِ وبني قُرَيْظَةَ ، وقد سُمِّيَتْ بغزوةِ الخندقِ لأجلِ الخندقِ الذي حُفِرَ حولَ المدينةِ بأمرِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وأما تسميتُها بالأحزابِ فلاجتماعِ طوائفَ من المشركين على حربِ المسلمين ، وهم قريشٌ وغَطَفَانُ واليهودُ ، وكانتْ حالاً شديدةً أعقبَها اللهُ تعالى بنعمةٍ ورخاءٍ وغبطةٍ ، وتضمَّنَتْ أحكامًا كثيرةً ، وآياتٍ باهراتٍ . وقال ابنُ إسحاق : كانتْ في شوّالٍ من السنةِ الخامسةِ . وقيل عن مالكٍ : كانتْ سنةَ أربعٍ .، وهي وبنو قريظةَ في يومٍ واحدٍ . وكان ابنُ وهبٍ يقولُ : سمعتُ مالكًا يقولُ : أمَرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ بالقتالِ من المدينةِ ، وذلك قوْلُه تعالى : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ (الأحزاب: ١٠). قال : ذلك يومُ الخندقِ ، جاءتْ قريشٌ من هاهنا واليهودُ من هاهنا والنَّجديَّةُ من هاهنا . وكان سببُها أنّ بعضَ اليهودِ حزَّبوا الأحزابَ وألَّبوا وجمعوا ، فأتَوْا مكةَ فدَعَوْا إلى حربِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وواعدوهم من أنفسِهم بعوْنٍ ، فأجابَهم أهلُ مكّةَ إلى ذلك ، ثم خرج هؤلاء اليهودُ إلى غَطَفَان فدعوْهم إلى مثلِ ذلك فأجابوهم ، فخرجتْ قريشٌ يقودُهم أبو سفيانَ بنُ حربٍ ، وخرجتْ غَطَفَانُ وقائدُهم عُيَيْنَةُ بنُ حِصنٍ على فزارةٍ ، والحارثُ بنُ عوفٍ المُرِّيَ

على بني مُرَّةٍ ، ومسعودٌ بنُ رُخَيْلةٍ على أشجعٍ . فلما سمِعَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم باجتماعِهم شاوَرَ أصحابَه ، فأشارَ عليه سَلْمَانُ الفارسيُّ بحفرِ الخندقِ فرضِيَ رأيَهُ . وقال المهاجرون يومئذٍ : سلمانُ منَّا . وقال الأنصارُ : سلمانُ منَّا . فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (سلمانُ منَّا أهلَ البيتِ) . وكان الخندقُ أوَّلَ مشهدٍ شهِدَهُ سلمانُ مع رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وهو يومئذٍ حُرٌّ . فعمِلَ المسلمون في الخندقِ مجتهدين ، ونكَصَ المنافقون وتسلَّلُوا لِواذًا " مستخفين ومستترين " ، وكان منْ فَرَغَ من المسلمين من حصَّتِه في الحفرِ عاد إلى غيرِه حتى كمُلَ الحفرُ . وتعاونَ الجميعُ في ذلك حتى أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كان ينقلُ من ترابِ الخندقِ حتى وارى الغبارُ جِلدةَ بطنِه . ورَوَى النسائيُّ عن رجلٍ من أصحابِ رســولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : لمّا أَمَرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بحفرِ الخندقِ عَرَضَتْ لَهم صخرةٌ حالتْ بينهم وبين الحفرِ ، فقام رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأخذَ المِعْوَلَ ووضعَ رداءَهُ ناحيةَ الخندقِ وقال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا ﴾ (الأنعام:١١٥) فنَدَرَ " ضربَ فكسَرَ " ثُلُثَ الحجرِ ، وسلمانُ الفارسيُّ قائمٌ ينظرُ ، فبَرَقَ مع ضربةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بَرْقَةٌ ، ثم ضربَ الثانيةَ وقال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا ﴾ فنَدَرَ الثُلُثَ الآخرَ ، فبرَقَتْ برقةٌ رآها سلمانُ ، ثم ضربَ الثالثةَ وقال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا ﴾ فنَدَرَ الثُلُثَ الباقي ، وخرج رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فأخذَ رداءَه وجلَسَ ، قال سلمانُ : يارسولَ اللهِ ، رأيتُكَ حين ضربتَ ، ما تضرِبُ ضربةً إلاّ كانتْ معها برقةٌ ؟ فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (رأيتَ ذلك يا سلمانُ) ؟ فقال :أيّ والذي بعثَكَ بالحقِّ يارسولَ اللهِ ! قال : (فإني حين ضربتُ الضربةَ الأُولَى رُفِعَتْ لي مدائنُ كسْرَى وما حولَها ومدائنُ كثيرةٌ حتى رأيتُها بعينيّ ، ثم ضربتُ الضربةَ الثانيةَ فرُفِعَتْ لي مدائنُ قيصرَ وما حولَها حتى رأيتُها بعينيّ ثم ضربتُ الثالثةَ فرُفِعَتْ لي مدائنُ الحبشةِ وما حولَها من القُرَى حتى رأيتُها

بعينيّ – عند ذلك قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (دَعُوا الحبشةَ ما وَدَعوكم واتركوا التُّرْكَ ما تركوكم) وقال : إنه لَما ضربَ الضربةَ الأُولَى قال : (اللهُ أكبرُ أُعطيتُ مفاتيحَ الشَّامِ ، واللهِ إني لأُبصرُ إلى قصورِها الحمراءَ الآنَ من مكاني هذا) وعندما ضربَ الثانيةَ قال : (اللهُ أكبرُ أُعطيتُ مفاتيحَ فارسَ واللهِ إني لأُبصرُ قصرَ المدائنِ الأبيضَ) ثم ضربَ الثالثةَ وقال : (بسمِ اللهِ) فقطعَ الحجرَ وقال : (اللهُ أكبرُ أُعطيتُ مفاتيحَ اليمَنِ واللهِ إني لأُبصرُ بابَ صنعاءَ) . صحَّحَهُ أبو محمد عبد الحقِّ . وأقبلَتْ قريشٌ في نحوِ عشرةِ آلافٍ بمن معهم من كنانةَ وأهلِ تُهامةَ ، وأقبلَتْ غَطَفَانُ بمن معها من أهلِ نجدٍ حتى نزلوا جانبَ أُحُدٍ ، وخرجَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم والمسلمون حتى نزلوا بظهرِ سَلْع * جبل بالمدينة * في ثلاثةِ آلافٍ وضربوا عسكرَهم والخندقُ بينهم وبين المشركين ، واستعملَ على المدينةِ ابنَ أُمِّ مكتومٍ ، وبلغَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم تآمرُ اليهودِ ، فبعث سعدَ بنَ عبادةَ وهو سيِّدُ الخزرجِ وسعدَ بنَ معاذٍ وهو سيِّدُ الأوسِ واثنين معهما ، وقال لَهم : (انطلقوا إلى بني قريظةَ فإنْ كان ما قيل لنا حقًّا فالحَنوا لنا لَحْنًا ولا تَفُتُّوا في أعضادِ الناسِ . وإنْ كان كَذبًا فاجهَروا به للناسِ)(البخارى). فانطلقوا حتى أتوْهم فوجدوهم على أخبثِ ما قيلَ عنهم ، ونالوا من رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وقالوا : لا عهدَ له معنا ، فشاتَمَهم سعدُ بنُ معاذٍ وشاتموه ، وعاد سعدٌ وسعدٌ وأخبراه بنقضِ اليهودِ للعهدِ فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم :(أبشروا يا معشرَ المسلمين) وعظُمَ البلاءُ واشتدَّ الخوفُ ، وأتى المسلمين عدوُّهم من فوقِهم ، أي من فوقِ الوادي من قِبَلِ المشرقِ ، ومن أسفلَ منهم من بطنِ الوادي من قِبَلِ المغربِ ، حتى ظنُّوا باللهِ الظُّنونا ، وأظهرَ المنافقون ما كانوا يُسِرُّون ، فمنهم من قال : إنّ بيوتَنا عورةٌ ، فلننصرفْ إليها فإنَّا نخافُ عليها ، وظلَّ المسلمون والمشركون بضعًا وعشرين ليلةً قريبًا من شهرٍ لم يكنْ بينهم حربٌ إلاّ الرَّميُ بالنَّبْلِ والحصى . فلمّا رأى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم

أنه اشتدَّ على المسلمين البلاءُ ، بعثَ إلى عُيَيْنَةَ بنِ حصنٍ وإلى الحارثِ بنِ عوفٍ ، وهما قائدا غَطَفَان ، وعَرَضَ عليهما ثُلُثَ ثمارِ المدينةِ لينصرِفا بمن معهما من غطفان ويخذُلا قريشًا ويرجعا بقومِهما عنهم ، وكانتْ هذه المقالةُ مراوضةً ولم تكنْ عَقْدًا ، فلمّا رأى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أنّهما قد رَضِيَا أتى سعدَ بنَ أبي معاذٍ وسعدَ بنَ عبادةٍ واستشارهما ، فقالا : يارسولَ اللهِ ، هذا أمرٌ تُحبُّه فنصنعُــه لك ، أو شيءٌ أمَرَكَ اللهُ به فنسمعَ و نطيعَ ، أو أمرٌ تصنعُهُ لنا ؟ قال :(بل أمرٌ أصنعُهُ لكم واللهِ ما أصنعُهُ إلاّ أنّي رأيتُ العربَ قد رَمَتْكم عن قَوْسٍ واحدةٍ) فقال سعدُ بنُ معاذٍ: يارسولَ اللهِ ، واللهِ لقد كنّا نحن وهؤلاء القومِ على الشِّرْكِ باللهِ وعبادةِ الأوثانِ ، لا نعبُدُ اللهَ ولا نعرِفُه ، وما طمِعوا قَطُّ أنَ ينالوا منّا ثَمَرَةً إلاّ شِراءً أو قِرًى ، فحين أكرَمَنا اللهُ بالإسلامِ وهدانا له وأعزَّنا بك ، نُعطيهم أمــوالَنا ! واللهِ لا نعطيهم إلاّ السَّيفَ حتى يحكمَ اللهُ بيننا وبينهم ! فَسُرَّ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بذلك وقال : (أنتم وذاك) وقال لعُيينةَ والحارثِ :(انصرِفا فليس لكما عندنا إلاّ السَّيفُ) وأقبلَ بعضُ فرسانِ قريشٍ وشجعانِهم ، حتى وقفوا على الخندقِ ، وتيمَّمُوا مكانًا ضيِّقًا من الخندقِ ، فضربوا خَيْلَهم فاقتحَمَتْ بِهم وجاوزوا الخندقَ وصاروا بين الخندقِ وبين سَلْعٍ "الجبل" ، وخرج عليٌّ بنُ أبي طالبٍ في نَفَرٍ من المسلمين حتى أخَذوا عليهم الثُغْرَةَ التي اقتحموا منها ، وأقبَلَتْ الفرسانُ نحوهم ، وقال عمرُو بنُ وُدٍّ "من المشركين" : مَنْ يُبارزُ ؟ فبَرَزَ له عليٌّ بنُ أبي طالبٍ ، وقال له : يا عمرُو ، إنّك عاهدتَ اللهَ فيما بَلَغَنَا ، أنّكَ لاتُدْعَى إلى إحدى خَلّتين إلاّ أخَذْتَ إحداهما ؟ قال نَعَمْ . قال : فإني أدعوكَ إلى اللهِ وإلى الإسلامِ .قال: لا حاجةَ لي بذلك . قال : فأدعوكَ إلى المبارزةِ . قــال : يا ابنَ أخي ، واللهِ ما أُحِبُّ أنْ أقتلَكَ لِما كان بيني وبين أبيكَ . فقال عليٌّ : أنا واللهِ أُحِبُّ أنْ أقتلَكَ . فحَمِيَ عمرٌو ونزلَ عن فَرَسِه ، وتنازلا وثار الترابُ فما انجلَى حتى رُئِيَ عليٌّ على صدرِ عمرٍو يقطعُ رأسَه . فلمّا رأى الباقون مقتلَ عمرٍو اقتحموا الثُغرةَ بخيلِهم منهزمين هاربين .

وأتى نعيمٌ بنُ مسعودٍ فقال : يارسولَ اللهِ ، إني قد أسلمتُ ولم يعلمْ قومي بإسلامي ، فمُرْني بما شئْتَ ، فقال له رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّما أنت رجلٌ واحدٌ من غَطَفَان فلو خرجتَ فخَذَّلْتَ عنّا إنْ استطعتَ كان أحبَّ إلينا من بقائكَ معنا فاخرُجْ فإنّ الحربَ خُدْعَةٌ)(البخارى) . فخرج نعيمٌ حتى أتى بني قريظةَ – وكان يُنادمُهم في الجاهلية – فقال: يابني قريظةَ ، قد عرفتم وُدِّي إيَّاكم ، وخاصّةً مابيني وبينكم ، فقالوا : قُلْ ، فلستَ عندنا بمتَّهمٍ . قال : إنّ قريشًا وغطفانَ ليسوا كأنتم ، البلدُ بلدُكم ، فيه أموالُكم وأبناؤُكم ونساؤُكم ، وإنّ قريشًا وغطفانَ جاءوا لحربِ محمدٍ وأصحابِه وقد ظاهرتموهم عليه ، فإنْ رأوْا نُهْزَةً " فرصة " أصابوها، وإنْ كان غيرَ ذلك لحِقوا ببلادِهم وخلُّوا بينكم وبين الرجلِ ، ولا طاقةَ لكم به ، فلا تُقاتلوا مع القومِ حتى تأخذوا منهم رُهُنًا ، ثم خرجَ إلى قريشٍ فقال لهم : قد عرفتم وُدِّي لكم معشرَ قريشٍ ، وفراقي محمدًا ، وقد بلغني أمرٌ أرى من الحقِّ أنْ أُبلِّغكموه نُصْحًا لكم ، فاكتموا عليّ ، قالوا : نفعلُ . قال : تعلمون أنّ معشرَ يهودَ قد ندِموا على ما كان من خذلانِهم محمدًا ، وأرسلوا إليه : إنّا قد ندِمنا على ما فعلنا ، فهل يُرضيكَ أنْ نأخذَ من قريشٍ وغطفانَ رجالاً من أشرافِهم فنعطيكَهم فتضربُ أعناقَهم ، ثم نكونُ معكَ على ما بَقِيَ منهم حتى نستأصلَهم . أرسلَ أبو سفيانَ إلى بني قريظةَ عِكرِمةَ بنَ أبي جهلٍ في نَفَرٍ من قريش وغطفان يقولُ لَهم : إنّا لسنا بدارِ مُقامٍ ، قد هلك الخُفُّ والحافرُ ، فاغدوا صبيحةَ غدٍ للقتالِ ، فأرسلوا إليهم : إنّ اليومَ يومُ السَّبتِ ، وقد علِمتم ما نالَ منا مَنْ تَعَدَّى في السَّبتِ ، ومع ذلك فلا نُقاتلُ معكم حتى تُعطونا رُهُنًا ، فلمّا رجعَ الرسولُ بذلك ، قالوا : صَدَقَنا واللهِ نعيمٌ بنُ مسعودٍ ، فرَدُّوا إليهم الرُّسُلَ وقالوا : واللهِ لا نُعطيكم رُهُنًا أبدًا ، فاخرجوا معنا إنْ شئتُم وإلاّ فلا عهدَ بيننا وبينكم . فقال بنو قريظةَ : صَدَقَ واللهِ نعيمٌ بنُ مسعودٍ . وخَذَلَ اللهُ بينهم ، واختلفَتْ كلمتُهم ، وبَعَثَ اللهُ عليهم رِيحًا عاصِفًا في ليالٍ شديدةِ البرْدِ ، فجعلتْ الرِّيحُ تقلبُ آنيتَهم وتكفأُ قدورَهم . وقال

أبو سفيانَ : ويلَكم يا معشرَ قريشٍ ! إنّكم واللهِ ما أصبحتم بدارِ مقامٍ ولقد هلكَ الكراعُ والخُفُّ ، وأخلفَتنا بنــو قريــظةَ ، ولقــينا من هــذه الرِّيــحِ ما تَرَوْنَ ، ما يستمسكُ لنا بناءٌ ، ولا تثبُتُ لنا قِدْرٌ ، ولا تقومُ لنا نارٌ ، فارتحِلوا فإني مُرتَحِلٌ . وعادتْ الأحزابُ من حيثُ أتَوْا خائبين . ورجعَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إلى المدينةِ ، ووضعَ المسلمون سلاحَهم ، فأتاه جبريلُ قال : يا محمد :إنْ كنتم قد وضعتم سلاحَكم فما وضعَتِ الملائكةُ سلاحَها ، إنّ اللهَ يأمُرُكَ أنْ تخرُجَ إلى بني قريظةَ ، وإني متقدِّمٌ إليهم فمزلزلٌ بهم حصونَهم ، فأمَرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مناديًا فنادَى : لا يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العصْرَ إلاّ في بني قريظةَ . وكان سعدٌ بنُ معاذٍ قد أصابه سهمٌ فدعا ربَّه قال : اللهم إنْ كنتَ قد أبقيتَ من حربِ قريشٍ فأبقِني لَها، فإنه لا قومَ أُحِبُّ أنْ أُجاهدَهم من قومٍ كذّبوا رسولَكَ وأخرَجوه . اللهم وإنْ كنتَ وضعْتَ الحربَ بيننا وبينهم فاجعلْها لي شهادةً ، ولا تُمِتْني حتى تَقَرَّ عيني في بني قريظةَ ، وأُصيبَ سعدٌ في أَكْحَلِه ثم قال : اللهم إنْ كان حربُ بني قريظةَ لم يبقَ منه شيءٌ فاقبِضْني إليكَ ، وإنْ كان قد بقيتْ منه بقيةٌ فأبقِني حتى أُجاهدَ مع رسولِكَ أعداءَه . فلمّا حُكِّمَ في بني قريظةَ تُوُفِّيَ ، ففرِحَ الناسُ وقالوا : نرجو أنْ تكونَ قد استُجيبَتْ دعوَتُه . ولمّا خرج المسلمون إلى بني قريظةَ قال لَهم رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (نقضتم العهدَ ياإخوةَ القرودِ أخزاكم اللهُ وأنزلَ بكم نقمتَه) وحاصرَهم رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بضعًا وعشرين ليلةً ، وانتهى الأمرُ باستسلامهم ، وكان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قد حكّمَ فيهم سعدَ ابنَ معاذٍ، فحكمَ بأنْ تُقتلَ المقاتلةُ وتُسبَى الذرِّيةُ والنساءُ ، فقال له رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (لقد حكمتَ فيهم بحكمِ اللهِ تعالى من فوقِ سبعةِ أرقعة " سماوات وسُمِّيتْ بذلك لأنها رُقِعَت بالنجومِ ") (أحمد) وقُتِلَ من اليهودِ من الستمائةِ إلى السبعمائةِ ، وقُسِمَتْ أموالُهم . فلمّا تم أمرُ بني قريظةَ أُجيبتْ دعوةُ سعدِ بنِ معاذٍ ، فانفجرَ جُرْحُهُ وجرى دمُه ومات ، وهو الذي أتى الحديثُ فيه :(اهتزَّ لموتِهِ عرشُ

الرحمنِ) (أحمد) . ولم يُستَشْهَدْ يومَ الخندقِ إلاّ ستَّةٌ ، وهم : سعدُ بنُ معاذٍ ، وأنسُ ابنُ أوسٍ ، وعبدُ اللهِ بنُ سهلٍ ، والطُّفيلُ بنُ النعمانِ ، وثعلبةُ بنُ غَنَمَةَ ، وكعبُ ابنُ زيدٍ ، وقُتِلَ من الكفّارِ ثلاثةٌ . ولم يَغْزُ كفّارُ قريشٍ المؤمنين بعد الخندقِ . وكانتْ الرِّيحُ التي أفزعتْ المشركين وفرَّقتهم ، معجزةً لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، لأنّ المسلمين كانوا قريبًا منها ، لم يكنْ بينهم وبينها إلاّ عرضُ الخندقِ ، وكانوا في عافيةٍ منها . ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ يعني من حفرِ الخندقِ والتَّحرُّزِ من العدوِّ .

(١٣٠) تَخْيِيرُ زَوْجَاتِ النَّبِيِّ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب:٢٨،٢٩) .

كان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قد تأذّى ببعضِ الزوجاتِ . قيل : سألنَه شيئًا من عَرَضِ الدنيا . وقيل : زيادةً في النفقةِ . وقيل : أُمِرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بتلاوةِ هذه الآيةِ عليهنّ وتخييرِهنّ بين الدنيا والآخرةِ . وقال الشّافعيُّ : أُمِرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أنْ يُخيِّرَ نساءَهُ فاخترنَهُ . . وجملةُ ذلك أنّ اللهَ تعالى خيَّرَ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم بين أنْ يكونَ نبيًّا مَلِكًا وعَرَضَ عليه مفاتيحَ خزائنِ الدنيا، وبين أنْ يكونَ نبيًّا مسكينًا ، فشاورَ جبريلَ فأشارَ عليه بالمسكنةِ فاختارَها ، ثم أمَرَهُ تعالى أنْ يُخيِّرَ زوجاتِه . وقيل : إنّ السببَ هو أنّ امرأةً من أزواجِه سألتْهُ أنْ يصوغَ لَها حَلْقَةً من ذهَبٍ ، فصاغَ لَها حَلْقَةً من فضّةٍ وطلاها بالذهبِ ـ وقيل بالزعفرانِ ـ فأبَتْ إلاّ أنْ تكونَ من الذهبِ ، فنزلتْ آيةُ التخييرِ . فخيَّرَهنّ ، فقُلْنَ :

اخترنا اللهَ ورسولَه . عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ قال : دخلَ أبو بكرٍ يستأذنُ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فأُذنَ له فدخلَ ، ثم جاءَ عمرُ فاستأذَنَ فأُذنَ له ، فوجدَ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم جالسًا حولَه نساؤُهُ واجمًا ساكتًا ، فقال عمرُ : واللهِ لأقولَنَّ شيئًا أُضحكُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقال : يارسولَ اللهِ ، لو رأيتُ بنتَ خارجةَ " زوجته "سألتني النفقةَ فقُمتُ إليها فَوَجَأْتُ " قطعتُ " عُنُقَهَا فضَحكَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وقال : (هنَّ حَولي كما تَرَى يسألنَني النَّفقةَ) فقامَ أبو بكرٍ إلى عائشةَ يَجَأُ عُنُقَها، وقامَ عمرُ إلى حفصةَ يَجأُ عُنُقَهَا ، كلاهما يقولُ: تسألْنَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ما ليس عنده ! فقلنَ : واللهِ لا نسألُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم شيئًا أبدًا ليس عنده . ثم اعتزلَهنّ شهرًا .ثم نزلتْ عليه هذه الآيةُ . فبدأ بعائشةَ فقال:(ياعائشةُ إني أُريدُ أنْ أعرِضَ عليكِ أمرًا أُحبُّ ألاّ تعجلي فيه حتى تستشيري أبويكِ) قالتْ : وما هو يارسولَ اللهِ ؟ فتلا عليها الآيةَ . قالتْ : أفيكَ يارسولَ اللهِ أستشيرُ أبويَّ ؟ بل أختارُ اللهَ ورسولَه والدَّارَ الآخرةَ ، وأسألُك ألاّ تُخبرَ امرأةً من نسائكَ بالذي قُلتَ . قال : (لا تسألُني امرأةٌ منهنّ إلاّ أخبرتُها ، إنّ اللهَ لم يبعثْني مُعَنِّتًا ولا مُتَعَنِّتًا ولكن بَعَثَني مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا) (مسلم) وفعلَ أزواجُ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم كما فعلَتْ عائشةُ . ﴿ قُل لِّأَزْوَاجِكَ ﴾ كان لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أزواجٌ ، منهنّ من دخلَ بها ، ومنهنّ من عقدَ عليها ولم يدخلْ بها ، وأوّلُهنّ : خديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ ، ولم يتزوّجْ غيرَها حتى ماتتْ ، وكانتْ بنتَ أربعين حين تزوّجَها ، وتُوُفِّيتْ بعد النبوَّةِ بسبعِ سنين ، وقيل : عشر ، وهي أوّلُ امرأةٍ آمَنَتْ به ، وجميعُ أولادِه منها غيرَ إبراهيم . ومنهنّ : سَوْدَةُ بنتُ زَمْعَةَ ، وكانتْ عند ابنِ عمٍّ لَها وهاجرا إلى الحبشةِ، فلمّا قَدِمَا إلى مكّةَ مات زوجُها ، وقيل : مات بالحبشةِ ، فتزوّجَها رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم . ومنهنّ عائشةُ بنتُ أبي بكرٍ ، وكانتْ مُسَمَّاةً لِجُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ ،

وتزوّجَها قبل الهجرةِ بسنتين ، وقيل : ثلاث سنين ، وبقِيَتْ عنده تِسْعَ سنين ، ولم يتزوّجْ بِكْرًا غيرَها . ومنهنّ حفصةُ بنتُ عمرَ بنِ الخطابِ ، ثم طلَّقَها ، فأتاه جبريلُ فقال : " إنّ اللهَ يأمُرُكَ أنْ تُراجِعَ حفصةَ فإنّها صوّامةٌ قوّامَةٌ " فراجَعَها . ومنهنّ : أم سَلَمَة ، واسمُها هندٌ بنتُ أبي أُمَيّة . ومنهنّ : أمُّ حبيبة ، خطبَها من النجاشيِّ فزوّجَه إيّاها ، وأصدَقَ النجاشيُّ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أربعمائةَ دينارٍ ، وبعَثَ بِها مع شُرحبيل ابنِ حَسَنَة ، وكانتْ تحت عبيدِ اللهِ بنِ جحشٍ فمات بالحبشةِ على النصرانيةِ . ومنهنّ : زينبُ بنتُ جحشٍ ، وكان اسمُها بَرَّة فسمَّاها زينب . ومنهنّ : زينبُ بنتُ خُذَيْمَة ، وكانتْ في الجاهليةِ تُسَمَّى أمّ المساكين ، لإطعامِها إيّاهم . ومنهنّ : جُوَيْرِيةُ بنتُ الحارثِ ، أصابَها في غزوةِ المصْطَلِقِ ، وكان اسمُها بَرَّة فسمَّاها جُوَيْرِيةَ . ومنهنّ : صفيةُ بنتُ حُيَيٍّ ، سباها يومَ خيبر وأعتقَها وتزوّجَها وجعلَ عِتْقَها صَدَاقَها . ومنهنّ : رَيحانةُ بنتُ زَيْدٍ ، سَبَاها من بني النضيرِ فأعتقَها وتزوّجَها . ومنهنّ : ميمونةُ بنتُ الحارثِ الهلاليةُ ، وهي آخرُ امرأةٍ تزوّجَـها رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم . فهؤلاء المشهوراتُ من أزواجِهِ اللاتي دخلَ بهنّ . وكان له من السَّراري سُرِّيَّتان : ماريةُ القبطيةُ ، ورَيحانةُ ، في قولِ قتادةَ ، وقال غيرُه : كان له أربعٌ : ماريةُ ، ورَيحانةُ ، وأُخرى جميلةٌ أصابَها في السَّبْيِ ، وجاريةٌ وهَبَتْها له زينبُ بنتُ جحشٍ .

(١٣١) الْفَاحِشَـــةُ مِنْ نِسَـــاءِ النَّبِيِّ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٣٠، ٣١)

لَمّا اختار نساءُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم ، شَكَرَهنَّ اللهُ تعالى على ذلك فقال تكرمةً لهنّ : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ ﴾ (الأحزاب:٥٢)، وجعلَ ثوابَ طاعتِهنّ وعقابَ معصيتِهنّ أكثرَ مما لغيرِهنّ ، فأخبرَ تعالى أنّ من جاءَ منهنّ بفاحشةٍ، يُضاعَفُ لَها العذابُ ضِعفَين ، لشرَفِ منزلتِهنّ وفضلِ درجتِهنّ . وقال قومٌ : إذا ورَدَتْ كلمةُ "الفاحشةُ" مَعْرِفَةً ، أي بالألفِ واللامِ ، فهي بمعنى الزِّنى واللواطِ ، وإذا وَرَدَتْ مُنْكَرَةً " أي نَكِرَةً " فهي سائرُ المعاصي ، وإذا وَرَدَتْ منعوتةً ، فهي عقوقُ الزَّوْجِ وفسادُ عِشْرَته . وقالت فِرْقَةٌ : قَوْلُهُ : ﴿ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ تعُمُّ جميعَ المعاصي . وكذلك " الفاحشةُ " كيف وَرَدَتْ .

ويقولُ تعالى : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلۡنَ قَوۡلًا مَّعۡرُوفًا ﴾
(الأحزاب:٣٢)

أي لستنَّ كأحدٍ من النساءِ في الفضلِ والشَّرَفِ . ﴿ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ ﴾ أي خِفْتُنَّ اللهَ. ﴿ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ ﴾ أي لا تَلِنَّ القولَ . ﴿ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ أي شكٌّ ونفاقٌ . وقيل : تَشَوُّفٌ لفجورٍ ، وهو الفِسْقُ والغَزَلُ . ﴿ وَقُلۡنَ قَوۡلًا مَّعۡرُوفًا ﴾ القولُ المعروفُ هو الصوابُ الذي لا تُنكِرُه الشريعةُ ولا النفوسُ ، وهذا أمرٌ يشملُ جميعَ النساءِ ، إذا خاطَبَتْ الرجالَ الأجانبَ ، وكذا المُحرَّماتِ عليها بالمصاهرةِ .

(١٣٢) قَرَارُ النِّسَاءِ وَتَبَرُّجُهُنَّ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا ﴾ (الأحزاب:٣٣)

﴿ وَقَرْنَ ﴾ من الوقارِ . ومن القرارِ أي السَّكَنِ . ورُوِيَ أنّ عمَّارًا قال لعائشةَ رضي اللهُ عنها : إنّ اللهَ أمَرَكِ أنْ تَقَرِّي في منزِلك ، فقالتْ : يا أبا اليقظان ، مازلتَ قَوَّالاً بالحقِّ ! فقال : الحمدُ للهِ الذي جعلَني كذلك على لسانِكِ . وفي هذه الآيةِ أمْرٌ بلزومِ البيتِ ، وإنْ كان الخطابُ لنساءِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقد دخلَ فيه غيرُهنّ . والشَّريعةُ مليئةٌ بلزومِ النساءِ بيوتَهنّ ، والانكفافِ عن الخروجِ إلاّ للضرورةِ . ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ والتبرُّجُ هو المَشْيُ بين الرجالِ على تَغْنيجٍ وتكسيرٍ وإظهارِ المحاسنِ للرجالِ ، إلى غيرِ ذلك مما لايجوزُ شَرْعًا ، ويلزمْنَ البيوتَ ، فإنْ مسَّتْ الحاجةُ إلى الخروجِ فليكُنَّ على تَستُّرٍ تامٍّ .وذَكَرَ الثعلبيُّ وغيرُهُ : أنّ عائشةَ كانتْ إذا قرأتْ هذه الآيةَ تبكي حتى تَبُلَّ خِمارَها .وذَكَرَ أنّ سَوْدَةَ قيل لَها : لِمَ لا تَحُجِّين ولا تَعْتَمِرين كما يفعلُ أخَواتُك ؟ فقالتْ : قد حججتُ واعتمرتُ ، وأمَرَني اللهُ أنْ أَقَرَّ في بيتي . قال الرَّاوي : فواللهِ ما خَرَجَتْ من بيتِها ، حتى أُخْرِجَتْ جنازتُها . وقال ابنُ عطيَّةَ : كان بكاءُ عائشةَ بسببِ سفرِها أيّامَ موقعةِ الجَمَلِ ، وحينئذٍ قال لَها عمَّارٌ : إنّ اللهَ قد أمَرَكِ أنْ تَقَرِّي في بيتِكِ . ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ فيما أمَرَ ونَهَى . ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ يُرادُ به نساؤُهُ وأهلُهُ الذين هم أهلُ بيتِهِ .

(١٣٣) الْمُسَاوَاةُ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ :

يقولُ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ

وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب:٣٥)

رَوَى الترمذيُّ عن أمِّ عُمارةَ الأنصاريَّةِ أنّها أتتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالتْ : ما أرَى كلَّ شيءٍ إلاّ للرجالِ ، وما أرَى النساءَ يُذْكَرْنَ بشيءٍ ! فنزلتْ هذه الآيةُ . وبدأ اللهُ تعالى بذِكْرِ الإسلامِ الذي يعُمُّ الإيمانَ والجوارِحَ ، ثم ذَكَرَ الإيمانَ تنبيهًا على أنه عُظْمُ الإسلامِ ودعامتُه . والقانتُ : العابدُ المطيعُ . والصَّادقُ : الذي يصدقُ فيما عُوهِدَ عليه وأنْ يَفيَ به . والمتصدِّقُ : بالفَرْضِ والنَّوافلِ . والصَّائمُ كذلك . ﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ ﴾ أي عمّا لا يَحِلُّ من الزِّنى وغيرِه . والذّاكرُ لله في أدبارِ الصلواتِ وغُدُوًّا وعَشيًّا ، وفي المضاجعِ وعند الانتباهِ من النَّومِ ، والحمدُ لله ربِّ العالمين . وقال أبو سعيدٍ الخُدْرِيّ : من أيقظَ أهلَهُ بالليلِ وصلّيا معًا أربعَ ركعاتٍ كُتِبَا من الذّاكرين اللهَ كثيرًا والذّاكراتِ .

(١٣٤) عِصْيَانُ قَضَاءِ اللهِ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب:٣٦) .

سببُ نزولِ هذه الآيةِ أنّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَطَبَ زينبَ بنتَ جحشٍ ، وكانتْ بنتَ عَمَّتِه ، فظنَّتْ أنّ الخطبةَ لنفسِه ، فلمّا تبيَّنَ أنه يُريدُها لزَيْدِ ابنِ حارثةَ ، كَرِهتْ وامتنعَتْ ، وامتنعَ أخوها ، لنسَبِها من قريشٍ ، وأنّ زيْدًا كان بالأمسِ عبدًا ، فنزلتْ الآيةُ . فأذْعَنَتْ زينبُ حينئذٍ وتزوّجَتْه . وهذه الآيةُ دليلٌ على أنّ الكفاءةَ لا تُعتَبَرُ في الأحسابِ وإنّما في الأديانِ . والخِيَرَةُ بمعنى التخييرِ ، ثم توعَّدَ اللهُ وأخبرَ بأنّ من يعصِ اللهَ ورسولَهُ فقد ضَلّ .

(١٣٥) زَوَاجُ مُطَلَّقَةِ الْمُتَبَنَّى :

يقولُ تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (الأحزاب:٣٧)

قالتْ عائشةُ : لو كان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كاتمًا شيئًا من الوحي لَكَتَمَ هذه الآيةَ . ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ بالإسلامِ . ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالعتقِ . ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ ﴾ ما يُبديه اللهُ ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ في كلِّ الأحوالِ . ولا تأمُرْ زيدًا بإمساكِ زوجتِهِ بعد أنْ أعلَمَكَ اللهُ أنّها ستكونُ زوجتَك . ولمّا تزوّجَها رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، قالوا : تزوّجَ حليلةَ ابنِه ، فأنزل اللهُ تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ وكان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، قد تبنّاهُ وهو صغيرٌ ، فلبثَ حتى صارَ رجلاً يقالُ له زَيْدٌ ابنُ محمدٍ ، فأنزلَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ . وكانتْ زينبُ تُفاخرُ نساءَ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم وتقولُ : زوّجَكُنَّ آباؤُكُنّ وزوّجَني اللهُ تعالى . ﴿ وَطَرًا ﴾ الوطَرُ كلُّ حاجةٍ للمرءِ له فيها هِمَّةٌ ، أي ما أراد من حاجتِهِ ، يعني الجماعَ .

ويقولُ تعالى : ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (الأحزاب:٣٨،٣٩)

هذه مخاطبةٌ من الله تعالى لجميعِ الأُمَّة . أعلَمَهم أنّ هذا ونحوَه هو السُّنَنُ الأقدمُ في الأنبياءِ أنْ ينالوا ما أحلَّه لَهم ، أي سَنَّ لمحمد صلى اللهُ عليه وسلم التوسعَةَ عليه في النكاحِ سُنَّةَ الأنبياءِ الماضيةَ ، كداوُدَ وسُلَيْمانَ .

يقولُ تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٤٠).

أعلَمَ اللهُ تعالى أنّ محمدًا لم يكنْ أبا أحدٍ من الرجالِ المعاصرين له في الحقيقةِ . ولم يُقصَدْ بهذه الآيةِ أنّ محمدًا صلى اللهُ عليه وسلم لم يكنْ له وَلَدٌ ، فقد وُلِدَ له ذكورٌ: إبراهيمُ ، والقاسمُ ، والطَّيبُ ، والمطَهَّرُ ، ولكنْ لم يَعِشْ له ابنٌ حتى يصيرَ رجلاً . ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ أي أنه آخرُ الأنبياء . وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلـم : (ليس يبقَى بعدي من النُّبوَّة إلاّ الرُّؤْيا الصَّالحةُ) (مسلم).

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب:٤١)

أَمَرَ اللهُ عبادَه بأنْ يذكروهُ ويشكروهُ ، ويُكثروا من ذلك على ما أنعَمَ به عليهم . قال ابنُ عباسٍ : لم يُعْذَرْ أحدٌ في تَرْكِ ذِكْرِ اللهِ إلاّ مَنْ غُلبَ على عقلـه . ورَوَى أبو سعيدٍ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (أَكْثِرُوا من ذِكْرِ اللهِ حتى يقولوا مجنونٌ) (أحمد) . وقيل : الذِّكْرُ الكثير ما جرَى على الإخلاصِ من القلبِ ، والقليلُ ما يقعُ على حُكمِ النِّفاق كالذِّكْرِ باللسان .

قولُهُ تعالى : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الأحزاب:٤٢) أي اشغلوا ألسنتَكم في معظَمِ أحوالِكم بالتسبيحِ والتهليلِ والتحميدِ والتكبيرِ . وقيل : المرادُ صلُّوا للهِ بُكْرَةً وأصيلاً . والصلاةُ تُسَمَّى تسبيحًا . وخَصَّ الفجرَ والمغربَ والعشاءَ بالذِّكْرِ لأنّها أحقُّ بالتحريضِ عليها ، لاتِّصالِها بأطرافِ الليلِ . والأصيلُ : العَشِيُّ .

قولُهُ تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب:٤٣)

قال ابنُ عباسٍ : لمّا نزلتْ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ (الأحزاب:٥٦) قال المهاجرون والأنصارُ : هذا لك يارسولَ الله خاصَّةً ، وليس لنا فيه شيءٌ . فأنزل الله هذه الآيةَ . وهذه نعمةٌ من اللهِ على هذه الأُمَّة من أكبرِ النِّعَمِ ، ودليلٌ على فضلِها على سائرِالأممِ . وقد قال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران:١١٠). والصلاةُ من اللهِ على العبدِ هي رحمتُهُ له وبَرَكَتُهُ لديه . وصلاةُ الملائكة : دعاؤُهم للمؤمنين واستغفارُهم لَهم ، كما قال : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾. وفي الحديثِ : أنّ بني إسرائيلَ سألوا موسى عليه السلامُ : أيُصَلِّي ربُّكَ جلّ وعزَّ ؟ فاعظَمَ ذلك ، فأوحَى اللهُ جلّ وعزَّ : (إنَّ صلاتي بأنّ رحمتي سبقَتْ غَضَبي) (أحمد) . ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أي من الضـــلالـــة إلى الهُدَى ، ثـــم أخبَرَ اللهُ تعالى برحمتـــه بالمؤمنين تأنيسًا لَهم فقال ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب:٤٣).

قولُهُ تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ (الأحزاب:٤٤) أي كان بالمؤمنين رحيمًا ، فهو يُؤمِّنُهم من عذابِ يومِ القيامة ، وفي ذلك اليومِ يَلقَوْنَهُ . و ﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ أي تحيةُ بعضِهم لبعضٍ . ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ أي سلامةٌ لنا ولكم من عذابِ اللهِ . وقيل : هذه التحيَّةُ من اللهِ تعالى ، فيُسَلِّمُهم من الآفات ، أو يُبَشِّرُهم بالأمنِ من المخافاتِ ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ أي يومَ القيامةِ بعد دخولِ الجنَّة. قال معناهُ الزجَّاجُ ، واستشهَدَ بقولِه : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ (يونس:١٠).

قولُهُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الأحزاب:٤٥،٤٦)

في هذه الآيةُ تأنيسٌ للنَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم وللمؤمنين ، وتكريمٌ للجميعِ . وتضمَّنتْ هذه الآيةُ من أسمائه صلى اللهُ عليه وسلم ستَّةَ أسماءٍ ، وله أسماءٌ كثيرةٌ وسماتٌ جليلةٌ . وقد سمَّاهُ اللهُ في الكتابِ محمدًا وأحمدَ . وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فيما رواهُ عنه الثقاتُ العُدُولُ : (لي خمسةُ أسماءٍ أنا محمدٌ وأنا أحمدُ

وأنا الماحِي الذي يمحو اللهُ بِيَ الكُفْرَ وأنا الحاشِرُ الذي يُحْشَرُ الناسُ على قدَمي وأنا العاقِبُ) (البخارى). وفي صحيحِ مسلمٍ عن جُبَيْرِ بنِ مُطْعِم : وقد سمَّاهُ اللهُ " رَءُوفًا رَحِيمًا " . وقال ابنُ عباسٍ : لمّا نزلتْ هذه الآيةُ دعا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عَلِيًّا ومُعَاذًا ، فبعثَهما إلى اليمنِ ، وقال : (اذهبا فبَشِّرا ولا تُنَفِّرا ، ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا ، فإنه قـد أُنْزِلَ) ، وقـرأ هـذه الآيـةَ (مسلم) . ﴿ شَـٰهِدًا ﴾ على أُمَّتِه بالتبليغِ إليهم وعلى سائرِ الأممِ بتبليغِ أنبيائهم.﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ للمؤمنين برحمةِ اللهِ وبالجنَّةِ . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للعصاةِ والمذنبين والمكذِّبين من النَّارِ وعـذابِ الخـُلْدِ . ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ بتبليغِ التوحيدِ والأخذِ به ، ومكافحةِ الكفَرَةِ . ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ بأمْرِه إيَّاكَ . ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ استعارةٌ للنورِ الذي يتضمَّنُهُ شَرعُهُ .

(١٣٦) الزَّوْجَـاتُ الْحَـلاَلُ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب:٥٠)

﴿ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾ والإحلالُ يقتضي تقدُّمَ حظرٍ . وزوجاتُهُ اللاّتي في حياتِه لم يكُنَّ مُحَرَّماتٍ عليه ، وإنَّما حَرُمَ عليه التزوُّجُ بالأجنبياتِ ، فانصرفَ الإحلالُ إليهنّ ،. ولأنه قال في سياقِ الآيةِ : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ ﴾ ومعلومٌ أنه لم يكنْ تحته أحدٌ من بناتِ عمِّه ولا من بناتِ عمّاتِه ولا من بناتِ خالِه ولا من بناتِ خالاتِه . وقيل : المرادُ أحللنا لك أزواجَك اللاتي عندك ، لأنّهنّ

اخترْتَكَ على الدنيا ، قاله الجمهورُ من العلماءِ . وهو الظاهرُ . وخرَّجَ الترمذيُّ عن عطاءٍ قال : قالتْ عائشةُ : ما مات رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حتى أحلَّ اللهُ تعالى له النساءَ . ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ أحلَّ اللهُ تعالى لنبيِّه صلى اللهُ عليه وسلم السَّراري ، ولأمَّته مطلقًا ، وأحلَّ الأزواجَ له مطلقًا، وأحلَّ للخَلْقِ بعــدد . ﴿ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ﴾ أي رَدَّهُ عليك من الكفَّارِ . والغنيمةُ تُسمَّى فيْئًا ، أي مما أفاءَ اللهُ عليك من النساءِ بالمأخوذِ على وجهِ القهرِ والغَلَبَة . ﴿ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ ﴾ أي لا يَحلُّ لك من قرابتِكَ إلاّ مَنْ أسلمَ . وقيل : لا يَحلُّ لك منهنّ إلاّ من هاجَرَ إلى المدينةِ ، لقولِه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ (الأنفال:٧٢) ومن لم يُهاجرْ لم يَكْمُلْ ، ومن لم يكمُلْ لم يصلُحْ للنَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم . ﴿ مَعَكَ ﴾ المعيَّةُ هنا الاشتراكُ في الهجرةِ لا في الصُّحبةِ فيها ، فمنْ هاجرَ حلَّ له ، كان في صُحبتِه إذا هاجرَ أو لــم يكنْ . ﴿ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً ﴾ أي وأحللنا لك امرأةً تَهَبُ نفسَها لك من غيرِ صداقٍ . وعن ابنِ عباسٍ أنه قال : لم تكنْ عند رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم امرأةٌ إلاّ بعقدِ نكاحٍ أو مِلْكِ يمينٍ ، فأمّا الهبةُ فلم يكنْ عنده منهنّ أحدٌ . وقال قومٌ : كانتْ عنده موهوبةٌ . ورَوَى مسلمٌ عن عائشةَ أنها قالتْ : كنتُ أغارُ على اللاّتِي وَهَبْنَ أنفسَهنّ لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأقولُ : أما تستحي امرأةٌ تَهَبُ نفسَها لرجلٍ ! حتى أنزلَ اللهُ تعالى :﴿ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ ﴾ فقلتُ : واللهِ ، ما أرى ربَّكَ إلاّ يُسارِعُ في هواك . ورَوَى البخاريُّ عن عائشةَ أنّها قالتْ : كانتْ خَوْلَةُ بنتُ حكيمٍ من اللاّتِي وهَبْنَ أنفسَهنّ لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فدلَّ ذلك على أنّهنّ كُنَّ أكثرَ من واحدةٍ . وقال الزّمخشريُّ : وقيل الموهباتُ أربعٌ : ميمونةُ بنتُ الحارثِ ، وزينبُ بنتُ خُزَيْمةَ ، أمُّ المساكينِ الأنصاريَّةُ ، وأمُّ شَريك بنتُ جابرٍ ، وخَوْلَةُ بنتُ حكيمٍ . واللهُ تعالى أعلمُ . ﴿ إِن وَهَبَتۡ ﴾ أي إنْ وقَعَ فهو حلالٌ . ﴿ مُّؤۡمِنَةً ﴾ يدلُّ على أنّ الكافرةَ لا تَحلُّ له . وإذا كان لا يَحِلُّ له من

لم تُهاجرْ لنقصانِ فضلِ الهجرةِ فأحرَى ألاّ تَحلَّ له الكافرةُ الكتابيةُ . ﴿ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ إذا وهبَتْ المرأةُ نفسَها وقبِلَها النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم. ﴿ خَالِصَةً لَّكَ ﴾ أي هِبَةُ النساءِ خالصةً ومزيَّةً لا تجوزُ ، فلا يجوزُ أنْ تَهَبَ المرأةُ نفسَها لرجلٍ . وأجمعَ العلماءُ على أنّ هِبَةَ المرأةِ نفسَها غيرُ جائزةٍ ، إلاّ ما رُوِيَ عن أبي حنيفةَ وصاحبيه فإنّهم قالوا : إذا وَهَبَتْ فأشهَدَ هو على نفسِهِ بمهرٍ فذلك جائزٌ . ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾ أي ما أوجَبنا على المؤمنين ، وهو ألاّ يتزوّجوا إلاّ أربعَ نسوةٍ بمهرٍ وبيِّنةٍ ووَلِيٍّ . ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ أي ضيقٌ في أمرٍ أنت فيه محتاجٌ إلى السعةِ ، ثم آنسَ اللهُ المؤمنين بغفرانِهِ ورحمتِهِ ، فقال تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

(١٣٧) الْوَاهِبَاتُ أَنْفُسَهُنَّ :

يقولُ تعالى : ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٥١) .

﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ ﴾ أي أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كان مُخيَّرًا في أزواجِهِ ، إنْ شاءَ أن يَقْسِمَ قَسَمَ ، وإنْ شاءَ أنْ يتركَ القَسْمَ تَرَك ، ولكنّه كان يقسِمُ من قِبَلِ نفسِهِ دونَ فَرْضٍ عليه ، تطْيِيبًا لنفوسِهنّ ، وصَوْنًا لَهنّ عن أقوالِ الغَيْرَةِ . والآيةُ معناها التوسعةُ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم والإباحةُ . ﴿ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ أي إنْ أردتَ أنْ تُؤْوِيَ إليكَ امرأةً ممّن عَزَلْتَهنّ من القسْمةِ وتضُمَّها إليكَ فلا بأسَ عليكَ في ذلك .وكذلك حُكْمُ الإرجاءِ . ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ لا لَوْمَ عليكَ . ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ﴾ أي ذلك التخييرُ الذي خيَّرناكَ في صُحْبتِهنّ أدنى إلى رِضاهنّ لأنّهنّ إذا علِمْنَ أنّ الفِعلَ من

اللهِ قَرَّتْ أعينُهنّ بذلك ورَضَيْنَ ، لأنّ المرْءَ إذا عَلِمَ أنه لا حقَّ له في شيءٍ كان راضيًا بما أُوتِيَ منه وإنْ قَلّ . ومع ذلك كان صلى اللهُ عليه وسلم يشدُدُ على نفسه في رعايةِ التسويةِ بينهنّ ، تطْييبًا لنفوسهنّ ، ويقولُ : (اللهم هذه قُدرتي فيما أملكُ فلا تَلُمْني فيما تَمْلكُ ولا أمْلكُ) (البخارى) يعني قلبَه ، لإيثارِه عائشةَ دونَ أنْ يُظْهِرَ ذلك في شيءٍ من فِعْلِه . وكان في مَرَضِه الذي تُوُفِّيَ فيه يُطافُ به محمولاً على بيوتِ أزواجِه ، إلى أنْ استأذنهنّ أنْ يُقيمَ في بيتِ عائشةَ . قالتْ عائشةُ : أوّلَ ما اشتكى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، في بيتِ ميمونةَ ، فاستأذنَ أزواجَهُ أنْ يُمَرَّضَ في بيتي ، فأَذِنَّ له . وقالتْ عائشةُ : فلمّا كان يومي قبضَهُ اللهُ تعالى بين سَحْرِي ونَحْرِي ." اي بين جنبي وصدري ، والسَّحْرُ هو الرئةُ والنَّحرُ هو الصَّدر" . ويُستدلُّ من ذلك على أنّ الرجلَ عليه أنْ يعدلَ بين نسائه ، لكلٍّ واحدةٍ منهــنّ يــومٌ وليلةٌ ، ولا يُسْقِطُ حقَّ الزوجةِ مرضُها ولا حيْضُها ، وعليه ألاّ يجمعَ بينهنَّ في بيتٍ واحدٍ إلاّ برضاهنّ ، وأنْ يعدلَ بينهنّ في النفقةِ والكسوةِ إذا كُنَّ معتدلاتِ الحالِ ، ولا يلزمُ ذلك في المختلفاتِ المناصبِ . فأمّا الحبُّ والبغضُ فخارجان عن الكَسْبِ فلا يتأتّى العدلُ فيهما . وقال تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ (النساء:١٢٩). ويقولُ تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (الأحزاب:٥١) من مَيْلٍ بعضِنا إلى مَنْ عندنا من النساءِ دونَ بعضٍ . ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب:٥٠) يغفرُ للعبدِ ما يميلُ إليه قلبُه .

(١٣٨) الْبَدَلُ بالزَّوْجَــات :

يقولُ تعالى : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ (الأحزاب:٥٢) .

قيل : إنّ هذه الآيةَ منسوخةٌ بالسُّنَّة ، والنسخُ لَـها حديثُ عائشـةَ ، قالتْ : ما ماتَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، حتى أُحِلَّ له النساءُ . ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ ﴾ قيل : معـناه لا تحـلُّ لك اليهوديَّاتُ ولا النَّصْرانـياتُ . وقال مجاهدٌ : لئلاّ تكونَ كافرةٌ أُمًّا للمؤمنين . ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ ﴾ قال ابنُ زَيْد : هذا شيءٌ كانتْ تفعلُهُ العربُ ، يقولُ أحدُهم : خُذْ زوجتي وأعطِني زوجتَك ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ . ﴿ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ ﴾ . قال سهلُ بنُ أبي حَثْمَةَ : رأيتُ محمدًا بنَ مسلمةَ يُطارِدُ ثُبَيْتَةَ بنتَ الضحَّاكِ على إجَّارٍ " سَطِحٍ " من أجاجيرِ المدينة ، فقلتُ له : أتفعلُ هذا؟ فقال نَعَمْ ! قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إذا ألْقَى اللهُ في قلبِ أحدِكم خِطبةَ امرأةٍ فلا بأسَ أنْ ينظرَ إليها) (أحمد) . وقـال مالكُ : ينظرُ إلى وجهِـها وكفَّيـها ، ولا ينـظرُ إلاّ بإذنـها . ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ ﴾ فإنّ له أنْ يتسرَّى بها. وقيل : لا تحلُّ ، تنزيهًا لقدْرِهِ عن مباشرةِ الكافرةِ ، وقـد قال اللهُ تعـالـى : ﴿ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ ﴾ (الممتحنة:١٠).

(١٣٩) دُخُـولُ بَيْتِ النَّبيِّ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب:٥٣) . .

تضمَّنتْ هذه الآيةُ أمْرَين : أحدُهما الأدبُ في أمرِ الطعامِ والجلوسِ . والثاني : أمرُ الحجابِ . وسببُ نزولِ هذه الآيةِ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لمّا تزوَّجَ زينبَ بنتَ جحشٍ أوْلَمَ عليها : " اي اقامَ وليمة " ، فدعا الناسَ ، فلمّا طعموا جلَسَ طوائفٌ منهم يتحدَّثون في بيتِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وزوجتُهُ مُوَلِّيةٌ وجهَها إلى الحائطِ ، فثَقُلُوا على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم . قال أنسٌ : فما أدري أأنا أخبرتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أنّ القومَ قد خرجوا أو أخبرَني ، قال : فانطلَقَ حتى دخلَ البيتَ ، فذهبتُ أدخلُ معه فألْقَى السِّترَ بيني وبينه ونزلَ الحجابُ ، وأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ . وهذا أدبٌ أدَّبَ اللهُ به الثقلاءَ . أمّا أمرُ الحجابِ فقالتْ عائشةُ : سببُها أنّ عمرَ قال : يارسولَ اللهِ ، إنّ نساءَكَ يدخلُ عليهنَّ البَرُّ والفاجرُ ، فلو أمرتَهنّ أنْ يحتجِبْنَ ، فنزلتْ الآيةُ . ورَوَى الصحيحُ عن ابنِ عمرَ قال : قال عمرُ وافَقْتُ ربِّي في ثلاثٍ : في مقامِ إبراهيمَ ، وفي الحجابِ ، وفي أُسارى بدرٍ . ﴿ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ دليلٌ على أنّ البيتَ للرجلِ ، ويُحْكَمُ له به . فإنْ قيل : فقد قال اللهُ تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ قُلْنا : إضافةُ البيوتِ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إضافةُ مِلْكٍ ، وإضافةُ البيوتِ إلى الأزواجِ إضافةُ محلٍّ ، بدليلِ أنه جعلَ فيها الإذْنَ للنَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، والإذنُ إنّما يكونُ للمالكِ . ﴿ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ أي غيرَ منتظرينَ نُضْجَهُ . ﴿ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ ﴾ فاكّدَ المنْعَ ، وخَصَّ وقتَ الدخولِ بأنْ يكونَ عند الإذنِ على جهةِ الأدبِ ، وحفْظِ الحضرةِ الكريمةِ عن المباسطةِ المكروهةِ .، وأمَرَ تعالى بعد الإطعامِ أنْ يتفرَّقَ جميعُهم وينتشِروا . ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ أي لا تمكثوا مستأنسين بالحديث كما فعلَ أصحابُهُ في وليمةِ زينب . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي لا يمتنعُ من بيانِهِ وإظهارِهِ ، ولمّا

كان ذلك يقعُ من البشَرِ لعِلَّةِ الاستحياءِ ، نَفَى اللهُ تعالى العِلَّةَ الموجِبَةَ لذلك في البَشَرِ . وفي الصحيحِ عن أمِّ سلمةَ قالتْ : جاءتْ أمُّ سَليمٍ إلى النَّبيِّ صلى اللهُ عِليه وسلم فقالتْ : يارسولَ الله ، إنَّ الله لا يستحْيِ من الحقِّ ، فهل على المرأةِ من غُسْلٍ إذا احتلمتْ ؟ فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم :(إذا رأتْ الماءَ) (البخاري).

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا ﴾ أي إذا طلبتم شيئًا من المواعينِ أو غيرِ ذلك . أو إذا طلبتم الفتوى . والحجابُ هو السَّاترُ . ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ من الخواطرِ التي تعرِضُ للرجالِ في أمرِ النساءِ ، وللنساءِ في أمرِ الرجالِ ، أي ذلك أنفى للرِّيبةِ وأبعدَ للتهمةِ وأقوى في الحمايةِ .. وهذا يدلُّ على أنه لا ينبغي لأحدٍ أنْ يثِقَ بنفسِهِ في الخَلْوَةِ مع من لا تحِلُّ له ، فإنَّ مجانبةَ ذلك أحسنُ لحالِه وأحصنُ لنفسِه وأتمُّ لعصمتِهِ . ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ هذا تكرارٌ للعلَّةِ وتأكيدٌ لحكمِها . ﴿ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ . وعن قتادةَ : أنَّ رجلاً قال : لو قُبِضَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم ، تزوَّجتُ عائشةَ ، فأنزلَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ .الآية . ونزلتْ : ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ فحرَّمَ اللهُ تعالى نكاحَ أزواجِهِ من بعدِه ، وجعل لَهنَّ حُكمَ الأمَّهاتِ . وقيل : إنَّما مُنِعَ التزوُّجُ بزوجاتِه ، لأنَّهنَّ أزواجُهُ في الجنَّةِ ، وأنَّ المرأةَ في الجنَّةِ لآخرِ أزواجِها . وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (زوجاتِي في الدنيا هنَّ زوجاتِي في الآخرةِ)(البخاري). ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ يعني أذيَّةَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمِ أو نكاحَ أزواجِهِ .

ويقولُ تعالى:﴿ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٥٤)

هو أعلمُ بما بدا وما خفَى وما كان وما لم يَكُنْ .

(١٤٠) الْحِجَـــابُ :

يقولُ تعالى : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ (الأحزاب:٥٥)

لَمّا نزلتْ آيةُ الحجابِ قال الآباءُ والأبناءُ والأقاربُ لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: ونحن أيضًا نُكلمهنّ من وراءِ حجبٍ ؟ فنزلتْ هذه الآيةُ . وذَكَرَ اللهُ تعالى من يحلُّ للمرأةِ الظهورُ له ، ولم يذكرْ العمَّ والخالَ لأنهما يجريان مجرَى الوالدين . ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ﴾ أي اقتصرْنَ على هذا واتَّقين اللهَ فيه أنْ تتعدَّينَهُ إلى غيرِهِ . وخَصَّ النساءَ في هذا الأمرِ ، لقلّةِ تحفُّظِهنّ وكثرةِ استرسالِهنّ . واللهُ أعلمُ . ثم توعَّدَ تعالى بقـولِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ .

(١٤١) صَلاَةُ اللهِ وَمَلاَئِكَتُهُ عَلَى النَّبِيِّ :

يقولُ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٥٦)

الصلاةُ من اللهِ تعالى رحمتُهُ ورِضوانُهُ ، ومن الملائكةِ الدعاءُ والاستغفارُ ، ومن الأُمَّةِ الدعاءُ والتعظيمُ لأمرِهِ . وأمَرَ اللهُ تعالى عبادَهُ بالصلاةِ على نبيِّهِ صلى اللهُ عليه وسلم دونَ أنبيائِهِ تشريفًا له ، والصلاةُ عليه في كلِّ حينٍ من الواجباتِ وجوبَ السُّنةِ المؤكَّدةِ التي لا يغفلُها إلاّ من لا خيرَ فيه . وفي الحديثِ : (من ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عليَّ فدخلَ النَّارَ فأبعدَهُ اللهُ) (البخارى) وقيل له : يارسولَ اللهِ ، أرأيتَ قولَ اللهِ تعالى في هذه الآيةِ فقال : (هذا من العِلمِ المكنونِ ولولا

أنكم سألتموني عنه ما أخبرتُكم به ، إنّ الله تعالى وكّل بي مَلَكَيْن فلا أُذْكَرُ عند مسلمٍ فيُصَلّي عليَّ إلاّ قال ذلك المَلَكان غفرَ اللهُ لك ، وقال اللهُ تعالى وملائكتُهُ لذَيْنَك المَلَكَين آمين) (البخارى) . ومن العلماءِ من قال : تجبُ في كلّ مجلسٍ مرَّةً ، وإنْ تكرَّرَ ذِكْرُهُ ، كما قال في آيةِ السَّجدةِ وتشميتِ العاطسِ . وكذلك في كلّ دعاءٍ في أوّلِهِ وآخرِهِ . وكذلك قال في إظهارِ الشهادتين . ورَوَى مالكٌ عن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ قال : أتانا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ونحن في مجلسِ سعدِ بنِ عُبادةَ ، فقال بشيرُ بنُ سعدٍ : أمَرَنا اللهُ أنْ نُصلّيَ عليكَ يارسولَ اللهِ ، فكيف نُصلّي عليكَ ؟ فسكَتَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حتى تمنّينا أنه لم يسألْهُ ، ثم قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (قولوا اللهم صَلِّ على محمدٍ وعلى آلِهِ كما صَلَّيتَ على إبراهيمَ وبارِكْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما باركتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ في العالَمين إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ ، والسلامُ كما عَلِمتم)(أحمد). وفي فضلِ الصلاةِ على النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، ثبت عنه أنه قال: (من صلّى عليَّ صلاةً صَلَّى اللهُ عليه بها عَشْرًا)(البخارى) وقال سهلُ بنُ عبدِ اللهِ : الصلاةُ على محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلم أفضلُ العباداتِ ، لأنّ اللهَ تعالى تَولاّها هو وملائكتُهُ ، ثم أمَرَ بها المؤمنين . قال أبو سليمان الدَّارانيُّ : من أرادَ أنْ يسألَ اللهَ حاجةً فليبدأْ بالصلاةِ على النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، ثم يسألُ اللهَ حاجتَهُ ، ثم يختمُ بالصلاةِ على النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فإنّ اللهَ تعالى يقبلُ الصلاتين وهو أكرمُ من أنْ يردَّ ما بينهما . ورَوَى ابنُ المسيَّبِ عن عمرَ بنِ الخطابِ رضي اللهُ عنه أنه قال: الدعاءُ يُحجَبُ دونَ السَّماءِ حتى يُصَلّى على النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فإذا جاءتْ الصلاةُ على النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم رُفِعَ الدعاءُ وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (من صلّى عليَّ في كتابٍ لم

تَزَلِ الملائكةُ يُصلُّون عليه مادام اسمي في ذلك الكتابِ) (البخارى). والصلاةُ على النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم في الصلاةِ من سُنَنِ الصلاةِ ومستحَبَّاتِها . وقال ابنُ المنذرِ : يُستَحَبُّ ألاّ يُصلِّيَ أحدٌ صلاةً إلاّ صلَّى فيها على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فإنْ تَرَكَ ذلك تاركٌ فصلاتُهُ مُجْزِيَةٌ في مذهبِ مالكٍ وأهلِ المدينةِ وكثيرٍ من أصحابِ الرَّأيِ ، ولكنْ من ذا الذي يُطاوعُهُ قلبُهُ أنْ يُؤَدِّيَ صلاتَهُ دونَ الصلاةِ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ! وحُكِيَ عن مالكٍ وسفيان أنّها في التشهُّدِ الأخيرِ وقبل التسليمِ . وذَكَرَ الدَّارَقُطْنِيُّ عن أبي جعفرٍ محمدِ بنِ عليِّ بنِ الحُسَيْنِ أنه قال : لو صلّيتُ صلاةً لم أُصَلِّ فيها على النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ولا على أهلِ بيتِهِ لرأيتُ أنّها لم تتمّ . ﴿ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ أَمَرَ اللهُ أصحابَ النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنْ يُسلِّموا عليه، وكذلك مَنْ بَعْدَهُم أُمِرُوا أنْ يُسلِّموا عليه عند حضورِهم قبرَه وعند ذِكْرِه . ورَوَى النسائيُّ عن عبدِ اللهِ بنِ أبي طلحةَ عن أبيه ، أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم جاءَ ذاتَ يومٍ والبِشْرُ يُرَى في وجهِهِ ، فقلتُ : إنّا لَنَرَى البُشْرَى في وجهِك ! فقال : (إنه أتاني المَلَكُ فقال يا محمدُ إنّ ربَّكَ يقولُ أما يُرضيكَ إنه لا يُصلِّي عليك أحدٌ إلاّ صلّيتُ عليه عَشْرًا ولا يُسلِّمُ عليك أحدٌ إلاّ سلَّمتُ عليه عَشْرًا) . وعن محمدِ بنِ عبدِ الرحمنِ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال: (ما منكم من أحدٍ يُسلِّمُ عليَّ إذا متُّ إلاّ جاءني جبريلُ يقولُ يامحمد هذا فلانٌ بنُ فلانٍ يقرأُ عليك السلامَ فأقولُ وعليه السلامُ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه) (البخارى) . وعن عبدِ اللهِ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ للهِ ملائكةً سيّاحينَ في الأرضِ يُبلِّغوني من أُمَّتي السلامَ) (النسائى) . قال القشيريُّ : والتسليمُ قولُكَ : سلامٌ عليك .

(١٤٢) الْفُنُـــونُ التَّشْـــكِيلِيَّةُ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ:١٣)

قال الضحَّاكُ :﴿ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾ أي من مساجدَ . والمحرابُ هو المكانُ المرتفعُ . ﴿ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ جمعُ تمثالٍ ، وهو كلُّ ما صُوِّرَ على مثلِ صورةٍ من حيوانٍ وغيرِ حيوانٍ . وقيل : كانتْ من زجاجٍ ونحاسٍ ورخامٍ تماثيلَ أشياءِ ليستْ بحيوانٍ . وذُكِرَ أنّها صورُ الأنبياءِ والعلماءِ ، وكانتْ تُصَوَّرُ في المساجدِ ليراها الناسُ فيزدادوا عبادةً واجتهادًا ، قال صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ أولئك كان إذا مات فيهم الرجلُ الصالحُ بَنَوْا علي قبرِه مسجدًا وصوَّروا فيه تلك الصُّورَ)(البخارى). أي ليتذكروا عبادتَهم فيزدادوا في العبادة . وهذا يدلُّ على أنّ التصويرَ كان مباحًا في ذلك الزمانِ . وقيل : التماثيلُ طِلَّسْماتٌ كان يعملُها ، ويحرمُ على كلِّ مصوِّرٍ أنْ يتجاوزَها فلا يتجاوزها ، فيعملُ تمثالاً للذبابِ أو البعوضِ أو التماسيحِ في مكانٍ ، ويأمُرُهم ألاّ يتجاوزوه فلا يتجاوزه أحدٌ أبدًا مادام هذا التمثالُ قائمًا . وقيل : إنّ هذه التماثيلَ رجالٌ اتَّخذَهم من نحاسٍ وسألَ ربَّه أنْ ينفخَ فيها الرُّوحَ ليُقاتلوا في سبيلِ اللهِ ولا يَحيكَ - يؤثرُ - فيهم السِّلاحُ . ويُقالُ : إنّ اسفنديارَ كان منهم ، واللهُ أعلمُ . ورُوِيَ أنّهم عمِلوا له أسدين في أسفلِ كرسيِّه ونسرين فوقَهُ ، فإذا أرادَ أنْ يصعدَ بسطَ الأسدان له ذراعيهما ، وإذا قَعَدَ أطلَقَ النِّسران أجنحتَهما .

حكَى مكِّيٌّ في الهدايةِ له : أنّ فِرْقَةً تُجَوِّزُ التصويرَ ، وتحتجُّ بِهذه الآيــةِ . قال ابنُ عطيَّة : وذلك خطأٌ ، وما أحفظُ عن أحدٍ من أئمَّةِ العِلمِ من يجوِّزُه . وقال النَّحاسُ : قال قومٌ عملُ الصُّورِ جائزٌ لِهذه الآيةِ ، ولِمَا أخبر اللهُ عن المسيحِ . وقال

قومٌ : قد صحَّ النَّهيُ عنها عن النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، والتوعُّدُ لـمن عملَـها أو اتَّخذَها ، فنسخَ اللهُ تعالى بِهذا ما كان مباحًا قبلَه ، وكانتْ الحكمةُ في ذلك لأنه بُعِثَ صلى اللهُ عليه وسلم والصُّوَرُ تُعبَدُ ، فكان الأصلحُ إزالتَها . والتمثالُ على قسمين : حيوانٌ ومواتٌ . والمواتُ على قسمين : جمادٌ ونامٍ ، وكانتْ الجِنُّ تصنعُ لسليمانَ جميعَهُ . وفي الإسرائيلياتِ : أنّ التماثيلَ من الطَّيرِ كانتْ على كرسيِّ سليمانَ . وكان ذلك جائزًا في شرعِهِ ، ونُسِخَ ذلك في شرعِنا ، واللهُ تعالى أعلمُ .

ويدلُّ مقتضى الأحاديثِ على أنّ الصُّوَرَ ممنوعةٌ ، إلاّ ما كان رَقْمًا " الرَّقْمُ : الوَشْيُ " في ثوبٍ ، فخُصَّ من جملةِ الصُّوَرِ . ثم ثبتتْ الكراهيةُ فيه بقولِهِ صلى اللهُ عليه وسلم لعائشةَ في الثوبِ : (أخِّريه عني فإني كلما رأيتُهُ ذكَرتُ الدنيا) (البخارى ومسلم). ثم بِهتكِهِ " بِشقِّهِ " الثوبَ المصوَّرَ على عائشةَ ، ثم بقطعِها له وسادتين تغيَّرتْ الصُّورةُ وخرجَتْ عن هيئتِها ، فإنّ جوازَ ذلك إذا لم تكنْ الصُّورةُ فيه متَّصلةَ الهيئةِ ، ولو كانتْ متصلةَ الهيئةِ لم يَجُزْ . وقالتْ عائشةُ : دخلَ عليَّ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وأنا مستترةٌ بقِرامٍ " سِتْرٍ رقيقٍ " فيه صورةٌ ، فتلوَّن وجهُه ، ثم تناولَ السِتْرَ فهتكَه " شقّه " ، ثم قال : (إنّ من أشدِّ الناسِ عذابًا يومَ القيامةِ الذين يُشبِّهونَ بخلْقِ اللهِ عزَّ وجلَّ) (البخارى) . قال المزنيُّ عن الشّافعيِّ : إنْ دُعِيَ رجلٌ إلى عُرْسٍ فرأى صورةً ذاتَ رُوحٍ أو صُوَرَ ذاتِ أرواحٍ ، لم يدخلْ. وإن كانتْ توطَأُ فلا بأسَ ، وإنْ كانتْ صورَ الشجرِ . ولم يختلفوا أنّ التصاويرَ في الستورِ المعلَّقةِ مكروهةٌ غيرُ محرَّمةٍ . وكذلك عندهم ما كان خرطًا أو نقشًا في البناءِ . واستثنَى بعضُهم " ما كان في ثوبٍ " . وقد استُثْنِيَ من ذلك لُعَبُ البناتِ ، وكذلك ما يُصنَعُ من الحلاوةِ أو من العجينِ لا بقاءَ له ، فرُخِّصَ في ذلك ، واللهُ أعلمُ .

يقولُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

(فاطر:٢٧،٢٨)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ألم ينته علمُك ورأيتَ بقلبكَ أنّ الله أنزلَ المطرَ . ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾ الثمارُ المختلفةُ الألوان . ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا ﴾ الجُدَدُ جمعُ جُدَّةٍ وهي الطرائقُ المختلفةُ الألوان ، وإنْ كان الجميعُ حجرًا أو ترابًا .وقيل : الجُدَدُ القِطَعُ . ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ الغرْبيبُ : الشَّديدُ السَّوادِ . ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ أي فيهم الأبيضُ والأسودُ والأحمرُ وغيرُ ذلك . ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي كذلك تختلفُ أحوالُ العبادِ في الخشيةِ . ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ يعني بالعلماءِ الذين يخافون قدرتَه لأنّهم علموا أنّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ . وقال الربيعُ بنُ أنسٍ : من لم يَخْشَ اللهَ تعالى فليس بعالمٍ . وقيل لسعدِ بنِ إبراهيمَ : مَنْ أفقهُ أهلِ المدينةِ ؟ فقال : أتقاهم لربِّه عزَّ وجلَّ . وعن مجاهدٍ قال : إنّما الفقيهُ من يخافُ اللهَ . وعن عليٍّ رضي اللهُ عنه قال : إنّ الفقيهَ حقَّ الفقيهِ من لم يُقنِط الناسَ من رحمةِ اللهِ ، ولم يُرَخِّصْ لَهم في معاصي اللهِ ، ولم يُؤَمِّنْهم من عذابِ اللهِ ، ولم يدَعِ القرآنَ رغبةً عنه إلى غيرِه ، إنه لا خيرَ في عبادةٍ لا علمَ فيها ، ولا علمٍ لا فقْهَ فيه ، ولا قراءةٍ لا تدبُّرَ فيها . وأسندَ الدَّارَميُّ عن مكحولٍ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ فضلَ العالمِ على العابدِ كفضلي على أدناكم ثم تلا هذه الآيةَ ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ إنّ اللهَ وملائكتَهُ وأهلَ سماواتِه وأهلَ أرضِيهِ والنُّونَ في البحرِ يُصلُّون على الذين

يُعلِّمون الناسَ الخيرَ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ تعليلٌ لوجوبِ الخشية ، لدلالتِه على عقوبةِ العصاةِ وقهرِهم ، وإثابةِ أهلِ الطاعةِ والعفوِ عنهم . والمعاقِبُ والمثيبُ حقُّهُ أنْ يُخْشَى .

(١٤٤) عَـدَمُ تعْـليمِه الشِّـعْرَ : (مِنْ سُـورَةِ يَس)

يقولُ تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(يس:٦٩،٧٠)

رَدَّ اللهُ تعالى قوْلَ من قال من الكفارِ عن النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم إنه شاعرٌ ، وإنّ القرآنَ شعرٌ ، بقولِه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ﴾ وكان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لا يقولُ الشِّعرَ ولا يزِنُهُ ، وكان إذا حاولَ إنشاد بيتٍ قديمٍ متمثِلاً كسرَ وزنَه ، وإنما كان يُحرِزُ المعانيَ فقط . من ذلك أنه أنشدَ يومًا قَوْلَ طرْفَةَ :

سَتُبْدي لَكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً وَيَأْتيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْهُ بالأخْبارِ

وأنشدَ يومًا وقد قيل له مَنْ أشعرُ الناسِ فقال : الذي يقولُ :

ألم تَرَيَاني كلّما جئتُ طارقًا وَجدتُ بِها وإنْ لم تُطَيَّبَ طيبًا

وربَّما أنشدَ البيتَ المستقيمَ في النادرِ . ورُوِيَ أنه أنشدَ بيتَ " عبدِ اللهِ بنِ رواحةَ :

يَبيتُ يُجَافي جَنْبَهُ عن فِراشِهِ إذا اسْتَثْقَلَتْ بالمشركين المضَاجِعُ

وقال الحسنُ بنُ أبي الحسنِ : أنشدَ النَّبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم :

كَفَى بالإسلامِ والشَّيبِ للمرْءِ نَاهِيًا .. فقال أبو بكرٍ رضي اللهُ عنه : يارسولَ اللهِ ، إنّما قال الشّاعرُ :

هريرةَ وَدِّعْ إنْ تَجَهَّزْتَ غادِيًا كَفَى الشَّيْبُ والإسلامُ للمرْءِ نَاهِيًا

فقال أبو بكرٍ أوعمرُ : أشهدُ أنَّكَ رسولُ اللهِ ، يقولُ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ وقيل : كان الشِّعرُ أحبَّ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم من كثيرٍ من الكلامِ ، ولكن لا يتأتَّى له . وإصابتُه الوزنَ أحيانًا لا يُوجِبُ أنه يَعْلَمُ الشِّعرَ ، وكذلك ما يأتِي أحيانًا من نثرِ كلامِه ما يدخلُ في وزنٍ ، كقولِهِ يومَ حُنَيْنٍ وغيرِه :

(هَلْ أنت إلاّ إصبَعٌ دَميت   وفي سبيلِ اللهِ ما لَقِيت)

وقولُهُ : (أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ   أنا ابنُ عبدِ المَطَّلِبْ)

فقد يأتِي مثلُ ذلك في القرآنِ ، وفي كلِّ كلامٍ ، وليس ذلك شِعْرًا ولا في معناه . وقال أهلُ اللغةِ : كلُّ من قال قولاً موزونًا لا يقصدُ به إلى شِعرٍ فليس بشِعرٍ وإنما وافقَ الشِّعرَ . وقالوا : وإنما الذي نفاهُ اللهُ عن نبيِّه صلى اللهُ عليه وسلم فهو العِلمُ بالشِّعرِ وأصنافِهِ ، ولم يكنْ موصوفًا بذلك بالاتفاقِ . ولقد تراوضَتْ قريشٌ فيما يقولونه للعربِ فيه إذا قَدِموا عليهم الموسِمَ ، فقال بعضُهم : نقولُ شاعرٌ . فقال أهلُ الفِطنةِ منهم : واللهِ لَتُكَذِّبَنَّكم العربُ ، فإنّهم يعرفون أصنافَ الشِّعرِ ، فــواللهِ ما يُشبهُ شيئًا منها ، وقال أنيسٌ أخو أبي ذرٍ : واللهِ ما هو بشعرٍ ولا كهانةٍ ولا سحرٍ . ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي هذا الذي يتلوه عليكم . ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أي حيَّ القلبِ عاقلاً مؤمنًا في عِلمِ اللهِ . ﴿ وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي وتجبُ الحجَّةُ بالقرآنِ على الكافرين .

(١٤٥) الْفَصْــلُ فِي الْقَضَــاءِ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ (ص:١٩،٢٠)

obeikandi.com

قال ابنُ عباسٍ : كان داوُدُ عليه السلامُ إذا سبَّحَ جاوبتْهُ الجبالُ واجتمعتْ إليه الطَّيرُ فسبَّحَتْ معه ، فاجتماعُها إليه حَشْرُها . ﴿ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أي مطيعٌ لداوُدَ . وقيل : الهاءُ للهِ عزَّ وجلَّ. ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾أي قوَّيناه. ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي النبوَّةَ . وقيل : العدلَ . وقيل : العلمَ بكتابِ اللهِ . ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ يعني الفصلَ في القضاءِ . وقال عليٌّ بنُ أبي طالب : هو البيِّنةُ على من ادَّعى واليمينُ على من أنكرَ . وفي الحديثِ : (أقضاكم عليٌّ وأعلمُكم بالحلالِ والحرامِ مُعاذُ بنُ جبل) .

(١٤٦) خَـائِنَةُ الأَعْـيُنِ : (مِنْ سُـورَةِ غَافِـر)

يقولُ تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ (غافر:١٩) قال مجاهدٌ : هي مسارقةُ النظرِ إلى ما حرَّمَ اللهُ عنه . ﴿ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ (غافر:١٩) ما تُكِنُّهُ الصدورُ من الرغبةِ في ارتكابِ المعاصي . ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ﴾ (غافر:٢٠) أي يُجازي من غَضَّ بصرَه عن المحارمِ ، ومن نظرَ إليها ، ومن عزمَ على ارتكابِ الفواحشِ إذا قَدَرَ عليها .

(١٤٧) الْقُـرْآنُ عَـرَبِيٌّ : (مِنْ سُـورَةِ فُصِّـلَتْ)

يقـولُ تـعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٤)

﴿ أَعْجَمِيًّا ﴾ أي بلُغةٍ غيرِ لغةِ العربِ . ﴿ لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ﴾ اي بُيِّنَتْ بلغتنا فإننا عربٌ لا نفهمُ الأعجميَّةَ . فبيَّنَ أنه أنزلَهُ بلسانهم ليتقرَّرَ به معنى الإعجازُ . ﴿ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ المعنى : أقرآنٌ أعجميٌّ ونبيٌّ عربيٌّ ؟ وهو استفهامُ استنكارٍ .

(١٤٨) لَيْس كمثْله شَــيْء (مِنْ سُــوره الشُــورى)

يقولُ تعالى ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١) .

الفاطرُ : الخالقُ الـمُبْدِعُ . ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أي إناثًا ، لأنه خلقَ حوَّاءَ من ضِلعِ آدمَ . ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾ يعني الثمانيةَ التي ذَكَرَها في الأنعامِ . ذكورَ الإبلِ والبقرِ والضَّأنِ والمعزِ وإناثَها . ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ يخلقُكم ويُنشئُكم فيه " أي في الرَّحِمِ " ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ لا يُشبِهُ شيئًا من مخلوقاتِه ولا يُشبَّهُ به .

(١٤٩) الْمُسَــاوَاةُ فِي الرِّزْق :

يقولُ تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ (الشورى:٢٧)

قيل : إنَّها نزلتْ قي أهلِ الصُّفَّة تَمَنَّوْا سعَةَ الرِّزقِ . وقال خبَّابٌ بنُ الأرَتّ : نظرنا إلى أموالِ بني النَّضيرِ وقريظةَ وبني قَيْنُقَاعٍ فتمنَّيناها ، فنزلتْ .﴿ وَلَوْ بَسَطَ ﴾ وسَّعَ . ﴿ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لو أعطاهم الكثيرَ لطلبوا ما هو أكثرُ منه ، وفي الحديثِ :(لو كان لابنِ آدمَ واديان من ذهبٍ لابتغَى إليهما ثالثًا) (البخارى) وهذا هو البغيُ . وقيل : البغيُ هو الظلمُ ، أي لبغَى هذا على ذاك ، لأنَّ الغنَى مبطرةٌ ، وكفَى بقارونَ عِبرةً . وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلــم : (أخوفُ ما أخافُ على أُمَّتِي زهرةُ الدنيا وكثرتُها) (البخارى). ﴿ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ أي يُنزِّلُ بقَدَرِ أرزاقَهم لكفاياتِهم ، ويجعلُ من يشاءُ غنيًّا ومن يشاءُ فقيرًا . ورَوَى أنسٌ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالى

قال : (مَن أهان لي وليًّا فقد بارزَني بالمحاربة وإني لأسرعُ شيءٍ إلى نُصرة أوليائي وإني لأغضبُ لَهم كما يغضبُ الليثُ الحَرِدُ . وما تردَّدْتُ في شيءٍ أنا فاعلُهُ تردُّدي في قبضِ رُوحِ عبدي المؤمنِ يكرَهُ الموتَ وأنا أكرهُ إساءَتَهُ ولابدَّ له منه . وما تقرَّبَ إليَّ عبدي المؤمنُ بمثلِ أداءِ ما افترضتُهُ عليه . وما يزالُ عبدي المؤمنُ يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتى أُحبَّهُ فإذا أحببتُهُ كنتُ له سَمعًا وبَصَرًا ولسانًا ويدًا ومؤيِّدًا فإنْ سَأَلَني أعطيتُه وإنْ دعاني أجبتُه . وإنّ من عبادي المؤمنين من يسألُني البابَ من العبادة وإني عليمٌ أنْ لو أعطيتُهُ إيَّاهُ لدخلَهُ العُجْبُ فأفسدَهُ . وإنّ من عبادي المؤمنين من لا يُصلحُهُ إلاّ الغنَى ولو أفقرتُهُ لأفسدَهُ الفقرُ . وإنّ من عبادي المؤمنين من لا يُصلحُهُ إلاّ الفقرُ ولو أغنيتُهُ لأفسدَهُ الغنَى . وإني لأدبِّرُ عبادي لعلمي بقلوبِهم فإني عليمٌ خبيرٌ) (البخارى) ثم قال أنسٌ : اللهم إني من عبادكَ المؤمنين الذين لا يُصلِحُهم إلاّ الغِنَى فلا تُفقِرْني برحمتِكَ .

(١٥٠) أَمْرُهُمْ شُـــورَى بَيْنَهُمْ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى:٣٨)

قال عبدُ الرحمنِ بن زيدٍ : هم الأنصارُ بالمدينة ، استجابوا إلى الإيمانِ حين أرسلَ إليهم اثني عشَرَ نقيبًا قبل الهجرة . ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أدَّوها لمواقيتها بشروطِها وهيئاتِها . ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يتشاورون في الأمورِ ، وكانتْ الأنصارُ قبل قُدُومِ النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم إليهم إذا أرادوا شيئًا تشاوروا فيه ، فمدحَهم اللهُ تعالى به . وقال الحسَنُ : ما تشاورَ قومٌ قطُّ إلاّ هُدُوا لأرشدِ أمورِهم . وقال الحكيمُ :

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِنْ بِرأْيِ لَبِيبٍ أَوْ مَشُورَةِ حَازِمِ

وكان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يُشاورُ أصحابَهُ فيما يتعلَّقُ بمصالحِ الحروبِ ، ولم يكنْ يُشاورُهم في الأحكامِ لأنّها مترّلةٌ من عندِ اللهِ ، وكان الصحابةُ يتشاورون في الأحكامِ ويستنبطونها من الكتابِ والسُنَّة . وقال أحدُ العقلاءِ : ما أخطأتُ قطُّ ! إذا حَزَبَني أمرٌ شاورتُ قومي ففعلتُ الذي يَرَوْنَ ، فإن أصَبتُ فهم المصيبون ، وإنْ أخطأتُ فهم المخطئون . وقال تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ . وعن أبي هريرةَ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إذا كان أمراؤُكم خيارَكم وأغنياؤُكم سُمحاءَكم وأمرُكُمْ شُورَى بينكم فظهرُ الأرضِ خيرٌ لكم من بطنِها ، وإذا كان أمراؤُكم شرارَكم وأغنياؤُكم بُخَلاءَكم وأمورُكم إلى نسائكم فبطنُ الأرضِ خيرٌ لكم من ظهرِها) .﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي ومما أعطيناهم يتصدَّقون .

(١٥١) مُوَاجَهَةُ الظُّلْمِ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (الشورى: ٣٩، ٤٣)

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ ﴾ بغيُ المشركين فآذوهم وأخرجوهم من مكّةَ .
﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أي لا يستسلمون للظُّلمِ . وقيل: المعنى عامٌّ في كلِّ ظُلمٍ .
﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ فينتصرون ممن ظلمهم من غيرِ أنْ يعتدوا .

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ مَنْ تَرَكَ القصاصَ وأصلَحَ بينه وبين الظالمِ فأجرُهُ على اللهِ . وعن عليِّ بنِ الحسينِ قال : إذا كان يومُ القيامةِ نادَى منادٍ أيُّكم أهلُ الفضلِ ؟ فيقومُ ناسٌ من الناسِ ، فيُقالُ: انطلقوا إلى الجنَّةِ ، فتتلقَّاهم الملائكةُ ، فيقولون إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنَّةِ ، قالوا : قبل الحسابِ ؟ قالوا: نعم . قالوا: من أنتم ؟ قالوا: أهلُ الفضلِ . قالوا: وما كان فضلُكم ؟ قالوا: كنَّا إذا جُهِلَ علينا حَلِمْنا، وإذا ظُلمنا صَبَرْنا، وإذا أُسِيءَ إلينا عَفَوْنا ، قالوا: ادخلوا الجنَّةَ فنِعْمَ أجرُ العاملين. ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي من بدأ بالظُّلمِ ، أو من تعدَّى في الاقتصاصِ وجاوزَ الحدَّ . ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي إذا انتصرَ المسلمُ من الكافرِ فلا سبيلَ إلى لَومِه . فلا حرجَ عليه إذا استوفَى حقَّهُ من غيرِ عدوانٍ . ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ بعدوانِهم عليهم . ﴿ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ في النفوسِ والأموالِ وبعملِ المعاصي . قال بعضُ العلماءِ : إنَّ مَنْ ظُلِمَ وأُخِذَ له مالٌ فإنَّما له ثوابُ ما احْتُبِسَ عنه إلى موْتِه ، ثم يرجعُ الثوابُ إلى ورثتِه . ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أي صبرَ على الأذَى وتَرَكَ الاقتصاصَ لوجهِ اللهِ تعالى . ويُحْكَى أنَّ رجلاً سَبَّ رجلاً في مجلسِ الحَسَنِ ، فكان المسبوبُ يكظِمُ ويعرَقُ فيمسحُ عَرَقَه ، ثم قامَ فتلا هذه الآيةَ ، فقال الحَسَنُ : عَقَلَها واللهِ ! وفهِمَها إذ ضَيَّعَها الجاهلون . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي من عزائمِ اللهِ ومن عزائمِ الصَّوابِ التي وُفِّقَ لَها .

(١٥٢) كَلاَمُ اللهِ بالْوَحْـيِ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الشورى:٥١) سببُ ذلك أنَّ اليهودَ قالوا للنَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم : ألا تُكلِّمُ اللهَ وتنظرُ إليه إنْ كنتَ نبيًّا ، كما كلَّمَه موسى ونظَرَ إليه ، فإنَّا لنْ نؤمنَ لك حتى تفعلَ

ذلك .فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ موسى لَمْ ينظرَ إليه) (ذكره النقاش ورواه مسلم) فنزلتْ هذه الآيةُ . ﴿ وَحْيًا ﴾ نَفْثًا يُنفثُ في قلبـه فيكونُ إلهامًا . ومنه قولُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعِي " الرُوعُ هو الفَزَعُ " إنّ نَفْسًا لنْ تموتَ حتى تستكملَ رِزْقَها وأَجَلَها فاتَّقوا اللهَ وأجمِلوا في الطَّلب . خُذُوا ما حلَّ ودَعُوا ما حَرُمَ) (صحيح الجامع ٢٠٨٥). ﴿ أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ كما كلَّمَ موسى . ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ كإرسالِه جبريلَ عليه السلامُ . وقيل : الوحْيُ الرُّؤيا يراها في منامِه .

(١٥٣) الإيمَـانُ قَبْـلَ الْبَعْثَـة :

يقولُ تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (الشورى:٥٢،٥٣)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي كما أوحينا إلى الأنبياءِ من قبلك . ﴿ رُوحًا ﴾ أي نبوَّةً . وقيل: رحمةً . وقيل: وَحْيًا . وقيل: كتابًا . وقيل: جبريلَ .وقيل: القرآنَ .

﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ ﴾ أي ما كنتَ تعرفُ الطريقَ إلى الإيمانِ . أي تفاصيلَ الشَّرعِ .قال القُشَيْرِيُّ : إنّ اللهَ ما بَعَثَ نبيًّا إلاّ كان مؤمنًا به قبلَ البعثةِ . قال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ (مريم:١٢) قال المفسِّرون : أعطى يحيى العِلمَ بكتابِ اللهِ في حالِ صباهُ . قال معمرُ : كان ابنَ سنتين أو ثلاثةٍ ، فقال له الصِّبيانُ : لِمَ لا تلعبُ معنا ؟ فقال : أَلِلَّعبِ خُلِقْتُ ! وقيل في قولِه : ﴿ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران:٣٩) صدَّقَ يحيى بعيسى وهو ابنُ ثلاثِ سنين . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ (الأنبياء:٥١) أي هديناه صغيرًا . وقيل : إنّ إلقاءَ إبراهيمَ في النارِ ومحنتَهُ كانتْ وهو ابنُ ستَّ

عشرةَ سنةً . وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (لمّا نشأتُ بُغِّضَتْ إليَّ الأوثانُ وبُغِّضَ إليَّ الشِّعرُ ولم أهُمَّ بشيءٍ مما كانتْ الجاهليَّةُ تفعلُه إلاّ مرَّتين فعصمَني اللهُ منهما ثم لم أعُدْ) (مسلم) .﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ ﴾ أي الإيمانَ . قال السُّدِّيُّ : القرآنَ . وقيل : الوَحْيَ . ونختارُ من نشاءُ للنبوَّةِ . ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ ﴾ أي تدعو وتُرشِدُ . ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَٰطِ ﴾ إلى دينٍ قويمٍ لا اعوجاجَ فيه . ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ هو القرآنُ . وقيل : الإسلامُ . ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ مُلكًا وعبدًا وخَلْقًا . ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ وعيدٌ بالبعثِ والجزاءِ .

(١٥٤) إبْدَالُ حُرُوفِ الْقُرْآنِ : (مِنْ سُورَةِ الدُّخَانِ)

يقولُ تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ (الدخان:٤٣-٤٦)

كلُّ ما في كتابِ اللهِ من ذِكْرِ الشَّجرةِ فالوقْفُ عليها بالهاءِ إلاّ حرفًا واحدًا في سورةِ الدُّخانِ ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴾ قاله ابنُ الأنباريِّ . ﴿ ٱلْأَثِيمِ ﴾ الفاجر . وشجرةُ الزَّقُّومِ هي الشجرةُ التي خلَقَها اللهُ في جهنَّمَ ، وسمَّاها الشجرةَ الملعونةَ ، فإذا جاعَ أهلُ النَّارِ التجئُوا إليها فأكلوا منها ، فغلَيَتْ في بطونهم ، وشبَّهَ ما يصيرُ منها إلى بطونهم بالمُهْلِ . وقيل : علَّمَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رجلاً ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ فقال الرجلُ : طعامُ اليتيمِ . فأعادَ عليه عبدُ اللهِ الصَّوابَ وأعادَ الرجلُ الخطأَ ، فلما رأى عبدُ اللهِ أنّ لسانَ الرجلِ لا يستقيمُ على الصَّوابِ قال له : أما تُحسنُ أنْ تقولَ طعامُ الفاجرِ ؟ قال : بَلَى . قال : فافعَلْ . ولا حُجَّةَ في هذا للجُهَّالِ من أهلِ الزَّيْغِ ، أنه يجوزُ إبدالُ الحرفِ من القرآنِ بغيرِه ، لأنّ ذلك إنّما كان من عبدِ اللهِ تقريبًا للمتعلِّمِ ، وتوطئَةً منه للرجوعِ إلى الصَّوابِ ،

واستعمالُ الحقِّ والتكلُّمُ بالحرفِ على إنزالِ اللهِ وحكايةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم . وقال الزَّمَخْشَرِيُّ : وبهذا يُستدَلُّ على أنّ إبدالَ كلمةٍ مكانَ كلمةٍ جائزٌ إذا كانتْ مؤدِّيةً معناها .

(١٥٥) الشَّتْمُ والْغُفْرَانُ : (مِنْ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ)

يقولُ تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (الجاثية:١٤)

قيل نزلتْ بسببِ أنّ رجلاً شَتَمَ عمرَ بنَ الخطابِ فهمَّ أنْ يبطِشَ به . وقيل : إنّها نزلتْ في عمرَ مع عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ في غزوةِ بني المصطَلِقِ ، فإنّهم نزلوا على بئرٍ يُقالُ لَها " الْمُرَيْسِيع "، فأرسلَ عبدُ اللهِ غلامَهُ ليستقيَ ، وأبطأَ عليه ، فقال : ما حبسَكَ ؟ قال : غلامُ عمرَ بنِ الخطابِ قَعَدَ على فَمِ البئرِ ، فما تَرَكَ أحدًا يستقي حتى ملأَ قِرَبَ النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم وقربَ أبي بكرٍ ، ومَلأَ لمولاهُ . فقال عبدُ اللهِ : ما مَثَلُنا ومَثَلُ هؤلاء إلاّ كما قيل : سَمِّنْ كلبَكَ يأكُلْكَ . فبلغَ عمرَ قولُهُ ، فاشتملَ على سَيْفِهِ يريدُ التوجُّهَ إليه ليقتلَه ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ . وقال ميمونُ بنُ مهران : لمّا نزلتْ : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ (البقرة:٢٤٥) قال يهوديٌّ بالمدينةِ يُقالُ له فنحاص : احتاجَ ربُّ محمدٍ ! فلمّا سمعَ عمرُ بذلك اشتملَ على سيفِهِ وخرجَ في طلبِهِ ، فجاءَ جبريلُ عليه السلامُ إلى النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم فقال : " إنّ ربَّكَ يقولُ لك قُلْ لِلَّذينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ " . وأعلَمَ أنّ عمرَ خرجَ بسيفِهِ في طلبِ اليهوديِّ ، فبعثَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في طلبِهِ ، فلما جاءَ قال : (يا عمرُ ، ضَعْ سيفَكَ) قال : يارسولَ اللهِ ، صَدَقْتَ ، أشهدُ أنّكَ أُرْسِلْتَ بالحقِّ . قال : (فإنَّ ربَّكَ يقولُ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾) . قال : لا جَرَمَ ! والذي

بَعَثَك بالحقِّ لا تَرَى الغضبَ في وجهي . ومعنى ﴿ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ أي لا يرجونَ ثوابَه ، ولا يخافون بأسَهُ .

(١٥٦) الدَّهْـرُ :

يقـولُ تـعـالى : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (الجاثية: ٢٤)

هذا إنكارٌ منهم للبعث والآخرةِ والجزاءِ . ﴿ نَمُوتُ وَنَحۡيَا ﴾ أي نموتُ وتحيا أولادُنا . ﴿ وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ ﴾ يعني السنينَ والأيّامَ . وكانوا يسُبُّونَ الدَّهرَ . وعن أبي هريرةَ أنَّ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم قال : (قال اللهُ تعالى : يُؤْذيني ابنُ آدمَ يسُبُّ الدَّهرَ وأنا الدُّهرُ بيدي الأمرُ أُقلِّبُ الليلَ والنَّهارَ) . وقال : (لا يقولَنَّ أحدُكم يا خيبةَ الدَّهرِ فإنَّ اللهَ هو الدَّهرُ) . ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أي ما يتكلمون إلاّ بالظَّنِّ .

(١٥٧) التَّقَشُّـفُ وَالْمُتَـعُ : (مِنْ سُـورَةِ الأَحْـقَاف)

يقولُ تعالى : ﴿ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴾ (الأحقاف: ٢٠)

أي يومَ يُكشَفُ الغطاءُ فيُقرَّبُ الكافرون من النارِ وينظرون إليها. ﴿ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ ﴾ تمتَّعتم بالطَّيِّباتِ في الدنيا واتَّبعتم الشَّهواتِ واللذَّاتِ وأفنيتم شبابَكم في الكفرِ والمعاصي. ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ ﴾ عذابَ الخِزْيِ والفضيحةِ . ﴿ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ أي تستعلون على أهلِها بغيرِ استحقاقٍ . ﴿ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴾ في أفعالِكم بَغْيًا وظُلْمًا . ورُوِيَ

أنّ عمرَ بنَ الخطابِ قال : لو شئتُ كنتُ أطيبَكم طعامًا وألينَكم لِباسًا ولكني أستبقي طيِّباتي للآخرةِ . ولمّا قَدِمَ عمرُ الشَّامَ صُنِعَ له طعامٌ لم يَرَ قطُّ مثلَهُ قال : هذا لنا ؟! فما لفقراءِ المسلمين الذين ماتوا وما شَبِعوا من خُبْزِ الشَّعيرِ! فقال خالدُ ابنُ الوليدِ : لَهم الجنَّةُ ، فاغرورقَتْ عَيْنَا عمرَ بالدموعِ وقال: لئنْ كان حظُّنا من الدنيا هذا الحُطَامَ ، وذهبوا هم في حظِّهم بالجنَّةِ فلقدْ باينونا بَوْنًا بعيدًا . وفي صحيحِ مسلمٍ ، أنّ عمرَ رضي اللهُ عنه ، دخلَ على النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم وهو في مشرُبته " الموضعُ الذي يشربُ منه الناسُ أو الغرفة " حين هجرَ نساءَه ، قال : فالتفتُّ فلم أرَ شيئًا يرُدُّ البصَرَ إلاّ أُهُبًا "جُلودًا "معطونةً قد سطعَ ريحُها ، فقلتُ: يارسولَ اللهِ ، أنت رسولُ اللهِ وخيرتُهُ ، وهذا كِسرَى وقيصرُ في الدِّيباجِ والحريرِ؟ قال : فاستوى جالسًا وقال :(أَفي شَكٍّ أنت يا ابنَ الخطابِ.أولئك قومٌ عُجِّلَتْ لَهم طيِّباتُهم في حياتهم الدنيا) فقلتُ : استغفِرْ لي ! فقال : (اللهم اغفِرْ له) (مسلم) والخلاصةُ أنه على المرْءِ أنْ يأكلَ ما وَجَدَ ، طيِّبًا كان أو قِفارًا " بلا أدم ، بلا دهن "ولا يتكلَّفَ الطِّيِّبَ ويتَّخذَه عادةً ، وقد كان النَّبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يشبعُ إذا وَجَدَ ، ويصبرُ إذا عدِمَ ، ويأكلُ الحلوى إذا قَدَرَ عليها ، ويشربُ العسلَ إذا اتَّفقَ له ، ويأكلُ اللحمَ إذا تيسَّرَ ، ولا يجعلُهُ دَيْدَنًا "اي عادةً ". أمّا اليومَ عند استيلاءِ الحرامِ وفسادِ الحطامِ فالخَلاصُ عسيرٌ ، واللهُ يَهَبُ الإخلاصَ ويعينُ على الخَلاصِ برحمتِه . وتناوُلُ الطِّيِّبِ الحلالِ مأذونٌ فيه ، فإذا تَرَكَ الشُّكرَ عليه واستعانَ به على ما لا يَحِلُّ له فقد أذهبَهُ . واللهُ أعلمُ .

(١٥٨) الْفَتْحُ الْمُبِينُ : (مِنْ سُورَةِ الْفَتْحِ)

يقولُ تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (الفتح:١) .

قيل : الفتحُ : الحُدَيْبِيَةُ . وقال جابرٌ : ما كنا نُعدُّ فتحَ مكّةَ إلاّ يومَ الحُدَيْبِيَةِ . والحديبيةُ بئرٌ . وقال مجاهدٌ : كان فتحُ الحُدَيْبِيَةِ آيةً عظيمةً ، نزحَ ماؤُها فدرَّتْ

بالماءِ حتى شَرِبَ الجميعُ . قال رجلٌ عند مُنْصَرَفِهم : ما هذا بفتحٍ . فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (بل هو أعظمُ الفتوحِ قد رضِيَ المشركون أنْ يدفعوكم عن بلادِهم بالرَّاحِ ويسألوكم القضيَّةَ ويرغبوا إليكم في الأمانِ وقد رأوْا منكم ما كرِهوا) (أحمد) . وقال الشعبيُّ : هو فتحُ الحُدَيْبِيَةِ ، لقد أصابَ بها ما لم يُصِبْهُ في غزوةٍ ، غفر اللهُ لهُ ما تقدَّمَ من ذنبِه وما تأخَّرَ ، وبويِعَ بيعةَ الرِّضوانِ ، وأُطْعِمُوا نَخْلَ خَيْبَرَ ، وبلغَ الهَدْيُ مَحلَّه ، وظهرَتْ الرُّومُ على فارس ، ففرِحَ المؤمنون بظهورِ أهلِ الكتابِ على المجوسِ . فلمّا وقعَ الصُّلحُ مشَى الناسُ بعضُهم في بعضٍ وعلِموا وسمِعوا عن اللهِ ، فما أرادَ أحدٌ الإسلامَ إلاّ تمكَّنَ منه ، فما مَضَتْ تلك السنتان إلاّ والمسلمون قد جاءوا إلى مكّةَ في عشرةِ آلاف . وقيل : اجتمعَ الناسُ وقرأ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ فقال عمرُ بنُ الخطابِ : أوَ فَتْحٌ هو يارسولَ اللهِ ؟ قال : (نَعَمْ ، والذي نفسي بيدِه إنّه لَفَتْحٌ) .

(١٥٩) غَفْرُ الذُّنُوب :

يقولُ تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (الفتح:٢،٣)

لمّا نزلتْ هذه الآيةُ قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (لقد أُنزِلَتْ عليَّ آيةٌ أَحَبُّ إليَّ ممّا على وجهِ الأرضِ) (الب،خارى) . ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ ﴾ قبل الرسالةِ . وقيل : قبل الفتحِ . ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ أي بعد الرسالةِ . أو بعد الفتحِ . ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ في الجنَّة . وقيل : بالنُّبوَّة والحكمة . وقيل : بفتحِ مكّةَ والطّائف وخيبرَ . ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ يُثَبِّتَكَ على الهُدَى . ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ غالبًا منيعًا لا يتبعُهُ ذُلٌ .

(١٦٠) سَكِينَةُ الْقُلُوبِ :

يقولُ تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح:٤)

السَّكينةُ : السُّكونُ والطُّمأنينةُ . ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ أي تصديقًا بشرائعِ الإيمانِ مع إيمانِهم ، ويقينًا مع يقينِهم . ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من الملائكةِ والجنِّ والشَّياطينِ والإنسِ . ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بأحوالِ خَلْقِهِ . ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما يُريدُهُ .

(١٦١) التَّخَلُّفُ عَنِ الْجِهَادِ :

يقولُ تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح:١٧)

قال ابنُ عباسٍ: لَمَّا نزلَتْ : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ قال أهلُ الزَّمانةِ "أصحابُ العاهاتِ" : كيف بنا يارسولَ اللهِ؟ فنزلَتْ : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ أي لا إثمَ عليهم في التخلُّفِ عن الجهادِ لِعَمَاهم وزمانتهم وضعفِهم . ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فيما أمَرَ به . ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي يُثيبُهُ بإدخالِهِ الجنَّاتِ . ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي ومن يتخلَّفْ عن الجهادِ يُعذِّبْهُ العذابَ الأليمَ .

(١٦٢) صُـلْحُ الْحُـدَيْبِيَة :

يقولُ تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح:١٨،١٩)

هذه بيعةُ الرِّضوانِ ، وكانتْ بالحُـدَيْبِيَة . أقام رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مُنصَرَفَهُ من غزوةِ بني المصطَلِقِ في شوَّالٍ ، وخرج في ذي القعدةِ مُعْتَمِرًا، واستنفَرَ العربَ الذين حولَ المدينةِ فأبطأ عنه بعضُهم ، فخرجَ بمن معهُ من المهاجرين والأنصارِ ومن اتَّبعهُ من العربِ ، وجميعُهم نحو ألفٍ وأربعمائة ، وساق معه الهَدْيَ ، فأحرمَ صلى اللهُ عليه وسلم ليعلمَ الناسُ أنه لم يخرجْ لحربٍ ، فلمّا بلغَ قريشًا خروجُهُ خرج جمعُهم صادِّين لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عن المسجدِ الحرامِ ودخولِ مكّةَ ، وأنه إنْ قاتلَهم قاتلوه ، وقدَّموا خالدًا بنَ الوليدِ في خيلٍ إلى"كُراعِ الغميمِ"وهي بين مكّةَ والمدينةِ. ولمّا علمَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بذلك سَلَكَ طريقًا يخرجُ به في ظُهُورِهـم ، وخـرجَ إلى الحُـدَيْبِيَة أسفلَ مكّةَ . وقال صلى اللهُ عليه وسلم : (لا تدْعوني قريشٌ اليومَ إلى خُطَّةٍ يسألوني فيها صِلَةَ رَحِمٍ إلاّ أعطيتُهم إيّاها) (البخارى) . وعلِمَتْ قريشٌ بوصولِه.ثم جرَتْ السُّفراءُ بينه وبين قريشٍ ، واتَّفقوا على أنْ ينصرفَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عامَهُ ذلك ، على أنْ يأتيَ العامَ التالي مُعْتَمِرًا هو وأصحابُه مكّةَ بغيرِ سلاحٍ ، ماعدا السيوفَ في قُرَبِها ، فيقيمَ بها ثلاثًا ويخرُجَ ، وعلى أنْ يكونَ بينهم صُلْحٌ عشرةَ أعوامٍ يتداخلُ الناسُ فيها ويأمنُ بعضُهم بعضًا. وعلى أنّ من جاءَ من الكفارِ مسلمًا رُدَّ إلى الكفارِ، ومن جاءَ من المسلمين إلى الكفارِ مُرْتَدًّا لم يرُدُّوه إلى المسلمين، فعظُمَ ذلك على المسلمين ، فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لَهم:(اصبروا فإنّ اللهَ يجعلُ هذا الصُّلحَ سببًا إلى ظهورِ دينه) (البخارى) فأنسَ الناسُ إلى قوله. وأتى أبو جَندلِ بنُ سهيلٍ يومئذٍ بعد كتابِ الصلحِ يرسفُ في قيوده ، فردَّه صلى اللهُ عليه

وسلم إلى أبيه ، فعظُمَ ذلك على المسلمين ، فأخبرَهم وأخبرَ أبا جَندلٍ (أنّ اللهَ سيجعلُ له فرَجًا ومخرَجًا) (البخارى) وكان صلى اللهُ عليه وسلم قبل الصلحِ قد بَعَثَ عثمانَ بنَ عفانَ إلى مكّةَ رسولاً، فجاءَ خبرٌ بأنّ أهلَ مكّةَ قتلوه ، فدعا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حينئذٍ إلى المبايعةِ على الحربِ والقتالِ لأهلِ مكّةَ ، ورُوِيَ أنه بايعَهم على الموْتِ وعلى ألاّ يفرُّوا. وهي بَيْعَةُ الرِّضوانِ تحت الشَّجرةِ ، التي أخبرَ اللهُ تعالى أنه رضِيَ عن المبايعين لرسولِه تحتَها، وأخْبَرَ تعالى أنّهم لا يدخلـــون النارَ . ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدقِ والوفاءِ . ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾حتى بايعوا . ﴿ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ فتحَ خيبرَ. وقيل: فتحَ مكّةَ . ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ أموالَ خَيْبَرَ ، ومغانمَ فارسَ والرُّومِ .

(١٦٣) مَنْعُ السُّخْرِيَةِ مِنَ الآخَرِينَ : (مِنْ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ)

يـــقـــولُ تـــعـــالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الحجرات:١١) .

قيل : نزلتْ في ثابتِ بنِ قيسٍ ، حين طلبَ من رجلٍ أنْ يُفسِحَ له في مجلسِ النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم في المسجدِ ، فلمّا لم يُفسِحِ الرجلُ له عَيَّرَهُ بأُمِّه في الجاهليةِ فاستحيا الرجلُ ، فنزلتْ . وقيل : نزلتْ في وفدِ بني تميمٍ ، استهزءوا بفقراءِ الصحابةِ ، لما رأوْا من رَثَاثَةِ حالِهم ، فنزلتْ في الذين آمنوا منهم . وقال ابنُ زيدٍ : لايسخرْ مَنْ سَتَرَ اللهُ عليه ذنوبَهُ ممن كشفَهُ اللهُ ، فلعلَّ إظهارَ ذنوبِه في الدنيا خيرٌ له في الآخرةِ . وقيل : نزلتْ في عِكْرِمةَ بنِ أبي جهلٍ حين قَدِمَ إلى المدينةِ مسلمًا ، وكان بعضُ المسلمين إذا رأوْهُ قالوا ابنُ فرعونَ هذه الأُمَّةِ ، فشكا ذلك لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فنزلتْ . وعمومًا يجبُ ألاّ يستهزئَ أحدٌ من أحدٍ إذا رآهُ رَثَّ

الحالِ أو ذا عاهةٍ أو غيرَ لبيقٍ " لَبِقٍ " في الحديثِ ، فلعلَّهُ أخلَصُ ضميرًا ، وأنقَى قلبًا ممن هو على غيرِ صفته ، فيظلمُ نفسَهُ بتحقيرِ مَنْ وقَّرَهُ اللهُ ، والاستهزاءِ بمن عظَّمَهُ اللهُ . ولقد بلغَ بالسَّلَفِ إفراطُ حرصِهم وتوقِّيهم ، من ذلك أنّ عمرو بنَ شَرَحْبيلَ قال : لو رأيتُ رجلاً يَرضَعُ عَنْزًا فضحكتُ لخشيتُ أنْ أصنعَ مثلَ الذي صَنَعَ . وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ : البلاءُ مُوَكَّلٌ بالقولِ ، لو سخَرتُ من كلبٍ لخشيتُ أنْ أُحَوَّلَ كلبًا . وأفردَ اللهُ النساءَ بالذِّكْرِ لأنّ السُّخريةَ منهنّ أكثرُ . وقال المفسِّرون : نزلتْ في امرأتين من أزواجِ النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، سخِرَتا من أمِّ سَلَمةَ إذ قالتْ عائشةُ لحفصةَ : انظري ! ما تجرُّ خلفَها كأنه لسانُ كلبٍ . وقيل : نزلتْ في عائشةَ : أشارتْ إلى أمِّ سَلَمَةَ وقالتْ : يانبيَّ الله ، إنّها لقصيرةٌ . فقال : (لقد مَزَجتِ بكلمةٍ لو مُزِجَ بِها البحرُ لَمُزِجَ) (الترمذى) . وعن ابنِ عباسٍ : إنّ صفيةَ بنتَ أخطبٍ قالتْ : يارسولَ الله ، إنّ النساءَ يُعيِّرْنني ويَقُلْنَ لي يايهوديةُ بنتَ يهوديين ! فقال لَها رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (هَلاّ قُلْتِ إنّ أبي هارونُ وإنّ عمِّي موسى وإنّ زوجي محمدٌ) (البخارى) . وعن أبي هريرةَ قالَ قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ اللهَ لا ينظرُ إلى صُوَرِكم وأموالكم ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم) (مسلم) . ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ اللمزُ : العَيْبُ ، واللمزُ يكونُ باليدِ والعينِ واللسانِ والإشارةِ . والهمزُ لا يكونُ إلاّ باللسانِ . والمعنى لايَعِبْ بعضُكم بعضًا . وقال صلى اللهُ عليه وسلم : (يُبصِرُ أحدُكم القَذَاةَ " ما يقعُ في العينِ والماءِ من ترابٍ او تِبنٍ او وَسَخٍ " في عينِ أخيه ويَدَعُ الجِذْعَ في عينِه) (البخارى). ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ النَّبزُ : اللقبُ . وقال ابنُ عباسٍ : التنابزُ بالألقابِ أنْ يكونَ الرجلُ قد عملَ السيِّئاتِ ثم تابَ ، فنَهَى اللهُ أنْ يُعَيَّرَ بما سَلَفَ . وقال صلى اللهُ عليه وسلم : (مَنْ عَيَّرَ مؤمنًا بذنبٍ تابَ منه حقًّا على اللهِ أنْ يبتليَهُ به ويفضحَهُ في الدنيا والآخرةِ) (البخارى) . وتدعو الآيةُ إلى منعِ تلقيبِ الإنسانِ بما يكرهُ ، ويجوزُ تلقيبُهُ بما يُحبُّ ، وقد لَقَّبَ النَّبيُّ

صلى الله عليه وسلم ، أبا بكرٍ بالصدِّيقِ ، وعمرَ بالفاروقِ ، وعثمانَ بذي النُّورَين ، وخُزَيْمَةَ بذي الشَّهادتين ، وأبا هريرةَ بذي الشّمالين وبذي اليدين . ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ أي بئسَ أنْ يُسَمَّى الرجلُ كافرًا أو زانيًا بعد إسلامه وتوبته. وفي الصحيحِ :(من قال لأخيه ياكافرُ فقد باءَ بها أحدُهما إنْ كان كما قالَ وإلاّ رَجَعَتْ عليه) (مسلم) . ورُوِيَ أنّ أبا هريرةَ كان عند النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فنازعَهُ رجلٌ فقال له أبو ذرٍّ : يا ابنَ اليهوديةِ فقال صلى الله عليه وسلم : (ما ترَى هاهنا أحمرُ وأسودُ ما أنت بأفضلَ منه) (البخارى) يعني بالتقوى ، ونزلتْ هذه الآيةُ. وقال الزَّمَخْشَرْيُّ : رُوِيَ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: (من حقِّ المؤمنِ على المؤمنِ أنْ يُسَمِّيَهُ بأحبِّ أسمائه) . وسُئِلَ عبدُ الله ابنُ المباركِ عن الرجلِ يقولُ : حُميدُ الطويلُ ، وسليمانُ الأعمشُ ، وحُميدُ الأعــرجُ ، فقال : إذا أردتَ صفتَهُ ولم تُرِدْ عيبَهُ فلا بأسَ . وفي صحيحِ مسلمٍ عن عبدِ الله ابنِ سَرْجِس قال : رأيتُ الأصلَعَ – يعني عمرَ – يُقبِّلُ الحجرَ . ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ عن الألقابِ التي يتأذَّى بها السَّامعون . ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ لأنفسِهم بارتكابِ هذه المناهي .

(١٦٤) سُــوءُ الظَّــنِّ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾

(الحجرات:١٢)

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا سافرَ ضمَّ الرجلَ المحتاجَ إلى الرجلين الموسرَين فيخدمُهما. ضمَّ سلمانَ إلى رجلين ، فتقدَّمَ سلمانُ إلى المنزل فغلَبَتْهُ عيناهُ فنامَ ولم يُهَيِّئْ لهما شيئًا ، فجاءا فلم يجدا طعامًا ، فقالا له: انطلِقْ فاطلُبْ لنا طعامًا

من النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم، فذهبَ فقال له النَّبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم: (اذهبْ إلى أسامةَ بنِ زيدٍ فقُلْ له إنْ كان عندك فضلٌ من طعامٍ فليُعطكَ) وكان أسامةُ خازنَ النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم، فذهبَ إليه ، فقال أسامةُ : ما عندي شيءٌ ، فرجَعَ إلى الرجلينِ فأخبرَهما ، فقالا : قد كان عنده ولكنه بَخِلَ. ثم انطلَقَا يتجسَّسَانِ هل عند أسامةَ شيءٌ، فرآهما النَّبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم فقال: (مالِي أرَى خُضْرَةَ اللحمِ في أفواهكما) فقالا: يانبيَّ اللهِ ، واللهِ ما أكلنا في يومنا هذا لحمًا ولا غيرَه . فقال : (ولكنّكما ظلتُما تأكلانِ لحمَ سلمانَ وأسامةَ) فنزلتْ هذه الآيةُ. ومعناها لا تظنُّوا بأهلِ الخيرِ سوءًا إنْ كنتم تعلمون من ظاهرِ أمرِهم الخيرَ . وفي الصحيحين عن أبي هريرةَ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال:(إيّاكم والظَّنَّ فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديثِ ولا تَحَسَّسُوا ولا تجسَّسُوا ولا تناجشوا ولا تباغَضُوا ولا تدابَرُوا وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا). وقال أيضًا: (إنَّ اللهَ حرَّمَ من المسلمِ دَمَهُ وعِرْضَهُ وأنْ يُظَنَّ به ظَنَّ السوءِ)(البخارى) . وإذا كان المظنونُ به ممن عُرِفَ بالسَّترِ والصلاحِ ، وأُونِسَتْ منه الأمانةُ في الظَّهرِ، فظنُّ الفسادِ به والخيانة مُحَرَّمٌ ، بخلافِ من اشتُهرَ بتعاطي الرِّيَبِ والمجاهرةِ بالخبائث. والتجسُّسُ هو البحثُ عمّا يُكتَمُ عنكَ . والتحسُّسُ طَلَبُ الأخبارِ والبحثُ عنها . وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم :(إنّك إنْ اتَّبعتَ عوراتِ الناسِ أفسدتَهم أو كدْتَ أنْ تُفسدَهم) (أبو داود) ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ والغيبةُ أنْ تذكرَ الرجلَ بما فيه فإنْ ذكرتَه بما ليس فيه فهو البُهتانُ . وعن أبي هريرةَ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال :(أتدرُونَ ما الغيبةُ) ؟ قالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ . قال: (ذِكْرُكَ أخاكَ بما يكرهُ) قيل : أفرأيتَ إنْ كان في أخي ما أقولُ ؟ قال : (إنْ كان فيه ما تقولُ فقد اغتبتَه وإنْ لم يكنْ فيه فقد بَهتَّه) (مسلم) والغيبةُ ذِكْرُ العيبِ بالغيبِ . وقال الحسَنُ : الغيبةُ ثلاثةُ أوجه كلُّها في كتابِ اللهِ تعالى : الغيبةُ والإفْكُ والبُهْتَانُ . فأمّا الغيبةُ فهو أنْ تقولَ في أخيكَ ما هو فيه ، وأمّا الإفكُ فأنْ تقولَ ما بلغَكَ عنه ، وأمّا البُهْتَانُ فأنْ تقولَ فيه ما ليس فيه . ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ

أن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ مَثَّلَ اللهُ الغيبةَ بأكلِ الميتة ، لأنّ الميِّتَ لا يعلمُ بأكلِ لحمه ، كما أنّ الحيَّ لا يعلمُ بغيبة من اغتابَه . وقال قتادةُ : كما يمتنعُ أحدُكم أنْ يأكلَ لحمَ أخيه ميتًا كذلك يجبُ أنْ يمتنعَ من غيبته حيًّا . وقال صلى اللهُ عليه وسلم : (ما صامَ من ظلَّ يأكلُ لحومَ الناسِ) (البخارى) وكان ميمونُ بنُ سياه لا يغتابُ أحدًا ، ولا يدَعُ أحدًا يغتابُ أحدًا عنده ، ينهاهُ فإنْ انتهى ، وإلاّ قامَ . وقالَ عمرُ : إيّاكم وذِكْرَ الناسِ فإنه داءٌ ، وعليكم بذِكْرِ اللهِ فإنه شِفاءٌ . وقيل لعمرو بنِ عُبَيد : لقد وقعَ فيك فلانٌ ، حتى رحمناكَ ، قال : إيَّاهُ فارحموا وقال رجلٌ للحَسَنِ : بلغَني أنّكَ تغتابُني ! فقال : لم يبلُغْ قَدْرُكَ عندي أنْ أُحكِّمَكَ في حَسَناتي . وقال قومٌ : لا تكونُ الغيبةُ إلاّ في الخَلْقِ والخُلُقِ والحَسَبِ ، والغيبةُ في الخَلْقِ أشَدُّ ، لأنّ من عيَّبَ صنعةً فإنّما عيَّبَ صانعَها . وقال الحَسَنُ : كفّارةُ الغيبة ، أنْ تستغفرَ لمن اغتبتَه . وليس من ذلك غيبةُ الفاسقِ المعلنِ المجاهرِ به ، فإنّ في الخبرِ : (من ألقَى جلبابَ الحياء فلا غيبةَ له) . وقال صلى اللهُ عليه وسلم :(اذكروا الفاجرَ بما فيه كي يحذرَهُ الناسُ) (مسلم). فالغيبةُ إذًا في المرءِ الذي يسترُ نفسَه. ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ فكرِهتم أنْ يغتابَكم الناسُ فاكرَهوا غيبةَ الناسِ .

(١٦٥) الأَكْرَمُ عندَ اللهِ :

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾
(الحجرات:١٣)

قيل: أمرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بني بياضةَ أنْ يُزوِّجوا امرأةً منهم أبا هند، فقالوا له : نُزوِّجُ بناتنا موالينا ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآيةَ . قال ابنُ عباسٍ: أمرَ النَّبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم بلالاً يومَ فتحِ مكّةَ فأذَّنَ على ظهرِ الكعبة، فقال عتَّابُ ابنُ أسيد: الحمدُ للهِ الذي قَبضَ أبي حتى لا يرى هذا اليومَ . قال الحارثُ بنُ هشامٍ: ما وجدَ محمدٌ غيرَ هذا الغرابِ الأسودِ مؤذِّنًا ؟ فنزلتْ هذه الآيةُ . وفي الترمذيِّ عن

ابنِ عمرانَ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم خطبَ بمكّةَ قال : (يأيّها الناسُ إنّ اللهَ قد أذهبَ عنكم عَيْبَةَ الجاهليَّة وتعاظُمَها بآبائها فالناسُ رجلان : بَرٌّ تقيٌّ كريمٌ على اللهِ وفاجرٌ شقيٌّ هيِّنٌ على اللهِ . والناسُ بنو آدمَ وخَلَقَ اللهُ آدمَ من ترابٍ) ثم قرأ هذه الآيةَ . وعن مالك الأشعريِّ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ اللهَ لا ينظرُ إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ولكنْ ينظرُ إلى قُلُوبكم فمن كان له قلبٌ صالحٌ تحنَّنَ اللهُ عليه ، وإنّما أنتم بنو آدمَ وأحبُّكم إليه أتقاكم) (مسلم) .

﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ الشعوبُ رُءوسُ القبائلِ، مثلُ الأوسِ والخزرجِ . وقيل: الشعوبُ الموالي، والقبائلُ العربُ. وقيل: الشعوبُ من لا يُعرَفُ لَهم أصلُ نسبٍ كالهندِ والتُّرْكِ ، والقبائلُ من العربِ . وعن سَمُرَةَ عن النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم قال: (الحَسَبُ المالُ والكَرَمُ التقوى) (الترمذى) وعن أبي هريرةَ عن النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ اللهَ تعالى يقولُ يومَ القيامةِ إني جعلتُ نَسَبًا وجعلتُم نَسَبًا ، فجعلتُ أكرمَكم أتقاكم وأبيتُمْ إلاّ أنْ تقولوا فلانٌ ابنُ فلانٍ ، وأنا اليومَ أرفعُ نَسَبي وأضعُ أنسابَكم ، أين المتَّقون أين المتَّقون).

(١٦٦) لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ وَلَيْسَ بَعْدَهُ شَيءٌ : (مِنْ سُورَةِ الْحَدِيدِ)

يقولُ تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(الحديد:١-٣)

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ مجَّدَ اللهَ ونزَّهَه عن السُّوءِ . ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ممن خَلَقَ من الملائكةِ ومن فيه رُوحٌ أو لا رُوحَ فيه . ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ انفردَ بذلك ، وله المُلْكُ ونفوذُ الأمرِ، وله خزائنُ المطرِ والنباتِ وسائرِ

الرزق . ﴿ تُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ يُميتُ الأحياءَ في الدنيا ويُحيي الأمـواتَ للبَعْث . ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ وقد شَرَحَها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم شَرْحًا وافيًا في قوله : (اللهم أنت الأوَّلُ فليس قبلَكَ شيءٌ وأنت الآخرُ فليس بعدك شيءٌ ، وأنت الظَّاهرُ فليس فوقَكَ شيءٌ وأنت الباطنُ فليس دونَكَ شيءٌ اقْضِ عنَّا الدَّيْنَ واغننَا من الفقرِ) (البخارى)، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ بما كان أو يكونُ فلا يَخفَى عليه شيءٌ .

ويقولُ تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحديد: ٤-٦)

يعلمُ اللهُ تعالى ما يدخلُ في الأرضِ من مطرٍ وغيرُه ، وما يخرجُ منها من أنواعِ النباتِ ، وما ينزلُ من السَّماءِ من مطرٍ ورزقٍ وما يصعدُ فيها من الملائكةِ وأعمالِ العبادِ . وهو معكم أينما كنتم بقدرتِه وسلطانِه وعلمِه ، ويُدخلُ الليلَ في النهارِ ويُدخلُ النهارَ في الليلِ ، بمعنى تعاقبِ الليلِ والنهارِ . وهو أعلمُ بما تُكِنُّه صدورُكم .

(١٦٧) ابتداعُ الرَّهْـبَانيَّة :

يقولُ تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ (الحديد: ٢٧)

﴿ قَفَّيْنَا ﴾ أي أتبَعْنا ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم ﴾ على آثارِ الذُّرِّيةِ . وقيل : على آثارِ نوحٍ وإبراهيمَ .﴿ بِرُسُلِنَا ﴾ موسى وإلياسَ وداوُدَ وسليمانَ ويونسَ وغيرِهم .﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ فهو من ذرِّيةِ إبراهيمَ من جهةِ أُمِّـه . ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ وهو الكتابُ المنزَّلُ عليه . ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ على دينِه وهم الحواريون وأتباعُهم . ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أي مودَّةً فكان يُوادُّ بعضُهم بعضًا ، وتركوا إيذاءَ الناسِ وألانَ اللهُ قلوبَهم . ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ من قِبَلِ أنفسِهم ، وذلك لأنّهم حملوا أنفسَهم على المشقَّاتِ في الامتناعِ من المطعمِ والمشربِ والنكاحِ ، وترهَّبوا وتبتَّلوا . ﴿ مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها . ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ أي ما أمرناهم إلاّ بما يُرضي اللهَ . ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ فما قاموا بها حقَّ القيامِ ، وتسبَّبُوا بالترهُّبِ إلى طلبِ الرِّياسةِ في آخرِ الأمرِ . ﴿ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ الذين ابتدعوها أوَّلاً ورَعَوْها . ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ يعني المتأخرين ، فلمّا بُعِثَ محمدٌ صلى اللهُ عليه وسلم ولم يبقَ منهم إلاّ قليلٌ ، جاءُوا من الكهوفِ والصَّوامعِ فآمنوا بمحمدٍ صلى اللهُ عليه وسلم .

(١٦٨) مَنْ جَادَلَتْ فِي زَوْجِهَا : (مِنْ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (المجادلة:١)

قيل : إنّ التي اشتكتْ إلى اللهِ هي خَوْلَةُ بنتُ ثعلبة ، وزوجُها أَوْسُ بنُ الصَّامتِ . وقد مرَّ بها عمرُ بنُ الخطابِ في خلافتِه على حمارٍ، والناسُ معه ، فاستوقفتْهُ طويلاً ووعظَتْهُ وقالتْ : يا عمرُ، قد كنتَ تُدْعَى عُمَيْرًا ، ثم قيل لك عمرُ، ثم قيل لك أميرُ

المؤمنين ، فاتَّقِ اللهَ ياعمرُ، فإنّه من أيقنَ بالموْتِ خافَ الفَوْتَ ، ومن أيقنَ بالحسابِ خافَ العذابَ ، وهو واقفٌ يسمعُ كلامَها ، فقيل له : ياأميرَ المؤمنين ، أتقفُ لِهذه العجوزِ هذا الوقوفِ ؟ فقال : واللهِ لو حبستني من أوَّلِ النهارِ إلى آخرِه لازلتُ إلاّ للصلاةِ المكتوبةِ ، أتدرونَ مَنْ هذه العجوزُ ؟ هي خَوْلَةُ بنتُ ثعلبةَ ، سمِعَ اللهُ قَوْلَها من فوقِ سبعِ سماواتٍ ، أيسمعُ ربُّ العالمين قَوْلَها ولا يسمعُهُ عمرُ ؟ وكانتْ خَوْلَةُ قد جاءتْ تشكو زوجَها فقالتْ لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : يارسولَ اللهِ ، أَكَلَ شَبابي ونثرتُ له بَطْني ، حتى إذاكَبُرَ سنِّي وانقطعَ ولدي ظاهَرَ مني ، فقال لها : (حَرُمْتِ عليه) فقالتْ: اللهم إني أشكو إليك! فما برحَتْ حتى نزلَ جبريلُ بِهذه الآيةِ

(١٦٩) الظِّهَـارُ والطَّـلاقُ :

يقولُ تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ (المجادلة:٢) .

الظِّهارُ وهو التحريمُ بأنْ يقولَ الرجلُ لامرأته أنتِ عليَّ كظهرِ أُمِّي ، وإنّما ذَكَرَ اللهُ الظَّهرَ كُنيةً عن البطنِ وسترًا . فإنْ قالَ ذلك فهو مُظاهِرٌ ، أي مُحَرِّمٌ ، وعليه الكفّارةُ، وإنْ شبَّهَها بغيرِها من ذواتِ المحارمِ التي لا تحلُّ له كالبنتِ والأختِ والعمَّةِ والخالةِ كان مُظاهِرًا عند أكثرِ الفقهاءِ ، والظِّهارُ على الرجالِ وليس على النساءِ ، أي أنَّ الرجالَ هم الذين يقولون به . وقال الشَّافعيُّ : لا ظِهارَ للمرأةِ من الرجلِ . وقال الأوزاعيُّ : إذا قالتْ المرأةُ لزوجِها : أنت عليَّ كظهرِ أُمِّي فلانةٍ فهي يمينٌ تُكفِّرُها.

وإذا قال الرجلُ لامرأته : أنتِ عليّ كظهرِ أمّي وأنتِ طالقٌ البتّة ، لزمَه الطلاقُ والظهارُ معًا ، ولم يُكَفِّرْ حتى ينكحَها بعد زوجٍ آخر ولا يطأُها إذا نكحَها حتى يُكَفِّرَ ، فإنْ قال لَها : أنتِ طالقٌ البتّةَ وأنتِ عليّ كظهرِ أمّي لزمَه الطلاقُ ولم يلزمْه الظهارُ ، لأنْ المبتوتةَ لا يلحقُها طلاقٌ . ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ﴾ مانساؤُهم بأمّهاتهم . ﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾ الوالداتُ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ فظيعًا من القولِ لا يُعْرَفُ في الشَّرعِ ، والزُّورُ الكَذِبُ . ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ إذ جعلَ الكفّارةَ عليهم مُخَلِّصَةً لَهم من هذا القولِ المنكَرِ .

الطَّلاقُ :

يقولُ اللهُ تعالى : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (البقرة:٢٢٩)

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ (البقرة:٢٣١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ (الطلاق:١)

في هذه الآيات يبيّنُ اللهُ تعالى أنّ الطلاقَ مرّتان ، ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي بأنْ يكونَ في طُهْرٍ لا تُمَسُّ فيه . ﴿ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾ أي احفظوها لتُراجعوا قبل فراغِها ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ ﴾ وأنّ للرجال أنْ يُمسِكوا أزواجَهم في بيوتِهنّ بعد الطلاقِ بأنْ يُراجعوهنّ من غيرِ ضرارٍ وَلاَ عدوان ، أو يتركوهنّ بالحسنَى .﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا ﴾ وأنه لا يحِلُّ للأزواج أنْ يستردُّوا من المهورِ شيئًا بعد الطلاق ، إلاّ إذا لم يدخلْ الزوجُ بزوجته ، فله نصفُ ما قدَّمَه من الصّداق " المهر" ، ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ وللزوجةِ إنْ أرادتْ أنْ يُطلّقَها زوجُها أنْ تفتديَ نفسَها بالمالِ ، ولا حَرَجَ على الزوجِ في أخذِ ما تفتدي به .

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٣٠)

فإن طلّقها بعد المرّتين ﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أي بعد المرّة الثالثة ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ أي تتزوّجَ زوجًا آخر زواجًا كاملاً بمعنى أنْ يطأَها ، وليس بعقدِ القرانِ فقط ، كما يفعلُ بعضُ الناسِ من بابِ التحايلِ . ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا ﴾ الزوجُ الآخرُ ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ على الزوجةِ والزوجِ الأوّلِ أنْ يتزوجا من جديدٍ .

(١٧٠) النَّجْـوَى :

يقـولُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ

وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (المجادلة:٧)

﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فلا يخفى عليه سرٌ ولا علانيةٌ .

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ﴾ النَّجوى : السِّرارُ ، وما يكونُ من خلوَة ثلاثة يُسِرُّونَ شيئًا ويتناجونَ به ، والسِّرارُ ما يكونُ بين اثنين . ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ يسمعُ ويعلمُ نجواهم ، والمعنى أنّ سَمْعَ الله مُحيطٌ بكلّ كلامٍ . ﴿ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ ﴾ والعددُ غيرُ مقصودٍ ، لأنه تعالى إنَّما قصدَ أنّه يعلمُ مع كلّ عددٍ قلَّ أو كثُرَ ، يعلمُ ما يقولون سرًّا وجهرًا ولا تخفَى عليه خافيةٌ . ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يُخبرُهم بما عملوا من حَسَنٍ وسيِّئٍ يومَ القيامةِ . وهو عليمٌ بكلّ شيءٍ .

ويقولُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (المجادلة:٨)

قال ابنُ عباسٍ : نزلتْ في اليهودِ ، والمنافقين كانوا يتناجوْنَ فيما بينهم ، وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينِهم ، وكان ذلك يسوءُ المؤمنين ويظنُّون شرًّا ، فشَكَوْا إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فنهاهم عن النَّجوى فلم ينتهوا ، فنزلتْ الآيةُ.

﴿ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ بالكَذب والظُّلمِ .﴿ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي مخالفته .

﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ المرادُ بها اليهودُ ، كانوا يأتون النَّبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم فيقولون : السَّامُ عليك ، يُريدون السلامَ ظاهرًا ، وهم يعنون الموتَ باطنًا ، فيقولُ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم : (وعليكم). وقال : (إذا سلَّمَ عليكم أهلُ الكتاب فقولوا عليكَ ما قلتَ) (الترمذي). فأنزلَ اللهُ تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ . ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ

أنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ قالوا : لـو كان محمدٌ نبيًا لعذّبَنـا الله بما نقولُ . ﴿ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ ﴾ يكفيهم جهنّمَ عقابًا لهم . ﴿ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ أي المرجِعُ.

ويقولُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ (المجادلة:٩) نَهَى اللهُ المؤمنين أنْ يتناجَوْا فيما بينهم كفعلِ المنافقين واليهودِ . ﴿ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ أي بالطّاعةِ . ﴿ وَٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ بالعفافِ عما نَهى اللهُ عنه . ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ أي تُجمَعُون في الآخرةِ .

(١٧١) الإفْسَـاحُ للآخَـرِينَ :

يـقـولُ تـعـالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ (المجادلة:١١)

أمرَ اللهُ بتحسينِ الأدبِ في مجالسةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم، حتى لا يُضيِّقوا عليه المجلسَ ، وأمر المؤمنين بالتعاطفِ حتى يُفسِحَ بعضُهم لبعضٍ ، ليتمكّنوا من سماعِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم والنَّظَرِ إليه . والآيةُ عامَّةٌ في كلِّ مجلسٍ اجتمعَ فيه المسلمون للخيرِ ، وكلُّ واحدٍ أحقُّ بمكانه الذي سَبَقَ إليه . قال صلى اللهُ عليه وسلم : (من سبقَ إلى ما لم يُسْبَقْ إليه فهو أحقُّ به) (البخارى) ولكنْ يُوَسِّعُ لأخيه مالم يتأذَّ بذلك . وروَى البخاريُّ ومسلمُ عن ابنِ عمرَ عن النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (لا يُقيمُ الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلسُ فيه) (مسلم) .
وعن جابرٍ عن النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (لا يُقيمنَّ أحدُكم أخاهُ يومَ الجمعةِ ثم يُخالفُ إلى مقعدهِ فيقعدُ فيه ولكن يقولُ افسَحُوا) (مسلم) .

وعن أبي هريرةَ عن النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : (إذا قامَ أحدُكم من مجلسه ثم رجعَ إليه فهو أحقُّ به) (مسلم) . ﴿ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ في قبوركم وفي قلوبكم ، ويُوَسِّعُ عليكم في الدنيا والآخرة . ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ إذا نوديَ للصلاة فقوموا إليها ، وإذا نوديَ للجهاد أو الحرب فانْهَضُوا . وقال ابنُ زيد : هذا في بيت النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، كان كلُّ رجلٍ يُحبُّ أنْ يكونَ آخرَ عهده بالنَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم، فقال اللهُ تعالى :﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ فلا تمكثوا. وقال قتادةُ : المعنى إذا دُعيتُمْ إلى أمرٍ بمعروف . والنَّشزُ التنحِّي عن مكانٍ . ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ في الثوابِ في الآخرةِ وفي الكرامةِ في الدنيا ، فيرفعُ المؤمنَ على من ليس بمؤمنٍ ، والعالِمَ على من ليس بعالِمٍ . وفي الصحيحِ أنّ عمرَ بنَ الخطابِ كان يُقدِّمُ عبدَ اللهِ ابنَ عباسٍ على الصحابة ، فكلَّموه في ذلك ، فدعاهم ودعاهُ ، وسألهم عن تفسيرِ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ فسكتوا ، فقال ابنُ عباسٍ : هو أجَلُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أعلَمَهُ اللهُ إيَّاهُ . فقالَ عمرُ : ما أعلمُ منها إلاّ ما تعلمُ . وقال صلى اللهُ عليه وسلم : (فضلُ العالِمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ على سائرِ الكواكبِ) (البخارى) . وقال أيضًا : (يشفعُ يومَ القيامةِ ثلاثةٌ : الأنبياءُ والعلماءُ والشهداءُ) (ابن ماجه) . وعن ابنِ عباسٍ : خُيِّرَ سليمانُ عليه السلامُ بين العِلمِ والمالِ والمُلْكِ فاختارَ العِلمَ فأُعْطِيَ المالَ والمُلْكَ معه .

(١٧٢) أَوَّلُ مَنْ سَمَّى الْجُمُعَةَ : (مِنْ سُورَةِ الْجُمُعَةِ)

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الجمعة:٩).

عن سَلْمانَ أنّ النَّبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (إنّما سُمِّيَتْ جمعةً لأنّ اللهَ جمعَ فيها خَلْقَ آدمَ) . وقيل : لأنّ اللهَ تعالى فرغَ فيها من خلْقِ كلِّ شيءٍ فاجتمعَتْ فيها المخلوقاتُ . وقيل : لاجتماعِ الناسِ فيها للصلاة . قال أبو سلمةَ : أوَّلُ من سمَّى الجمعةَ جمعةً كعبُ بنُ لُؤَيٍّ ، وهو أوَّلُ من قال " أمَّا بعد " وكان يُقالُ ليومِ الجمعةِ : العَرُوبة . وقيل : أوَّلُ من سمَّاها جمعةً الأنصارُ قبل أنْ يقــدَمَ النَّبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم المدينةَ . قالوا : تعالوْا فلنجتمعْ حتى نجعلَ يومًا لنا نذكرُ اللهَ فيه ونصلّي ونستذكرُ ، وقالوا : يومُ السَّبتِ لليهودِ ، ويومُ الأحدِ للنصارى ، فاجعلوه يومَ العَرُوبةِ ، فاجتمعوا إلى أسعدَ بنِ زُرَارَةَ " أبو أُمامةَ " فصلَّى بهم ركعتين وذكَّرَهم فسمَّوْهُ يومَ الجمعةِ حين اجتمعوا . وهذه أوَّلُ جمعةٍ في الإسلامِ . وقيل : إنّ مُصْعَبَ بنَ عُمَيْرَ كان أوَّلَ من جمَّعَ الجمعةَ في المدينةِ ويُحتمَلُ أنْ يكونَ ذلك بمعونةِ أسعدَ بنِ زُرارة . واللهُ تعالى أعلمُ . وقال أهلُ السِّيَرِ والتاريخِ : لَمّا قَدِمَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مهاجرًا نزلَ بقُبَاءَ يومَ الاثنين الثاني عَشَرَ من ربيعٍ الأوَّلِ ، ومن تلك السنةِ يُعَدُّ التاريخُ الهجريُّ . فأقامَ بقُبَاءَ إلى يــومِ الخميسِ وأسَّسَ مسجدَهم ، ثم خرجَ يومَ الجمعةِ إلى المدينةِ ، فأدركَتْهُ الجمعةُ في بطنِ وادٍ لبني سالمِ بنِ عوفٍ وقد اتَّخذَ القومُ في ذلك الموضعِ مسجدًا لَهم ، فجمَّعَ بِهم وخطَبَ ، وكانتْ أوَّلَ خطبةٍ خطبَها في المدينة .

(١٧٣) الانْفضَــاضُ إلَى اللَّهْــوِ :

يقولُ تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (الجمعة:١١)

في صحيحِ مسلمٍ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ أنّ النَّبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم كان يخطبُ قائمًا يومَ الجمعةِ ، فجاءتْ عِيرٌ " إبلٌ " من الشَّامِ فانصرفَ الناسُ إليها حتى لم يَبْقَ إلاّ اثنا عَشَرَ رجلاً فنزلتْ هذه الآيةُ . وعنه أنه قال :(والذي نفسي بيدِه لو خرجوا

جميعًا لأضْرَمَ اللهُ عليهم الواديَ نارًا)، وقيل : إنّ الذين بَقَوْا معه هم : أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ وطلحةُ والزُّبَيْرُ وسعدُ بنُ أبي وقّاصٍ وعبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ وأبو عُبَيْدَةَ بنُ الجرّاح وسعيدُ بنُ زيدٍ وبلالُ وعبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ. وفي روايةٍ أخرى: وعمّارُ بنُ ياسرٍ . وقيل : كان جابرُ معهم ، وإنْ كان عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ معهم فهم أربعةُ عشر . وكان النّبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم في ذلك الوقتِ يُصلّي الجمعةَ قبل الخطبةِ ، فقدَّمَ النّبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم الخطبةَ على الصلاةِ بعد ذلك .

(١٧٤) خَلْقُ الأَرْضِينَ وَسُكّانِها : (مِنْ سُورَةِ الطّلاَق)

يقولُ تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ (الطلاق:١٢) .

تدلُّ هذه الآيةُ على كمالِ قدرةِ اللهِ تعالى ، ولا خِلافَ في أنّ السماواتِ سبعٌ بعضُها فوق بعضٍ . وأنّه من الأرضِ مثلَهنّ أي سبعًا . وقيل : إنّها سبعُ أرَضِينَ طباقًا بعضُها فوقَ بعضٍ ، بين كلّ أرضٍ وأرضٍ مسافةٌ كما بين كلّ سماءٍ وسماءٍ . وقال الضحّاكُ : سبعًا من الأرضين ، ولكنّها مُطْبَقَةٌ بعضُها فوقَ بعضٍ من غيرِ فُتوقٍ ، بخلافِ السماواتِ . وعن سعيدِ بنِ زيدٍ قال : سمعتُ النّبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ : (من أخذَ شبرًا من الأرضِ ظُلمًا فإنّه يُطَوَّقُهُ يومَ القيامةِ من سبعِ أرَضِين) (مسلم). ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ من السماواتِ السبعِ إلى الأرَضِين السبعِ . والأمرُ هنا الوَحْيُ. وقيل : الأمرُ القضاءُ والقَدَرُ . ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قادرٌ على هذا المُلْكِ . ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ فلا يخرجُ شيءٌ عن عِلمِهِ .

(١٧٥) تَحْرِيمُ الْحَـلاَلِ : (مِنْ سُـورَةِ التَّحْـرِيمِ)

بِسْـــمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يقولُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التحريم:١)

عن عائشةَ رضي اللهُ عنها أنّ النَّبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم كان يمكثُ عند زينبَ بنتِ جحشٍ فيشربُ عندها عَسَلاً، قالتْ: فتواطأتُ أنا وحفصةُ أنّ أيَّتَنا ما دخلَ عليها رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فلتَقُلْ: إني أجدُ منكَ رِيحَ مغافيرَا " بقلةٌ او صمغةٌ متغيِّرةُ الرَّائحة " أكلتَ مغافيرًا ؟ فدخلَ على إحداهما فقالتْ له ذلك . فقال : (بل شربتُ عسلاً عند زينب بنتِ جحشٍ ولن أعودَ له)(مسلم). ودخلَ على الثانية فقالتْ نفسَ الكلامِ ، فنزلتْ هذه الآيةُ .وعن ابنِ عباسٍ عن عمرَ قال : دخلَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بأمِّ ولَدِهِ ماريةَ في بيتِ حفصةَ ، فوجدَتهُ حفصةُ معها " وكانتْ حفصةُ قد غابتْ إلى بيتِ أبيها " فقالتْ له: تُدْخِلُها بيتي؟! ما صنعتَ هذا بي من بين نسائكَ إلاّ من هواني عليكَ . فقال لَها :(لاتذكُري هذا لعائشةَ فهي عليَّ حرامٌ إنْ قَرُبْتُها) (الدارقطني) وحَلَفَ لَـها ألاّ يقربَـها. وقال لَها : (لا تذكريه لأحد) . فذَكَرَتْهُ لعائشةَ ، فآلَى لا يدخلُ على نسائهِ شهرًا ، فاعتزلَهنّ تسعًا وعشرينَ ليلةً ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ . ومالم يُحرِّمْهُ اللهُ فليس لأحدٍ أنْ يُحَرِّمَهُ . وقال أهلُ التفسيرِ: إنه لمّا نزلتْ هذه الآيةُ كَفَّرَ عن يمينِهِ بعتقِ رقبةٍ ، وعادَ إلى ماريةَ . ﴿ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ أي تفعلُ ذلك طلبًا لرضاهنّ . ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ غفورٌ لِمَا أوجَبَ المعاتبةَ ، رحيمٌ برفعِ المؤاخذةِ .

ويقولُ تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (التحريم:٢)

﴿ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ تحليلُ اليمينِ كفّارتُها . أي إذا أحببتم استباحةَ المحلوفِ عليه ، فكفّارتُهُ إطعامُ عَشرةِ مساكينَ ، ويتبيَّنُ من هذا أنّ من حرَّمَ شيئًا من المأكولِ أو المشروبِ لم يحْرُمْ عليه ، لأنّ الكفّارةَ لليمينِ لا للتحريمِ . وعن ابنِ عباسٍ : إذا حرَّمَ الرجلُ عليه امرأتَهُ ، فهي يمينٌ يُكفِّرُها . وقال : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ القدوة الحسنة . ﴿ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ وليُّكم وناصرُكم بالترخيصِ لكم في تحليلِ أيمانِكم بالكفّارةِ ، وبالثوابِ على ما تُخرجونه في الكفّارةِ .

(١٧٦) اعْـتِزَالُ الزَّوْجَـات :

يقولُ تعالى : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (التحريم:٣)

أي واذكرْ إذ أسرَّ النَّبيُّ إلى حفصةَ تحريمَ ماريةَ على نفسهِ واستكتامَهُ إيَّاها ذلك. وقال الكلبيُّ: أسرَّ إليها أنّ أباكِ وأبا عائشةَ يكونان خليفتيَّ على أُمَّتي من بعدي، فذكرتْهُ حفصةُ ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ ﴾ أي أخبرَتْ عائشةَ . أخبرَها ببعضِ ما قالتْ لعائشةَ ، وهو حديثُ أمِّ ولدِهِ ، ولم يُخبرْها ببعضٍ ، وهو قولُ حفصةَ لعائشةَ : إنّ أبا بكرٍ وعمرَ سيخلفان بعده. ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ ﴾ أي أخبرَ حفصةَ بما أظهرَهُ اللهُ عليه . ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا ﴾ فظنَّتْ أنّ عائشةَ أخبرتْهُ . ﴿ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الذي لا يخفى عليه شيءٌ .

(١٧٧) تَوْبَـةُ الزَّوْجَـتَيْن :

يقولُ تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (التحريم:٤)

المقصودُ حفصةُ وعائشةُ ، حثَّهما على التَّوبةِ على ما كان منهما . ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ زاغتْ ومالتْ عن الحقِّ ، وسرَّهما أنْ يحتبسَ عن أُمِّ ولَـده . ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ ﴾ تتعاونا عليه بالمعصيةِ والإيذاءِ . ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ ﴾ وليُّهُ وناصرُهُ . ﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أبو بكرٍ وعمرُ ، لأنَّهما أبوا عائشةَ وحفصةَ . وقيل : صالحُ المؤمنين هم الأنبياءُ . وقيل : هم الملائكةُ .وقيل : هم صحابتُهُ . وقيل : هو عليُّ بنُ أبي طالب . ﴿ ظَهِيرٌ ﴾ أي أعوانٌ .

(١٧٨) الْقَلَـمُ وَالْعَـقْلُ : (مِنْ سُـورَةِ الْقَلَمِ)

يقولُ تعالى : ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ (القلم:١-٣)

رَوَى معاويةُ بنُ قُرَّةَ عن أبيه عن النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : (ن لَوْحٌ من نورٍ) . ورَوَى ثابتُ البُنَانيُّ أنّ "ن" الدَّواةُ . وعن أبي هريرةَ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ : (أوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ القلمَ ثم خَلَقَ النُّونَ وهي الدَّواةُ ، وذلك قولُهُ تعالى ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ ﴾ ثم قـال له اكتُبْ قـال : وما أكتُبُ قال ما كانَ وما يكونُ وما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ من عـملٍ أو أجلٍ أو رزقٍ أو أثرٍ، فجَرَى القلمُ بما هو قائمٌ إلى يومِ القيامةِ . ثم خلقَ اللهُ العقلَ فقالَ الجبَّارُ ما خَلَقْتُ خَلْقًا أعجبَ إليَّ منكَ وعزَّتي وجلالي لأُكَمِّلَنَّكَ فيمن أحببتُ ولأُنقصَنَّكَ فيمن أبغضتُ) ثم قال : (أكملُ الناسِ عقلاً أطوعُهم للهِ وأعملُهم بطاعته)(الترمذى). وقيل: إنّ النُّونَ هو الحوتُ الذي عليه الأرضون . ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أي وما يكتبون . ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ وهذا هو جوابُ القَسَمِ، ردًّا على المشركين الذين اتَّهموا النَّبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم بالجنونِ . ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا ﴾ أي ثوابًا على ما تحمَّلتَ من أثقالِ النُّبوَّةِ . ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ غيرَمقطوعٍ ولا منقوصٍ . وقَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ

خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤) على دينٍ عظيمٍ ، ليس دينَ أحبَّ إلى اللهِ تعالى ولا أرضَى عنده منه . وعن أبي الدرداءِ أنَّ النَّبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (ما شيءٌ أثقلُ في الميزانِ يومَ القيامةِ من خُلُقٍ حَسَنٍ وإنَّ اللهَ لَيُبْغِضُ الفاحشَ البَذِيءَ) (الترمذى) وعن أبي هريرةَ قال: سُئِلَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عن أكثرِ ما يُدخِلُ الناسَ الجنَّةَ، فقال: (تقوى اللهِ وحُسْنُ الخُلُقِ)، وسُئِلَ عن أكثرِ ما يُدخِلُ الناسَ النَّارَ ، فقال : (الفَمُ والفَرْجُ) (الترمذى وقال هذا حديث حسن غريب) . وقال أيضًا : (إنَّ من أحبِّكم عليَّ وأقربِكم مني مجلسًا يومَ القيامةِ أحسنُكم أخلاقًا ، وإنَّ أبغضَكم إليَّ وأبعدَكم مني مجلسًا يومَ القيامةِ الثرثارون والمتشدِّقون والمتَفَيْهِقُونَ) قالوا : فما الْمُتَفَيْهِقُونَ ؟ قال :(المتكبِّرون)

(١٧٩) الزَّعْمُ بأنَّ القُرْآنَ سِحْرٌ : (مِنْ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ)

يقولُ تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ (المدثر:١٨-٢٥)

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ يعني الوليدَ فكَّرَ في شأنِ النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم والقرآنِ، وقَدَّرَ أي هيَّأَ الكلامَ في نفسِهِ . سمعَهُ الوليدُ يقرأُ القرآنَ فقال : واللهِ لقد سمعتُ منه كلامًا ما هو بكلامِ الإنسِ ولا من كلامِ الجنِّ ، وإنَّ له لَحلاوةً وإنَّ عليه لَطَلاوةً ، وإنَّ أعلاهُ لَمُثْمِرٌ ، وإنَّ أسفلَهُ لَمُغْدِقٌ ، وإنَّه لَيعلو ولا يُعْلَى عليه . وما هو بقولِ بَشَرٍ . فقالتْ قريشٌ : صَبَا الوليدُ ، لَتَصْبُوَنَّ قريشٌ كلُّها . وكان يُقالُ للوليدِ: ريحانةُ قريشٍ ، فمضى إليه أبو جهلٍ حزينًا . فقال له : مالي أراكَ حزينًا ؟ فقال : ومالي لا أحزَنُ وهذه قريشٌ يجمعون لك نفقةً يُعينونك بها على كِبَرِ سِنِّكَ ، ويزعمون أنَّك زَيَّنْتَ كلامَ محمدٍ ، وتدخلُ على ابنِ أبي كبشةَ وابنِ أبي قُحافةَ لتنالَ

من فضلِ طعامِهما ، فغضِبَ الوليدُ وتكبَّرَ ، وقال : أنتم تعرفون قَدْرَ مالي ، واللاتِ والعُزَّى ما بي حاجةٌ لذلك ، وأما أنتم تزعمون أنّ محمدًا مجنون ، فهل رأيتموه يخْنُقُ؟ وتزعمون أنه شاعرٌ ، فهل رأيتُموه نَطَقَ بشعرٍ ؟ وتزعمون أنّه كذّابٌ فهل جرَّبتم عليه كذبًا قطُّ ؟ وتزعمون أنه كاهنٌ فهل رأيتموه تكهَّنَ قطُّ ؟ وكانوا يقولون عند كلِّ سؤالٍ : لا واللهِ . فقالتْ قريشٌ للوليدِ : فما هو ؟ ففكَّرَ في نفسه ثم نظَرَ ، ثم عَبَسَ ، فقال : ما هو إلاّ ساحرٌ . ﴿ فَقُتِلَ ﴾ لُعِنَ . ﴿ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ أي على أيِّ حالٍ قَدَّرَ . ﴿ ثُمَّ قُتِلَ ﴾ لُعِنَ لَعْنًا بعد لَعْنٍ . ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ بأيِّ شيءٍ يردُّ الحقَّ . ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أي قَطَّبَ جبينَه عندما مرَّ بجماعةٍ من المسلمين ، فدعَوْهُ إلى الإســـلامِ ، فعبَسَ في وجوهِهم . ﴿ وَبَسَرَ ﴾ كَلَحَ وجهُهُ وتغيَّرَ لونُهُ .﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ وَلّى وأعرَضَ . ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ تَعظَّمَ عن أنْ يُؤمنَ . ﴿ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ ما هذا إلاّ سِحْرٌ يُؤثَرُ ، أي يَنْقُلُهُ خَلَفٌ عن سَلَفٍ . ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ من كلامِ الناسِ .

(١٨٠) إِنْبَاءُ الإِنْسَانِ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ : (مِن سُـــورَةِ الْقِيَـــامَةِ)

يقولُ تعالى : ﴿ يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ (القيامة:١٣) يُخبَرُ بنُ آدمَ بما أسلَفَ من عمَلٍ سيِّئٍ أو صالحٍ ، أو أخَّرَ من سُنَّةٍ سيِّئةٍ أو صالحةٍ يُعْمَلُ بها بعده . وقيل : بما قدَّمَ من المعصيةِ وأخَّرَ من الطّاعةِ . وعن أنسِ بنِ مالكٍ، أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (سبعٌ يجري أجرُهُنَّ للعبدِ بعد موْتِه وهو في قبرِه:من علَّمَ علمًا أو أجرَى نَهرًا أو حفرَ بئرًا أو غرسَ نخلاً أو بنى مسجدًا أو ورَّثَ مُصْحَفًا أو تَرَكَ وَلَدًا يستغفرُ له بعد موْتِه)(البخارى) .

(١٨١) الاعْتِـــذَارُ بَعْــدَ الإقْــرَارِ :

قوْلُهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ (القيامة:١٥) معناه لو اعتذرَ بعد الإقرارِ لم يُقبلْ منه . وقال الشَّافعيُّ وأبو حنيفةَ ومالكُ : يُقبَلُ رجوعُه بعد الإقرارِ . والصحيحُ جوازُ الرجوعِ مطلقًا . وفي قولِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ للمُقِرِّ بالزِّنَى : (لعلَّكَ قَبَّلْتَ أو غَمَزْتَ أو نظرت) (البخارى) إشارةٌ لقولِ مالكٍ : إنه يُقبَلُ رجوعُه إذا ذَكَرَ وجهًا .

(١٨٢) الْوَفَــاءُ بِالنَّــذْرِ : (مِنْ سُــورَةِ الإنْسَــانِ)

يقولُ تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (الإنسان:٧-٩)

﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ﴾ لا يُخلِفون إذا نذروا للهِ من الواجباتِ .﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا ﴾ يومَ القيامةِ . ﴿ كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ وقال مقاتلٌ : كان شرُّهُ فاشيًا في السمواتِ فانشقَّتْ ، وتناثرَتْ الكواكبُ، وفي الأرضِ نُسِفَتْ الجبالُ وغارتْ المياه . ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾. على قِلَّتِهِ وحبِّهم له . وكــان الربيــعُ ابنُ خيثمَ إذا جــاءهُ سائــلٌ قال : أطعمــوهُ سُكَّرًا فإنَّ الربيــعَ يُحِبُّ السُّكَّرَ . ﴿ مِسْكِينًا ﴾ فقــيرًا ذا مسكنةٍ . ﴿ وَيَتِيمًا ﴾ من يتامى المسلمين ، واليتيمُ من لا أبَ له . ﴿ وَأَسِيرًا ﴾ الذي يُؤسَرُ ويُحبَسُ . ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ طَمَعًا في ثوابِه . ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ أي مكافأةً ولا ثناءً .

(١٨٣) فِي عِتَابِ اللهِ لِرَسُولِهِ : (مِنْ سُورَةِ عَبَسَ)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ (عبس: ١-١٦)

﴿ عَبَسَ ﴾ كَلَحَ بوجهِهِ . ﴿ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ أعرضَ بوجهِهِ . ﴿ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ عبدُ اللهِ ابنُ أُمِّ مكتومٍ ، وقد جاء يسألُ النَّبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم أنْ يُعلِّمَهُ شيئًا ، وكان عليه الصلاةُ والسلامُ يتناقشُ مع بعضِ أشرافِ قريشٍ طمعًا في إسلامِهم ، فكرِهَ النَّبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم أنْ يُقاطِعَهُ عبدُ اللهِ ، فنزلتْ هذه الآيةُ ، وهي عتابٌ من اللهِ تعالى لرسولِهِ صلى اللهُ عليه وسلم وتولِّيه عن عبدِ اللهِ ، فكان النَّبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم بعد ذلك إذا رأى عبدَ اللهِ يبسطُ له رداءَهُ ويقولُ :(مرحبًا بمن عاتبَني فيه ربِّي)(البخارى). ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ لعلَّهُ يزدادُ طهارةً في دينه . ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ يتَّعظُ بما تقولُ . ﴿ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ العظةُ . ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴾ أي كان ذا ثروةٍ وغِنًى . ﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ تُصغي لكلامِه . ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ لا يهتدي ولا يُؤمنُ . ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴾ يطلبُ العلمَ للهِ . ﴿ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ يخافُ اللهَ . ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ تُعرِضُ عنه وتُشغَلُ بغيرِه . ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ "كلاَّ " كلمةُ ردْعٍ وزجرٍ أي لا تفعلْ بعد ذلك مثلَها . ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ اتَّعظَ بالقرآنِ . ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ عند اللهِ لما فيها من العلمِ والحِكَمِ . ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ في الذِّكْرِ والقَدْرِ . ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ من الدَّنَسِ ، مُصانةٍ من أنْ ينالَها الكفَّارُ .﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴾ الملائكةِ الذين جعلَهم

اللهُ سُفَراءَ . وهم الكرامُ الكاتبون لأعمالِ العبادِ في الأسفارِ التي هي الكتبُ . ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ كرامٍ على ربِّهم مطيعين لله .

(١٨٤) غِشُّ التُّجَّارِ : (مِنْ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ)

يقولُ تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (المطففين:١-٣)

عن ابنِ عباسٍ قال : لمّا قَدِمَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم المدينةَ كان أهلُها من أخبث الناسِ كيلاً ، إذا اشتروْا استوفوا ، وإذا باعوا بخسوا المكيالَ والميزانَ . فأنزل اللهُ ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فأحسنوا الكيلَ وأصبحوا من أوفى الناسِ كيلاً إلى يومِهم هذا . كان ابنُ عمرَ يمرُّ بالبائعِ فيقولُ : اتَّقِ اللهَ وأوفِ الكيلَ والوزنَ بالقسطِ ، فإنّ المطفّفينَ يومَ القيامةِ يوقَفُون حتى إنّ العَرَقَ لَيَلْجِمُهم إلى أنصافِ آذانِهم .

(١٨٥) اطْمِئْنَانُ النَّفْسِ عِنْدَ الْمَوْتِ : (مِنْ سُورَةِ الْفَجْرِ)

يقولُ تعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ (الفجر:٢٧-٣٠)

النفسُ المطمئنةُ : السَّاكنةُ الموقنةُ المطمئنةُ بذكْرِ اللهِ وثوابِه الراضيةُ بقضائه . سمع أبو بكرٍ هذه الآيةَ فقال : ما أحسَنَ هذا يارسولَ اللهِ ! فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (إنّ المَلَكَ سيقولُها لك يا أبا بكرٍ) (البخارى). وقال سعيدٌ ابنُ جُبَيرٍ : مات ابنُ عباسٍ بالطَّائف ، فجاءَ طائرٌ لم يُرَ على خِلقَتِه طائرٌ قطُّ ، فدخلَ نَعْشَهُ ، ثم لم يُرَ خارجًا منه ، فلمّا دُفِنَ تُلِيَتْ هذه الآيةُ على شفيرِ القبرِ ، ولا يُدْرَى من تلاها . ﴿ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ أي إلى صاحبِكِ وجسدِكِ . ويأمرُ اللهُ الأرواحَ غدًا أنْ ترجِعَ إلى الأجسادِ . وقال الحَسَنُ : ارجعي إلى ثوابِ ربِّكِ وكرامتِه . ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ في أجسادِ عبادِي الصالحين . ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ معهم .

(١٨٦) الْبِرُّ وَالْحَـــدِيثُ بِالنِّعْــمَةِ : (مِنْ سُــورَةِ الضُّـــحَى)

يقولُ تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى:٩-١١)

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ لا تُسَلِّطْ عليه بالظُّلمِ ، وادفَعْ إليه حقَّه . وشكى رجلٌ قسوةَ قلبِه إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال له : (إنْ أردتَ أنْ يلينَ ، فامسحْ رأسَ اليتيمِ ، وأطعِم المسكينَ) (البخارى). وقال أيضًا : (أنا وكافلُ اليتيمِ له أو لغيرِه كهاتين) وأشارَ بالسَّبَّابةِ والوسطى (الترمذى). وعن ابنِ عمرَ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : (إنّ اليتيمَ إذا بكى اهتزَّ لبكائه عرشُ الرحمنِ ، فيقولُ اللهُ تعالى لملائكته : ياملائكتي ، من ذا الذي أبكى هذا اليتيمَ الذي غيَّبتُ أباهُ في التراب ، فتقولُ الملائكةُ : ربَّنا أنت أعلمُ ، فيقولُ اللهُ تعالى لملائكته : يا ملائكتي ، اشهدوا أنّ من أسكتَهُ وأرضاهُ أنْ أُرضيَهُ يومَ القيامة) (البخارى). وعن أنسٍ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : (من ضمَّ يتيمًا فكان في نفقـــته ، وكفـــاهُ مئونتَهُ ، كان له حجابًا من النارِ يومَ القيامةِ ، ومن مسحَ برأسِ يتيمٍ كان له بكلِّ شعرةٍ حَسَنَةٌ) (البخارى). وقيل: الأذلاَّءُ أربعةٌ: النمَّامُ والكذَّابُ والمديـــونُ واليتيـــمُ.

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ لا تزجرْهُ ولكن رُدَّهُ ببذلٍ يســيرٍ أو ردٍّ جميــلٍ ، واذكُرْ فقرَكَ . ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ انشُرْ ما أنعَمَ اللهُ به عليك ، وقال صلى اللهُ عليه وسلم : (من أُعطِيَ خيرًا فلم يُرَ عليه ، سُمِّيَ بغيضَ اللهِ معاديًا لنعمه) ، وقال أيضًا :(من لم يشكرِ القليلَ ، لم يشكرِ الكثيرَ ، ومن لم يشكرِ الناسَ ، لم يشكرِ اللهَ ، والتحدُّثُ بالنِّعمِ شكرٌ ، وتركُهُ كُفْرٌ ، والجماعةُ رحمةٌ ، والفُرقةُ عذابٌ) (البخارى) .

obeikandl.com

(١٨٧) الْعُسْـــرُ وَالْيُسْـــرُ : (مِنْ سُـــورَةِ الشَّـــرْحِ)

يقولُ تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح:٥-٦)

أي إنّ مع الضيقةِ والشِّدَّة يسرًا ، أي سِعَةً وغِنًى ، وتكرارُ الآيةِ تأكيدٌ للكلامِ . وعن ابنِ عباسٍ : يقولُ اللهُ تعالى خَلَقْتُ عُسرًا واحدًا ، وخَلَقْتُ يُسْرَيْن ، ولنْ يغلبَ عسرٌ يُسْرَيْن . وهذا وعدٌ لجميعِ المؤمنين ، لا يخرجُ منه أحدٌ ، أي إنّ مع العُسرِ في الدنيا للمؤمنين يُسْرًا في الآخرةِ لا محالةَ ، وربَّما اجتمع يُسرُ الدنيا ويُسرُ الآخرةِ . ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ (الشرح:٧،٨)

فإذا فرغتَ من صلاتِك فانصَبْ ، أي بالِغْ في الدعاءِ وسَلِ اللهَ حاجتَك واستغفِرْ لذنبِك وللمؤمنين والمؤمناتِ .

(١٨٨) حُسْـــنُ خَـــلْقِ الإِنْسَـــانِ : (من سُـــورَةِ التِّـــينِ)

يقولُ تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ (التين:٤،٥)

هذا جوابُ القَسَمِ ، وأرادَ بالإنسانِ: الكافرَ ، وقيل : هو الوليدُ بنُ المغيرةِ . وقيل : المرادُ بالإنسانِ آدمُ وذرِّيتُهُ . ﴿ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ وهو اعتدالُه واستواءُ شبابِه ، وهو أحسنُ ما يكونُ . وقال ابنُ العربيِّ : ليس لله تعالى خَلْقٌ أحسَنُ من الإنسانِ . فإنّ اللهَ خَلَقَهُ حيًّا عالمًا ، قادرًا متكلِّمًا مُريدًا ، سميعًا بصيرًا ، مُدبِّرًا حكيمًا .﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ أي إلى أرذلِ العمرِ ، وهو الهَرَمُ بعد الشبابِ ، والضعفُ بعد القوَّةِ . وقيل : أسفلَ سافلين في النارِ للكافرِ .﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فإنه تُكتَبُ لَهم حسناتُهم وتُمْحَى عنهم سيِّئاتُهم . ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ غيرُ مقطوعٍ .

(١٨٩) خَلْقُ الإِنْسَانِ ونِعْمَةُ تَعْلِيمِهِ بِالْقَلَمِ : (مِنْ سُورَةِ الْعَلَقِ)

يقولُ تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(العلق: ١-٥)

هذه السورةُ أوَّلُ ما نزل من القرآنِ ، نزل بها جبريلُ على النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم في غارِ حراءٍ ، وقال له : إنّك نبيُّ اللهِ . فرجع إلى خديجةَ رضي اللهُ عنها وقال (دثّروني وصبُّوا عليَّ ماءً باردًا)، فنزلَ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ (المدثر:١). ومعنى ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ اي اقرأ ما أُنزِلَ عليكَ من القرآنِ مفتتحًا باسمِ ربِّك . ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ابنَ آدمَ خلقه من دمٍ ، والعلقةُ الدَّمُ الجامدُ . ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ أي الكريمُ الذي سيُعينُك على القراءةِ ، وإنْ كنتَ غيرَ قارئٍ . ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ علَّمَه الخطَّ والكتابةَ بالقلمِ . وقال علماؤُنا : الأقلامُ ثلاثةٌ : الأوَّلُ الذي خَلَقَهُ اللهُ بيده ، وأمرهُ أنْ يكتبَ . والقلمُ الثاني ، أقلامُ الملائكةِ يكتبون بها المقاديرَ والكوائنَ والأعمالَ . والقلمُ الثالثُ أقلامُ الناسِ ، يكتبون بها كلامَهم ، ويصلون بها مآربَهم . ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ الإنسانُ هنا هو آدمُ عليه السلامُ ، علَّمه اللهُ أسماءَ كلِّ شيءٍ ، وقامت حُجَّةُ اللهِ على الملائكةِ وحجَّتُه ، ثم توارثتْ ذلك ذرِّيتُه خلفًا بعد سَلَفٍ . وقيل : إنّ الإنسانَ هنا الرسولُ محمدٌ صلى اللهُ عليه وسلم .

(١٩٠) نَعِيمُ الشِّبَعِ بَعْدَ الْجُوعِ : (مِنْ سُورَةِ التَّكَاثُرِ)

يقولُ تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (التكاثر:٨)

عن أبي هريرةَ قال : خرج رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يومًا ، فإذا هو بأبي بكرٍ وعمرَ ، فقال : ما أخرجَكما من بيوتكما هذه السَّاعةَ ؟ قالا : الجوعُ يارسولَ اللهِ . قال : (وأنا والذي نفسي بيدِه لأَخرجَني الذي أخرجَكما ، قوما) فقاما معه ، فأتى رجلاً من الأنصارِ ، فإذا هو ليس في بيتِه . فلمّا رأته المرأةُ قالتْ : مرحبًا وأهلاً ، فقال لَها رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم (أين فلانٌ) ؟ قالتْ : يستعذبُ لنا من الماءِ ، ثم جاءَ الأنصاريُّ فرأى النَّبيَّ وصاحبيه ، فقال : الحمدُ للهِ ! ما أحدٌ اليومَ أكرمُ أضيافًا مني ، فانطلقَ بشيءٍ فيه بُسرٌ وتمرٌ ورُطبٌ ، وقال : كلوا من هذه . وأخذ المديةَ فذبحَ لَهم ، فأكلوا وشربوا ، فلما شبِعُوا وروُوا قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لصاحبيه :(والذي نفسي بيدِه لَتُسأَلُنَّ يومَئذٍ عن نَعيمِ هذا اليومِ ، يومَ القيامةِ ، أخرجكم من بيوتِكم الجوعُ ثم لم ترجِعوا حتى أصابَكم هذا النَّعيمُ) (مسلم) .

(١٩١) الْوَحْدَانِيَّةُ : (مِنْ سُورَةِ الإِخْلاَصِ)

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص:١-٤)

أي الواحدُ الوِتْرُ ، الذي لا شبيهَ له ، ولا نظيرَ ولا صاحبةَ ، ولا وَلَدَ ولا شريكَ . هو الصَّمَدُ الذي يُصْمَدُ إليه في الحاجات ، الدَّائمُ الباقي ، الذي لا يلِدُ ولا يُولَدُ . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ لم يكنْ له شبيهٌ وليس كمثلِهِ شيءٌ .

(تَمَّ بِحَمْدِ الله)

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة
مقدمة التيسير	٥
١- تلاوة القرآن الكريم	١١
٢- نزول القرآن على سبعة أحرف	١٢
٣- جمع القرآن	١٤
٤- ترتيب سور القرآن	١٥
٥- السورة والآية والكلمة والحرف	١٧
٦- كلمات غير عربية في القرآن.....	١٨
٧- إعجاز القرآن	١٩
٨- فضل سور القرآن	٢٤
٩- الرد على من طعن في القرآن	٢٥
١٠- «البقرة» الإمامة والحكم	٢٦
١١- الزكاة	٢٧
١٢- الروح	٢٨
١٣- السحر	٢٨
١٤- الأفعال المكتسبة	٣٢
١٥- الأمة الوسط	٣٣

obeikandl.com

١٦- القتـل ٣٣
١٧- القصـاص ٣٥
١٨- الوصـية ٣٥
١٩- الصـوم ٣٩
٢٠- الجمع بين الدين والدنيا ٤٠
٢١- البرّ الكاذب ٤٦
٢٢- الإذن بقتال المعتدين ٤٧
٢٣- الحـج والعـمرة ٤٨
٢٤- كان الناس أمة واحدة..... ٥٠
٢٥- الإثم والنفع ٥١
٢٦- الصـلاة ٥٣
٢٧- لا إكراه في الدين ٥٧
٢٨- الشّـك والإيمان ٥٧
٢٩- الحـكمة ٥٩
٣٠- إخفاء الصـدقة ٦٠
٣١- الرّبا ٦١
٣٢- «آل عمران» مريم ٦٨
٣٣- المسيح ٧١
٣٤- دعوة أهل الكتاب ٧٢
٣٥- الجدال لمن لا علم له ٧٣
٣٦- التآلف والاختلاف ٧٤

obeikandi.com

٣٧- التّوكّل ٧٦
٣٨- موت محمد ٧٦
٣٩- لو كنت فظًّا ٧٨
٤٠- الفكر والتفكير ٨٠
٤١- الميراث ٨٢
٤٢- التجارة ٨٤
٤٣- من يقتل نفسه ٨٦
٤٤- الكبائر والصغائر ٨٦
٤٥- تفضيل الرجال على النساء ٨٧
٤٦- الإصلاح بين الزوجين ٩١
٤٧- الأعمال الصالحة ٩١
٤٨- الجار ٩٣
٤٩- العبد والحر ٩٦
٥٠- السكارى ٩٧
٥١- الحذر والقدر ٩٩
٥٢ - الصلح على الإمساك ٩٩
٥٣- الفراق للسّعة ١٠١
٥٤- السرقة ١٠١
٥٥- الرّجم «من سورة المائدة» ١٠٧
٥٦- رشوة الحاكم ١٠٩
٥٧- الحكم لغير المسلمين ١١٠

obeikandl.com

٥٨- منع الحرمان ١١١
٥٩- الخمر ١١٤
٦٠- «الأنعام» ادّعاء الوحي ١١٧
٦١- معرفة الرأي المخالف ١١٩
٦٢- قتل البنات ١١٩
٦٣- الزينة والمأكل والمشرب «من سورة الأعراف» ١٢٠
٦٤- تحريم ما أحل الله ١٢٤
٦٥- الفواحش ١٢٧
٦٦- الأجل ١٢٧
٦٧- النوم قبل المعركة (من سورة الأنفال) ١٢٨
٦٨- رباط الخيل ١٣٠
٦٩- السَّلم ١٣١
٧٠- الخداع والغدر ١٣٣
٧١- المسجد الحرام (من سورة التوبة) ١٣٤
٧٢- حق الفقراء والمساكين ١٣٥
٧٣- الغلظة مع المنافقين ١٣٨
٧٤- التوبة ١٣٩
٧٥- الصدقة ١٤٠
٧٦- الرزق ١٤٢
٧٧- الأراذل ١٤٤
٧٨- شهادة الزور (من سورة يوسف) ١٤٤

obeikandl.com

٧٩- النظر إلى الكون (من سورة الرعد) ١٤٦
٨٠- الحدوث والمُحْدِث ١٤٧
٨١- الوفاء بعهد الله ١٤٨
٨٢- صلح الحديبية ١٤٩
٨٣- الأزواج والذرية ١٥١
٨٤- السبع المثاني (من سورة الحجر) ١٥٢
٨٥- مدّ العين إلى ما للغير ١٥٣
٨٦- البحر وطعامه (من سورة النحل) ١٥٤
٨٧- دس البنت في التراب ١٥٥
٨٨- الأنعام ومما في بطونه ١٥٦
٨٩- جنس الزوجة ١٥٨
٩٠- الافتراء بتعليم النبيّ ١٥٩
٩١- الإكراه على الكفر ١٦٠
٩٢- المجادلة بالحسنى ١٦٣
٩٣- الثأر والصبر ١٦٣
٩٤- الصبر والعفو ١٦٤
٩٥- إلزام الإنسان طائره ١٦٨
٩٦-حساب الإنسان عن نفسه ١٦٨
٩٧- إرادة السبب ١٦٩
٩٨- الإحسان إلى الوالدين ١٧٠
٩٩- التسبيح ١٧٦

openkandil.com

١٠٠- الفتنة عن الحق ١٧٧
١٠١- السؤال عن الروح ١٧٩
١٠٢- العصا «من سورة طه» ١٧٩
١٠٣- التدوين للعلوم بالكتابة ١٨٠
١٠٤- النحو والمصحف ١٨١
١٠٥- بشرية الرسول «من سورة الأنبياء» ١٨٢
١٠٦- اتخاذ الصنائع والأسباب ١٨٣
١٠٧- عبادة الله على حرف (من سورة الحج) ١٨٤
١٠٨- الرسالة والإلهام «من سورة السّجدة» ١٨٥
١٠٩- خشوع الصلاة (من سورة المؤمنون) ١٨٧
١١٠- الزّنى (من سورة النور) ١٨٨
١١١- رمي المحصنات ١٩٢
١١٢- اللّعان ١٩٣
١١٣- حديث الإفك ١٩٥
١١٤- وعد الله بالخلافة ٢٠٠
١١٥- فضل الرسول بالرسالة (من سورة الفرقان) ٢٠٢
١١٦- الشعر والشعراء (من سورة الشعراء) ٢٠٢
١١٧- ضحك النّبيّ (من سورة النمل) ٢٠٤
١١٨- خلافة المرأة ٢٠٥
١١٩- الغيب ٢٠٦
١٢٠- الخِيَرَة والاستخارة (من سورة القصص) ٢٠٦

obeikandi.com

١٢١- نصيب الدنيا والآخرة ٢٠٩
١٢٢- العلم وكنوزه ٢٠٩
١٢٣- الحكمة ولقمان (من سورة لقمان)..... ٢١٠
١٢٤- غِنَى الله عن خلقه ٢١٢
١٢٥- في كلمات الله العِلم وحقائق الأشياء ٢١٣
١٢٦- مَلَكُ الموت (من سورة السجدة) ٢١٤
١٢٧- مشيئة الهداية ٢١٥
١٢٨- مسئولية الرسول عن تبليغ الرسالة (من سورة الأحزاب) ٢١٥
١٢٩- الأحزاب والخندق ٢١٦
١٣٠- تخيير زوجات النبيّ ٢٢٢
١٣١- الفاحشة من نساء النبيّ ٢٢٤
١٣٢- قرار النساء وتبرّجهنّ ٢٢٥
١٣٣- المساواة بين الرجال والنساء ٢٢٦
١٣٤- عصيان قضاء الله ٢٢٧
١٣٥- زواج مطلّقة المُتَبَنَّى ٢٢٨
١٣٦- الزوجات الحلال ٢٣١
١٣٧- الواهبات أنفسهنّ ٢٣٣
١٣٨- البدل بالزوجات ٢٣٤
١٣٩- دخول بيت النبيّ ٢٣٥
١٤٠- الحجاب ٢٣٨
١٤١- صلاة الله وملائكته على النبى ٢٣٨

١٤٢- الفنون التشكيلية ٢٤١

١٤٣- العِلم والعلماء (من سورة فاطر) ٢٤٣

١٤٤- عدم تعليمه الشعر(من سورة يس).................................... ٢٤٤

١٤٥- الفصل في القضاء ٢٤٥

١٤٦- خائنة الأعين (من سورة غافر) ٢٤٦

١٤٧- القرآن عربيّ (من سورة فصلت) ٢٤٦

١٤٨- ليس كمثله شيء (من سورة الشورى) ٢٤٧

١٤٩- المساواة في الرزق ٢٤٧

١٥٠- أمرهم شورى بينهم ٢٤٨

١٥١- مواجهة الظلم ٢٤٩

١٥٢- كلام الله بالوحي ٢٥٠

١٥٣- الإيمان قبل البعثة ٢٥١

١٥٤- إبدال حروف القرآن (من سورة الدخان) ٢٥٢

١٥٥- الشَّتم والغفران (من سورة الجاثية) ٢٥٣

١٥٦- الدهر ٢٥٤

١٥٧- التقشّف والمتع (من سورة الأحقاف).................................... ٢٥٤

١٥٨- الفتح المبين (من سورة الفتح) ٢٥٥

١٥٩- غفر الذنوب ٢٥٦

١٦٠- سكينة القلوب ٢٥٧

١٦١- التخلف عن الجهاد ٢٥٧

١٦٢- صلح الحديبية ٢٥٨

obeikandl.com

١٦٣- منع السخرية من الآخرين (من سورة الحجرات) ٢٥٩
١٦٤- سوء الظّنّ ٢٦١
١٦٥- الأكرم عند الله ٢٦٣
١٦٦- ليس قبله شيء وليس بعده شيء (من سورة الحديد) ٢٦٤
١٦٧- ابتداع الرهبانية ٢٦٥
١٦٨- مِنْ جادلت في زوجها (من سورة المجادلة) ٢٦٦
١٦٩- الظّهار والطلاق ٢٦٧
١٧٠- النّجوى ٢٦٩
١٧١- الإفساح للآخرين ٢٧١
١٧٢- أوّل من سمّى الجمعة (من سورة الجمعة) ٢٧٢
١٧٣- الانفضاض إلى اللهو..... ٢٧٣
١٧٤- خَلْقُ الأرضين وسكانُها (من سورة الطلاق) ٢٧٤
١٧٥- تحريم الحلال (من سورة التحريم) ٢٧٥
١٧٦- اعتزال الزوجات ٢٧٦
١٧٧- توبة الزوجتين ٢٧٦
١٧٨- القلم والعقل (من سورة القلم)..... ٢٧٧
١٧٩- الزّعم بأن القرآن سحر (من سورة المدثر) ٢٧٨
١٨٠- إنباء الإنسان بما قدّم وأخّر(من سورة القيامة) ٢٧٩
١٨١- الاعتذار بعد الإقرار..... ٢٨٠
١٨٢- الوفاء بالنذر (من سورة الإنسان) ٢٨٠
١٨٣- في عتاب الله لرسوله (من سورة عبس) ٢٨١

obeikandl.com

١٨٤- غش التجار (من سورة المطففين) ٢٨٢
١٨٥- اطمئنان النفس عند الموت (من سورة الفجر) ٢٨٢
١٨٦- البرّ والحديث بالنعمة (من سورة الضحى) ٢٨٣
١٨٧- العسر واليسر (من سورة الشرح)..... ٢٨٤
١٨٨- حُسْنُ خَلْقِ الإنسان (من سورة التين) ٢٨٤
١٨٩- خَلْقُ الإنسان ونعمة تعليمه بالقلم (من سور العلق) ٢٨٥
١٩٠- نعيم الشِّبَعِ بعد الجوع (من سورة التكاثر)..... ٢٨٥
١٩١- الوحدانية (من سورة الإخلاص)..... ٢٨٦
الفهرس ٢٨٧

obeikandl.com